يوسف كمال محمد

مختصر
من أنوار القرآن الكريم

الجزء الأول

من الفاتحة حتى الحجر



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ القُرْآنَ ولَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً﴾

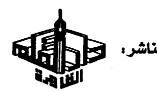
[سورة النساء آية ٨٢]

مختصر
من أنوار القرآن الكريم

جميع الحقوق محفوظة

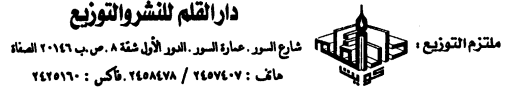
الطبعة الأولى
١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

الناشر:



دار القلم للنشر والتوزيع
٣٦ شارع القصر العيني - ص . ب : ٦٥ مجلس الشعب - القاهرة
تليفاكس / ٧٩٥١١٠٥ - محمول : ٠١٠١٤٦٩٠٤٥

ملتزم التوزيع:



دار القلم للنشر والتوزيع
شارع السور . عمارة السور . الدور الأول شقة ٨ . ص.ب ٢٠١٤٦ الصفاة
هاتف : ٢٤٥٧٤٠٧ / ٢٤٥٨٤٧٨ . فاكس : ٢٤٢٥١٦٠

مقدمة

نوه الله تعالي بالعقل والحس كوسيلة للتفكر والتدبر في ملكوت السماوات والأرض، لمعرفة حقيقة الخلق والأمر، والقيام بالإعمار والإصلاح.

يقول تعالي: ﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦)**﴾. [الحج: ٤٦]

وذكر القرآن بالتحديد مفردات القوة الحسية من السمع والبصر، وعبر بالجلود عن اللمس والشم والذوق. وذلك في سياق شهادتهم علي أعمال الإنسان يوم الحساب.

يقول تعالي:﴿ **ومَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ ولا أَبْصَارُكُمْ ولا جُلُودُكُمْ ولَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) وذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الخَاسِرِينَ (٢٣)**﴾.[سورة فصلت: ٢٢-٢٣]

ولا ينكر أحد أن هناك حدودا لهذه القدرات العقلية والحسية في إدراك الظواهر الحياتية والكونية. ومن المسلم به أن كثيرا منها لازالت غيبا والمعرفة عنها ظن لا يقين فيه. نشاهد ذلك في أصغر جزء وهو مكونات الذرة، وفي أكبر جزء وهو المجرات في الفضاء السحيق. ومن ثم كان الحديث عنها محفوف بمخاطر التخمين والخطأ. وبالطبع فإن الأمر يزداد وعورة عند تصور حقيقة الخلق والأمر في سنن الكون والحياة، وحقيقة المبدأ والمعاد في مسيرة الكون والتاريخ. وكلها مستحيلة الإدراك بوسائل المعرفة التي يطيقها الإنسان،فهي غيب يحتاج إلي مصادر أخرى يقينية لإدراكها والتعامل معها.

ومن هنا كان استخدام وسائل المعرفة الممكنة للإنسان في إدراك الغيب له نتائج وخيمة علي الفكر الإنساني وعلي السلوك البشرى وعلي مسيرة التاريخ والحضارات. ومن ثم كان علي الإنسان الراشد أن يعرف حدوده،فلا يقع في أساليب من المعرفة تنتهي به إلي الجهل والضياع. ويصل إلي موقف علمي وأخلاقي مهين، لأنه عطل ما أكرمه الله به من نعمة التفكر والتدبر، وتحدث في سذاجة تثير السخرية والازدراء.

يقول تعالي: ﴿ **ولا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ والْبَصَرَ والْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً (٣٦)**﴾ [سورة الإسراء آية ٣٦]

ومن هذه الوسائل الخاطئة:

١- الظن:

إذا تعامل الإنسان مع الغيب بالعقل بنى علمه على الظن والخرص. ولأنه لابد أن يتعامل مع هذا الغيب فإن معرفته الظنية ستؤدى به إلى سبل ضالة وحياة شقية، ولا يستحق من الراشدين إلا الإعراض عنه، والتسفيه لما عنده من علم.

يقول تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الحَقِّ شَيْئاً (٢٨) فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩) ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ العِلْمِ﴾ [سورة النجم آية ٢٨ - ٣٠]

والراشدون من بنى آدم يتزهون عقولهم عن الاستماع إلى أباطيل الذين يزعمون أنهم يمكنهم أن يدركوا هذه الحقائق المطلقة بالتخمين. وللأسف الشديد فإن كثيرا من الفلسفات التي عصفت بالإنسانية كانت من هذا النوع المبنى على الضلال، والذى يفضي إلى العذاب.

والتاريخ الإنساني شاهد على هذا الزيغ. فمن القدماء من عبد الطبيعة،فقدس الشمس والنجوم، بل حتى عبد الحيوانات. ومن المحدثين من عبد الدنيا صراحة ممثلة في الآلات، كما فعل الشيوعيون حين أعطوها صفة الخلق والتطوير. وضل لنفس السبب حتى من اعتمد في معرفة حقيقة الخلق والأمر على المجاهدة الذاتية دون الاسترشاد ببيان من عليم حكيم.

يقول تعالى:﴿ وإِن تُطِعْ أَكْثَرَ من فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ (١١٦)﴾ [الأنعام: ١١٦].

٢- الهوى:

وكثيرا ما يجنح الإنسان إلى الحقائق، ليتناسب مذهبه مع رغباته الحسية وشهواته النفسية. فما يشبع هواه فهو الحق الذى يلتمس له كل منطق، ويلبسه ثوب المصلحة لمناسبته للواقع وعدم مصادماته للرغبات، وكما يحدث لمن يشغل موقعا يدر عليه مالا،أو موقعا يحقق له سلطانا، و يخشى من الحق أن يذهب بهما،كما يخشى المعارض للمنكر على حياته وماله وجاهه،فيرسخ بذلك الجهل والخرافة في المعتقدات، وتسن القوانين التي تحمي مصالح الطغاة وبطانتهم. ويغيرونها كما يريدون وفي أى وقت يشاءون.

والهوى لايمكن أن يكون هاديا، لما في طبيعة الإنسان من ضعف،إن الهوى رغبة وليس قيمة، وحاجة وليس خلقا، والهوى انفعال وليس تقديرا، والهوى نقص يسعى للتعويض، والحقيقة غاية لا تنتقص. ولذا لا يمكن للهوى أن يكون طريقا للحق أو الهدى.

يقول تعالى:﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠]

وحين يخضع الإنسان لهواه يصير عبدا لكل من يحقق له رغباته. وتضمر في نفسه كل معاني الحرية والأنفة والكرامة. ولا مكان للفكر أو العلم أو التعرف إلى الحق،بل يغطيها ويزيفها ويضل بها الناس ضلالا بعيداً.

يقول تعالي: ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٣].

ويحذر الله عباده من هؤلاء المغرضين،الذين انفرطت أخلاقهم وتبلدت مشاعرهم، ويأمر بمخالفتهم والبعد عن مسارهم.

يقول تعالي: ﴿ وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾ [الكهف: ٢٨].

***

وغالبا ما يجتمع الظن والهوى في تزييف الحقائق، وفي تبرير الانحراف، وتزيين الجهل والظلم والشهوات. وذلك كما يفعل علماء السوء مع السلاطين، وما فعله سلاطين الظلم مع الشعوب. يقول ابن تيمية في تفسير قوله تعالي:﴿ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٩)﴾ [التوبة: ٦٩].

" جمع سبحانه بين الاستمتاع بالخلاقة وبين الخوض، لأن فساد الدين إما يقع:

١- بالاعتقاد الباطل في بدع العمل.. وهذا من جهة الشبهات.

٢- من جهة الشهوات.

وبالصبر تترك الشهوات، وباليقين تدفع الشبهات."[1]

يقول تعالي: ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّي إِلاَّ أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٥) وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنّاً إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٣٦)﴾ [يونس: ٣٥ - ٣٦].

وينصرف الخلق عن إدراك الحق لأسباب أخرى،يبينها الحق تعالي في كتابه العزيز، ونوجز منها سببين:

---

(١) ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم ص ٨٥، مطبعة القاهرة ١٩٥٧م.

١- لهو الحديث:

فنرى اليوم نتيجة طغيان الفكر الغربي علي العقول،تفشي سموم تنعكس علي فكرنا وحياتنا بالسلبيات،سواء أدركنا ذلك أم لم ندركه،خصوصا ونحن نلتزم بمنطلقات الغرب ومصطلحاته وقيمه،دون فحص أو مراجعة،منبهرين بما قدمه من مساهمات في واقع الحياة الدنيا،متجاوزين عما أفرزه من مصائب دمرت الإنسان وحطمت الأسرة ومزقت المجتمع وأشقت العالم. كل ذلك جعل علاقتنا بالقرآن الكريم سطحية، لم يبق من تأثيره إلا مجرد همهمة تتلي في الميتم والمفرح، وتعويذة تستخدم في المصائب والكروب.

وهكذا ردّدنا وراءهم ببلاهة أن الكون ونظامه ليس له من تفسير إلا الصدفة، والتاريخ وعبره ليس له من تفسير إلا الصراع، والحياة ليس لها من غاية إلا المتعة الحسية. وهو جهل بكافة المقاييس،حتي العقلية والتجريبية منها، وتبسيط مخل في تفسير الكون والحياة يعتمد علي الجهل والغباء.

يقول تعالي: **﴿ ومنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الحَدِيث لِيُضلَّ عَن سَبِيلِ اللَّه بغَيْـر علْـم ويَتَّخذَهَا هُزُواً أُوْلَئكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٦) وإذَا تُتْلَى عَلَيْه آيَاتُنَا ولَّى مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّـمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٧)﴾ [لقمان ٦-٧]**

٢- الإلف:

الإلف سم يتلف أنسجة الوعي في الإنسان، ومن ثم يحتاج إلي التنبيه عن طريق الذكر. والذكر يحتاج إلي تدبر في حكمة الكون: كتاب الله المنظور،تدبر واع كالسائح الذى يرتاد مكانا لأول مرة. كذلك يحتاج إلي كتاب الله المقروء،كالسامع الذى يتلقاه لأول مرة، كأن لم يسمعه من قبل.

وبدون هذا الذكر يستغرق الإنسان في الأكل والمتاع، ولن يكون هناك امتداد إلا في آمال متقطعة من زينة الدنيا والأماني الزائفة والاهتمامات الصغيرة. ولن تجد علي مستوى الجماعات هدف سامي ولا مواساة لآلام البشر، وإنما ظلم واستبداد وطمع واستغلال وحروب ومؤامرات.

يقول تعالي: **﴿ وإذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْه آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً ولا يَهْتَدُونَ (١٧٠) ومَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إلاَّ دُعَاءً ونِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ (١٧١)﴾** [البقرة آية ١٧٠-١٧١]

إن الصورة المخزية للجهل والتأخر لن تولد إلا الضعف والهزيمة، وهذا ماحدث للمسلمين حيث فقدوا العزة في أوطانهم والأمن في حياتهم، وحرمت الدنيا من رحمة الإسلام وإنقاذه للمستضعفين في الأرض.

إن القرآن رواده المفكرون،الذين يدركون عن فهم آيات الله في الآفاق وفي أنفسهم،فيعلمون أنه الحق من ربهم.

يقول تعالي: ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [ص:آية ٢٩]

الأساس العقيدي في القرآن

إن أهم ما يشغل الإنسان الراشد هو معرفة سر الكون والحياة. لهذا كان في حاجة مستمرة إلي من يجيب له عن الأسئلة التي تتردد بين جنباته عن حقيقة الوجود وغاية الإنسانية.

وليس إلا الله قادر علي بيان الغيب، ومن ثم ليس هناك من طريق للرشاد إلا الاستماع إليه سبحانه وهو يهدى إلي الحق.

ومع الرسل أنزل الله الكتب،فيها البيان الشافي عن حقيقة الكون والحياة، وفيها شرعة الحياة ومنهاجها الذى يهدى به الله عباده إلي سبل السلام.

وليس هناك من يقدر علي التعرف علي هذا الحق وحده، وليس هناك مصدر غير الوحي يمكن الرجوع إليه في معرفته.

يقول تعالي:﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢) مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ (٣) قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤)﴾ [الأحقاف: ١-٤]

فمن رحمة الله بعباده أن أرسل الرسل بين الحين والحين بالهدى حتي يتبين للناس الحق فلا يضلون، وحتي يعرفوا الصراط المستقيم فلا يشقون.

يقول تعالي:﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (٦) وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (٩) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى (١١)﴾ [النجم: ١ -١١]

وختمت هذه الرسالات بمحمد ﷺ وختم الوحي بـــالقرآن الكـــريم حيـــث حفـــظ الله كتابه،الذى أوحي به إلي رسوله.

يقول تعالي:﴿ وأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْه منَ الكتَاب وَمُهَيْمنـــاً عَلَيْه فَاحْكُم بَيْنَهُم بمَا أَنزَلَ اللّهُ ولاَ تَتَّبعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ منَ الْحَقِّ لكُلٍّ جَعَلْنَا مـــنكُمْ شرْعَةً ومنْهَاجاً ولَوْ شَاءَ اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحدَةً ولَكن لِّيَبْلُوَكُمْ في مَا آتَـــاكُم فَاسْـــتَبقُوا الخَيْرَات إِلَى اللّه مَرْجعُكُمْ جَميعاً فَيُنَبِّئُكُم بمَا كُنتُمْ فيه تَخْتَلفُونَ (٤٨)﴾ [المائدة: ٤٨]

والإنسان في حاجة مستمرة إلي من يجيب له عن الأسئلة التي تتردد بين جنباته عن حقيقة الوجود وعن غاية الإنسانية.

ومن ثم من الممكن أن ندرك الاهتمام الكبير الذى أولاه القرآن لتبيان حقيقـــة الألوهيـــة وأحوال اليوم الآخر، وعلي هذه القاعدة الإيمانية يقدم منهاج العمل الصالح الذى يصلح بـــه الكون والحياة.

فالإيمان بالله قاعدة كل علم حق وأساس كل عمل صالح،فالله وحده الذى خلق الوجـــود ويسيره، وهو الذى خلق الإنسان ويعلم ما يصلحه.

لهذا من عرف الله تبين له الحق، وهدى إلي الرشد، ومن لم يعرف الله كان علمه ناقـــصا مبتورا، لأنه يتعامل مع الظاهر، ولا يدرك الأمور علي حقيقتها.

وبالإيمان ينطلق الإنسان من حدود ذاته المحدودة إلي رحاب الكون الكبير، ومن حـــدود عمره القصير إلي امتداد الزمان الذى لا يعلمه إلا الله.

لهذا نجد في القرآن الكريم الايات المبينة للوجود والتاريخ ترتبط بعلم الله وحكمته معلنة في نهايتها حقيقة القوى الخالقة والآمرة.

يقول تعالي ﴿ للَّه مَا في السَّمَوَات والأَرْض إنَّ اللَّهَ هُوَ الغَنيُّ الحَميدُ (٢٦) ولَوْ أَنَّمَا في الأَرْض من شَجَرَة أَقْلامٌ والْبَحْرُ يَمُدُّهُ من بَعْده سَبْعَةُ أَبْحُر مَّا نَفدَتْ كَلمَاتُ اللَّه إنَّ اللَّـــهَ عَزيزٌ حَكيمٌ (٢٧) مَا خَلْقُكُمْ ولا بَعْثُكُمْ إلاَّ كَنَفْس واحدَة إنَّ اللَّهَ سَميعٌ بَصيرٌ (٢٨) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولجُ اللَّيْلَ في النَّهَار ويُولجُ النَّهَارَ في اللَّيْل وَسَخَّرَ الشَّمْسَ والْقَمَرَ كُلٌّ يَجْري إلَى أَجَل مُّسَمًّى وأَنَّ اللَّهَ بمَا تَعْمَلُونَ خَبيرٌ (٢٩) ذَلكَ بأَنَّ اللَّهَ هُوَ الحَقُّ وأَنَّ مَا يَـــدْعُونَ من دُونه البَاطلُ وأَنَّ اللَّهَ هُوَ العَليُّ الكَبيرُ (٣٠)﴾ [لقمان آية ٢٦- ٣٠]

يقول ابن قيم الجوزيه: " وأشهد ألا إله إلا الله وحده لاشريك له كلمة قامت بها الأرض والسماوات، وخلقت لأجلها جميع المخلوقات، وبها أرسل الله رسله، وأنزل كتبـــه وشـــرع شرائعه، ولأجلها نصبت الموازين ووضعت الدواوين. وقام سوق الجنة والنار، وبها تقاسمـــت

الخليقة إلي المؤمنين والكفار والأبرار والفجار،فهي منشأ الخلق، والأمر والثواب والعقاب، وهي الحق الذى خلقت له الخليقة. وعنها وعن حقوقها السؤال والحساب، وعليها يقـع الثـواب والعقاب، وعليها نصبت القبلة، وعليها أسست الملة، ولأجلها جردت سيوف الجهاد، وهـي حق الله علي جميع العباد، فهي كلمة الإسـلام ودار السـلام، وعنـها يـسأل الأولـون والآخرون،فلا تزول قدم للعبد بين يد الله حتي يسأل عن مسألتين: ماذا كنتم تعبدون ؟ وماذا أجبتم المرسلين ؟ فجواب الأولي بتحقيق لاإله إلا الله معرفة وإقرارا وعملا، وجواب الثانيـة بتحقيق أن محمدا رسول الله معرفة وإقرارا وانقيادا وطاعة." (١)

والإيمان بالله يستلزم الإيمان بالآخرة فهي الامتداد الحقيقي للدنيا، وفيها الجـزاء والبقـاء، وذكرت قرين الإيمان بالله. فحقيقة الإيمان بالرابطة بين هذا الوجود وخالقه لا يمكن أن تؤدى دورها إلا إذا أكملت بالإيمان بالرابطة بين عمل الإنسان وجزائه. فهي مقتـضي حكمـة الله سبحانه وتعالي في خلق الكون والحياة.

يقول تعالى: ﴿ وإن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أئذَا كُنَّا تُرَاباً أئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَديـدٍ أُوْلَئِـكَ الَّذينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وأُوْلَئِكَ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الرعد: ٥].

لهذا كان أى علم لا يقوم علي هذه الحقيقة علم ناقص،يقول تعالي عن أصحابه:

﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٦) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِـرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (٧)﴾ [الروم آية ٦-٧].

وأى عمل لا يستند علي هذه الحقيقة ويرتبط بغايتها عمل حابط،نتائجه صراع وخسران وشقاء.

يقول تعالي: **﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً (١٠٤) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ولِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ وزْناً (١٠٥)﴾** [الكهف آية ١٠٣-١٠٥]

ومن ثم كان تبيان حقيقة الإيمان بالله واليوم الآخر هو لحمة القرآن وسداه،تـصادفك في عرض الآيات الكونية من أعماق الذرة حتي مواقع النجوم، ومن بدأ الخليقة حـتي يـرث الله الأرض ومن عليها.

---

(١) زاد المعاد ج١ ص٤٠٣

وصفات الله العلية وأحوال الحياة الأخروية،يقدم القرآن حقائقها لتتلقاها بالتسليم،بعد أن أعملت قواك العقلية والحسية في الإدراك اليقيني بالله، والفهم الصحيح لأسمائه الحسني، والإدراك الواعي لضرورة الجزاء والحساب.

يقول الله تعالي: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (٧)﴾ [آل عمران آيه ٧]

وشرعة الحياة التي تحدد للإنسان رسالته، والعمل الصالح الذى يضع أقدامه علي الطريق المستقيم،يصعب إدراكه في كون مهول لا تعرف حدوده، وفي واقع متشابك يتأثر ببعضه البعض إلي أقصي الحدود، وزمان يمتد من ماض سحيق إلي مستقبل مغيب، ويتصل بنفس إنسانية يستعصي فهمها علي مناهج البحث وأدوات التحليل. ولهذا كان الكشف عنها يحتاج إلي من خلق الكون وقدره، وأنطق الإنسان وهيأه.

" فطبيعة الموضوعات التي تعالجها العلوم الإنسانية... لا تحتمل مناهج التجربة،هذا بالإضافة إلي أن الإرادة البشرية تتدخل في سير الظواهر الإنسانية،خلقية وغير خلقية، وتتكفل بتغيير مجراها تغييرا يجعل من العسير إخضاعها لقانون علمي ثابت، ويتعذر مع هذا إجراء التجارب في الموضوعات الإنسانية،إلا في نطاق ضيق محدود، لا يبرر جعل المنهج التجريبي أساسا لدراستها. بينما يتعذر كشف قوانين العلوم الطبيعية بغير مناهج التجربة، لأن من أظهر خصائص البحث في هذه العلوم أن يكون موضوعيا غير ذاتي، ونزيها لا تتدخل فيه عواطف الباحث وميوله. أما مقررات العلوم الإنسانية فمتأثرة لا محالة بعقيدة الباحث وثقافته، وتقاليد وطنه ونحوها من عوامل تكوينه. وإذا كانت الظواهر الطبيعية تنشأ عن علة أو علل يسهل تحديدها إلي جانب أنها تطرد علي غرار واحد،فإن الظواهر الإنسانية،خلقية أو نفسيه أو اجتماعية أو غيرها،تستثيرها وتتدخل في توجيهها عوامل كثيرة متشابكة،يرتد بعضها إلي حرية الفرد وخبراته الثقافية والاجتماعية بوجه عام ويرجع بعضها إلي البيئة التي تكتنفه وتؤثر في توجيهه. وهذه العوامل من التفاعل والتشابك بحيث يصعب — إن لم يتعذر — حصرها وتحديد نصيب كل منها في الظاهرة التي ندرسها."[١]

ومن هنا كانت معرفة حقيقة الألوهية واليوم الآخر، والعمل الصالح الذى ارتضاه الله لعباده في مهمتهم في الأرض (الشريعة)،تؤخذ من الله وحده الذى خلق فسوى وقدر فهدى.

(١) د. توفيق الطويل، الفلسفة الأخلاقية، نشأتها وتطورها ص ٣٤٨ دار النهضة ١٩٦٧م

وهذه هي حقيقة الإيمان والإسلام التي أرسل الله بها الرسل وأنزل بها الكتب،هدى من لدنه ورحمة بعباده.

يقول تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة آية ٦٢]

القرآن والعصر

تُشن اليوم حملة على القرآن يخطط لها جماعات أمريكية وأوربية متعددة، وتتلقى هذه الجماعات دعماً من عدد من رجال الأعمال اليهود، من هذه الجماعات جماعة الحضارة الإنسانية ومنظمة إدوارد كارسل ومنظمة ساريث بالي التي يطلق عليها اسم منظمة الحق الواحد.

ويتساءل البعض معترضين عن مناقشة شبهات هؤلاء ونحن في معرض تدبرنا للقرآن، والمواجهة هنا إما أن نرفع العصر إلى مستوى القرآن، وهذا يحتاج إلى علم ودراية، وإما أن نرفض بعناد دون حجة أو برهان، وإما نفعل كما فعلت المسيحية في أوروبا فنطوع الدين كما فعل رجال الكنيسة لأهواء العصر. وقد اخترنا الطريق الأول لما يلي:

١- ما حققه البشر من إنجازات في النواحي الدنيوية تراكمات ساهم فيها البشر وتسلمها الغرب من المسلمين. ولا يكفي في هذه المواجهة بمجرد الرفض للرأي الآخر، فالتقدم في العلم الدنيوي بضاعتنا ردت إلينا. ولا حرج أن نستشهد بأمر وصل إلى درجة اليقين علمياً، أو نذكر قولاً صحيحا لرجل غير مسلم لنحتج به عليه، خصوصاً وأن فطرة الإنسان لا تستنفد كلها وعلى الأقل عند بعض الناس. أما ما يتعلق بالغيب أو التشريع أو الأخلاق فلا يتلقى إلا من الله.

٢- أننا نعيش واقعا دنيوياً عصرياً، له أدواته ومؤسساته، وهي في غالبيتها أدوات محايدة، ونحتاج إلى توجيه القرآن في التعامل معها، وإلا لحدث فصام بيننا وبين مسيرة الحياة، وهذا معناه أن يقتصر نطاق العمل بالإسلام إلى مجرد الشعائر، ومن ثم يغلق علينا باب فهم القرآن، لأن له مصطلحاته التي يجب أن تصبغ المعاملات، وقيمه وأهدافه التي لابد أن تشكل السلوكيات. وهنا فقط نحس بالقرآن يغطي مساحة الحياة كلها، ونستمع إليه وكأننا نستمعه لأول مرة بعد رفع حجاب الإلف وقصورالهمة.

٣- أن الإيمان الفطري والتسليم دون بحث، يصلح في ظل واقع يكون فيه المعروف أصلاً والمنكر مطاردا، تحرسه دولة ويدفع عنه علماء. أما حين تختلط الأمور وتتشابه الحقائق، فإن التبيين ضروري في كل مجال ولازم على كل حال؟ للتحذير والإنذار من غزو الأعداء على مستوى الثقافة ونظام الحياة. ويكفي أن يلقي العدو الماكر شبهه على أبنائنا، فتتفاعل داخلهم دون رد شاف؟ فتنال من إيمانهم.

٤- إن فكّر الغرب ونظام حياته أصبح وثناً يُعبد من دون الله، ليس في الغرب وحده وإنما عند بعض المسلمين الذين تربوا عليه ولا يعرفون شيئا سواه، فلا بد من بذل الجهد لهدم ذلك الصنم في داخل الناس أولاً ليتهيأ العقل لقبول الحق، ويصلح الواقع لإقامة البناء.

ولهذا كان من الضروري أن نسقط أنوار القرآن على ظلمات العصر الفكرية والعملية، وكانت مقدمة السورة التي تطرح موضوعها، تهتم بتوضيح سلبيات العصر المتصلة بالموضوع والارتفاع بها إلى أفق النص.

يقول أحد علماء الأمة القدامى: فما صد أكثر هذه الأمة عن فهم القرآن ظنهم أن الذي فيه من قصص الأولين وأخبار المثابين والمعاقبين، من أهل الأديان أجمعين، أن ذلك مقصوده الأخبار والقصص فقط، كلا، وليس كذلك. إنما مقصوده الاعتبار والتنبيه لمشاهدة متكررة في هذه الأمة من نظائر جميع أولئك الأعداد وتلك الأحوال والآثار، حتى يسمع السامع جميع القرآن، من أوله إلى خاتمته، منطبقاً على هذه الأمة وأئمتها، هداها وضلالها. فحينئذ ينفتح له باب الفهم، ويضيئ له نور العلم، ويتجه له حال الخشية، ويرى في أصناف هذه الأمة ما سمع من أحوال القرون الماضية... فيترقى سمعه إلى أن يجد جميع كلية القرآن، المنطبق على كلية الأمة، منطبقاً على ذاته في أحوال نفسه، وتقلباته وتصرفات أفعاله، وازدحام خواطره، حتى يسمع القرآن منطبقاً عليه، فينتفع بسماع جميعه، ويعتبر بأي آية سمعها منه، فيطلب موقعها في نفسه فيجدها بوجه ما، رغبة كانت أو رهبة، تقريباً كانت أو تبعيداً، إلى أرفع الغايات أو إلى أنزل الدركات...

يقول تعالى: ﴿ **كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلاداً فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٩)** ﴾ [التوبة:٦٩].

فما من آية نزلت في المشركين تذكر أحوالهم وتبين ضلالهم وتفاصيل سرهم وإعلانهم إلا وهي منطبقة على كل مفتون... فمن وجد في هذا مسة، فليسمع جميع ما أنزل في المشركين

من القرآن منطبقا عليه ومتزلاً إليه وحافا به حتى يخلصه الله من خاص شركه، كما خلص من أخرجه من الظلمات إلى النور من الأولين...

كان لأهل الجاهلية سدرة يعظمونها ويجتمعون عندها وينيطون بها أسلحتهم ويسمونها ذات أنواط، قالوا: يا رسول الله، اجعل لنا هذه السدرة ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. فقال (ﷺ): **قلتموها ورب الكعبة، كما قالت بنو إسرائيل: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، إنها السنن.**[1]

قوى وكثر في هذه الأمة حال الملتين اليهودية والنصرانية، لما آتاهما الله من الكتاب والعلم والحكمة فاختلفوا فيها بالأغراض والأهواء وإيثار عرض الدنيا، وسامحوا الملوك والولاة، وحللوا لهم ما حرم الله وحرموا لهم ما حلل الله، وتوصلوا بهم إلى أغراضهم في الاعتداء على من حسدوه من أهل الصدق والتقوى، وكثر البغي بينهم فاستقر حالهم على مثل حالهم...

يقول رسول الله (ﷺ): **لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرا، بشبر أو ذراعا بذراع، حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه.** قالوا: اليهود والنصارى؟ قال: **فمن.**[2]

تدبر القرآن:

يقول الشاطبي: إعمال الرأى في القرآن جاء ذمه، وجاء أيضا مايقتضي إعماله. وحسبك من ذلك ما نقل عن الصديق،فإنه نقل عنه أنه قال وقد سئل في شئ من القرآن: أى سماء تظلني وأى أرض تقلني إن أنا قلت في كتاب الله بما لا أعلم ؟

فهذان قولان اقتضيا إعمال الرأى وتركه فى القرآن، وهما لا يجتمعان، والقول فيه: أن الرأى ضربان:

أحدهما: جار علي موافقة كلام العرب وموافقة الكتاب والسنة،فهذا لايمكن إهمال مثله لعالم بهما لأمور:

١- أن الكتاب لابد من القول فيه ببيان معني، واستنباط حكم، وتفسير لفظ، وفهم مراد، و لم يأت جميع ذلك عمّن تقدم. فإما أن يتوقف دون ذلك،فتعطل الأحكام كلها أو أكثرها، وذلك غير ممكن،فلا بد من القول فيه بما يليق.

---

(١) رواه الترمذي، وقال حسن صحيح. رجاله رجال البخارى ومسلم و اسناده متصل وصححه الشيخ الأرناؤوط في جامع الأصول، ج ١٠ ص ٧٤٠٢.

(٢) رواة مسلم، صحيح الجامع الصغير السيوطي تحقيق الألباني، ج ٢ ص ٩٠٣.المكتب الإسلامي سنه١٤٠٦ البقاعي، نظم الدرر، ج ٣ ص ٣٥٥-٣٥٦.

٢- أنه لو كان كذلك للزم أن يكون الرسول ﷺ مبينا ذلك كله بالتوقيف،فلا يكون لأحد فيه نظر ولا قول. والمعلوم أنه عليه الصلاة والسلام لم يفعل ذلك. فدل علي أنه لم يكلف به علي ذلك الوجه،بل بين منه مالا يوصل إلي علمه إلا به. وترك كثيرا مما يدركه أرباب الاجتهاد باجتهادهم،فلم يلزم في جميع تفسير القرآن التوقيف.

٣- أن الصحابة كانوا أولي بهذا الاحتياط من غيرهم، وقد علم أنهم فسروا القرآن علي مافهموا، ومن جهتهم بلغنا تفسير معناه. والتوقيف ينافي هذا،فإطلاق القول بالتوقيف والمنع من الرأى لايصح.

٤- أن هذا الفرض لايمكن، لأن النظر في القرآن من جهتين:

أ- من جهة الأمور الشرعية،فقد يسلم القول بالتوقيف فيه وترك الرأى والنظر جدلا.

ب - ومن جهة المآخذ العربية، وهذا لا يمكن فيه التوقيف، وإلا لزم ذلك في السلف الأولين، وهو باطل،فاللازم عنه مثله، وبالجملة فهو أوضح عن إطناب فيه.

والثاني:أما الرأى غير الجارى علي موافقة العربية أو الجارى علي الأدلة الشرعية،فهذا هو الرأى المذموم من غير إشكال. كما كان مذموما في القياس أيضا،حسبما هو مذكور في كتب القياس، لأنه تقوّل علي الله بغير برهان،فيرجع إلي الكذب علي الله تعالي.

وفي هذا القسم جاء من التشديد في القول بالرأى في القرآن ماجاء.[1]

وفي تفسير ابن كثير:" قال ابن عباس: التفسير علي أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لايعذر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لايعلمه أحد إلا الله."[2]

ومن هنا نعلم:

١- أن المتشابه نسلم إلي الله علمه، ونتلقاه توقيفا.

٢- اللغة تعرف من علمائها، والشريعة يسأل عنها أهلها،ممن تتوفر لهم أدواتها.

٣- الباقي لايعذر مؤمن بجهالته، وهو المحكم الذى وضحت لغته ووضح مفهومه. فهو صلة مباشرة بين الله وعباده،يحدث الله به عباده جميعا،فتشرق في نفوسهم أنوار الهداية الربانية، وتهدأ نفوسهم بما يحيطهم الله به من رحمة ورعاية. ييسره الله للذكر ليعرفه عباده فيطيعوه ويتخلقوا بأخلاقه، ويعقدوا به الصلة مع الكون الذى يسبح بحمد الله، ومع التاريخ الذى يحمل راية لاإله إلا الله، ومع الناس الذين يسعون بجهدهم إلي مرضاة الله.

يقول تعالي: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (١٧)﴾ [القمر آيه ١٧]

---

(١) الشاطبي، الموافقات ج٣ ص ٢٨٥، ٢٨٦

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ج١ ص ٦ دار المعرفة ١٤٠٠هـ

أسلوب القرآن

القرآن هو الحبل الذى يصل الإنسان بربه، ولاغني للإنسان عن ربه في أى حال. لهذا كان فى القرآن،الذى يتعبد به نهارا وليلا،في الراحة والعمل،في المسجد والمصنع ـــ من الخصائص ما يتباين به عن أسلوب العصر. من هذه الخصائص:

١– شمولية النظرة:

لابد أن يتضح فى الأذهان أن القرآن الكريم ليس كتاب علم تجريبي، وليس كتاب فقه فحسب، وليس كتاب تاريخ،فذلك لا يحتاج إليه إلا حين سؤاله عن قضية أو واقعة، ولكنه كتاب عبادة ومناجاة، وكتاب معرفة وبيان، وكتاب تشريع وتربية...

يقول تعالي:﴿ **كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (٩٠) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (٩١) فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣) فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (٩٤)**﴾ [الحجر آيه ٩٠ -٩٤]

يقول الشيخ محمد الغزالي: " الأحكام الفقهية التشريعية، والمعتقدات الإلهية، والآيات التي تأمر بالنظر في الكون، وآيات التربية، وما إلي ذلك من تعاليم إسلامية.. متماسكة في عصارة واحدة تجمعها من أولها لآخرها. ومن المستحيل أن أنظر إلي القرآن النظرة الجزئية التي تجعلني أعيش في جانب منه وأنسي الجانب الآخر. كما لا يمكن أن يتكون الدم من كريات حمراء فقط، وبيضاء فقط، وبعض العناصر المعدنية فقط،التي تميز الدم ولا يكون دما إلا بها.. كذلك لا يمكن إطلاقا أخذ جانب من القرآن وإهمال الجوانب الأخرى، لأنها جوانب يجر بعضها بعضا،متماسكا.

فالنظرة الشاملة هي النظرة الصحيحة للدراسات القرآنية، ولا يمكن الرضي بنظرة جزئية،.. والنظرة الجزئية عندما سادت الفكر الإسلامي ونشأ عنها مايشبه الجسم المشلول في بعض أطرافه، أو في بعض أجهزته،مع بقاء أجهزة أخرى حية.. فلا يستطيع أن يؤدى وظيفته مادام الشلل جمد بعض الأجهزة أو بعض الأعضاء.. فلابد من النظرة الشمولية للقرآن كله."[١]

---

(١) محمد الغزالي، كيف نتعامل مع القرآن ص ٨٤–٨٥ المعهد العالمي للفكر الإسلامي ١٩٩١م

ولقد عرفنا اليوم أنه كلما ازددنا قربا من الكون كشفا وبحثا،تأكد لنا عمق هذه المعرفة التي لا تطال، وكذلك كلما اقتربنا من القرآن كشفا وبحثا،بانت أسرار وانكشفت أحكام،في تجدد لاينقطع. تماما كالجوهرة التي تسقط إشعاعاتها علي زوايا مختلفة،تكشف حال عصر ثم عصر آخر، ويأخذ كل عصر منه زادا ومتاعا،مهما اختلف المكان وتتابع الزمان. لا يشبع منه العلماء، ولا يخلق علي كثرة الرد، ولا تزيغ به الأهواء، ولاتنقضي عجائبه. من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدى إلي صراط مستقيم.

يقول السيوطي: " **وبعد،** فإن العلم بحر زخّار، لايدرك له من قرار، وطود شامخ لايسلك إلي قمته الأبصار،من أراد السبيل إلي استقصائه لم يبلغ إلي ذلك وصول، ومن رام الوصول إلي إحصائه لم يجد إلي ذلك سبيلا، كيف وقد قال تعالي مخاطبا لخلقه: ﴿**وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ العِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾[الإسراء آية ٨٥]، وإن كتابنا القرآن لهو مفجر العلوم ومنبعها، ودائرة شمسها ومطلعها، أودع فيه سبحانه وتعالي علم كل شيء، وأبان فيه كل هدى وغيّ، فترى كل ذى فن منه يستمد، وعليه يعمد،فالفقيه يستنبط منه الأحكام، ويستخرج حكم الحلال والحرام، والنحويّ يبني منه قواعد إعرابه، ويرجع إليه في معرفة خطأ القول من صوابه، والبيانيّ يهتدى به إلي حسن النظام، ويعتبر مسالك البلاغة في صوغ الكلام، وفيه من القصص والأخبار مايذكر أولي الأبصار، ومن المواعظ والأمثال مايزدجر به أولو الفكر والاعتبار، إلي غير ذلك من العلوم، لايقدر قدرها إلا من علم حصرها."[١]

ومن هنا تتوزع الحقائق على امتداد الزاد اليومي للإنسان من القرآن،ففى السورة الواحدة تتوزع حقيقة الألوهية وحقيقة الآخرة، وتاريخ الإنسانية وأخذ العبرة منه، ويتحدد العمل الصالح المطلوب عمله، بعد أن تكون الحقائق الإيمانية قد أيقظت النفس وأوقفتها أمام الحقيقة والمسؤولية.

٢- خطاب العقل والقلب:

النفس الإنسانية عالم من الإنفعالات تتعدد نوازعها وأشواقها، وعالم من الإدراك فمنه الحسى ومنه العقلى ومنه القلبي، لم يستطع العلم المعاصر أن يسبر حتى القليل من أغوارها، وحسب اعتراف علمائه أنهم أصبحوا أغنياء فى علوم المادة،فقراء فى معرفتهم عن الإنسان.

---

(١) الإتقان في علوم القرآن، السيوطي ج ١ ص ٣،٤.

والله وحده الذى خلق الإنسان، هو وحده العليم بما يصلحه،الحكيم فيما يعلمــه.فحــين يتحدث القرآن للنفس الإنسانية يدخل عليها من كل أبواب إدراكها،ما عرف منــه ومــا لم يعرف، فهو يخاطب الحس والوجدان والعقل والفؤاد، والجسد والروح، والفطرة والبديهــة. وحين يتعامل مع النفس الإنسانية يتعامل معها من جميع جنباتها التى تستجيب لرغباتها الماديــة ولأشواقها الروحية. فيخاطبها من عالم الواقع واضعا أقدامها في عالم المثال، ويشد انتباهها من جواذب الأرض إلي آفاق السماء، وينير عقلها بعالم الغيب مع إدراكها لعالم الشهادة.

والإنسان مجموعة من الانفعالات الحسية والرغبات الروحية والمــدركات العقلية،كلــها تتفاعل داخله، وتؤدى وظائف متنوعة في رحلة الإنسان علــي الأرض. فــالتفكر والتــدبر ضروريان لهداية الإنسان إلي الحق. ولكن الإرادة يحركها انفعال داخل النفس يعمل ويتــصل بعواطفه وأشواقه. والعقل بدون إرادة فلسفة عابثة لا تأثير له في واقع الإنسان ولا فاعلية له في إحداث التغيير، والإرادة بدون العقل قوة عمياء تحركها الغريزة والشهوة وتدوس علي كل قيم العدل والرحمة.

فالقرآن يخاطب الإنسان من كل جوانبه،عاطفته بجانب عقله،أشواقه بجانب غرائزه. ولــو اقتصر علي الجانب العقلي لوجدنا موضوعا له مقدمات ونتائج مرتبة ترتيبا حسب أولوياتهــا. ولو كان موضوعا عاطفيا لشاهدناه فنا مؤثرا بالجرس والوزن والبلاغة والتصوير. والجمع بين الإثنين يعجز عنه أسلوب البشر، ولايطيقه إلا رب الناس الذى خلقهم ويعلم مايصلحهم. فهو يخاطب النفس التي خلقها، ويعلم سرائرها،من كل جوانبها وزواياها. فنجد الأمر والنهي يثني بالقصة ويقرب بالمثل، ويطعم بالوعد والوعيد والترغيب والترهيب،مما يهيئ الــنفس للتلقــي المتفتح والتأثر الواعي.

يقول الدكتور دراز: " فمن لك إذا بهذا الكلام الواحد الذى يجئ من الحقيقة البرهانيــة الصارمة بمايرضي حتي أولئك الفلاسفة المتعمقين، ومن المتعة الوجدانية الطيبة،بما يرضي حــتي هؤلاء الشعراء المرحين ؟ ذلك الله رب العالمين. فهو الذى لايشغله شأن عن شأن، وهو القادر علي أن يخاطب العقل والقلب معا بلسان، وأن يمزج الحق والجمال معا،يلتقيان ولايبغيان، وأن يخرج من بينهما شرابا خالصا سائغا للشاربين. هذا هو مانجــده في كتابــه الكريم،حيثمــا توجهت. ألا تراه في فسحة قصصه وأخباره لاينسي حق العقل من حكمة وعبرة. أو لاتراه في

معممة براهينه وأحكامه لاينسي حظ القلب من تشويق وترقيق، وتحـــذير وتـــنفير، وتهويـــل وتعجيب، وتبكيت وتأنيب. يبث ذلك في مطالع آياته ومقاطعها وتضاعيفها."[1]

٣- تنوع الخطاب:

للقرآن أسلوبه البيان المتفرد في خطاب النفس الإنسانية، وفي طريقـــة عرضـــه للأوامـــر والنواهي.

يقول الدكتور دراز:" ترى القرآن يعمد إلي الأضداد يجاور بينها فيخرج بذلك محاســـنها ومساويها في أجلي مظاهرها، ويعمد تارة أخرى إلي الأمور المختلفة في أنفسها من غير تضاد فيجعلها تتعاون في أحكامها،يسوق بعضها إلي بعض مساق التنظير أو التفريع أو الاستشهاد أو الاستنباط أو التكميل أو الاحتراس،إلي غير ذلك. وربما جعل اقتران معنيين في الوقوع التاريخي أو تجاور شيئين في الوضع المكاني دعامة لاقترانهما في النظم،فيحسبه الجاهل بأسباب الـــترول وطبيعة المكان خروجا وماهو بخروج، وإنما هو إجابة لحاجات النفوس التي تتداعي فيها تلـــك المعاني. فإن لم يكن بين المعنيين نسب ولا صهر بوجه من هذه الوجوه ونحوها،رأيته يتلطف في الانتقال من أحدهما إلي الآخر،إما بحسن التخلص والتمهيد، وإما بإمالة الصيغ التركيبية علـــي وضع يتلاقي فيه المتباعدان ويتصافح المتناكران ".[2]

ويقول الرازى: " اعلم أن عادة الله في ترتيب هذا الكتاب الكريم وقع علي أحسن الوجوه، وهو أنه يذكر شيئا من الأحكام،ثم يذكر عقيبه آيات كثيرة في الوعد والوعيـــد والترغيـــب والترهيب. ويخلط بها آيات دالة علي كبرياء الله وجلال قدرته وعظمة ألوهيته. ثم يعود مـــرة أخرى إلي بيان الأحكام. وهذا أحسن أنواع الترتيب وأقربهـــا إلي التـــأثير في القلـــوب. لأن التكليف بالأعمال الشاقة لايقع في موقع القبول إلا إذا كان مقرونا بالوعد والوعيد، والوعـــد والوعيد لايؤثر في القلب إلا عند القطع بغاية كمال من صدر عنه الوعد والوعيد،فظهر أن هذا الترتيب أحسن الترتيبات اللائقة بالدعوة إلي الدين الحق...

وإذا كان الدليل الواحد دليلا علي مدلولات كثيرة،فإنه يحسن ذكر ذلك الدليل ليستدل به علي أحد تلك المدلولات. ثم يذكره مرة أخرى ليستدل به علي الثاني. ثم يذكره ثالثا ليستدل به علي المدلول الثالث. وهذه الإعادة أحسن وأولي من الاكتفاء بذكر الدليل مرة واحدة. لأن عند إعادة ذكر الدليل يخطر في الذهن مايوجب العلم بالمدلول. فكان العلم الحاصـــل بـــذلك

---

(١) د. محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم – نظرة جديدة في القرآن الكريم.ص ١٠٩-١١٠ مطبعة السعادة ١٩٦٩م.

(٢) محمد عبد الله دراز، المرجع السابق، ص ١١٠.

المدلول أقوى وأحلي. فظهر أن هذا التكرير في غاية الحسن والكمال. وأيضا فإذا أعدته ثلاث مرات وفرعت عليه في كل مرة إثبات صفة أخرى من صفات جلال الله،تنبه الذهن حينئذ لكون تخليق السموات والأرض دالاً على أسرار شريفة ومطالب جليلة،فعند ذلك يجتهد الإنسان فى التفكر فيها، والاستدلال بأحوالها وصفاتها على صفات الخالق سبحانه وتعالى، ولما كان الغرض الكلى من هذا الكتاب الكريم صرف العقول والأفهام عن الاشتغال بغير الله إلى الاستغراق فى معرفة الله، كان هذا التكرير مما يفيد فى حصول هذا المطلوب ويؤكده، لا جرم كان فى غاية الحسن والكمال.

يقول سيد قطب: " فللقرآن أسلوبه الخاص من التنقل والمراوحة، والتخول بالموعظة في تضاعيف القول، والوقوف عند العبرة لتجليتها، والحكمة إلي مغزاها.

والمعني بعرض القرآن ينتقل إلي الإحساس عن طريق الأسلوب الذى يحول اللفظ إلي صورة شاخصة منسجمة، وحركة متجددة نشطة،كأن الإنسان حاضر الواقعة يسمع ويرى...

مرة تجد المشهد في الحياة الدنيا ونهايته في الآخرة دون توقف، ومرة تجد الدنيا والآخرة معا كأنهما حاضران، ومرة ينتقل من الخبر إلي الإنشاء، ومن القصة إلي الحوار، ومن الوصف إلي الأمر، وكأنها الحياة بحيويتها وحركتها،في ألفاظ وموسيقي تناسب المشهد،فتطول حين تخاطب العقل، وتقصر وتشتد حين تخاطب الحس. وفي وصف مشاهد النعيم والعذاب والبعث والحساب،مجسما في هول يخلع النفس ويفزع الحس. إنه يشبه في سياقه موج البحر المتدافع تتلاحق فيه الموجات فتفتت الران والغفلة،كما يفتت الماء الصخر، ويجرف الران بتسلسله إلي جوانب النفس ليزكيها،فتعود إليه الحياة نشطة متيقظة للعبرة والعظة والوعد أو الوعيد،في إيقاع تصويرى، ونغم موسيقي، وإبداع واقتناع،يشعر من يقرأه بسلطانه،فينسكب في حسه بمجرد استماعه إليه، لأنه يتصل بالفطرة كما خلقها الله.

لقد عمد القرآن إلي لمس البداهة، وإيقاظ الإحساس، لينفذ منها مباشرة إلي البصيرة، ويتخطاها إلي الوجدان، وكانت مادته هي المشاهد المحسوسة، والحوادث المنظورة، والمشاهد المشخصة، والمصائر المصورة،كما كانت مادته هي الحقائق البدهية الخالدة،التي تتفتح لها البصيرة المستنيرة، وتدركها الفطرة المستقيمة."[1]

---

(١) سيد قطب، التصوير الفني في القرآن ص ٢٢٩-٢٣٠ دار الشروق ١٩٨٨.

القصص وسيلة هامة لعرض الحقائق،أكثر فاعلية من العرض المجرد، ولهذا استخدمه القرآن فى تحقيق المقاصد التالية:

١-تثبيت فؤاد رسول الله ﷺ،حين لقى العنت والأذى، وهو يبلغ رسالة ربه يقول تعالى: **﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾**[هود: ١٢٠]

٢-تربية الخلق وتهذيب السلوك، فليس المقصود من القصص مجرد التسلية، وقد اتفق علماء النفس على أن القصص من أنجح الوسائل للتوجيه، لأنه يقدم صورة تاريخية فى عرض شيق أو مخيف، مما يحرك المشاعر، ويؤدى إلى تأصيل العادات، والسرد العادى لا يغذى إلا العقل، والقصة تؤثر فى السلوك العملى عن طريق انفعال الوجدان.

٣-قصص أهل الكتاب تبين للمسلمين تجربة مليئة بالأحداث الهامة التى تقابلهم فى طريق الدعوة، ومعرفة مداخلهم، ينبه المسلمين إلى كثير من مكرهم، والاعتبار بهم ينجى من كثير من المهالك التى وقعوا فيها، خصوصا أن بنى إسرائيل واجهوا الأمة المسلمة منذ ظهورها حتى اليوم بالعداء،فحرضوا المشركين واحتضنوا المنافقين، وقادوا حملات التشكيك والتحريف والشائعات، وكان تاريخهم طويلاً فى العناد وأكل المال بالباطل وقتل النبيين والذين يأمرون بالقسط من عباد الله، ولقد قست قلوبهم وحرفوا الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به، ولهذا نبهنا رسول الله ﷺ إلى هذه العبرة بقوله: "**لتتبعن سنن من قبلكم، شبراً بشبر أو ذراعاً بذراع، حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه**، قالوا: اليهود والنصارى؟قال:**فمن؟**"(١)

ولم يكن السرد التاريخى لمجرد الكشف عن وقائع أو توثيق حوادث، وإنما قصد إلى توضيح مغزى معين للتأثير به على سلوك الإنسان، ولهذا كثيراً ما نجد أسماء الأشخاص محذوفة والأماكن غير ملتفت إليها، وتختصر التفصيلات التى لا تمس هدف القصة.

كما أننا نرى من القصص ما يتكرر عرضه فى صور متنوعة، بعضها موجز وبعضها مفصل، وفى كل عرض تركيز على جانب معين يخدم موضوع السورة، وبعضها يضيف إلى القصة معنى جديداً فيستدعى القارىء أو السامع ما سبق عرضه من تفصيل، على سبيل المثال نجد قصة آدم عليه السلام لأول مرة فى سورة البقرة، فنرى التركيز على استخلاف الله له وأمره بطاعته، وكيف كانت طاعته لإبليس سبباً لخروجه من الجنة، وفى سورة الأعراف

---

(١) رواه مسلم، صحيح الجامع الصغير السيوطى، تحقيق الألبانى، ج٢ ص٩٠٣، المكتب الإسلامى سنة ١٤٠٦هـ.

تتحدث عن دور الشيطان فى كشف عورته ليريه سوأته، فتتشكل القصة لتخدم عالم السورة وموضوعها، وفى قصة سيدنا موسى، التى وردت فى ثلاثين موضعاً، نجد أن الحلقات الأساسية لم تتكرر تقريباً، وإذا كررت جاءت الحلقة بشىء جديد، عدا ستة مواضع كانت فيها إشارات قصيرة للقصة لمجرد استدعاء القصة وتذكر العبرة، مما يجعل المتدبر مستحضراً دائماً لجو القصة حتى وإن لم يشار إلى تفصيلاتها.

وفى الأبحاث المعاصرة، عادة ما يرغب الباحثون فى تكرار موضع التجربة، ذلك لأن الخصائص التى عرفت عنه تغنى الباحث عن استخدام شىء جديد يحتاج إلى جهد فى إدراك خصائصه.

وما دام الإنسان لم يتغير تكوينه، ولا غرائزه ولا أشواقه، فإن سلوكه ومداخل التأثير فيه وتحديد الصالح له، لا يختلف مهما اختلف الزمان أو تباعد المكان، لهذا كانت الأسوة بالصالحين والاعتبار بمصائر العاصين، ذخيرة ثرية من التجارب التى تفيد الإنسان فى مسيرة التاريخ.

موضوع السورة

إن تدبر القرآن لا يعنى استرواحا ذاتيا لجمال التعبير، أو إعجابا بدقة وصف، أو انفعالا بحكمة تشريع فحسب، بل هو يحتاج بدءاً إلى قناعة بأنه وحى من عند الله، ولعل من أهم المداخل إلى ذلك أن ترى الوحدة الموضوعية للسورة ومن الآيات ما يكون نزل مفرقا على مدى من الزمان، وارتباط موضوع السورة بالتى تليها فى تجاوب وتناسق، لتتجلى معجزة ما أنزل الله من أربعة عشر قرنا.

وتدبر الآية منفردة يفيد فى القضايا الجزئية والأبحاث اللغوية والفقهية، ومصدره بلا شك كثير من كتب التفسير، ولكنها لا تغنى بحال عن تدبر الوحدة العضوية للآيات فى السورة، والسورة مع قرينتها، للانفتاح على القرآن كله موضوعاً وحكمة وغاية.

لهذا كان العرض السابق كله عن أسلوب القرآن تمهيداً ضرورياً للوصول إلى فهم الوحدة العضوية بين آيات السورة، وبين سور القرآن. فالآيات تدور حول محور السورة كما تدور الكوا كب حول شمسها، وتتناغم السورة مع قرينتها كما يتناغم نجمان معاً فى الحركة عبر الآفاق. والسورة لغة معناها: الشرف أو الإحاطة، كما يحيط السور بالمدينة والسوار بالمعصم.

وقد ذكرنا أن الموضوعات العلوية فى القرآن، وهى حقيقة الألوهية وحقيقة اليوم الآخر، حق مطلق، من أجلها قامت السماوات والأرض، وعلى محورها يتحرك الوجود. وعلى أساسها العقيدى يدور ابتلاء الإنسان فى الأرض، ومن أجلها يسير التاريخ لغايته، وتتوالى الحضارات نمواً واندحاراً، وحول هذه الغاية يتحدث القرآن أمراً ونهياً، وترغيباً وترهيباً، ووعداً ووعيداً. وعليها يكون الخوف والرجاء، والحب والولاء، والكره والبراء، والمودة والعداء. وإليها يكون البعث والحساب والجزاء فى الجنة أو النار. هذه الموضوعات العلوية هى لحمة السورة وسداها، وهى التى تظهر للوهلة الأولى التشابه بينها، كما يتشابه الناس والأشياء، ثم بالتدبر والاقتراب يتبين التمايز والتفرد. على سبيل المثال: إذا نحن أردنا أن نرى الفرق بين إنسان وإنسان، نجد أنه يصعب التمييز للوهلة الأولى بين الناس، إذا كان التمييز فى الشكل العام والتقسيم الحيوى، وإنما يسعفنا التعرف إليه من خلال سلوكه وتاريخه، من روحه واهتماماته، ولو أردنا التمييز بين مدينة أوربية وأخرى آسيوية لن تسعفنا ابتداء التفرقة بينها فى المبانى والشوارع، ولكن يسعفنا التاريخ والقيم التى يعيش عليها أهلها، والسورة كذلك.

ولو جاز لنا أن نضرب المثال على هذا، لنتصور تقديم موضوع معين وليكن دراسة لحياة إنسان، إننا نبدأ فى تصويره من البيئة التى تحيط به والزمان الذى يعيش فيه، ثم نهبط إلى قومه فمدينته فشارعه فبيته، ثم نركز على شخصه، ونظل نتابع شخصه من خلال الزمان والمكان، فنتحرك معه من خلال مكان آخر وزمان آخر. وفى السورة نتحرك إلى موضوعها من خلال حشد هائل من ملكوت السموات والأرض من ناحية المكان، ومن امتداد الدنيا إلى الآخرة من ناحية الزمان، ومن عالم الشهادة إلى عالم الغيب فى العرفان، حتى نصل إلى المطلوب عمله لتحقيق الغاية المراد نيلها.

ففى سورة الشمس ندخل من الشمس وضحاها، والقمر إذا تلاها، والنهار إذا جلاها والليل إذا يغشاها، إلى السماء وما بناها والأرض وما طحاها، لنصل إلى النفس الإنسانية بغرائزها وأشواقها، تنبيهاً إلى فلاح من زكاها وخيبة من دساها، ثم نعبر عبرة التاريخ تنبيهاً إلى ما أصاب ثمود بالطغيان، حتى أهلكتهم الذنوب، وكان عاقبتهم الخسران.

يقول الدكتور دراز: "وهذا الباب من أبواب البحث والاستنباط الذى لا يمس أصلاً من أصول الدين، ولا يحل حراماً أو يحرم حلالاً، لايزال مفتوحاً لكل مسلم أعطاه الله فهماً فى

كتابه، على شريطة القصد والأناة فى سبر العقل، مع الاستفادة فى هذا السير بمصباحين مـــن اللغة والشرع [1].

فالسياسة الرشيدة فى دراسة النسق القرآنى تقضى بأن يكون هذا النحو من الـــدرس هـــو الخطوة الأولى فيه، فلا يتقدم الناظر إلى البحث فى الصلات الموضعية بين جزء وجزء منه، وهى تلك الصلات المبثوثة فى مثانى الآيات ومطالعها ومقاطعها، إلا بعد أن يحكم النظر فى السورة كلها بإحصاء أجزائها وضبط مقاصدها، على وجه يكون معواناً على السير فى تلك التفاصيل عن بينة، فقديماً قال الأئمة: إن السورة مهما تعددت قضاياها فهى كلام واحد يتعلق آخـــره بأوله، وأوله بآخره، ويترامى بجملته إلى غرض واحد، كما تتعلق الجمل بعـــضها بـــبعض فى القضية الواحدة، وإنه لا غنى لمتفهم نظم السورة عن استيفاء النظر فى جميعها، كما لا غنى عن ذلك فى أجزاء القضية.

وبهذا تعرف مدى الخطأ الذى يتعرض له الناظرون فى المناسبات بين الآيات، حين يعكفون على بحث تلك الصلات الجزئية بينها بنظر قريب إلى القضيتين أو القضايا المتجاورة، غير مادين أبصارهم عن هذا النظام الكلى الذى وضعت عليه السورة فى جملتها، كمثل امرئ عرضـــت عليه حلة موشية دقيقة الوشى، ليتأمل نقوشها فجعل ينظر فيها خيطاً ورقعة رقعة، لا يجـــاوز بصره موضع كفه، فلم يجد فيها من حسن الجوار بين اللون واللون ما يروقه، حتى إذا ألقـــى على الحلة كلها نظرة جامعة تنتظم أطرافها وأوساطها، بدا له من تناسق أشكالها ودقة صنعها ما هو أبهى وأبهر، فكذلك ينبغى أن يصنع الناظر فى تدبره لنظم السورة من سور القرآن [2].

علم المناسبة

عندما نتحدث عن موضوع السورة لا نتحدث عن أمر جديد فى علوم القرآن، فقد سبق إلى التنبيه على أهميته الكثير من علماء المسلمين.

يقول السيوطى فى موضوع مناسبة الآيات والسور إنه: " أفرده بالتأليف العلامة أبو جعفر بن الزبير، شيخ ابن حبان، فى كـــتاب سماه (البرهان فى مناسبة ترتيب سور القرآن)، ومـــن أهل العصر الشيخ برهان الدين البقاعى، فى كتاب سمـــاه: (نظـــم الـــدرر فى تناســـب الآى

---

(١) د. محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم ص ١٦٨.

(٢) د. محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم ص ١٥٣- ١٥٨.

والسور)، وكتابي الذى صنفته فى أسرار التنزيل، كافل بذلك، جامع لمناسبات السور والآيات، مع ما تضمنه من بيان وجوه الإعجاز وأساليب البلاغة، وقد لخصت منه مناسبة السور خاصة فى جزء لطيف سميته: (تناسق الدرر فى تناسب السور).

وعلم المناسبة علم شريف، قل اعتناء المفسرين به لدقته، وممن كثر فيه الإمام فخر الدين، وقال فى تفسيره: أكثر لطائف القرآن مودعة فى الترتيبات والروابط.

وقال ابن العربى فى (سراج المريدين): ارتباط آى القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة، متسقة المعانى منتظمة المبانى، علم عظيم، لم يتعرض له إلا عالم واحد، عمل فيه سورة البقرة، ثم فتح الله لنا فيه، فلما لم نجد له حملة، ورأينا الخلق بأوصاف البطلة، ختمنا عليه، وجعلناه بيننا وبين الله ورددناه إليه.

وقال الشيخ ولى الدين الملوى: قد وهم من قال لا يطلب للآي الكريم مناسبة، لأنها على حسب الوقائع المفرقة، وفصل الخطاب أنها على حسب الوقائع تنزيلاً، مرتبة سوره كلها وآياته بالتوقيف، كما أنزل جملة إلى بيت العزة، ومن المعجز البين أسلوبه ونظمه الباهر، والذى ينبغى فى كل آية أن يبحث أول كل شئ عن كونها مكملة لما قبلها أو مستقلة، ثم المستقلة ما وجد فى مناسبتها لما قبلها؟ ففى ذلك علم جم، وهكذا فى السور، يطلب وجه اتصالها بما قبلها، وما سيقت له [1].

ويقول: "قال بعض المتأخرين: الأمر الكلى المفيد لعرفان مناسبة الآيات فى جميع القرآن، هو أنك تنظر إلى الغرض الذى سيقت له السورة، وتنظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات، وتنظر إلى مراتب تلك المقدمات فى القرب والبعد من المطلوب، وتنظر عند انجرار الكلام فى المقدمات، إلى ما يستتبعه من استشراف فى نفس السامع إلى الأحكام واللوازم التابعة له، التى تقتضى البلاغة شفاء الغليل بدفع عناء الاستشراف إلى الوقوف عليها، فهذا هو الأمر الكلى المهيمن على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن، فإذا فعلته تبين لك وجه النظم مفصلاً، بين كل آية وآية فى كل سورة [2].

من هذا النوع مناسبة فواتح السور وخواتمها.. انظر إلى سورة القصص كيف بدئت بأمر موسى ونصرته، وقوله:﴿ **فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ**﴾ [القصص: ١٧]، وخروجه من وطنه وختمت بأمر النبى ﷺ ﴿ **فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِّلْكَافِرِينَ**﴾ [القصص: ٨٦].

---

(١) السيوطى، الإتقان فى علوم القرآن ج ٣ ص ٢ ٣٢، ٣٢٣، المكتبة العصرية ١٩٨٨.

(٢) نفس المصدر، ص ٣٢٧، ٣٢٨.

وقد جعل الله فاتحة سورة المؤمنين: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون:١]، وأورد فى خاتمتها: ﴿إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧].

وكافتتاح سورة البقرة بقوله تعالى: ﴿ الـم (١) ذَلِكَ الكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ١-٢] فإنه إشارة إلى الصراط المستقيم، كأنهم لما سألوا الهداية إلى الصراط، قيل لهم ذلك الصراط الذى سألتم الهداية إليه هو الكتاب، وهذا معنى حسن يظهر فيه ارتباط سورة البقرة بالفاتحة.

ومن لطائف سورة الكوثر أنها كالمقابلة للتى قبلها، لأن السابقة وصف الله فيها المنافق بأربعة أمور: البخل، وترك الصلاة، والرياء فيها، ومنع الزكاة، فذكر فيها مقابلة البخل: "إنا أعطيناك الكوثر، أى الخير الكثير، وفى مقابلة ترك الصلاة: فصل، أى دم عليها، وفى مقابلة الرياء، لربك أى لرضاه لا للناس، وفى مقابلة منع الماعون، وانحر، وأراد به التصدق بلحم الأضاحى". [1]

يقول البقاعى:

" فعلم مناسبات القرآن علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه، وهو سر البلاغة لأدائه إلى تحقيق مطابقة المعانى لما اقتضاه من الحال. وتتوقف الإجادة فيه على معرفة مقصود السورة المطلوب ذلك منها. ويفيد ذلك معرفة المقصود من جميع جملها فلذلك كان هذا العلم فى غاية النفاسة، وكانت نسبته من علم التفسير نسبة علم البيان من النحو....

وبهذا العلم يرسخ الإيمان فى القلب، ويتمكن من اللب. وذلك أنه يكشف أن للإعجاز طريقين:

١- نظم كل جملة على حيالها بحسب التركيب.

٢- نظمها مع أختها بالنظرإلى الترتيب.

والأول أقرب تنازلاً وأسهل ذوقاً، فإن كل من سمع القرآن من ذكى وغبى يهتز لمعانيه وتحصل له عند سماعه روعة بنشاط، ورهبة مع انبساط، لا تحصل عند سماع غيره. وكلما دقق النظرفى المعنى، عظم عنده موقع الإعجاز.

ثم إذا عبر الفطن من ذلك إلى تأمل ربط كل جملة بما تلته وما تلاها خفى عليه وجه ذلك، ورأى أن الجمل متباعدة، والأغراض متنائية المقاصد. فظن أنها متنافرة، فحصل له من القبض

---

(١) نفس المصدر ج ٣ ص ٣٣٢، ٣٣٣.

والكرب أضعاف ما كان حصل له بالسماع من الهز والبسط، ربما شككه ذلك بكثير، وزلزل إيمانه وزعزع إيقانه. وربما وقف مكيس من أذكياء الخالفين عن الدخول فى هذا الدين بعـــدما وضحت لديه دلائله، وبرزت له من حجالها دقائقه وجلائله، لحكمة أرادها منزله، وأحكمها مجمله ومفصله. فإذا استعان بالله وأدام الطرق لباب الفرج بإنعام التأمل وإظهار العجز والوثوق بأنه من الذروة من أحكام الربط، كما كان فى الأوج من حسن المعنى واللفظ، لكونه كـــلام من جل عن شوائب النقص وحاز صفات الكمال، إيماناً بالغيب وتصديقا للرب.. انفتح لـــه ذلك الباب ولاحت له من ورائه بوارق أنوار تلك الأسرار، رقص الفكرمنه طرباً، وشكرا لله استغراباً وعجباً، وشاط لعظمة ذلك جنانه، فرسخ من غير مرية إيمانـــه، ورأى أن المقـــصود بالترتيب معان جليلة الوصف بديعة الرصف عالية الأمر عظيمة القدر، مباعدة لمعانى الكـــلام على ألها منها أخذت. فسبحان من أنزله وأحكمه وفصله وغطاه وجلاه وبينه غايـــة البيـــان وأخفاه.

وبذلك أيضاً يوقف على الحق من معانى آيات حار فيها المفسرون لتضييع هذا الباب مـــن غيرارتياب، فينكشف لك غامض معناه.

وبه يتبين لك أسرار القصص المكررات، وأن كل سورة أعيدت فيها قصة فلمعنى أدعى فى تلك السورة، استدل عليه بتلك القصة غير المعنى الذى سيقت له فى السورة السابقة، ومن هنا اختلفت الألفاظ بحسب تلك الأغراض، وتغيرت النظوم بالتأخير والتقديم، والإيجاز والتطويل، مع أنه لا يخالف شيء من ذلك أصل المعنى الذى تكونت به القصة، وعلى قدر غموض تلك المناسبات يكون وضوحها بعد انكشافها.

ولا تظن أيها الناظر لكتابى هذا أن المناسبات كانت كذلك قبل الكشف لقناعها والرفـــع لمستورها، فرب آية أقمت فى تأملها شهورا.. ومن أراد تصديق ذلك فليتأمل شيئا من الآيات قبل أن ينظر ما قلته، ثم لينظره يظهر له مقدار ما تعبت، وما حصل لى مـــن قبـــل الله مـــن العون.[1]

إعجاز القرآن

وهنا تتجلي معجزة أخرى من معجزات القرآن الكريم أنه نزل منجما حسب النوازل، ثم كان ترتيب سور القرآن علي ماهو عليه في مصحفنا توقيفا عن النبي ﷺ،في العرض الأخـــير.

---

(١) البقاعي: نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور، ج١ ص ٥- ٩ دار الكتب العلمية ١٩٩٥م.

وقد ذكر أبو بكر الأنبارى في كتاب الردّ:" أن الله تعالي أنزل القرآن جملة إلي سماء الدنيا،ثم فرق علي النبي ﷺ في عشرين سنة، وكانت السورة تنزل في أمر يحدث، والآية جوابا لمستخبر يسأل، ويوقف جبريل رسول الله ﷺ علي موضع السورة والآية،فاتساق السور كاتساق الآيات والحروف، فكله عن محمد خاتم النبيين،عليه السلام عن رب العالمين، فمن أخّر سورة مقدمة أو قدّم أخرى مؤخرة فهو كمن أفسد نظم الآيات، وغيّر الحروف والكلمات، ولاحجة علي أهل الحق في تقديم البقرة علي الأنعام، والأنعام نزلت قبل البقرة لأن رسول الله ﷺ أخذ عنه هذا الترتيب، وهو كان يقول: " **ضعوا هذه السورة موضع كذا وكذا من القرآن** ". وكان جبريل عليه السلام يقفه علي مكان الآيات." (١)

يقول القرطبي:" قال أبو بكر: فمن عمل علي ترك الأثر والإعراض عن الإجماع ونظم السور علي منازلها بمكة والمدينة، لم يدر أين تقع الفاتحة لاختلاف الناس في موضع نزولها، ويضطر إلي تأخير الآية في رأس خمس وثلاثين ومائتين من البقرة إلي رأس الأربعين، ومن أفسد نظم القرآن فقد كفر به، ورد علي محمد ﷺ ماحكاه عن ربه تعالي." (٢)

يقول الدكتور عبد الله دراز: " أما العرب الذين تحداهم القرآن بسورة منه فلقد علمت لو أنهم وجدوا في نظم سورة منها مطمعا لطامع، أو مغمزا لغامز، لكان لهم معه شأن غير شأنهم، وهم هم.

وأما البلغاء من بعدهم فما زلنا نسمعهم يضربون الأمثال في جودة السبك وإحكام السرد بهذا القرآن حيث ينتقل من فن إلي فن.

وأما أنت فأقبل بنفسك علي تدبر هذا النظم الكريم لتعرف بأى يد وضع بنيانه، وعلي أى عين صنع نظامه؟ حتي كان كما وصفه الله ﴿ قُرْآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ [الزمر آيه ٢٨].

اعمد إلي سورة من تلك السور التي تتناول أكثر من معني واحد، وما أكثرها في القرآن، فهي جمهرته – وتنقل بفكرتك معها مرحلة مرحلة،ثم ارجع البصر كرتين: كيف بدئت؟ وكيف ختمت؟ وكيف تقابلت أوضاعها وتعادلت ؟ وكيف تلاقت أركانها وتعانقت ؟ وكيف ازدوجت مقدماتها بنتائجها ووطأ أولاها لأخراها ؟..

وأنا لك زعيم بأنك لن تجد البتة في نظام معانيها أو مبانيها ماتعرف به أكانت هذه السورة قد نزلت في نجم واحد أم في نجوم شتي، ولسوف تحسب أن السبع الطوال من سور القرآن قد نزلت كل واحدة منها دفعة،حتي يحدثك التاريخ أنها كلها أوجلها قد نزلت نجوما. أو لتقولن

---

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ٥٢.

(٢) تفسير القرطبي ج ١ ص ٥٤.

إنها إن كانت بعد تنزيلها قد جمعت عن تفريق، فلقد كانت في تنزيلها مفرقة عن جمع، كمثل بنيان كان قائما علي قواعده فلما أريد نقله بصورته إلي غير مكانه قدرت أبعاده ورقمت لبناته، ثم فرق أنقاضا،فلم تلبث كل لبنة منه أن عرفت مكانها المرقوم، وكذا البنيان قد عاد مرصوصا يشد بعضه بعضا كهيئته أول مرة.

أجل، إنك لتقرأ السورة الطويلة المنجمة،يحسبها الجاهل أضغاثا من المثاني، حشيت حشوا، وأوزاعا من المباني جمعت عفوا،فإذا هي – لو تدبرت – بنية متماسكة قد بنيت من المقاصد الكلية علي أساس وأصول، وأقيم علي كل أصل منها شعب وفصول، وامتد من كل شعبة منها فروع تقصر أو تطول،فلا نزال نتنقل بين أجزائها كما تتنقل بين حجرات وأفنية في بنيان واحد قد وضع رسمه مرة واحدة. لاتحس بشئ من تناكر الأوضاع في التقسيم والتنسيق، ولابشئ من الانفصال في الخروج من طريق إلي طريق،بل ترى بين الأجناس المختلفة تمام الألفة،كما ترى بين آحاد الجنس الواحد نهاية التضام والالتحام ؛ كل ذلك بغير تكلف ولا استعانة بأمر من خارج المعاني أنفسها، وإنما هو حسن السياقة، ولطف التمهيد في مطلع كل غرض ومقطعه وأثنائه. يريك المنفصل متصلا، والمختلف مؤتلفا...

أى تدبير محكم، وأى تقدير مبرم، وأى علم محيط لايضل ولاينسي، ولايتردد ولايتمكث،كان قد أعد لهذه المواد المبعثرة نظامها، وهداها في إبان تشتيتها إلي ماقدره لها، حتي صيغ منها ذلك العقد النظيم، وسرى بينها هذا المزاج العجيب؟...

أليس ذلك وحده آية بينة علي أن هذ النظم القرآني ليس من وضع بشر، وإنما هو من صنع العليم الخبير ؟

فتالله لو أن السورة رتبت بعد تمام نزولها، لكان جمع اشتاتها علي هذه الصورة معجزة فكيف وكل نجم منها – كسائر النجوم في سائر السور – كان يوضع في رتبته من فور نزوله، وكان يحفظ لغيره مكانه انتظارا لحلوله. وهكذا كان مالم يترل منها معروف الرتبة محدد الموقع قبل أن يترل...

لعمرى لئن كانت للقرآن في بلاغة تعبيره معجزات، وفي أساليب ترتيبه معجزات، وفي نبراته الصادقة معجزات، وفي تشريعاته الخالدة معجزات، وفي كل ما استخدمه من حقائق العلوم النفسية والكونية معجزات، لعمرى إنه في ترتيب آيه علي هذا الوجه لهو معجزة المعجزات."[1]

(١) د. محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم، مطابع السعادة ١٣٨٩هـ ص١٤٨-٢٠٩.

وهنا تظهر معجزة أخري من معجزات القرآن حين نتـــدبر القـــرآن ممثلـــة في الوحـــدة الموضوعية للسورة رغم تباين أوقات النزول.

وصدق الله العظيم: ﴿ **أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً (٨٢)** ﴾ [النساء: ٨٢]

منهج البحث

سبق أن بينا أنه في عصرنا هذا نجد أن منهج المعرفة ومنطلق الرؤى الفكرية ينجذب بشدة إلي مصادر من المعرفة تحجبها عن القرآن،منها:

١- الغزو الفكرى الغربي الذى يرفض الغيب ويعلي من شأن العقل، وغلبة عقلية الهزيمـــة التي تعتبر الغرب مصدرا صحيحا للمعرفة، ولاتستطيع أن تفرق بين إنجازات التقدم في المجـــال المادى وآفات التخلف في المجال النفسي والروحي.

٢- عقلية التقليد التي تعودت أن تعرف القرآن همهمات تتلي في الميتم والمفرح، والتوســـل والتبرك. ولايتحرك تعاملنا مع القرآن إلا من متطلبات الواقع. أى أننا نبحث هما مـــن همـــوم العصر،أو يشدنا إنجاز من إنجازاته،أو يقلقنا آفة من آفاته. ثم نحمل القرآن عليه أو نعتـــبره في أحسن الأحوال مرجعا نستفتيه عند الحاجة. أما التلقي منه لإخراج خير أمة وتحقيـــق أعظـــم رسالة، فهذا غائب تماما.

٣- أننا نتعامل مع القرآن آية آية بشكل مجزءا لايتصل بالكل في السورة. وهـــذا يفقـــدنا الكثير من الإدراك. فعندما تأخذ جزء من كل تجد نفسك بعيدا عن إدراك الحكمة والجمـــال والعكس حين ترى الصورة متكاملة منسجمة.

كما أن القرآن الكريم يوجه إشعاعاته النورانية لكل عصر من زوايا مختلفة،تسقط هدايتـــه علي كل مكان وكل زمان،حسب اختلاف موقعه وتوالي تتابعه. وعلم المناسبة يسعفنا كـــثيرا في إدراك هذا البعد والتفاعل معه في دقة وصواب،دون جمود أو تفلت.

وحتي نرفع عن العقل المسلم في تدبره للقرآن كل هذا الركام من ضغوط الواقع والغـــزو الفكرى والتقليد،نحتاج إلي إدراك لهذه المعوقات، ونحتاج لـــذلك إلي منطلقـــات جديـــدة في الفهم،تدرك ابتداء خصائص المنهج القرآني وموضوعاته وأهدافه.

ومن الناس من يعترض علي هذا المنحي في تدبر القرآن،فيرى أن البحث عـــن موضـــوع السورة يؤدى إلي تباين الأقوال وتشتتها، لاعتمادها علي منهج غير منضبط. ويدللون علـــي

ذلك بمحاولات معاصرة لتقديم الموضوع،تباينت فيها رؤى الدارسين، ويحتجون بذلك أنه لو كانت للرؤيا الموضوعية أصل لكان هناك حد أدنى من اللقاء بينهم.[1]

وحتى نبين خطأ هذا الرأى، نؤكد ضرورة اتباع منهج محدد للبحث عن موضوعات السور يعتمد على المسلمات الآتية:-

١-لما كان من المستحيل بيان حقائق الغيب كأسماء الله وتفاصيل الآخرة، لأن ذلك من المتشابه الذى لايعلم تأويله إلا الله، ومن ثم نأخذها في موضوع هذه الدراسة كما هي دون تأويل أو تشبيه، ولأنها لحمة القرآن وسداه يصعب تتبع الموضوع عن طريق تدبرها.

٢-كذلك فإن الموضوعات التفصيلية كالزواج والطلاق والصلاة والزكاة والتقوى والإحسان لاتنفرد سورة بكل منها،شأن الكتب المتخصصة، وإنما تتوزع على سور القرآن في شكل يتكامل على مستوى القرآن كله لا على مستوى سورة واحدة، لحكمة أرادها الله في أن تعبركل سورة عن القرآن كله،فتصبح زادا متكاملا في كل يوم، وصلة تصل المؤمن بربه وآخرته.

ومن ثم فإن تتبع هذه الموضوعات كمؤشر لوحدة السورة يقودونا إلى فهم موضوع السورة. وإن كنا نوقن أن كل سورة لها خصائصها الذاتية أيضا في علوم الغيب ومناهج التربية، ولكن إدراك ذلك عميق عمق التعرف على حقائق الغيب وجوانب النفس.

٣- من الممكن أن نعرف موضوع السورة بتتبع الأمر و النهي في السورة،فنجد في سورة النور يظهر موضوع العفة في سياق التوجيهات على سبيل المثال.

٤- ويقدم لنا تكرار اللفظ الواحد في السورة مؤشرا آخر لتحديد موضوعها.. كما نجد ذلك في تكرار لفظي الولاء والبراء في سورتي الأنفال والتوبة.

٥- كما يرشد العقل في التعرف على موضوع السورة تتبع الصلة بين السورة والتي قبلها والتي بعدها، وموقعها في مجموعة السور التي تتجاور معها.

٦-إذا توافق شرح موضوع السورة مع تتابع الآيات في السورة وفق العرض الأخير بالمصحف،كان ذلك دليلا على سلامة الوصول إلى الموضوع، وإذا حدث تباين بين شرح الموضوع و تتابع الآيات لزم معاودة النظر في اكتشاف الموضوع.

وباستخدام هذه المؤ شرات تتحقق دقة كبير ة في معرفة الموضوع، وتتسع دائرة الاتفاق بين الباحثين. وبدون هذه المؤشرات تتباين الآر اء وتتعدد التفسيرات.

---

(١) د. رجب بيومي، التفسير الموضوعي للقرآن، مجلة التضامن الإسلامي ص ٣٠-٣٨.

إن نطاق هذا المبحث محدد في تحديد موضوع السورة بمعرفة الصلة والروابط العضوية بين الآيات في السورة، وبين السور بعضها البعض، لذلك فإن الموضوع لايتعرض بشكل أصلي للمباحث اللغوية ولا للأحكام الشرعية ولا للحقائق التاريخية. فهو ليس دراسة في الفقه، وليس عرضا لإعجاز القرآن في هذه المناحي. وهذا الميدان الجهد فيه كبير، والمراجع متوفرة، والخلاف فيه قليل، ولكنه لايتصل بشكل مباشر بموضوع المناسبة.

ولاننكر أن العصر يحتل فيه العقل مكانا هاما في الاقتناع والمبادرة. ومن ثم كان خطاب العقل ضروريا في الدعوة إلى الله،خصوصا في العالم الغربي، وهذا ما أكده القرآن الكريم بدعوته إلى التفكر بعقلانية في خلق السماوات والأرض، وفي تدبر انسجام ووحدة آيات وسور القرآن الكريم، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا. وعلم المناسبة يقدم الكثير في هذا المجال، ويقدم معه الزاد الروحي الذى يشقي الغرب بفقدانه ولايهتدى إلى طريق يشفيه من شقوته وخسرانه.

ونلاحظ أهمية علم المناسبة في ترجمة القرآن الكريم إلى اللغات المختلفة. فالكلمة الواحدة لها مرادفات عدة،تتلاءم كل واحدة منها مع مناسبة خاصة بها. واكتشاف موضوع السورة يساعد المترجم كثيرا في التعبير عن مراميها،بعكس ما لوتعامل مع كل آية وحدها بعيدة عن صلتها بغيرها في السورة. وبلاشك تعجز ترجمة القرآن إلى لغة أخرى عن نقل إعجازه البياني واللغوى الذى يؤثر في جوانب النفس،فلا أقل من أن يبقي إعجازه الموضوعي والعقلي، وعلم المناسبة يقدم لنا الكثير في هذا الخصوص، ويساعدنا في اقتراب الترجمة ما أمكن من فهم القرآن، وذلك مانفتقده كثيرا في الترجمات المعاصرة.

وننبه أنه ليس الهدف من البحث مايسمي مجازا بالتفسير الموضوعي، وهو جمع توجيهات القرآن في موضوع بعينه كالعدل والحلم أو الزواج والطلاق أو الزكاة والربا، بجمع الآيات الواردة فيها علي صعيد واحد،ثم دراستها وتبويبها. فهذا خارج نطاق البحث. وكما يحدث عند عدم وجود منهجية في إدراك موضوع السورة من اضطراب البحث في علم المناسبة،فإنه يحدث أيضا حين يحشد باحث آيات كثيرة في موضوع صغير، وعلم الله أن آية واحدة تقيم نظاما متكاملا.

وحتي لايساء الفهم،فإننا هنا نبدأ من أمر دعا إليه علماء المسلمين قديما وحديثا بإلحاح، وهو علم المناسبة. فلسنا بذلك ابتداء نبحث في مجال من اجتهادنا وإنما عن أمر أقره وباركه علماء المسلمين.

كما أننا لانتعرض للتفسير مباشرة،فعند شرح الآية ننقل حرفيا من عمد المفسرين مافسروا به القرآن الكريم،فإنه من العته أن نترك جانبا جهد قرون طوال من علماء أفذاذ في الدرس والتحصيل،هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن علم التفسير يحتاج إلي مؤهلات عالية من معرفة أسباب النزول وعلوم اللغة وأحكام الشريعة، لاندعيها لأنفسنا.

وأذكر الباحثين أنه لم يكن غريبا أن نشاهد في كتب الفقه والتفسير اتفاق النقول حتي في اللفظ والأسلوب، دون الالتزام بالمرجعية في شكلها الحديث، ولم تظهر أى حساسيات لأن الهدف الأعظم كان خدمة هذا الدين ورد الكسب العلمي إلي الله. ولكننا التزمنا بمنهج العصر فرددنا كل قول لصاحبه، يرى ذلك القارئ في هامش البحث حيث يرد كل تفسير لصاحبه، ومعذرة حيث لم يذكر اسم المفسر قبل النص حرصا علي أن يستمر تتابع الفهم دون توقف.ويمكن،إن شاء الله،إن سلم العرض وحاز القبول،أن يعرض الموضوع بأسلوب واحد مبسط للقارئ العادى.

وهذا يعني أننا اخترنا من علوم التفسير مايناسب موضوع السورة ومناسبة الأيات، وابتعدنا عن المناقشات التاريخية والخلافات الفقهية، لأنها وإن كانت لازمة كزاد للمحققين والمجتهدين،فهي ليست ضرورية لنا في هذه المرحلة من فتح مغاليق القلوب علي أنوار القرآن الكريم.

وهذه الدراسة تأخذ هذا الطريق،بعد عمر طويل من البحث، وفي مداومةخريف العمر، وذلك بعد يقين لاشك فيه،أن الفلاح لن يكون إلا بالتلقي الكامل والطاعة والاتباع للقرآن الكريم. وأولي الخطوات الضرورية أن نترك القرآن وحده يحدد لنا الصراط المستقيم،فنتلقي من سوره حسب ترتيبها معالم الحق والهدى كما أراد الله، ونحكم من بعد ذلك علي واقعنا وعصرنا من منطق القرآن وترشيده.

وكاتب هذا البحث يعرف حدوده وإمكاناته، ولهذا يعتذر لقارئه ابتداء عن عجزه عن توصيل التأثير البلاغي والبياني إلي القارئ، وعزاؤه أن القارئ إذا وصل إلي القرآن بعقله،فإنه لايلبث أن ينفعل بأسلوب القرآن، ومن أقدر من القرآن علي ذلك.

وحرصت لذلك ألا يسبق رأيي مقصد السورة وأهدافها،فأسلمت عقلي لها تصيغه حيث شاءت، وحرصت ألا يتجاوز انفعالي وصياغتي بعض مايريده القرآن من خطاب العقل، وحسبي أن أساعد في الوصول إلي مشارف أفق القرآن. أما خطاب القرآن لكل جوانب النفس البشرية،بكل مايهمها زمانا ومكانا،فهذا لايطيقه إلا الله تعالي.

والبحث سيركز علي الكشف عن معجزتين للقرآن الكريم:

١- معجزة التناسق بين السور، والتناسق بين موضوع السورة وآياتها.

٢- إسقاط أنوار موضوع السورة علي مشكلات العصر،حيث تبين معجزة الإسلام في منهج الحياة.

ولا يتيسر فهم هدف البحث إلا لمن داوم علي قراءة القرآن وبذل الجهد في تدبره.

تجمعات السور الكبرى

يقول رسول الله ﷺ:"**الأنبياء إخوة لعلات،أمهاتهم شتي ودينهم واحد.**"[١]

ويلاحظ أن الشريعة تمثل بعدا كبيرا في رسالة موسي عليه السلام. والمسيح عيسي بن مريم عليه السلام جاء ليبعث الروح في معاملات الناس وأخلاقهم، وكان جوهر دعوته إلي الصلة المباشرة بالله تعالي، وكان مصدقا لما بين يديه من التوراة. ولهذا يقرأ إلي اليوم في إنجيل متي الإصحاح الخامس: لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء،ماجئت لأنقض بل لأكمل فإني،الحق أقول لكم،إلي أن تزول السماوات والأرض لا يزول حرف أو نقطة واحدة من الناموس،حتي يكون الكل.

فرسالة المسيح عليه السلام مكملة لرسالة سيدنا موسي عليه السلام، يقول السيوطي: "التوراة أصل والإنجيل فرع له."[٢]

ولكن المسيحيين رغم اعترافهم بالتوراة، وعدها من كتبهم المقدسة،إلا أنها انفصلت في حياتهم نتيجة عداء اليهود. وبهذا لم يعد للنصارى بهذا الانفصال شريعة مفصلة تنظم الحياة. ثم حدث التحريف والتبديل، ولذلك عندما نتحدث هنا عن التوراة والإنجيل إنما نتحدث عن وحي قبل تحرف وعن كتب قبل تبديل.

يقول رسول الله ﷺ:

"**أعطيت مكان التوراة السبع وأعطيت مكان الزبور المئين وأعطيت مكان الإنجيل المثاني وفضلت بالمفصل.**" رواه أحمد والطبراني بنحوه. وفي رواية أخرى:

---

(١) البخارى ج٤ ص ١٦٦.

(٢) السيوطي، الاتقان في علوم القرآن ج٢ ص ١٩٢ المكتبة الثقافية ١٩٧٣م.

"أعطاني ربي السبع الطول مكان التوراة والمئين مكان الإنجيل وفضلت بالمفصل.."[1]

وفي السبع الطوال تبينت لنا المقومات الأساسية للأمة، وكانت الأحكام الشرعية تشغل مساحة كبيرة فيها.

وفي المئين نجد منظومة أخلاقية اجتماعية،يربي الله تعالي بها المجتمع المسلم علي القيم، ويصيغ علاقاته علي أساس من المثل والأخلاق.

ويعوزنا هنا في البدء قبل الدخول في تفصيل ذلك أن نقارن بين مبادئ الأخلاق الاجتماعية في الفكر الوضعي ومبادئها في الإسلام.

***

(١) في مجمع الزوائد للهيثمي: رواه الطبراني، وفيه زيد بن أبي سلمة، وقد ضعفه جماعة ويعتبر بحديثه، وبقية ورجاله رجال الصحيح. ج ٦ ص ١٦١.وفي رواية أخرى:قال رسول الله صلي اله عيه وسلم: إن الله أعطاني السبع مكان التوراة وأعطاني الراءات إلي الطواسين مكان الإنجيل وأعطاني مابين الطواسين إلي الحواميم مكان الزبور وفضلني بالحواميم والمفصل ماقرأهم نبي من قبلي. ضعيف الجامع الصغير الألباني ج١.

الثلث الأول من القرآن الكريم

مقومات الأمة

الثلث الأول من القرآن الكريم
مقومات الأمة

يقول تعالي: **﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (٨٧)﴾ [الحجر: ٨٧]**

عن ابن عباس قال: أوتي رسول الله ﷺ سبعا من المثاني الطول، وأوتي موسي عليه السلام ستا،فلما ألقي ألألواح رفعت ثنتان، وبقي أربع. [١] "[٢]

وباستخدام المنهج السابق في تدبر القرآن يمكن أن نكشف عن المقومات الأساسية للأمة المسلمة التي تقوم عليها حضارتها.

فقد احتوت سورة الفاتحة علي أمهات هذه المقومات.

واهتمت سورة البقرة بتبيان الأساس الاجتماعي والاقتصادى للأمة و بينت سورة آل عمران الأساس الأخلاقي لها. في رباط واضح يجمع السورتين.

بينما حددت سورة النساء حقوق الإنسان، ونظمت سورة المائدة حقوق الجماعة وواجباتها،في علاقة عضوية بين السورتين.

---

(١) صحيح سنن أبي داود ج ١ ص ٢٧٣، ص ٢٧٤ المكتب الإسلامي ١٩٨٩ تحقيق الألباني.

(٢) يقول القرطبي: اختلف العلماء في السبع المثاني:

فقيل: الفاتحة، قاله علي بن أبي طالب وأبو هريرة والربيع بن أنس وأبو العالية والحسن وغيرهم، وروى عن النبي ﷺ من وجوه ثابتة، من حديث أبي بن كعب وأبي سعيد بن المعلي..عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:[**" الحمد لله رب العالمين " أم القرآن وأم الكتاب السبع المثاني**].

وقال ابن عباس: هي السبع الطوال: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال والتوبة معا، إذ ليس بينهما التسمية... وسميت مثاني لأن العبر والأحكام والحدود ثنيت فيها...

وعن ابن عباس قال: أوتي رسول الله ﷺ سبعا من المثاني الطول، وأوتي موسي عليه السلام ستا،فلما ألقي ألألواح رفعت ثنتان، وبقي أربع صحيح سنن أبي داود ج ١ ص ٢٧٣، ص ٢٧٤ المكتب الإسلامي ١٩٨٩ تحقيق الألباني.

وقيل: المثاني القرآن كله، قال الله تعالي: " كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ " هذا قول الضحاك وطاوس وأبو مالك، وقاله ابن عباس. وقيل له مثاني لأن الأنباء والقصص ثنيت فيه.

وقيل المراد بالسبع المثاني أقسام القرآن من الأمر والنهي والتبشير والإنذار وضرب الأمثال وتعديد نِعَم، وأنباء قرون. قاله زياد بن أبي مريم. تفسير القرطبي، ج ٥ ص ٣٦٧٠-٣٦٧١ مطبعة الشعب

بينما اهتمت سورة الأنعام بمنهج الدعوة مروراً بسنن نهضة الحضارات واندحارها، اهتمت سورة الأعراف بقيم الدعاة مروراً ببيان مفاتيح تفسير التاريخ وقائع وغاية،في تكامل واضح بين السورتين.

بينما أخذت سورة الأنفال مهمة تحديد العلاقات الدولية للأمة المسلمة في مواجهة غيرها موضحة حقيقة الولاء،أخذت سورة التوبة في تحديد هذه العلاقة في جانب البراء،في تناسق واضح بين السورتين،يحدد أسس العلاقات الدولية في الإسلام.

وبهذا وضحت الصورة الحضارية للأمة المسلمة في مقوماتها الاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية، وعوامل قيام الحضارات واندحارها ومفاتيح تفسير التاريخ وفهمه، وحقوق الفرد وحاجاته، وفي رسالته وسنن نهضته، وفي علاقاته مع غيره حربا وسلاما.

هذه الحقائق سنقوم بالكشف عنها في السبع المثاني،حسب ترتيب القرآن الموحي من جبريل عليه السلام إلى رسول الله ﷺ.

***

سورة الفاتحة

سورة الفاتحة

سورة الفاتحة أم القرآن،يقول رسول الله ﷺ:

"لاصلاة لمن لم يقرأ بأم القرآن ".[1]

والفاتحة تشمل تحديدا للموضوعات العلوية التي أنعم الله بها علي الإنسان هدى ورحمة، وهي الإيمان والعمل الصالح.

وفيها يتعلم الإنسان كيف يبدأ أموره باسم الله، ويتجه إلي ربه بالحمد علي إنعامه، ويدعو ربه أن يهديه إلي الصراط المستقيم.

فكانت سورة الفاتحة أماً للقرآن، لأن القرآن جميعه مفصل من مجملها،فالآيات الثلاثة الأولي شاملة لكل معني تضمنته الأسماء الحسني والصفات العلي،فكل ما في القرآن من ذلك فهو مفصل من جوامعها.

والآيات الثلاث الأخرى قوله **(اهدنا)** شاملة لكل ما يحيط بأمر الخلق في الوصول إلى الله، والتحيز إلى رحمته والانقطاع دون ذلك،فكل ما في القرآن منه فمن تفصيل جوامع هذه.

وكل ما يكون وصلة بين ذلك،مما ظاهرهن من هذه،من الخلق ومبدؤه وقيامه من الحق، فمفصل من آية **﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾**.

١-الإيمان:

وفيها يبين الله تعالي للإنسان مالا يطيق معرفته من حقائق الغيب بعد أن تيقن من وجودها في الآفاق وفي نفسه. وهما حقيقة الألوهية وحقيقة الدار الآخرة.

أ- حقيقة الألوهية:

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

واسم الله يعني الجلال والجمال والحب والوله، وإليه تنسب أسمائه تعالي الحسني. ويطلق علي المعبود الحق.

---

(١) صحيح مسلم ج١ ص ١٦٧، ١٦٨.

ولا يسمي ولا يوصف بالرحمن غير الله، ويوصف بالرحيم غيره تعالي أحيانـــا. فالرحمـــة تشمل الكافر والمؤمن،أقامت بعمومها كل ما شملته الربوبية من أفاضة النعم فوســعت علـــى العباد الإستمتاع بالنعم الزائلة الموافقة لطباعهم وأمزجتهم،فهى رحمة بالإباحة،فعمت أولياء الله وأعدائه.أما فى الرحيم فخصص أولياءه بما ترضاه الإلهية من إدرار النعم ودفع النقم على الوجه المسعد خاصة،الذي يطهرهم من مضار أبدالهم ورجاسة نفوسهم، ومجهلة قلوبهم. فخــصص بالنعم الباقية أولياءه.[1]

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢)﴾

وهنا يستفتح كتاب الله المقروء بالحمد لله،كما بدأ الكون،كتاب الله المنظور ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ [الأنعام آية ١]. كما بدأ أيضا كتاب الزمان بالحمد:﴿ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَى وَالآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.[سورة القصص آية ٧٠]

والرب هو خالق كل شئ ومليكه وصاحب السلطان علي كل شئ سواه. فهو ســبحانه الذى يبدؤ الخلق ثم يعيده، وهو سبحانه له الخلق والأمر،فتبارك الله رب العالمين.

ب- حقيقة الآخرة:

﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤)﴾

لما تتره رب العالمين عن العبث،فكان البعث. فالآخرة هي الامتداد الحقيقي للدنيا. والدنيا دار ابتلاء،أما الآخرة فدار الجزاء.

٢-العمل الصالح:

لما كان هناك حكمة من الخلق وجزاء علي الحياة الدنيا، كان لابد من تكليف. والتكليف نوعان: شعيرة وشريعة.

أ- الشعيرة (العبادات):

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)﴾

وهنا يحدد الله للإنسان كيف يعبده في شعائر تسمو بروحه وتشفيها،فلا يتركها فيعصي الله وتشقي روحه، ولايغلو فيها فيبتدع ما لم يترل الله به سلطانا.

وشرطها الإخلاص ونبذ الشركاء فلا يقصد بها غير وجه الله،فقدم إياك علي نعبد.

---

(١) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآى والسور، ج ١ ص ٢٢، ٢٨، ٢٩، ٢٩١- دار الكتب العلمية ١٩٩٥.

فلابد للعمل ليكون صالحا أن يكون خالصا وصوابا.

ب- الشريعة:

﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦)﴾

وهو نظام الحياة الذى شرعه الله للبشر،هدى منه ورحمة.

﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾

وهي صحبة الذين أطاعوا الله ورسوله فيما أمر وانتهوا عما نهي: **﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقاً (٦٩)﴾**.[النساء آية ٦٩]

﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ الذين عرفوا الحق وجحدوه.

وقد وصف الله تعالي اليهود بقوله:**﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ (٦٠)﴾**. [سورة المائدة ٦٠]

﴿ وَلا الضَّالِّينَ﴾ الذين بعدوا عن الحق فتشتتوا في السبل.

وقد وصف الله تعالي النصارى بقوله:**﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ (٧٧)﴾**. [سورة المائدة ٧٧]

عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

" قال الله عزو جل: قسمت الصلاة بيني وبين عبدى شطرين،فنصفها لي ونصفها لعبدى، ولعبدى ماسأل ".

قال: فقال رسول الله ﷺ: **(اقرؤوا: يقول العبد:**

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فيقول الله عز وجل: حمدني عبدى، ولعبدى ماسأل. فيقول:

﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ فيقول: أثني علي عبدى، ولعبدى ماسأل،يقول:

﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ فيقول الله: مجدني عبدى،فهذا لي. وهذه الآية بيني وبين عبدى نصفين،

يقول العبد:

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فيقول الله يعني فهذه بيني وبين عبدى، ولعبدى ماسأل

يقول العبد:

﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧)﴾ فيقول الله فهذا لعبدى، ولعبدى ماسأل)[1].

(١) الألباني، صحيح سنن ابن ماجة، ج٢ ص ٣١٥.

سورة البقرة

أمة وسط

سورة البقرة
أمة وسط

مقدمة

تعتبر سورة البقرة أطول سور القرآن الكريم، وتحوى بين جنباتها الأسس الرئيسة للنظام الاجتماعي والاقتصادي للأمة المسلمة.

وتصف سورة البقرة الأمة المسلمة بصفة كلية هي أنها أمة مسلمة لله،ثم تبين خصائص هذه الأمة في منهاجها وتماسكها وغايتها،فهي أمة وسط وأمة واحدة وخير أمة أخرجت للناس.

يقول الأستاذ العقاد عن الأستاذ شارل دارون وهو غير صاحب نظرية التطور فى كتابه The Next Million Years "أن العقائد لها خاصية أخرى أقوم وأجدر بالالتفات إليها وذلك أنها تكفل الدوام للخطط الاجتماعية زمنا أطول من الذى تتكفل به أية فكرة عقلية، وفى التاريخ حالات عديدة تصدى فيها نخبة من الساسة المستنيرين لوضع سياسة يتوخون فيها المصلحة العامة ويقفون حياتهم فى إنجازها، وماهو إلا أن ينقضى جيلهم حتى يعقبهم ساسة آخرون ينقضونها إيثارا لطريقة غيرها من طرق المصلحة الإنسانية، فلا يطول أجل الخطة القائمة على العقل أكثر من جيل واحد، وهو أمد قصير جدا لا يكفى للتغلب على عقبات المصادفة ".[١]

والأمة المسلمة تمتد مع البشرية منذ استخلف الله الإنسان في الأرض. فالمؤمنون من أتباع الأنبياء جميعا سموا المسلمين عبر التاريخ.

يقول تعالي: ﴿وإذْ يَرْفَعُ إبْرَاهِيمُ القَوَاعِدَ مِنَ البَيْتِ وإسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ منَّا إنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا واجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ومن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وتُبْ عَلَيْنَا إنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ ويُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ والْحِكْمَةَ ويُزَكِّيهِمْ إنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ (١٢٩)﴾[البقرة ١٢٧-١٢٩]

---

(١) عقائد المفكرين فى القرن العشرين. العقاد ص ١٩١ دار الكتاب العربى طبعة ثانية ١٩٦٩.

لقد فشل الفلاسفة فى إيجاد خط معتدل تسير عليه الإنسانية على مدى الأجيال، فتصوروا أن الحركة الإنسانية تسير كلها فى هذه الذبذبات، ومن ثم كانت فلسفة التناقض هى الحـــق المطلق عند الشيوعيين وهى أصل الحركة. فالحقيقة عندهم لا تظهر كاملـــة إلا إذا مــــرت فى نقيضها. وسبب ذلك أن رسم منهج الحركة الأمثل للإنسان والمجتمع يلزمه معرفة ثاقبة محيطة بالوجود كله؟ لأن الإنسان يتأثر بظواهر البيئة المحيطة به فى ترابط متشابك، ويلزمـــه معرفـــة كاملة بالزمان لأن الحاضر متصل بالماضى، وهو نواة المستقبل. وذلك كله لن يتـــوافر لفــــرد أوجماعة أوجيل أو أجيال، لهذا حتى نهتدى إلى أحسن طريق أمام سبل شتى ممتدة أمام الاختيار فى كل أمر أن نستمد العلم من رب الوجود والتاريخ خـــالق الـــسماوات والأرض والـــدنيا والآخرة.

معنى الوسط

في معنى الوسط أقوال:

أحدها: أن الوسط هو العدل...

الثاني: أن الوسط من كل شئ خياره.

الثالث: أن الرجل إذا قال: فلان أوسطنا نسبا فالمعنى أنه أكثر فضلا وهذا وســـط فـــيهم كواسطة القلادة.

الرابع: يجوز أن يكون وسطا على معنى أنهم متوسطون في الدين بين المفرط والمفرّط والغالي والمقصر في الأشياء، لأنهم لم يغالوا كما غالت النصارى فجعلوا ابنا وإلها، ولا قصروا كتقصير اليهود في قتل الأنبياء وتبديل الكتب [1].

وفي قوله تعالى: ﴿ وكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وسَطًا﴾[2]. قال (ﷺ) في معناها عدلا[3]

والوحى أنزله الله للإنسانية ليحدد لها معالم سيرها على توالى العصور واختلاف الزمـــان. وهو سبحانه وتعالى بكل شىء عليم وبعباده رؤوف رحيم. ولهذا لايتعرض هذا التشريع لمـــا يتعرض له نتاج العقل الإنسانى نتيجة لظهور الظروف المتجددة على الدوام. والسر فى خلـــود

(١) الرازى، التفسير الكبير، ج ٤ ص ١٢٤.

(٢) سورة البقرة، آية ١٤٣.

(٣) صحيح سنن الترمدى ج٣ ص ٢٢.

التوجيه الإلهى فى الحياة طبيعة الوسط التى أشار إليها القرآن صفة للأمة المسلمة عند تطبيق شريعة الله لأن عنده يكون التوازن والعدل. وهو الفطرة أو النظام المناسب لطاقات الإنسان وتناسقه مع الوجود.

والوسط الذى نقصده ليس أوصافا أخلاقية؟ كوسط أرسطو، فهناك فضائل ليست وسطية كالصدق الذى يقابله الكذب، أما الوسطية فى الإسلام فهى حدود لمنهج الحركة فى طريق مستقيم إلى هدف، بعيد عن انحرافات فى سبل شتى تؤدى للضلال.

وإدراك حقيقة الوسط هنا فطرية ولهذا نجد إدراكها قديما فى الفكر البشرى على مدى الزمان. قال أرسطو: "إن الوسط بالنسبة إلى شيء هو النقطة التى على بعدين متساويين من كلا الطرفين والتى هى واحدة بعينها فى كل الأحوال. [1]

أما بالإضافة إلى الإنسان فالوسط هو الذى لا يعاب لا بالإفراط ولا بالتفريط. وكل إنسان عالم وعاقل يجهد نفسه فى إجتناب الإفراط من كل نوع سواء كان بالأكثر أم بالأقل، ولايطلب إلا الوسط القيم أو يفضله على الطرفين.

وحقيقة الوسط الذى توجده شريعة الله ليس هو أنصاف الحلول وليس هو نقطة بين طرفين كما صور أرسطو. إنما من معانيه الحسن والفضل والاعتدال والقصد والحكمة. إنه صراط الله المستقيم أى الإسلام محدد بمعالم ومتجه إلى غاية. حدوده أوامر الله التى تحقق الوسط، إن خرج عليها وقع فى محارم الله وانفلت عن الصراط المستقيم إلى السبل الشتى التى لاحدود لها ولاغاية تصل إليها. هذا الوسط يتحقق عنده التوازن، لاطغيان ولاخسران،يقول تعالي: ﴿ **والسَّمَاءَ رَفَعَهَا ووَضَعَ المِيزَانَ (٧) ألاَّ تَطْغَوْا فِي المِيزَانِ (٨) وأَقِيمُوا الوَزْنَ بِالْقِسْطِ ولا تُخْسِرُوا المِيزَانَ (٩)**﴾.[2] فهو موزون لاطغيان ولا خسران وهو القسط أى العدل يقول تعالي: ﴿ **لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الكِتَابَ والْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ**﴾.[3] وهذا الصراط ليس حدا ضيقا إنه مدى متسع يصلح للضعيف والقوى ويناسب الواقعى والمثالى، لا إفراط ولاتفريط ولاطغيان ولاخسران ولاغلو ولاتقصير، والإسراف والتقتير والوكس والشطط كما تعبر ألفاظ الكتاب والسنة هى بالتحديد محارم الله يقول تعالي: ﴿ **قُلْ إنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا ومَا بَطَنَ**﴾.[4] والفحش هو مازاد

---

(١) علم الأخلاق. أرسطو ـ ج١ ص ٢٤٥ ـ ٢٤٧ دار الكتب المصرية ١٣٤٣ هـ.

(٢) سورة الرحمن. آية ٧-٩.

(٣) سورة الحديد. آية ٢٥.

(٤) سورة الأعراف. آية ٣٣.

عن الحد ﴿ قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٢٨) قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾.[١]

عن مجاهد "قصد السبيل" أى المقتصد منها بين الغلو والتقصير وذلك يفيد أن الجائر هو الغالى. أوالمقصر، وكلاهما من أوصاف البدع[٢]

هذه خلاصة موجزة جدا لوسطية الإسلام فى الاجتماع والسياسة والاقتصاد..

والمناقشة المقارنة تمتع قلب الإنسان وعقله لأن الله تعالى شرع هذا النظام الوسط متناسقا مع فطرة الكون وفطرة الإنسان.

ونحب أن ننبه هنا إلى الإفراط والتفريط وهما يمثلان الإنحراف عن الوسط ليست هى النقائض ؛ لأن النقائض كما تدعيها الماركسية ظواهر مادية وحتمية تنتهى إلى ظهور مركب آخر يبدأ معه النفى من جديد، إلا أن الحقيقة كما عرضنا تثبت أن الاختلاف بين الأشياء والأحياء الغرض منه التزاوج والتكامل وليس الصراع بين الناس إلا استثناء من الأصل، ونرى لذلك أن ظواهر الإفراط والتفريط هى عوارض قصور العقل الإنسانى عن أن يرسم للإنسان الحركة المنسجمة مع فطرته ومع الناس ومع الكون. وهى لذلك يسهل تجنبها بإتباع صراط الله المستقيم الذى هدى إليه الله. وتصل الأمة بذلك إلى أعلى قمة للرشد الإنسان وتكون شهادة حق على غيرها من الأمم التى تتخبط كالذى يتخبطه الشيطان من المس.

فالوسطية هى الصفة التى تكون عليها الأمة المسلمة نتيجة تطبيق سنة الحركة للإنسان والأمة كما أراد الله، وهى التى تتناسق مع الفطرة كما خلقها الله، وكما أن القوانين الطبيعية هى سنة الحركة للنجوم والكواكب، كلاهما سنن الله الخالدة التى يستقيم عليها الوجود إن اتبعها ويتحطم وينهار إن بعد عنها.

وهى إذن منهج الله الذى يسلم له من فى السماوات والأرض، ولهذا كانت الوسطية محور الحركة فى التشريع والأخلاق، وكل صور النشاط الإنسانى والتى نلمسها فى حدود القرآن وأوامره ونواهيه. مثلا الغيرة لها حد إذا جاوزته صارت تهمة وظنا سيئا بالبرىء، وإن قصرت عنه كانت تغافلاً، ودياثة، وللتواضع حد إذا جاوزه كان ذلا ومهانة، وإن قصر عنه انحرف إلى الكبر والفخر، وللعزة حد اذا جاوزته كان كبرا وخلقا مذموما، وإن قصرت عنه انحرفت إلى الذل والمهانة.

---

(١) سورة الأعراف. آية ٢٨—٢٩.

(٢) الإعتصام: للشاطبى ج١ ص ٥٩ دار الفكر بدون.

يقول ابن قيم الجوزية" وضابط هذا كله العدل وهو الأخذ بالوسط الموضوع بين طـرف الإفراط والتفريط، وعليه بناء مصالح الدنيا والآخرة، بل لاتقوم مصلحة البدن إلا به، فإنه متى خرج بعض أخلاطه عن العدل جاوزه أو نقص عنه ذهب من صحته وقوته بحـسب ذلـك، وكذلك الأفعال الطبيعية كالنوم والسهر والأكل والـشرب والحركـة والرياضـة والخلـوة والمخالطة وغير ذلك، إذا كانت وسطا بين الطرفين المذمومين كانت عدلا، وإن انحرفـت إلى أحدها كانت نقصا وأثمرت نقصا".[١]

ويقول (وما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان إما إلى تفريط وإضاعة، وإما إلى إفراط وغلو. ودين الله وسط فالجافى عنه والغالى فيه، كالوادى بين جبلين والهدى بـين ضـلالتين والوسط بين طرفين ذميمين. فكما أن الجافى عن الأمر مضيع له فالغالى فيه: مضيع له، هـذا بتقصير عن الحد وهذا بتجاوزه الحد). [٢]

وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ وكَذَلكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وسَطاً لِّتكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ويَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ومَا جَعَلْنَا القِبْلَةَ الَتي كُنتَ عَلَيْهَا إلاَّ لنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ ممَّن يَنقَلبُ عَلَى عَقبَيْه وإن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إلاَّ عَلَى الَذينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُـضيعَ إيمَانَكُمْ إنَّ اللَّهَ بالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٤٣) قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وجْهكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وجْهَكَ شَطْرَ المَسْجد الحَرَامِ وحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وإنَّ الَذينَ أُوتُوا الكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ومَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٤٤)﴾[٣].

الحرية والتكليف" نماذج وسيطة "

الدارس للتاريخ الإنسانى يجد أنه فى حركته يسير من النقيض إلى النقـيض فى إفـراط أو تفريط كالذى يتخبطه الشيطان من المس. هذا التخبط واضح وضوحا تاما فى كـل نـواحى الحياة سواء كانت اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية. والأصل فى هذا البلاء اعتماد الناس على عقولهم فى رسم منهاج الحياة. فلا يكون فكرهم إلا ظنا ولايكون اتجاههم إلا هوى ﴿ ومَـا

---

(١) الفوائد ـــ ابن القيم الجوزية. ص ١٤٩، ١٤٠ مكتبة النهضة العلمية ـــ السعودية ـــ مكة المكرمة.

(٢) مدارج السالكين ـــ ابن القيم الجوزية. ص ٤٩٦ ج٢ مطبعة السنة المحمدية سنة ١٩٥٦.

(٣) سورة البقرة. آية ١٤٣ـــ١٤٤.

﴿لَهُم به منْ علْم إن يَتَّبعُونَ إلاَّ الظَّنَّ وإنَّ الظَّنَّ لا يُغْني منَ الحَقِّ شَيْئاً (٢٨) فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّى عَن ذكْرِنَا ولَمْ يُرِدْ إلاَّ الحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩) ذَلكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ العلْم﴾[1]

ونعرض هنا لبعض هذه النماذج:

١- الوسط الإجتماعي:

هذا الضعف الإنساني يظهر على أتم إفراطه وتفريطه فى المسألة الاجتماعية. (ففريق مال إلى جانب الأخلاق والروحانية، وغلا فيه إلى أن جعل العلاقة الجنسية بين الصنفين فى ذاتها شـيئا يعاب ويزدرى. وهذا الانحراف عن القصد تجده فى ديانة (بوذا) والنصرانية وفى بعض الديانات الهندكية. ومن تأثيره مايوجد فى جزء كبير من هذا العالم من اعتقاد العلاقة الجنسية بذاتها إثم، سواء كانت فى دائرة الزواج أو خارجها. فماذا كانت نتيجته؟. كانت النتيجة أن جعلت حياة الرهبنة المنعزلة غير المتمدينة غاية الأخلاق ومقصود التربية النفسية..

وفريق على عكس ذلك، راعى للإنسان دواعيه الجسدية، وغلا فيها غلوا جعله يتعـدى مقتضيات الطبع الحيوانى فضلا عن الطبع الإنسانى، وقد اتضح هذا الإفراط فى الأسلوب الغربي وضوحا لايمكن معه ستر، مهما حاول المحاولون. فالزنى ليس بجريمة فى قانونه، وإنما الجريمة هى ما كان معه إكراه أو تدخل فى حق شرعى لشخص آخر.. فانحرف بذلك عن فطرته الإنسانية فاسترسل فى العلاقة الجنسية المطلقة كالتى تكون فى الحيوانات، ولا يمكن أن تكـون أساسـا لتمدنه.

وفى تقدير الأسرة نجد قوما نظموها بقيود وحدود جعلت فردا من أفرادها كالأسير المغلول و لم يراعوا الموازنة بين الحقوق والواجبات. ومن أمثلة ذلك نظام الأسرة الهندكية الذي لاحرية فيه للمرأة فى إرادتها أو عملها ولاحق لها فى التمدن والمعاش.

ولكن هذا النظام بما حط وصغر من شأن النصف الكامل من جماعة الإنسان قد أقـام فى سبيل نهوضه وارتقائه عقبة جسيمة ومفسدة هائلة، عاد الهنادك بأنفسهم يحسون بسوء عواقبها ومضارها.

---

(١) سورة النجم،آية ٢٨-٣٠.

وجماعة أخرى قاموا لرفع مكانة المرأة ومنحها الحرية فى الإرادة والعمل فتغالوا فى ذلك إلى أن أفسدوا نظام الأسرة، فعادت الزوجة حرة مختارة والبنت مطلقة العنان والابن مخلى لـــه فى الرهان، والعائلة كالقطيع الشارد لا راع يذود ولاحظيرة تؤوى "[1]

والإسلام يقيم هذه العلاقة التي هي ضرورية لتكوين الأسرة واستمرار النوع الإنساني على العفة والزواج، وتبادل الحقوق والواجبات.

يقول ربنا تبارك وتعالي في سورة البقرة: ﴿**ولا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ ولَكِن لاَّ تُوَاعِدُوهُنَّ سِراً إِلاَّ أَن تَقُولُوا قَوْلاً مَّعْرُوفاً ولا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الكِتَابُ أَجَلَهُ واعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ واعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٣٥)**﴾.

فإذا انتقلنا إلى مسألة الطلاق نجد التردد بين هذين الطرفين من إفراط وتفريط، فالمسيحيون قيدوا الطلاق ومنعوه منعا باتا، والشيوعية أباحت الطلاق دون قيد أو شرط.

وكانت النتيجة أن رأينا هذا العنت ينعكس بشدة على الصورة الاجتماعية.

فى الطرف الأول حيث المنع تصبح معه الحياة الزوجية جحيما لايطاق وتنتـــشر الآفـــات الخلقية حتى أصبح من المعتاد أن يكون للزوج خليلة وللزوجة خليل.

وفى الطرف الآخر شاهدنا كيف أصبحت الحياة الزوجية ألعوبة فتناقص عدد الـــسكان فى روسيا وانتشرت الأمراض السرية وحالات الإجهاض، وتحلل المجتمع حتى اضطر الـــروس إلى تقييد الطلاق بصورة كالكاثوليكية وأشد.

وفى هذا العالم المتخبط بين الإفراط والتفريط يوجد منهج واحد مراعى فيه كـــل نـــواحى الفطرة الإنسانية لأنه مستند على المعرفة التفصيلية للوجود والتاريخ. هذا المنهج الوسط بكـــل معانى الوسط من تناسق وتوازن واعتدال هو وحده الذى يستطيع أن يصلح حال الناس ويحقق لهم الخير.

جعل الإسلام للمرأة حق اختيار زوجها وخول لها الحق فى طلب الخلع والفسخ والتفريق، وأمر الرجل بالتزام السماحة والمعاملة الحسنة فى استعماله السلطة التى خولها له علـــى المـــرأة وسوى بينهما فى القوانين المدنية والجنائية تماما.

وتظهر وسطية الإسلام فى مسألة الطلاق، فالإسلام لايمنع الطلاق ولكنه يعتـــبره أبغـــض الحلال. ويضع لذلك القواعد لإصلاح الحياة الزوجية من تحسين الأخلاق إلى تحديد الحقـــوق

---

(١) الحجاب أبو الأعلى المودودى. ص ٢٠١-٢٠٣ دار الفكر بدون.

والواجبات والدعوة إلى الصلح والتراضى وإعطاء مهلة بعد الافتراق حتى نضيع حمية الغضب،يقول تعالي في سورة البقرة: ﴿ لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ من نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢٦) وإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٧) والْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِن ثَلاثَةَ قُرُوءٍ ولا يَحِلُّ لَهن أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ في أَرْحَامِهِن إن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّه والْيَوْمِ الآخِرِ وبُعُولَتُهن أَحَقُّ بِرَدِّهِن في ذَلِكَ إنْ أَرَادُوا إِصْلاحاً ولَهن مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِن بِالْمَعْرُوف وللرِّجَالِ عَلَيْهِن دَرَجَةٌ واللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٨) الطَّلاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾[1].

٢- الوسط السياسى:-

ونموذج من النظام السياسى نجد فيه التاريخ الإنسانى يتخبط بين الطرفين الإفراط والتفريط.

فمثلا كان يصور لها أن الحرية مطلقة دون حدود وقيود. وتدرك الإنسانية فى النهاية بعد تجربة مرة أن إطلاق الحرية قد أدى إلى الاحتكار وأدى إلى أن المال والحكم صار دولة بين الأغنياء وأن مصالح المجتمع تسخر فى سبيل مصلحة فئة قليلة وإذا دافعت عن مصلحة المجتمع رفع فى وجهك شعار الحرية، فلم تصبح الحرية إلاحرية الفئة الغنية فى استغلال الجماهير التى تستذلها الحاجة، وتدافع الطبقة الغنية عن مصالحها بشدة فيتعقد الموقف الاجتماعى بصورة تؤدى إلى الثورة.

وهنا تظهر للعقل الإنسانى نواة فلسفة أخرى للحركة مستمدة من رد فعل عنيف للإفراط فى الحرية. إنه يدعو إلى الدكتاتورية باسم مصلحة الجماهير. الدكتاتورية التى تقضى على الطبقة الغنية وتنهض بالجماهير لتحررها من ذل الحاجة ويندفع العقل الإنسانى بحماس فى سبيل تحقيق هذه الفكرة الجديدة فكرة الدكتاتورية. ولايدرك الأخطار التى تحيق به من تفريطه فى الحرية ولا يتصور كيف يكون حاله حين تكبت حريته، وينطلق الصولجان إلى فئة أخرى تستغله ولاينفع هنا تذكير، لأنه لايتذكر إلا بعد أن تصيبه ضربات معجزة يحس معها بوطأة التفريط فى هذا المبدأ. وهذا شأن العقل الإنسانى دائما إذا ترك لنفسه ينتقل من النقيض إلى النقيض كالذى يتخبطه الشيطان من المس، وكما يقول جون ستيوات مل: "نجد أن التطرف فى العقل البشرى قاعدة مطردة والتوسط شيء نادر، ولذلك فإن جميع الثورات الفكرية تنحصر عادة فى ظهور جانب من الصواب على أثر أفول جانب آخر منه ".

---

(١) سورة البقرة.آية ٢٢٦-٢٢٩.

لقد سجلت الديمقراطية أكبر فشل لها فى دول الغرب فالديمقراطية هناك تقوم على أســـاس النظام النيابى. والنظام النيابى يقوم على أساس حزبى، كل حزب يسعى إلى إســـقاط الحـــزب الآخر حتى يصل إلى الحكم. ومن ثم يهاجم الحزب المعارض كل مايعمله الحزب الحاكم سواء كان صالحا أو طالحا، فتتعثر مصالح الأمة أمام عقبات الجدل والتنازع والخصام وسوء القصد، وتصبح الأمور غير مستقرة لأن النزاع المستمر والمؤامرات التى لا تنفض تـــؤدى إلى إســـقاط الحكومات وصعوبة استقرارها فتنتهى إلى فوضى الحكم وصعوبة السيطرة السياسية وضـــعف التنمية الاقتصادية.

ومن جهة أخرى نجد أن هذا النظام الحزبى يضر ضررا بالغا بمصلحة الأمـــة، لأن النائـــب يبحث له عن مؤيدين لينجح، وحينما ينجح لا يخدم غير مؤيديه بل يضطهد معارضيه، ثم إنه جريا وراء مصالح مؤيديه يتصل بالوزير المختص ليقضى المصالح المشروعة، وغـــير المـــشروعة وهذا يؤدى إلى القضاء على قدرته على نقد ذلك الوزير الذى خدمه، وهكذا تتعطل الرقابـــة الدستورية، وفى النظام الحزبى يتجه النواب إلى تأييد المشروعات الأكثـــر شـــعبية لا الأكثـــر صلاحية، ولايعنيهم الفائدة الحقيقية التى تعود على المجتمع منها، وإنما يعنيهم اهتمامهم بإرضاء الناخبين، وهكذا يجانبون الحقيقة والخير إذا تعارضت مع رغبات الناخبين، لأنهم يعلمـــون أن بقاءهم مرتبط بخداع الناخبين وتملقهم، والجماهير تتحرك بعواطفها ولا تتوفر لهـــا الدراســـة الكاملة للقضايا مما يجعل احتمال خطئها فى التقدير كبير.

وفى هذا النظام الحزبى تعتمد الأحزاب على إثارة الجماهير لمصلحتها. والجماهير عاطفيـــة بطبيعتها ولا يتيسر لها الوقت للدراسة الموضوعية للمشاكل التى تحيط بها، وهى حين تندفع لا تتوقف فليس عندها فرق بين الهدم والبناء أو الحب والكره، وإنما تحركها الإثارات وتؤثر فيها الدعايات وتكرار الشعارات وتأكيدها، إنها تفكر بغريزتها لا بعقلها، بهذا كان تفكيرها بدائيا للغاية، وهذا هو الذى يعطى رجال الأحزاب المجال لتضليلها تحت ستار المصلحة العامة، ولعل ماعرفناه عن فضيحة ووترجيت وإيران جيت مايثبت صورية الديموقراطية.

وأخيرا فإن الديمقراطية السياسية الحديثة اقتصرت على الحرية السياسية فحسب. و لم تحرر الفرد اقتصاديا فماذا كانت النتيجة؟ أضحت الأموال دولة بين الأغنياء وصار الطريق مفتوحا أمام الأغنياء للسيطرة على الحكم، والجماهير مشدودة إلى المادة التى تحتاجها للضرورة، وبالمال استطاعوا شراء الأصوات وإفساد الذمم، وبقيت الحرية السياسية مظهرا خادعا يختفـــى وراءه أسوأ ألوان العبودية.

وفساد الديمقراطية هذا أدى إلى ظهور نقيضها وهى الدكتاتورية. فتحت وطأة الفوضى التى سببتها الديمقراطية وتعطل المشاريع الاقتصادية وانتشار الفقر وسوء التغذية برزت الديكتاتورية لقدرتها على حسم المشاكل. إن الديكتاتورية تستطيع إنقاذ المواطنين فى لحظة بينما كانت تتعطل السنين فى مناقشات. كما أنها تنفذ مايحلو لها دون تقيد برأى إلا أن هذه الديكتاتورية تصبح خطرا للغاية، لأن سيطرتها التامة تؤدى إلى الطغيان. ثم إن تعطل الشورى يؤدى إلى سقطات حادة تهز الأمة من أعماقها. حقا إن الديكتاتورية تبنى بسرعة، ولكنها تهدم بنفس السرعة. ولما كان السلطان المطلق طغيانا مطلقا فإنه يؤدى إلى الكبت والظلم والضغط الذى يقتل فى الناس القدرة الخلاقة وفقدان الإحساس بالمسئولية والخنوع. ولعل تجربة روسيا الستالينية وألمانيا الهتلرية وإيطاليا الفاشية أبلغ دليل.

هذا هو التاريخ المعاصر يقص الفشل فى النظام السياسى، فإفراطه فى الحريات الديمقراطية أدى إلى إفساد الحكم. وتفريط فيها بالديكتاتورية أدى إلى الإرهاق والذل والخراب. إن النظام الديمقراطى أساسه الشورى حقا ؛ ولكن فساد التطبيق وضعف المبادىء الأساسية المنظمة لها وخضوعها لأهواء البشر انتهى إلى تسليط المحكومين على الحاكمين وتضليل الحاكمين للمحكومين. وبينما النظام الديكتاتورى يقوم على الطاعة المطلقة من المحكومين للحاكمين فإن قصور العقل الإنسانى وغروره انتهى بتسليط الحاكمين على المحكومين، واندفاع دون روية للعواقب والاستبداد دون رحمة بالناس.

وتختلف الشورى عن الديموقراطية من عدة أوجه:

١- أن الشورى في الديموقراطية لا يشترط في ممثليها علي مستوى الدولة أى شرط. ولهذا نجد أن الممثلين أحيانا كثيرة ما يكونون تحت المستوى المطلوب. أما في الإسلام فأهل الحل والعقد يشترط لهم العلماء صفة العلم أى الخبرة، وصفة العدل، أى الأخلاق الطيبة. وكما قيل فإن الديموقراطية تحكم الجماهير في الحكام، وأن الدكتاتورية تحكم الحكام في الجماهير،أما الشورى فهي التي تحكم الحق في الجميع، ولاتخشي في الله لومة لائم.

٢- أن المنتخبين ديموقراطيا يعطي لهم الحق في سن التشريعات والقوانين حسب ما يهوون. **أما في الشورى فإنها مقيدة بالشريعة لا تتخطاها. فإذا ورد في واقعة نص قطعي فهو الحكم النهائي، وإذا ورد فيها نص ظني كان الإفتاء فيه موكولا للفقهاء. وبقية التشريعات يتقيد فيها أهل الشورى بمقاصد الشريعة المنضبطة بالقواعد الفقهية. وهذا أعظم ضمان لتحرير الجماعة من طغيان السلاطين الذين يوجهون التشريع حسب هواهم، ومن طغيان أصحاب المال الذين**

يوجهونه إلي مصالحهم. أما ما يتصل بأمور الدنيا التي سكت عنها النص فأهل الشورى يقطعون بالرأى الذى يصوبه تحليهم بالعلم والعدل.

٣- أن التمثيل الديموقراطي يحتاج اليوم إلي نفقات باهظة تنفق علي الحملات الانتخابية لا يطيقها إلا المليون فيما يسمي جماعات الضغط،أو أصحاب السلطان. ومن ثم يكون الممثلين متحيزين للسلطة ولأصحاب الأموال أو السلطان. وهذا من خطورته أن تتجه القوانين لصالحهما علي حساب الجماعة، وأن يوسد الأمر إلي غير أهله.

أما في الإسلام فشرط العلم والعدل يحصر الممثلين في الكفاءات والمتقين، ويحقق للجماعة الخير الذى تبغيه والرأى الذى يصلحها.

وهذا العيب الأخير أشد ما يفتك بالشورى في العصر. فاشتراط إنفاق أموال ضخمة للحصول علي هذا المكان،يؤدى في النهاية إلي تحكم أصحاب الأموال في المجالس التشريعية وتوجيهها لمصلحتهم، واختراقهم للمؤسسة السياسية وتسخيرها لمطالبهم.

يقول ربنا تبارك وتعالي في سورة البقرة: **﴿ولا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾** (١)

٣ - الوسط الاقتصادى:

ونموذج سريع من النظام الاقتصادى المقارن: نلاحظ كيف تتردد الإنسانية حين تتبع مدركاتها الذاتية بين الإفراط والتفريط، وما يترتب عليه من شقاء وضلال لمجتمعاتهم. فمذهب الحرية الذى ساد العالم فى فترة مداها قرن ونصف قرن تقريبا بدأ فى الناحية الاقتصادية بكتاب "آدم سميث" " ثروة الأمم ١٧٧٦م"، وتقوم فلسفة هذه المدرسة على أن الإنسان وهو يحقق كسبه الخاص إنما يحقق مصلحة المجموع، وهو مدفوع إلى ذلك بيد خفية لتحقيق غاية أخرى لايقصدها. فاهتمام الفرد بمصلحته الخاصة غالبا ما ينتهى لمصلحة المجتمع أكثر مما قصد الفرد ذلك، والسرور والألم هما الأهداف القصوى من حساب التفاضل فى الإقتصاد والوصول إلى السرور كما يقول "جيفونز" هو مشكلة الاقتصاد. وقوانين الاقتصاد الخالدة هى قوانين السوق التى يمكن الكشف عنها بالتحليل لنظرية القيمة من الأسعار والدخول.. و لم تعن هذه المدرسة بفكرة العدالة الاجتماعية كثيرا لأن قوانين التوزيع بناء على فلسفتها ليست قوانين اجتماعية ولا تنظيمية ولا تاريخية، بل قوانين طبيعية تشبه قوانين عالم الطبيعة!.

انتهت هذه المدرسة- لتركيزها على ناحية الحرية دون غيرها من الفضائل لقصور العقل الإنسانى عن فهم الوسط الذى يوازن بين المبادىء الأساسية التى تنظم المجتمع المثالى- إلى

مجتمع ممزق متصارع متنافر. و لم تخدم هذه المدرسة الفكرية إلا حفنة من رجال الأعمال كل هدفهم جمع الثروة على حساب الناس، وظهر مع الزمن الوجه القبيح للرأسمالية حيث انقسم المجتمع إلى فئتين مُستَغِلين ومُستَغَلين، وأصبح مصدر الدخول من الربا والاحتكار هو أساس الغنى. كل ذلك باسم الحرية مما أدى إلى ارتفاع الصرخات هنا وهناك.

وانتقل العقل الإنسانى إلى نقيض التفكير الأول، فخرج ماركس ليركز اهتمامه فى اقتصاديات الجماعة، فتناول نظرية القيمة ليثبت أنها تؤدى إلى الاستغلال لا إلى العدالة ؟ لأن أساس نظرية القيمة عنده هو كمية العمل المبذول فيها. لذلك كان كل دخل غيره هو سلب من العامل حقه سواء أكان هذا الدخل ربحا أم ريعا أم ربا. ونظر ماركس إلى التاريخ الإنسانى على أساس أنه سلسلة من الصراع المستمر بين الطبقات المُستَغِلة والمُستَغَلة، وسبب هذا الصراع هو فائض القيمة الذى يستولى عليه صاحب رأس المال من العامل لملكية رأس المال.

وهنا صب جام غضبه على الملكية الفردية وبشر الناس حين القضاء عليها بجنة ينعم فيها الجميع بالمساواة التامة يأخذ الإنسان فيها كل حاجته ويبذل ذاتيا أقصى إنتاجه. ونفس الخطأ الذى أودى بحياة الرأسمالية لتركيزها على ناحية واحدة هى الحرية وقعت فيه الماركسية حين ركزت على المساواة دون التفات إلى المبادىء الأساسية الأخرى التى لايجور فيه مبدأ على آخر، لقد بنى هذا التحليل على أساس أن كل عائد غير العمل نهب تحت وطأة شرور الاحتكار والربا، دون دراسة واقعية لمجتمع متوازن يسمح فيه بالملكية النظيفة غير المستغلة، وحين طبقت هذه النظرية لم تستطيع أن تعيش إلا بالقهر والإرهاب، لأنها هاجمت الفطرة الإنسانية ودوافعها الأصيلة فى الملكية والتميز كحوافز للابتكار والإنتاج مما أدى إلى تحويل الجماهير الخاضعة لها إلى مجموعة من العبيد لايحركها إلا الإرهاب و الخوف.

والإسلام بوسطيته يوازن كل هذه المبادىء دون إفراط أو تفريط، فبينما يحارب الربا والاحتكار والاستغلال فإنه لا يمنع الدوافع الفطرية فى التملك والتميز، إن اختلاف الأشياء هو سنة الكون، والذى أرق ذوى الضمائر ليس الفرق فى المتاع بين إنسان وإنسان وإنما ضخامة هذا الفرق. وليست الملكية رذيلة فى ذاتها وإنما الرذيلة فى تحولها إلى ملكية مستغلة. والمساواة الحسابية لن تنتهى بنا إلا إلى مرحلة من الهمجية والتخلف. وبينما الربح عائد لعمل مدخر نجد أن الربا الذى يتميز بالثبات فى عائده تحول إلى استغلال فى حالة الخسارة.

الخير إذن فى وسط لاطغيان فيه ولا استغلال وأيضا لاكسل فيه ولاتواكل، لهذا كان لكل فرد فى المجتمع حدود لملكيته: حد أعلى مبنى على العدل فيشترط نظافة الملكية من الربا والغرر والاحتكار.وحد أدنى مبنى على الحق تكفله الزكاة.

يقول ربنا تبارك وتعالي في سورة البقرة:

﴿يَا أَيُّهَا الَذينَ آمَنُوا أنفقُوا من طَيِّبَات مَا كَسَبْتُمْ ومِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ ولا تَيَمَّمُوا الخَبيثَ مَنْهُ تُنفقُونَ وَلَسْتُم بآخذيه إلاَّ أن تُغْمضُوا فيه واعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنيٌّ حَميدٌ (٢٦٧) الشَّيْطَانُ يَعدُكُمُ الفَقْرَ ويَأْمُرُكُم بالْفَحْشَاء واللَّهُ يَعدُكُم مَّغْفرَةً مِّنْهُ وفَضْلاً واللَّهُ واسعٌ عَليمٌ (٢٦٨) يُؤْتِي الحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ومَن يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً ومَا يَذَّكَّرُ إلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (٢٦٩)﴾

وتاريخ الإنسان يحكى لنا عبر الزمان أنه ما استعبد الإنسان فى العصر العبودى أو الفرعونى أو الإقطاعى إلا من حرمانه من حق الكفاية. فكان الإنسان يقتل كرامته أنين الجوع وشبح الخوف. ولهذا كان عبدا للسيد وعبدا لفرعون وعبدا للإقطاعى.

والقصة تتكرر اليوم بنفس حروفها فى ظل رأسمالية الاحتكارى الذى يذل العمال بطردهم من العمل، فلا يجدون طعاما ولا أمان. وتحت ضغط الخطر الشيوعي ابتدع الغرب نظام التأمين والتأمينات كغطاء للرعاية الاجتماعية. وهو نظام قائم علي معاوضة قسط مقابل تعويض، وليس حقا دون مقابل للفقير والمسكين. وما يخصص لذلك مما يسمي الضمان الاجتماعي لايفي بجزء من هذا الحق.

وابتدع النظام الاشتراكي الذى ادعي حماية العمال كتاب العمل. ونظرا لحرمانه الناس من حق الملكية فلم يكن هنا حافزا للعمل غير الإرهاب. وفى ظل الحزب الإشتراكى يحرم من هذه المظلة إن غضب عليه الحزب. فهى نفس العبودية الفرعونية وإن اختلفت المسميات.

ولقد تبلور اليوم اقتناع قوى أنه لا يمكن الركون الى التلقائية فى تحقيق الرعاية الاجتماعية فإن التنمية الاقتصادية وحدها لا تحقق عدالة ولا رعاية. وأصبح واضحا أن تحقيق هذه الأهداف الاجتماعية يتطلب تدخلا واعيا من قبل الدولة، وأن تدرج فى أول سلم الأولويات من مهامها.

والإسلام يحرر الإنسان ابتداء بعقيدة التوحيد، فليس إلا الله يرزق ويعطى، ثم يتمم بالشريعة هذا التحرير، بأن يكفل لكل فرد من أفراد المجتمع حد الكفاية. فبالعقيدة والشريعة يتحرر الإنسان نفسيا وعمليا. وذلك بناء على حقيقة. لا مرية فيها وهي أن الإنسان لم يخلق شيئا، وإنما يضيف منافع فحسب للأشياء. وهنا له حق فى التملك، ولكن لأن ما يملك أصلا

من خلق الله سخره للناس سواء، كان للفقير والمسكين حق معلوم يغنيه عن الحاجة وذل السؤال. وبهذا يؤمن الإسلام لكل مسلم حدا أدنى من العيش الكريم مبنى على الحق،تكفله الزكاة، وهذه هى ميزانية الإعانة أو الرعاية أو التكافل.

وأداة الإسلام الرئيسة التي تكلف بها الدولة، ويلزم بها الأغنياء، وتتحدد مصارفها بالنص،فتعطي بالتحديد للفقراء.وهنا تتحقق عدالة توزيع الدخل، وترسي قواعد التراحم الاجتماعي.

ومنذ ما يزيد علي أربع عشرة قرنا،كانت تعاليم الإسلام تقوم علي فصل بيت مال الزكاة عن بيت المال العام، للفصل بين حقوق الفقراء وحقوق الجماعة. كما أن رسول الله ﷺ،،حرم علي أهل بيته وعلي آله،أخذ أى نصيب من الزكاة. ولكنه قبلها كهدية من الفقراء، وبعد وفاته ﷺ أجاز الفقهاء إعطائها لآله ﷺ

وبوسطية الإسلام القائمة علي إباحة التملك بالكسب الطيب، وتحريم الاستغلال من الربا والاحتكار والغرر، وفرض حق معلوم هو الزكاة في أموال الأغنياء للفقراء،تتحقق الرعاية الاجتماعية لمحدودى الدخل، والتوازن السياسي بتقريب التفاوت بين الدخول، والنمو الاقتصادى والإعمار دون قيود.

يقول ربنا تبارك وتعالي في سورة البقرة:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وأَقَامُوا الصَّلاةَ وآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ولا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ولاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ ورَسُولِهِ وإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ ولا تُظْلَمُونَ (٢٧٩) وإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٠) واتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٢٨١)﴾.

عبرة التاريخ

تبدأ السورة بمقدمة تبين للناس أن طريق الهداية للإسلام سبيله القرآن،الذى يوقن قارؤه من إعجازه أنه من عند الله. أنزله الله رحمة بالمؤمنين يبين له حقائق الغيب التي لايطيق إدراكها لمحدودية علمه وقدرته.

وتبين السورة الدليل علي الحق بآيتين بسطهما الله أمام عقول البشر:

١- آية كتاب الله المنظور،التي يراها الإنسان في خلق السماوات والأرض ومابينهما، وفي عبر التاريخ الإنساني.

والتحدى قائم فيها أن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له.

٢- آية كتاب الله المقروء، وهو القرآن، ويتحداهم أن يأتوا بسورة من مثله إن كانوا صادقين.

وللبشر أن يختاروا بين طريقين: طريق الهدى الذى يسير فيه المتقون، وطريق الضلال الذى يسير فيه الكافرون والمنافقون. وعلي أساس هذا الاختيار يتحدد الحساب والجزاء في اليوم الآخر،إما نعيم وإما عذاب.

ثم تأخذ السورة بأيدينا في رحلة التاريخ،فتبدأ منذ النشأة الإنسانية بخلق آدم وقصته مع إبليس، لتركز علي أسباب عصيانه وغواية إبليس له بشهوة الملك والخلود،فأكل من الشجرة التي نهاه الله عنها. وتلقي من ربه كلمات فتاب عليه،هداية من الله. ثم كانت إرادة الله أن يهبط إلي الأرض،فإذا اتبع هو وذريته هدى الله فلاخوف عليهم ولاهم يحزنون.

و يقول القرطبي:" لما سمعوا لفظ خليفة فهموا أن في بني آدم من يفسد، إذ الخليفة المقصود منه الإصلاح وترك الفساد، لكن عمموا الحكم علي الجميع بالمعصية،فبين الرب تعالي أن فيهم من يفسد ومن لايفسد،فقال تطييبا لقلوبهم:**إني أعلم**. وحقق ذلك بأن علم آدم الأسماء، وكشف لهم عن مكنون علمه."(١)

وعلم الله آدم الأسماء كلها،قال ابن عباس وقتاده ومجاهد: علمه اسم كل شئ من جميع المخلوقات،دقيقها وجليلها... وقال أكثر العلماء: علمه تعالي منافع كل شئ ولما يصلح.(٢)وعن طريق هذه الأسماء يستطيع-وهو يتفكر في خلق السماوات والأرض، يتخاطب ويتفاهم-أن يدرك سر وجوده وغاية حياته، وأن يعمر ويكتشف، وأن يغير ويختار.وبدونها لايمكن لإنسان أن يخرج عن بدائيته، ولاأن يتدبر ماحوله.

ثم إن هذا الإنسان - الذى خلق من قبضة من طين ونفخة من روح الله - يصل إلي القمة حين يستعلي علي غريزته ويكيف شهوته وفق غاية وجوده، وعندئذ يفوق - باقتحامه الصعاب وبلزومه الطاعات - كل مخلوق من حوله. لذا حين علمت الملائكة حكمة الله من خلق الإنسان استغفرت له، ودعت الله أن يقيه السيئات.

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج١ ص ٢٣٥.

(٢) ابن عطية، المحرر الوجيز، ج ١ ض ٢٣٤.

وأمر الله الملائكة بالسجود لآدم،يقول الجصاص: " وكانت تحيتهم السجود، وليس يمتنع أن يكون ذلك السجود عبادة لله تعالي وتكرمة وتحية لآدم عليه السلام، وكذلك سجد إخوة يوسف عليهم السلام، وأهله له، وذلك لأن العبادة لاتجوز لغير الله تعالي، والتحية والتكرمة جائزتان لمن يستحق ضربا من التعظيم... فأخبر إبليس أن امتناعه عن السجود لأجل ماكان من تفضيل الله تكرمته بأمره إياه بالسجود له."[1]

وكان حقد إبليس علي آدم شديدا،فوهب نفسه يضل بني آدم ويوسوس لهم، وخصوصا في نداء الحاجات المادية وإلحاحها. وكان في ذلك ابتلاء لبني آدم واختبار لهم يتحدد علي أساسه أن يكون اصطفاء الله لهم: مقربين يناجيهم ويناجونه، أو فشلهم فيكونون وقودا للنار مع الحجارة التي لاتعقل، والحثالة من الكافرين.

وكان طريق الشيطان إلي آدم عن طريق إلهاب رغبته في الخلود والملك، ومنها حرضه علي معصية الله فأكل من الشجرة التي أمره الله ألا يقربها. وعصي آدم ربه فغوى. ثم تلقي كلمات من ربه فاعتر ف بظلمه واستغفر فتاب عليه ربه وهدى.

قوله تعالي: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧)﴾

" الله عز وجل ثناؤه لقن آدم كلمات،فتلقاهن آدم من ربه فقبلهن وعمل بهن، وتاب بقلبه وعمله بهن إلي الله من خطيئته،معترفا بذنبه،متنصلا إلي ربه من خطيئته،نادما علي ماسلف منه من خلاف أمره، فتاب الله عليه بقبوله الكلمات التي تلقاهن منه، وندمه علي سالف الذنب منه...

قوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾،تأويلها: فإما يأتينكم يامعشر من أهبط إلي الأرض من سمائي، وهو آدم وزوجه وإبليس.. بيان من أمرى وطاعتي، ورشاد سبيلي وديني،فمن اتبعه منكم فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون، وإن كان قد سلف منهم قبل ذلك إلي معصية وخلاف لأمرى وطاعتي، يعرفهم بذلك جل ثناؤه أنه التائب علي من تاب إليه من ذنوبه، والرحيم لمن أناب إليه،كما وصف نفسه بقوله: ﴿ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾. "[2]

فهي حكمة الله أن يهبط بنوا آدم إلي الأرض، ليختاروا بين الكفر والإيمان، وبين الشرك والإسلام،بين الاتباع والطاعة، والمعصية والفساد،بعد أن بين لهم الله الحق بالوحي وهداهم إليه. ثم يكون بعد ذلك الحساب ونتيجته الجزاء من الثواب أو العقاب.

---

(١) الجصاص، أحكام القرآن، ج١ ص٣١-٣٢.

(٢) الطبرى، جامع البيان، ج٣ ص ٢٨٣-٢٨٥.

وكان محل الابتلاء هو الدنيا، خلق الله للإنسان فيها من النعم مالا يحصي ولايعد، وسخرها له وسيلة يؤدى بها رسالته، لاغاية ينتهي إليها أمله. هذا التسخير كان من أجل الإنسان،يتمتع به إذا أطاع الله، ولكنه إذا صارت الدنيا أكبر همه ومبلغ علمه،يهيم بها في قلبه،يعبدها من دون الله،تعس وانتكس.

قص الله علينا سلوك بني اسرائيل مع أنبيائهم عبرة وعظة. حتي نتدبر من تاريخهم مايعصمنا من انحرافاتهم وعصيانهم لأنبيائهم وجدالهم وقسوة قلوبهم، فنتجنب نقمة الله وننعم برحمته.

يقول رسول الله ﷺ:

"لتتبعن سنن الذين من قبلكم،شبرا بشبر،أو ذراعا بذراع،حتي لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه. قالوا: اليهود والنصارى ؟ قال: فمن ؟"[1]

العهد الذى أخذه الله علي بني إسرائيل

وقد بدأ هذا المقطع مناديا بني إسرائيل بأحب أسمائهم وأشرف أنسابهم مذكرا لهم بنعم الله عليهم،يبني علي ذلك دعوتهم إلي الوفاء بعهدهم، ويرغبهم ويرهبهم.

لقد كان القاسم المشترك الأعظم في دعوة الرسل:

١- الإيمان بالله وحده.

٢- الإيمان باليوم الآخر.

٣- العمل الصالح.

وثانيها: تعديد النعم علي بني إسرائيل وما من الله تعالي به علي أسلافهم من أنواع الكرامة والفضل،كالإنجاء من آل فرعون بعدما كانوا مقهورين مستعبدين ونصره إياهم وجعلهم أنبياء وملوكا، وتمكينه لهم في الأرض وفرقه البحر وإهلاكه عدوهم، وإنزاله النور والبيان عليهم بواسطة إنزال التوراة، والصفح عن الذنوب التي ارتكبوها من عبادة العجل ونقض المواثيق ومسألة النظر إلي الله جهرة،ثم ما أخرجه لهم في التيه من الماء العذب من الحجر، وإنزاله عليهم المن والسلوى ووقايتهم من حر الشمس بتظليل الغمام،فذكرهم الله هذه النعم القديمة والحديثة.

وثالثها: إخبار النبي عليه السلام بتقديم كفرهم وخلافهم وشقاقهم وتعنتهم مع الأنبياء **ومعاندتهم وبلوغهم في ذلك مالم يبلغه أحد من الأمم قبلهم وذلك لأنهم بعد مشاهدتهم الآيات الباهرة عبدوا العجل بعد مفارقة موسي عليه السلام إياهم بالمدة اليسيرة،فدل ذلك**

---

(١) صحيح الجامع الصغير للسيوطي، تحقيق الألباني ج٢ ص٩٠٣ المكتب الإسلامي ١٤٠٦هـ.

علي بلادهم،ثم لما أمروا بدخول الباب سجدا وأن يقولوا حطة ووعدهم أن يغفر لهم خطاياهم ويزيد في ثواب محسنهم بدلوا القول وفسقوا،ثم سألوا الفوم والبصل بدل المــن والــسلوى ثم امتنعوا عن قبول التوراة بعد إيمانهم بموسي وضمانهم له بالمواثيق أن يؤمنوا به وينقادوا لما يــأتي به حتي رفع فوقهم الجبل،ثم استحلوا الصيد في السبت واعتدوا،ثم لما أمروا بذبح البقرة شافهوا موسي عليه السلام بقولهم أتتخذنا هزوا ثم لما شاهدوا إحياء الموتي ازدادوا قــسوة،فكأن الله تعالي يقول: إذا كانت هذه أفعالهم فيما بينهم، ومعاملاتهم مع نبيهم الذى أعــزهم الله بــه وأنقذهم من الرق والآفة بسببه،فغير بديع ما يعامل به أخلاقهم محمدا عليــه الــسلام،فليهن عليكم أيها النبي والمؤمنون ماترونه من عنادهم وإعراضهم عن الحق.

يقول ابن تيمية:

" اشتملت سورة البقرة علي تقرير أصول العلم وقواعد الدين،فالله تعالي افتتحها بــذكر كتابه الهادى للمتقين،فوصف حال أهل الهدى ثم الكافرين ثم المنافقين. فهذه جمل خبرية.

ثم ذكر الجمل الطلبية،فدعا الناس إلي عبادته وحده ثم ذكر الدلائل علي ذلك من فــرض الأرض وبناء السماء وإنزال الماء وإخراج الثمار رزقا للعباد،ثم قرر الرســالة وذكــر الوعــد والوعيد،ثم ذكر مبدأ النبوة والهدى، وما بثه في العالم من الخلق والأمر،ثم ذكــر تعلــيم آدم الأسماء وإسجاد الملا ئكة له لما شرفه من العلم،فإن هذا تقرير لجنس ما بعث به محمد ﷺ مــن الهدى ودين الحق،فقص جنس دعوة الأنبياء.

ثم انتقل إلي خطاب بني إسرائيل وقصة موسي معهم، وضمن ذلك تقرير نبوته إذ هو قرين محمد،فذكر آدم الذى هو أول، وموسي الذى هو نظيره، وموسي قتل نفسا فغفر لــه، وآدم أكل الشجرة فتاب عليه. "[1]

ثم تصل السورة الأمة المسلمة بتاريخها المشرق،منذ إبراهيم عليــه الــسلام، بعــد أن أتم الكلمات التي ابتلاه الله بها، ودعوته أن يجعل من ذريته أمة مسلمة يريها مناســكها ويتــوب عليها ويبعث فيها رسولا يتلو عليهم آياته ويطهرهم ويزكيهم،ثم دعا الله لها (الأمة المسلمة)في حياتها الأمن والرزق لمن آمن بالله واليوم الاخر. وهما اللذان يشغلان حيزا هاما في مشكلات كل عصر. فأجابه الله مبينا سننه في تحقيق ذلك للمؤمنين. أما من كفر فيمتعه قليلا ثم يأخذه أخذا عزيزا.

---

(١) ابن تيمية، التفسير الكبير ج ٣ ص ٥-٧ دار الكتب العلمية ١٤٠٨هـ.

الأساس العقيدى

إن عقيدة الإيمان بالله واليوم الآخر تجعل الحياة والمال والمتاع علي يد الإنسان حيث الإيثار لافي قلبه حيث الأثرة. في وسط بين مادية أنانية جشعة وبين رهبانية منعزلة ضعيفة سلبية.

وهذه العقيدة تحدد الانتماء لها بالإسلام، ولاينال عهد الله الظالمين ولوكانوا من صلب الأنبياء.

ومن ثم بدأت السورة بعقيدة التوحيد ونفي الشرك. يقول تعالي:﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُم لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢)**﴾

" إن التوحيد هو المقصود بالذات وعنه تنشأ جميع العبادات،فلما قال تعالي:﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ**﴾، أتبعه بقوله:﴿ **الَّذِي خَلَقَكُمْ**﴾،بوصف هو دليل استحقاقه للعبادة،فلما قام الدليل قال:﴿ **فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَاداً**﴾، إعلاما بأنه لا شريك له في العبادة،كما أنه قد تبين أنه لا شريك له في الخلق."(١)

وفي وسط السورة يقول تعالي: ﴿**وإِلَهُكُمْ إِلَهٌ واحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (١٦٣) إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ واخْتِلافِ اللَّيْلِ والنَّهَارِ والْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي البَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ والسَّحَابِ المُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤) وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ والَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ العَذَابَ أَنَّ القُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ العَذَابِ (١٦٥)**﴾

" اشتملت هذه الآية علي جميع ما يجب اعتقاده عن الله سبحانه وتعالي، وهو خمسة أشياء:

أ- إثباته سبحانه وتعالي لتقع به مفارقة التعطيل.

ب- وحدانيته لتقع به البراءة من الشرك. ﴿**وإِلَهُكُمْ إِلَهٌ واحِدٌ**﴾

ج- إثبات أنه ليس بجوهر ولا عرض لتقع به البراءة من التشبيه ﴿**لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ**﴾

د- إثبات أن وجود كل ما سواه كان بإبداعه واختراعه إياه لتقع به البراءة من قول من يقول بالعلة والمعلوم وهذا من قوله: ﴿**الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ**﴾

---

(١) البقاعي، نظم الدرر ج ١ص ١٩٢،١٩١.

هـ- أنه مدبر ما أبدع ومصرفه علي ما يشاء لتقع به البراءة من قول من قال بالطبائع أو تدبير الكواكب.. "[1]

وفي أواخر السورة يقول تعالي:﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ ولا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ ومَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ومَا خَلْفَهُمْ ولا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ ولا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٢٥٥) لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ ويُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انفِصَامَ لَهَا واللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦)﴾

من أوجه الإعجاز في هذه الآية الكريمة أنها جمعت في عشر جمل مستقلة أصول صفات الألوهية والتمجيد لله الواحد الأحد. ونطقت بأنه سبحانه وتعالي متفرد في ألوهيته،موجد لغيره،منزه عن كل نقص، ومبرأ عن القصور والغفلة. ليس كمثله شئ، واجب الوجود بذاته،كان من الأزل ولا شئ معه، وهو الآن في كل آن علي ما عليه كان. فهو فوق المكان وفوق الزمان. تعالي سبحانه عن أن يكون متحيزا حتي يحتاج إلي مكان،أو أن يكون متغيرا حتي يحتاج إلي زمان.

وآية الكرسي عندما تقرر وحدانية الحي القيوم علي هذا النحو الجامع المانع،إنما تدعو إلي تحرير العقول والقلوب من الشرك بالله وتؤكد الكفر بالطاغوت، وتحث علي تخليصها من أوهام الزيغ والضلال، وتدل بما لا يدع مجالا للشك علي أن كل شئ في هذا الوجود يسير وفق منهج إلهي محدد طبقا لمشيئة العليم القدير الحي القيوم.

موضوع السورة

تظهر وسطية الإسلام في العبادات،فالصلاة لا تستغرق غير ساعة من النهار، والصيام مرة كل عام، والحج مرة في العمر، والزكاة نسبة قليلة من المال كل سنة.

والإسلام وسط بين الرهبانية التي تستغرق العمر في الشعائر، والمادية التي لا تلتفت إلي حق الله.

---

(١) نفس المصدر ج١ ص ٢٩٩.

والشريعةوالشعيرة حزمة واحدة كلها عبادة. لذا نجد أحكام القبلة والصلاة في سورة البقرة تحضن بالحض علي الصبر علي ابتلاء الخوف والجو ع ونقص الأموال والأنفس والثمرات عند انقضاض أعداء الله علي حملة الإيمان.

ونجد أحكام الصيام تحضن الحض علي الأكل الحلال من طيبات الرزق وتجنب الحرام من الخبائث كالميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به.

وتحضن فريضة الصيام أحكام القصاص والوصية.

وتحضن أحكام الحج الأمر بدفع الظلم وتجنب العدوان.

كما تبين السورة كيف أن الشريعة الوسط في أحكام الأسرة والمجتمع تحقـــق بوســـطيتها الوحدة والتراحم.

ففي أحكام الأسرة تنظيم لأحكام الزواج والخطبة والنكاح،دون إفراط أو تفريط. ثم تبين حكم الطلاق،فهو أبغض الحلال عند الله فلا تطلق إباحته، ولكن إذا تعذرت العشرة وتركت المرأة كالمعلقة جاز. فهو الوسط بين الإباحة المطلقة والتحريم المانع.

و من خلال ذلك تحدد حقوق المرأة من المهر والنفقة والعدة، وتحقق حقـــوق الرضـــع في الرعاية والإنفاق.

وبين ثنيات هذا التنظيم يحرم تعاطي الخمر ولعب الميسر،رعاية للمال من الضياع، وللعقل من الذهاب، ويغلق باب العداوة والبغضاء التي تتسبب عنهما.

ثم تبين السورة في ختامها تكافل المجتمع من خلال فريضة الزكاة التي هي وسط بين أخـــذ المال كله، وترك حق الفقير جملة. وتحريم الربا سدا لباب الاستغلال، وبيان أحكام الدين مـــن الكتابة والإشهاد سدا لباب النزاع.

فهي شريعة الوسط بين إباحة الكسب الطيب لأفراد المجتمع، وتحريم الاستغلال، وأكل مال الناس بالباطل.

وتشيع بين جنبات السورة أخلاقيات البر بين جنبات المجتمع،من هذه الأخلاق:

أ- الوفاء بالعهد.

ب- الصبر في البأساء والضراء وحين البأس.

ج – إيتاء المال ذوى القربي واليتامي والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب.

د- الدخول في السلم كافة.

هـ – الطهارة وتحرى الطيبات واجتناب الخبائث.

وتنظم العلاقات بين العباد علي أساس العدل، شريعة للأمة تبين الكسب الطيب من عمل صالح وضرب في الأرض، وانفاق طيب علي النفس والفقير والجهاد،في تحفيز لهـذا الإنفـاق وتربية للنفوس علي البذل والعطاء.وتدين الكسب الخبيث وبالتحديد الربا والرشوة، والإنفاق الخبيث وبالتحديد الخمر والميسر.

شريعة للأسرة تحدد حقوق المرأة المالية وحقوق الأولاد والنفقة عليهم والمسؤولية عـن إعالتهم.

شريعة ممثلة في جهاد يدفع الفساد، وسمع وطاعة يمنع الاختلاف، وتكافل يحررها من الحقد والغل.

ويمكن رسم خطوط عريضة للنظام الاجتماعي والاقتصادى الإسلامي فيما يلي:-

١- الرزق الطيب:

- إباحة الطيبات من الرزق أكلا وشرابا.
- تحريم أعيان الخبائث من المأكل ميتا ودما ولحم خنزير وما أهـل لغـير الله بـه، وشراب الخمر.

٢- تنظيم العلاقات الأسرية من الخطبة والزواج والمباشرة الجنسية العفيفة. تنظيم النفقـة والرضاعة والطلاق حتى لايضار أو يظلم ضعيف.

٣- دفع الظلم والعدوان بالجهاد.

٤- البـــــــــــــــــر:

- الإنفاق في سبيل الله سرا وجهرا، ليلاونهارا،جهادا وتكافلا،دون من ولا أذى.
- فريضة الزكاة حق معلوم للسائل والمحروم
- صدقة التطوع والنذر.
- الوصية.
- حق في المال غير الزكاة.

٥- الكسب الطيب:

- حفظ المال.
- تحريم أكل المال بالباطل من ناحية المكاسب، ومنه الميسر والربا.

ثم احتوى المقطع الأخير من موكب الأمة الواحدة عن طبيعة هذه الوحدة،في قوله تعـالي: **﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾**، بتبيان أن الناس ما كانوا ليقتتلوا لولا اختلافهم،

وتفرقهم بين مؤمن وكافر، وهذا من حكمة الله يفعل مايريد. ومن خلال هذه الحقيقة بين الحق تبارك وتعالي:مبدأ لاإكراه في الدين، والنظام الاقتصادى للأمة المسلمة القائم علي الإنفاق في سبيل الله، وتحريم الربا، وتوثيق المعاملات، وحفظ المال،مما يحقق التآلف بين المجتمع، وتنحسر به سبل النزاع والخلاف.

وختمت السورة بموقف محمد ﷺ وأمته من التنزيل الذى يمسك هذه الوحدة. في قوله تعالي: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾.

المناسبة

وصف الأمة المسلمة بالوسط،نراه جليا بين ثنايا السورة،حيث يهديها الله للصراط المستقيم في حياتها دون إفراط أو تفريط. ويترتب علي طاعة الله واتباع أوامره أن ينحسر الاختلاف وينتشر البر فتتماسك الأمة وتأخذ طابعها كما أراد الله أمة واحدة. وشريعة الوسط تتجه بالامة إلي الخير كفاية لعلاقاتها جهادا وإنفاقا وآصرة. فهي وسط في هديها وواحدة في رباطها وخيرة في وجهتها.[1]

و" مناسبة البقرة للفاتحة أنه تعالي لما أخبر أن عباده المخلصين سألوا في الفاتحة هداية الصراط المستقيم الذى هو غير طريق الهالكين أرشدهم في أول التي تليها إلي أن الهدى المسؤول إنما هو في هذا الكتاب، وبين لهم صفات الفريقين الممنوحين بالهداية حثا علي التخلق بها، والممنوعين منها زجرا عن قربها ..."

وتصنف الفاتحة الناس ثلاثة أصناف: منعم عليهم، ومغضوب عليهم، وضالين. وتصنف سورة البقرة الناس إلي: مؤمنين وكافرين ومنافقين.

وتجمع بينها وبين سورة آل عمران حروف الم. يقول ابن قيم الجوزية في كتاب الفرائد: الحروف الثلاثة جمعت المخارج الثلاثية: الحلق واللسان والشفتان،علي ترتيبها. وذلك إشارة إلي البداية التي هي بدء الخلق والنهاية التي هي المعاد والوسط الذى هو المعاش من التشريع بالأوامر والنواهي. وفي ذلك تنبيه علي أن هذا الكتاب الذى ركب من هذه الحروف التي لا

---

(١) أوضحنا هذه الحقيقة عن طريق دراسة موضوعية للقرآن تتبعنا فيها حقيقة الأمة في الكتاب والسنة، وذلك في كتابنا: مستقبل الحضارة، دار الوفا سنة ١٤٠٨هـ طبعة ثانية وهنا نترك القرآن الكريم عن طريق موضوع السورة يعلمنا هذه الحقائق.

تعدو المخارج الثلاثة التي بها يخاطب جميع الأمم جامع لما يصلحكم من أحوال بدء الخلق وإعادته وما بين ذلك، وكل سورة افتتحت بهذه الحروف ذكرت فيها الأحوال الثلاثة.."[1]

خاتمة

لقد احتوى المطلع الأول من صفة الأمة المسلمة كأمة واحدة على موكب النبيين الكريم، ومعه متطلب الوحدة من الكتاب المترل بالحق ليحكم بينهم فيما اختلفوا فيه، في قوله تعالى: ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً﴾، ثم بداية التفرق والصراعات باختلاف الذين أوتوه بعدما جاءتهم البينات بغيا بينهم، وبقيت أمة على الحق لايضرهم من ضل. وفى طيات هذه الحقيقة ربى الله تعالى الأمة المسلمة، التي تبقى لها وحدتها بطاعة الله- على دفع الفساد وتكافل الأسرة، والسمع والطاعة والنصرة والثبات والصبر.

ثم احتوى المقطع الثانى من موكب الأمة الواحدة، فى قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾، بتبيان أن الناس ما كانوا ليقتتلوا لولا اختلافهم، وتفرقهم بين مؤمن وكافر، وهذا من حكمة الله يفعل مايريد. ومن خلال هذه الحقيقة بين الحق تبارك وتعالى: مبدأ ﴿لا إكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾، والنظام الاقتصادى للأمة المسلمة القائم على الإنفاق فى سبيل الله، وتحريم الربا، وتوثيق المعاملات، وحفظ المال.

وختمت السورة بموقف محمد ﷺ وأمته من التتريل الذى يمسك هذه الوحدة. فى قوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إلَيْه مِن رَّبِّه والْمُؤْمِنُونَ﴾.

وبينما قالت اليهود: ﴿سَمِعْنَا وعَصَيْنَا﴾،قالت الأمة المسلمة: ﴿ سَمِعْنَا وأَطَعْنَا﴾، وبينما عتى اليهود عما نهوا عنه، وبطروا نعم الله، وجادلوا أنبياءهم كما بينت قصة البقرة، فوضع الإصر والأغلال عليهم، هتفت الأمة المسلمة من أعماقها: ﴿ رَبَّنَا لا تُؤَاخذْنَا إن نَّسينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا ولا تَحْملْ عَلَيْنَا إصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَذينَ من قَبْلنَا رَبَّنَا ولا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا به واعْفُ عَنَّا واغْفرْ لَنَا وارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى القَوْمِ الكَافِرِينَ﴾.

وقد بدأ الله تعالى السورة بمدح المتقين الذين يؤمنون بالغيب، ويقيمون الصلاة ومما رزقهم ينفقون، وبين فى آخر السورة أن الذين مدحهم فى أول السورة هم أمة محمد ﷺ، فقال: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إلَيْه مِن رَّبِّه والْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ باللَّه ومَلائكَته وكُتُبه ورُسُله لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِه﴾ وهذا هو المراد بقوله فى أول السورة: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾

---

(١) البقاعي، نظم الدرر ج١٢ ص ٢٢، ٣١، ٤٠.

ثم قال ههنا: ﴿**وقَالُوا سَمِعْنَا وأَطَعْنَا**﴾، وهو المراد بقوله: ﴿**وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ**﴾، ثم قال ههنا: ﴿**غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وإِلَيْكَ المَصِيرُ**﴾، وهو المراد بقوله فى أول السورة: ﴿**وَبالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ**﴾ ثم حكى عنهم ههنا كيفية تضرعهم إلى ربهم فى قوله: ﴿**رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا**﴾ إلى آخر السورة، وهو المراد بقوله فى أول السورة: ﴿ **أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾. فانظر كيف حصلت الموافقة بين أول السورة وآخرها (١).

فتالله لو أن هذه السورة رتبت بعد تمام نزولها، لكان جمع أشتاتها على هذه الصورة معجزة، فكيف وكل نجم منها- كسائر النجوم فى سائر السور- كان يوضع فى رتبته من فور نزوله، وكان يحفظ لغيره مكانه انتظارا لحلوله؟ وهكذا كان مالم يترل منها معروف الرتبة محدد الموقع قبل أن يترل. ثم كيف وقد اختصت من بين السور المنجمة بأنها حددت مواقع نجومها لاقبل نزولها بعام أو بعض عام، بل بتسعة أعوام؟ لعمرى لئن كانت للقرآن فى بلاغة تعبيره معجزات، وفى أساليب تبويبه معجزات، وفى نبراته الصادقة معجزات، وفى تشريعاته الخالدة معجزات، وفى كل ما استخدمه من

حقائق العلوم النفسية والكونية معجزات، لعمرى إنه فى ترتيب آيه على هذا الوجه لهو معجزة المعجزات (٢).

---

(١) الرازى، مفاتيح الغيب، ج ٧ ص ١١١.

(٢) محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم، ص ٢٠٨، ٢٠٩.

خير أمة
كما تخرجها سورة
آل عمران

خير أمة
كما تخرجها سورة آل عمران

مقدمة

بينت سورة البقرة أساسين من أسس البنيان الذى تقوم عليه الأمة المسلمة، فهى أمة وسط فى شريعتها، وأمة واحدة فى صلاتها. وتكمل هنا سورة آل عمران الأساس الثالث من أسس هذا البنيان، وهو الخيرية، التى تحدد وجهة الأمة المسلمة كخير أمة أخرجت للناس.

وبينما كان القصص المناسب للتشريع والصلات فى تكوين الأمة

المسلمة والأمة الوسط هو قصص بنى إسرائيل، حيث يبين موقفهم من الشريعة التى أنزلت فى التوراة، فإن القصص المناسب للخيرية هو قصص أنصار عيسى ابن مريم، الذى حدد مهمته فى بعث الروح فى بنى إسرائيل، بعد أن جمدوا على النصوص وحرفوها، ليحررهم من الأنانية والعدوان وقسوة القلوب. فلم يأت لينقض التوراة ولكن ليتمها. وفى خلقه البر والإحسان إلى الغير وإن أساء، ولم يكن جبارا شقيا. وكانت رسالته عليه السلام مبنية على السماحة والعفو والحب والمسارعة فى الخيرات.

وبينما أشارت سورة البقرة إلى الخيرية وصفا لسلوكيات الوسطية فى بنيان الأمة الحضارى، فبينت أن ما أراده الله هو الخير، فقال تعالى: ﴿**وعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً وهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئاً وهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ واللَّهُ يَعْلَمُ وأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٢١٦)**﴾[البقرة: ٢١٦] وقوله: ﴿ **مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا**﴾ [البقرة: ١٥٦]، لأن الله وحده الذى خلق السماوات والأرض والدنيا والآخرة والغيب والشهادة، فهو وحده الذى وسع المكان والزمان والعلم. فإذا اختار لنا فقد هدانا إلى الصراط المستقيم، حيث الهدى والحق علما، والصواب والرحمة عملا، يقول تعالى: ﴿ **ومَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ**﴾[البقرة: ١٩٧]، ويقول: ﴿ **ومَا تُقَدِّمُوا لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ**﴾ [البقرة: ١١٠]، ويقول: ﴿ **وتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى واتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ (١٩٧)**﴾ [البقرة: ١٩٧]، وإذا وسد لغيره تعالى هذا الأمر لكان الضلال والباطل علما والبغى والعذاب عملا.

ونجد سورة آل عمران عامرة بحقائق هذه الخيرية:

فتحدد فى مطلع السورة أن الخيرية بيد الله علما وتشريعا. وأن رضوان الله فى الجنة هو الخير الأقصى، وأن الحساب والجزاء يكون على أساس عمل الخير أو عمل السوء.

يقول تعالى: ﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (١٥)﴾ [آل عمران: ١٥].

* ﴿ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦)﴾ [آل عمران: ٢٦].

* ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً﴾[آل عمران: ٣٠].

وفى وسط السورة يبين الله تعالى مهام هذه الخيرية، فى تكليف الأمر بالقسط فى المجتمع أمرا بالمعروف ونهيا عن المنكر. يقول تعالى:

* ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

* ﴿ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم﴾ [آل عمران: ١١٠].

*﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠)﴾ [آل عمران: ١١٠].

* ﴿ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (١١٥)﴾ [آل عمران: ١١٥].

وفى آخر السورة يبين الله تعالى الصعوبات التى تتعرض لها الأمة عند القيام بهذه المهمة، وبشرها الله بما يلى:

* ﴿ بَلِ اللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ (١٥٠)﴾ [آل عمران: ١٥٠].

* ﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (١٥٧)﴾ [آل عمران: ١٥٧].

والمحصلة النهائية لهذه المعركة هى:

* ﴿ وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنفُسِهِمْ﴾[آل عمران: ١٧٨].

* ﴿ وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَّهُم﴾[آل عمران: ١٨٠]

*﴿ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ (١٩٨)﴾[آل عمران: ١٩٨].

الخيرية

كلمة الخير كلمة عامة فى جميع البلدان والأزمان، وهى يقصد بها السلوك المحقق للمثل العليا، ويرى أرسطو والفلسفة الإغريقية عامة أن موضوع البحث الفلسفى يتناول كل ما تتضمنه فكرة الخير الأقصى.

ووصف السلوك بالخيرية يراد به نزوعه إلى تحقيق غاية أو مثل أعلى، ولفظ الخيرGOOD فى الإنجليزية يتصل باللفظ الألمانىGut، عادة ما يطلق على كل ما يحقق هدفاً، فالخير هو القيمة العليا التى تجمع إليها القيم جميعاً.

ويقصد بالخير الأخلاق لأن الأخلاق هى أهم الوسائل التى تصل إلى الخير.

يقول مفكر غربى: "إن الغالبية العظمى من الرجال والنساء يعبرون الحياة فى الأوقات العادية دون أن يأخذوا ظروفهم الشخصية، وظروف العالم كله، بإعتبارها وحدة يتأملونها أو ينقدونها، فهم يجدون أنفسهم وقد ولدوا فى موضع معين من المجتمع، ويقبلون ما يجئ به يومهم دون مجهود فى التفكير أكثر مما يتطلبه منهم الحاضر، وهم يسعون وراء إشباع حاجات وقتية بطريقة تكاد تكون غريزية، مثلهم فى ذلك مثل دواب الحقول، دون تبصر أو إعمال للفكر فى أن ظروفهم كلها يمكن أن تتغير إذا بذلوا مجهودا كافيا، وهناك نسبة معينة منهم يقودهم الطموح الشخصى إلى أن يبذلوا من مجهود الذهن والإرادة القدر الضرورى ليضعهم فى مصاف الأحسن حظا من أعضاء المجتمع، ولكن قليلاً منهم يهتمون اهتماماً جدياً بكفالة ما حصلوا عليه لأنفسهم من مزايا للجميع، إنها لقلة نادرة استثنائية من الناس أولئك الذين يكونون للجنس البشرى كله ذلك الحب الذى يجعلهم لا يستطيعون أن يتحملوا الشرور والشقاء الذى تعانيه الغالبية، بصرف النظر عن علاقته بحياتهم الخاصة، وتسعى هذه القلة عن طريق الفكر أولاً ثم العمل، يدفعها الألم الناشئ عن مشاركتها للآخرين فى آلامهم إلى إيجاد طريق للخلاص" [(١)].

ويقول آخر: " إن الناس غالبا ما يتعثرون فى تضييق الدائرة بالدوران حول ذاتهم فحسب، والتاريخ ملئ بالشواهد على أن النفس لديها شهية جشعة تتمدد كلما أجبتها وتطلب المزيد، ومحاولة إشباعها دون التحكم فيها منبع الألم المتزايد أكثر من الابتهاج، وهذا يوقع فى فخ العبودية والذل، ولقد عرفنا عدداً قليلاً من الناس هربوا من هذه العبودية فحققوا السعادة لحياتهم، وذلك بأن ركزوا اهتماماتهم لخارج الذات، فامتلأت حياتهم بالمعانى النبيلة

(١) برتراند رسل، سبيل الحرية، ص ١٣، مكتبة الإنجلو المصرية ١٩٥٧م.

والاهتمامات الخيرة، إن الحياة لا تنتهى بالموت ولكنها تضيع فى خدمة الذات والانشغال بها عن المثل العليا والأغراض السامية، والحياة تكون مثيرة وذات قيمة حقاً ومشبعة حينما يتجاوز هدف الإنسان ذاته إلى خدمة الآخرين، وهنا يجد نفسه. والحكومات لم يحترم دورها إلا حين تحولت من هوى السلطة إلى آفاق خدمة المجتمع، وبدون تقدير دقيق لهذا الأمر يتصور أن هذه الصيحات شاذة أو متخلفة، والبعض يشك فيها ويستبعدها ويرفضها على أنها لغو، ولكن العقلاء ذوى الفكر المنظم والرؤية البعيدة يجدون تفسيراً لحافز خدمة الغير، فلانسل يرى أن الطبيعة البشرية، لو تركت، لحكمها قانون حفظ النفس، الذى يجعلها تنكب بأنانية على خدمة الذات فحسب، وكان ذلك سبباً فى فشل كثير من الناس وإخفاقهم.

وهناك ثلاثة متطلبات لتحقيق هذه الخيرية:

١- التحرر من جواذب الذات كمحور رئيسى لحياة الإنسان.

٢- الاستعداد لتحمل كافة التضحيات اللازمة للقيام بهذا الهدف.

٣- تربية النفس على القيم الأخلاقية والاستقامة بحيث تصبح تلقائية.

وبلا شك تكون مأساة حين تقتصر دنيا الأعمال على النفع الشخصى وتخلو من قيم الإيثار ونفع الغير، وليس معنى هذا إهمال الذات والتخلى عن التعمير والإبداع، بل إن ذلك هو طريق نفع الغير وتنمية المجتمع والتقدم بالحياة، إن الإنسان الذى يجمع بين خدمة الذات وخدمة الناس يستحق التقدير، لأنه لا يحدث تغييرا صغيرا، بل يحدث تغييرا جذريا، وهنا يحقق الإنسان أحسن استثمار لحياته، ولا يقضيه فى أمور تافهة لا أثر لها. وفى خطبة تحدث فيها ماهونى لطلبة مدرسة الأعمال بجامعة هارفارد بهذا الخصوص، فقال: إذا ذهبت إلى الآخرة للقاء خالقك وقدمت كشفا عن أعمالك فإنك تقول: ما فعلته هو أننى حققت معدلا للنمو كبيراً فى عملى بالشركة، هذه مؤهلات لا تزن شيئا، إذا قورنت بالأعمال الواجبة عليك للغير، والتى تثقل ميزانك " [١].

ولكننا يجب أن ننبه إلى محظور يلغى من أثر هذه النزعة الأخلاقية، حتى وإن كان صاحبها صادقا، فما هو الهدف من ذلك؟ هل هو إشباع دوافع الفخر والسمو على الغير فحسب؟ إن كان الأمر كذلك فهو هوى فى النفس يجعلنا ندور حول عبادة الذات، إن الفلسفة النفعية العملية المعاصرة Pragmatism قد جعلت كل ما يشبع هوى النفس هو الحق، فأصبحت

---

(١) Charles A. Watson, Business Horizon Magazine, The Meaning of Service In Business, P.٥٥ – ٦١ January, February ١٩٩٢.

الفتاة التي تفقد عذريتها ناضجة والتي تحافظ على عفافها معقدة، وتصور نيتشه الفيلسوف الألماني أن الإحسان للضعفاء مصادمة لقانون البقاء للأصلح، يحكم على تطور البشرية بالضعف !.

لقد ضربت في هذا العصر العلمانية الغربية والاشتراكية الماركسية القيم وثوابت الأخلاق في مقتل، وعاش العصر واقع سيادة المنفعة واللذة، وتطويع الأخلاق لهذا الهوى والضلال. وبدأ ذلك حين استبعد الدين من المجتمع، وظهر لهذا التيار فلاسفته كما هي العادة. فدارون ادعى، على غير أساس، أن الإنسان ترقى من الحيوان، ليقرب من العقل الإنساني خلقا بدون خالق يرجع إليه في تحديد ثوابت القيم والأخلاق. ودوركايم الذي استبدل إرادة الله بإرادة المجتمع، فجعل للمجتمع حق تحديد النظام الأخلاقي على أساس الرغبات والمنافع، وفرويد الذي فسر السلوك البشري على أساس الجنس كمحرك للأخلاق والقيم، ثم زاد اليهودي ماركس البلاء باعتباره القيم الأخلاقية انعكاسا للقيم المادية التي تحدد للمجتمع سلوكه وتطلعاته.

وكان التمرد على القيم الأخلاقية، باسم الحتمية والتطور، مفرخا للموقف التشاؤمي الذي انتهت إليه الفلسفة الوجودية، فانهارت بها جميع القيم والأخلاق.

" ونجم عن ذلك أن تركت قوانين الإنسان الخلقية دون أي مقياس خارجي يمكن أن تقاس به، فالطبيعة البشرية- بما فيها من شذوذ فردي وعواطف داخلية واتجاه طاغ نحو توكيد ذاتها- هذه الطبيعة البشرية رفعت إلى منزلة قاض يصدر حكمه في قضايا هو فيها فريق. فالإنسانية التي تتركز حول الإنسان لاتعدو كونها إحياء لنظرية قديمة عفا عليها الزمن، وهي نظرية السوفسطائي برتاغورس القائلة بأن الإنسان هو مقياس كل شئ. ونتائج ذلك تشمل جميع ألوان النكبات في العصر الحديث. فالمذهب القائل بأن الإنسان مقياس لكل شئ ينشأ عنه على سبيل المثال أن الاختلافات الخلقية إنما هي قضية ذوق، وهو اعتقاد أصبح وبائيا في المجتمع الحديث... ثم إذا لم يكن للكون تصميم خلقي أسمى من المصالح البشرية، فإنه ينتج عن ذلك أن الإنسان وحده، وعن طريق ذاته فقط، يعد طريق خلاصه.

وبذلك تسلم الثقافة العلمانية نفسها لنوع من المذاهب العقلية معرض للشطط. إنها لاتحسب حسابا للقوى التي تفوق العقل وتستطيع وحدها أن تسمو بالناس فوق ذواتهم، وليس باستطاعتها أن تيسر للناس عونا مصدره قوى أكبر من قوتهم، ولاتنبئهم كيف يمكن لما فوق التعقل أن ينسكب في ذواتهم، فيوحي إليهم ويشع النور في حياتهم. وعلى هذا النحو يترك الناس عاجزين عن مكافحة القوة غير المتعقلة في نفوسهم، ذلك بأن العقل البشري ضعيف غير

دافئ، ودوما تتغلب عليه النوازع غير العاقلة، ومالم يتح للناس نور ودفء أقوى من العقل يصارعون بهما قوة ماهو دون العقل، فإن العقل نفسه مقضى عليه بالخذ لان " [١].

ويتجه الإنسان فى الغرب نتيجة لذلك نحو الجنون واليأس والانتحار، يتفنن فى إرهاق البنيان المادى للإنسان والنسيج المكون للأسرة، ويطفئ شعلة الروح فيه بالتمرغ فى أوحال الشهوة والرذيلة، ويتنافس فى تطوير أدوات الهلاك، ويمزق لحمة الأسرة والمجتمع، ويقضى على ينابيع الرحمة والصلة، ويقض مضاجع الدنيا بالصراع والحروب والاستغلال والظلم.

يقول الأسقف وليم لورنس: " ينتاب شعبنا نوع من الارتياب فى أثر الترف المادى فى السلوك الأخلاقى. إننا نجعل من النذر التى قصمت الترف الكبير، ونتساءل ما إذا كان الترف المادى يجنح فى المدى الطويل إلى تحلل الأخلاق؟ ويؤكد لنا التاريخ هذا الارتياب، وتجئ هذه الرؤى من زوال عظمة سادوم وعمورية وبابل وروما والبندقية، ومن سقوط أمم عظيمة أيضا. ولنتساءل عما إذا كانت إنجلترا وهى فى عز ثروتها وسلطانها. قد بدأت الآن تزرع ما سوف تحصده الزوابع فى المستقبل.

وإذا كان تعليلنا المستمد من التاريخ والتجربة والإنجيل صحيحا، فنحن كشعب مسيحى نكون قد ألقينا الإنجيل واعتنقنا الطقوس الوثنية، واتجهنا إلى انهيار يتضاءل أمامه سقوط روما"[٢].

والتروع نحو الخير فطرة إنسانية. يقول الأستاذ فلوجل: " لقد أثبت البحث وجود عنصر يترتب عليه أن يكون أحد الأفراد على العموم أميل إلى الاتساق وأيقظ ضميرا وأكثر مثابرة وأحرص على المبادئ من فرد آخر يغلب عليه أن تجرفه النزوات العابرة والميول العارضة والحماسات الموقوتة... وأسفر التحليل التفصيلى عن إضفاء تفسير خلقى على هذا العمل الذى هو أشبه بعملية التحكم العمد منه بالتصرف التلقائى للنزعة الكريمة أو الطيبة... وقد أيدت الطرق الموضوعية فيما بعد.. من اختبارات الحياة الواقعية على أنواع مختلفة من الخير مثل الصدق ويقظة الضمير والتعاون والمروءة والمثابرة والامتناع عن الإغراء والتسامح والتضحية بالنفس وضبط النفس، على عدد ضخم من الأطفال الأمريكيين، وأسفر عن عودة ظهور عنصر هام هو عنصر التناسق أو الاتساق الذى يلعب دورا فى كل صور الخير فيما يبدو.. مما أوضح وجود شئ شبيه بفكرة الناس عن الضمير" [٣].

---

(١) تشارلز فرانكل، أزمة الإنسان الحد يث، ص ٥٦: ٦٣، مكتبة الحياة، موسسة فرانكلين ١٩٥٩ م.

(٢) آرثر حونسون، الاقتصاد الأ مريكى، مقد مة تاريخية لمشاكل السبعينات، ص ٤٧، ٤٨، دار المعارف سنة ١٩٨١.

(٣) ج. كارل فلوجل، الإنسان والأخلاق والمجتمع، ترجمة عثمان نويه وآخرين، ص ٣١، دار الفكر العربى.

ومن هنا نرى الحكمة فى أسلوب التربية الإسلامية الموجهة أولا إلى ضمير الإنسان ونعرف صدق هذا التحليل من توجيه رسول الله ﷺ حيث يقول: "**البر حسن الخلق والإثم ماحاك فى نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس** "[1].

والتشريع الوضعى مسؤول بلا شك عن إنهيار المجتمع الغربى، ولكن ضعف الوازع الخلقى عليه مسؤولية كذلك. إن القانون لايستطيع أبدا أن يعمل وحده مالم يكن له رصيد من الأخلاق والدافع الذاتى، ولن يستطيع القانون مهما زادت مواده أن يسد الثغرات مادامت النفوس مريضة والضمير معطلا.

ولكن الضمير مجرد نزوع، ولابد أن تعتمد الأخلاق على مصدر عليم بالسماوات والأرض، والغيب والشهادة، لتحديد ثوابتها، فلا تترك للإنسان يعصف بها بظنونه وأهوائه. والقرآن الكريم خير منهاج للإنسانية يحدد لها الأخلاق الوسطى التى تسعد حياتها وتسعد المجتمع.

يقول ابن القيم: " للأخلاق حد متى جاوزته صارت عدوانا، ومتى قصرت عنه كانت نقصا وإهانة. فللغضب حد هو الشجاعة المحمودة، والأنفة من الرذائل والنقائص، وهذا كمال إذا جاوز حده تعدى صاحبه وجار، وإن نقص عنه جبن ولن يأنف من الرذائل. وللحرص حد وهو الكفاية فى أمور الدنيا، وحصول البلاغ منها، فمتى نقص عن ذلك كان مهانة وإضاعة، ومتى زاد عليه كان شرها ورغبة فيما لا تحمد الرغبة فيه وللحسد حد وهو المنافسة فى طلب الكمال والأنفة أن يتقدم عليه نظيره، فمتى تعدى ذلك صار بغيا وظلما ويتمنى معه زوال النعمة عن المحسود، ويحرص على إيذائه، ومتى نقص عن ذلك كان دناءة وضعف همة وصغر نفس "[2].

وفى سورة آل عمران تحديد لوجهة الخيرية فى هذه الأمة، وتحديد لثوابت أخلاقياتها. وهى مع كل القرآن الكريم تربية للنفس عن طريق الأمر والنهى والوعد والوعيد والقصص، يتلى آناء الليل وأطراف النهار دافعا النفس إلى أحسن الأخلاق وأعلاها.

والذى يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخلق بالقرآن لايهمه نتيجة هذا التخلق فى الدنيا. فهو يعنى بالتقيد به فى جميع الأحوال، سواء أكانت نتيجته ظاهرة فى هذه الدنيا حسنة أو سيئة، وسواء أكان نصيبه من ذلك فوزا أو خسرانا. لأن قلبه معلق برضوان الله وثواب الآخرة. ومن

---

(١) رواه مسلم، ج ٢ ص ٢٧٧ الحلبى.

(٢) ابن القيم، مدارج السالكين، ج ٢ ص ١٢٤، مكتبة السنة المحمدية.

هنا ترسى قواعد خير أمة أخرجت للناس وتتحدد معالمها، كما تتحـدث عنـها سـورة آل عمران.

يخرج الله سبحانه وتعالى من خلال سورة آل عمران الأمة المسلمة خير أمة عرفها النـاس، ومن ثم تدور السورة على محاور أربع:

المحور الأول: الأساس العقيدى –مصدر المعرفة:

أ- يبين الله تعالى أن الوحى الممثل فى كتاب الله مصدر المعرفة فى أمـور الغيـب، وفى منهاج الحياة يعتمد عليه الإنسان فى تلمس الهداية مع العقل والحس.

ب- يبين الله تعالى أن الوحى فيه آيات محكمات وفيه آيات متشابهات، والمتشابه لا يطيق الإنسان معرفته بمدركاته المحدودة، ومن ثم يسلم به الراسخون فى العلم، أما الذين فى قلـوبهم زيغ فيثيرون به الفتن.

ت- إن اتباع الوحى والإيمان بالمتشابه، أساس الدين الذى هو الإسلام، ومن الناس مـن يبغى غيره دينا فيثير الاختلاف والنزاع والحروب والشقاء للبشر.

ومن خلال ذلك يحدد الإسلام قاعدة الخيرية فى العقيدة:

١- الله وحده بيده الخير، لأنه وحده على كل شئ قدير.

٢- الخير الأقصى هو فى الآخرة فى الجنة ورضوان الله.

المحور الثانى: عبرة التاريخ:

أ- يصطفى الله تعالى من البشر رسولا يوحى إليه، بياناً للناس عن المبدأ والمعاد والمنهاج، ليحموا البشر من الاختلاف وتأويل آيات الله ابتغاء الفتنة.

ب- ثم يركز القرآن هنا على قصة عيسى- عليه السلام- ونشأته الطـاهرة مـن ذريـة طاهرة، وذلك ليبين أمرين:

١- الرد على فرية اليهود عن المسيح- عليه السلام- حين نسبوه إلى أب غير شرعى.

٢- الرد على فرية النصارى الذين جعلوا المسيح إلها من دون الله.

وهنا ترد السورة على هذه الشبهات التي سببها النزاع على المتشابه الذى أمروا بالتسليم به:

١- شبهة خلق عيسى- عليه السلام- ويرد عليها القرآن بأن الذى خلق آدم من غير أبوين قادر على خلق عيسى من غير أب.

٢- شبهة الانتماء إلى إبراهيم وادعاء أنه يهودى أو نصرانى، ويرد عليها القرآن بأن النسبة نسبة عقدية، وأنه لم يكن يهودياً ولا نصرانياً، ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين.

٣- شبهات يثيرونها بإلباس الحق والباطل، ليبقى الناس فى متاهة واضطراب فيضلونهم بذلك، وآفة رجال الدين حين يفسدون أن يصبحوا أداة طيعة لتزييف الحقائق وتأويل النصوص لإرضاء ذوى الجاه والسلطان.

٤- شبهة يتداولونها لاستحلال أموال الناس بدعوى أنهم أحباب الله، ويقولون على الله الكذب، ولا يجوز لمسلم بحال أن يعتدى على مال مسلم فحرمته كحرمة الدم ولا على مال الذمى بموجب الوفاء بالعهد، ولا على الكافر إلا إذا كان محارباً وكان يستحل ماله على سبيل المعاملة بالمثل.

٥- شبهة يثيرونها بتحريف كلام الله ولى ألسنتهم، وينسبون ذلك للدين ليبرروا انحرافات السادة ومراكز القوة، ويجعلون الملائكة والنبيين أربابا ليضلوا العامة ويبتزوا الأموال وينالوا الحظوة عند الطواغيت.

٦- شبهة يفرقون بها بين الرسل؛ يؤمنون بالبعض ويكفرون بالبعض، يشترون بذلك الثمن القليل من أعداء دين الله رغم معرفتهم بالحق، وقد أخذ على الجميع الميثاق من الله ليبينه للناس ولا يكتمونه.

٧- شبهة يثيرونها نتيجة أخذهم الشريعة عن غير الله، من ذلك ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة، فالتشريع خصيصة من خصائص الألوهية، وليس لبشر أن يشرع بغير ما أنزل الله، وإذا فعل ذلك فقد أشرك بالله ما لم ينزل به سلطاناً.

٨- شبهة يثيرونها بعد أن تحول رسول الله ﷺ بالقبلة من بيت المقدس إلى مكة، ويرد عليها القرآن بأن أول بيت وضع للناس ببكة، وكان أكبر مناسك ملة إبراهيم الحج إلى بيت الله الحرام.

ت- ومن ثم يختم تعالى هذا الجزء بنداء لأهل الكتاب ليعدلوا عن كفرهم وصدهم عن سبيل الله، وتحذير للمؤمنين أن يطيعوهم فيكفروا، وقد أكرمهم الله برسوله وكتابه ليعتصموا به فيهتدوا إلى الصراط المستقيم.

المحور الثالث موضوع السورة -: الخيرية:

تقوم أخلاقيات الأمة المسلمة كما يخرجها القرآن الكريم على أسس هي:

١- التقوى التي تنجي من الفسوق والعصيان.

٢- الألفة التي تنجي من الفرقة والاختلاف.

٣- الأخوة التي تنجي من العداوة والخصام.

ومن هنا يقيم المسلم أساسه الأخلاقي على فتح آفاق الخير للمجتمع وإن لم يثب على ذلك دنيويا، وأن يأمر بالخير والمعروف حسبة لوجه الله، ويمنع كل منافذ الشر عنه وإن تسبب ذلك في وقوع الأذى عليه.

وعلى هذا الأساس يتحدد منهاج المسلم على قواعد:

١- الإيمان.

٢- المسارعة في الخيرات.

٣- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ومن خلال ذلك يقارن القرآن الكريم بين أمتين، أمة تؤمن بالله وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتسارع في الخيرات فيكون ذلك مناط فلاحهم، وأمة كافرة تخضع للهوى وتدعم الباطل وتتمادى في العصيان، وتمد يد الأذى للصالحين من العباد، فلن يشفع لها أموالها ولا أولادها، ويكون ذلك طريقهم إلى الهلاك والذل والهوان.

ومن هنا تتحدد أخلاقيات خير أمة وهي:

١- لا تتخذ أهل الكفر بطانة من دون المؤمنين، وقد ظهرت البغضاء في ظاهرهم وما تخفي صدورهم أكبر.

٢- التوكل على الله فيكون كل مرادهم مرضاة الله، موقنين أن نصرهم في طاعته، وأن كيد الكافرين لن يضرهم شيئاً مع هذا التوكل، ومن ثم على الداعية أن يتجرد من كل ذاته حتى كراهية أعدائه والدعاء عليهم.

٣- اجتناب كل صور الربا فهو من أكبر الكبائر، وأقذر وسائل استغلال العباد.

٤- أن تجود أنفسهم بالإنفاق فى سبيل الله لينالوا مغفرته وجنته.

٥- التحلى بخلق الحلم فيكظمون غيظهم ويعفون عن الناس، ويستعلون علـى نزعـات أنفسهم ولا يكون فى بالهم إلا هداية العباد وخيرهم.

٦- العفة، وسرعة التوبة من الفواحش والذنوب حتى يخرج الحق من قلوبهم على ألسنتهم، وتكلؤهم رحمة الله ورضاؤه فى دعوتهم وجهادهم.

٧- الصبر والثبات طريق النصر أبداً، والبعد عن الوهن والحزن طريق الهزيمـة، وهـذا لا يتحقق إلا إذا كانت الآخرة أحب للعبد من الدنيا، والموت فى حسه أقرب من الحياة.

٨- الطاعة لله ورسوله ولأولى الأمر من المؤمنين، وقد بينت السورة بتوضـيح كـبير أن سبب هزيمة المسلمين فى أحد كان معصية الله ورسوله، وذلك نتيجة أن الـدنيا كـبرت فى حسهم عن الآخرة، وطغى حس الحياة الدنيا على حقيقة الموت ولقاء الله.

٩- ثم تبين السورة أخلاقيات الإمامة والقيادة التى تضمن حسن سياسة العباد:

أ- اللين، وترك الفظاظة وغلظة القلب.

ب- العفو والمغفرة قبل الحساب والعقاب.

ت- الشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام لا يجوز لحاكم أن يتركها.

ث- التوكل على الله، والتخلى عن كل حول وقوة إلا حول الله وقوته، فلا يعتمـد إلا على الله، ولا يتصور أنه ينصر بقوة أو عدد إلا بمدد الله.

ج- العفة فلا يمد عينه إلى ما متع الله به غيره، ولا يسمح لبطانته أن تختلس أو تتميـز فى مال المسلمين والعطاء.

ح- أن يكون واجبه الأول اتخاذ كل سبيل لتزكية نفوس المسلمين، وتعليمهم كـل مـا يصلح دينهم.

المحور الرابع: ماعند الله خير للأبرار:

وفي ختام السورة يلتقي موضوع الخيرية مع مطلع السورة في بيان حقيقة الألوهية.

إن تربية الأمة المسلمة علي الخيرية تأهيل لها لتحمل أمانة الخلافة وشهادة الحق لـدين الله، وما يتبعها من صبر ومصابرة ومرابطة.

إن الشيطان وجنده لا يريدون أن يعم هذا الخير، ولا يستطيعون العـيش إلا في مـستنقع البغي والفساد. ومن ثم يحشدون الحشود ليطفئوا نور الله.

وهنا في ختام السورة يبين الله تعالي الخير الأقصي، وهو أن يكون جهاد الإنسان خالصا لا يراد به غير وجه الله، ولا يقصد به إلا الدار الآخرة.

وعلي أساس هذه القاعدة تحدد القيم وتبين المقاصد.

يقول تعالي موضحا أساس هذه الخيرية: ﴿وسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ والأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَذينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ والْكَاظِمِينَ الغَيْظَ والْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ واللَّهُ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ (١٣٤) والَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ومَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ ولَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ونِعْمَ أَجْرُ العَامِلِينَ (١٣٦).﴾...

وتظهر نتائجها في أخلاقيات الأمة الجهادية. يقول تعالي: ﴿ وكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ومَا ضَعُفُوا ومَا اسْتَكَانُوا واللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) ومَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وانصُرْنَا عَلَى القَوْمِ الكَافِرِينَ (١٤٧) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ واللَّهُ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ (١٤٨)﴾

وسبب كل فشل ووراء كل مصيبة البعد عن هذه القاعدة. يقول تعالي:

﴿ولَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وعَصَيْتُم مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا ومِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ولَقَدْ عَفَا عَنكُمْ واللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى المُؤْمِنِينَ (١٥٢)﴾

وتقوم علي هذه القاعدة تحديد معني الخير والشر الذى علي أساسه تقدر حقيقة الموت والحياة يقول تعالي:

﴿ولَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ ورَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (١٥٧) ولَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ (١٥٨).﴾.

ويعرف الله تعالي معني النصر والهزيمة فيقول:

﴿لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَذينَ كَفَرُوا فِي البِلادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وبِئْسَ المِهَادُ (١٩٧) لَكِنِ الَذينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِّنْ عِندِ اللَّهِ ومَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ (١٩٨)﴾

ويعرف معني النعيم والشقاء:

﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٧٥) وَلا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً يُرِيدُ اللَّهُ أَلاَّ يَجْعَلَ لَهُمْ حَظّاً فِي الآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٧٦)﴾

﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٨٠)﴾

ويحدد الله تعالي معالم الخير الأقصي في قوله تعالي:

﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ (١٩٨)﴾

ثم تبين السورة الحكمة من وراء هذا الابتلاء، فالله تعالى بحكمته يمحص النفوس ويميز الصفوف ويصطفى الشهداء، وبذلك يميز الله الخبيث من الطيب.

يقول تبارك وتعالي في تمحيص النفوس واصطفاء الشهداء:

﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١)﴾

ويقول تبارك وتعالي في تمييز الصفوف:

﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٩)﴾

الخاتمة

إن الخير كل الخير إنما هو فى رضاء الله والجنة...ففى أول السورة فى قوله تعالى:

﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (١٥)﴾.

وفى آخر السورة:

﴿ لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ (١٩٨)﴾

ومن هنا بدأت السورة بدعاء المؤمنين:

﴿ رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ (٨)﴾

وختمت السورة بدعائهم:

﴿ رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ (١٩٣) رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (١٩٤)﴾

ولقد بدأت السورة بإعلاء شأن أولى الألباب فى قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (٧)﴾.

ختمت السورة بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ (١٩٠)﴾

بين سورتى البقرة وآل عمران

اهتمت سورة البقرة بتبيان الأسس الاجتماعية والاقتصادية الرئيسة للأمة المسلمة، ولهـذا تردد لفظ الأمة على مداها مبينا أوصافها:

١ – الإسلام: ﴿ رَبَّنَا واجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ومن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾.

٢ – الوحدة: ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ ومُنذِرِينَ﴾.

٣ – الوسط: ﴿ وكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وسَطاً لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾.

وقد بدئت السورة وعنوانها البقرة، بابتلاء بنى اسرائيل بذبح بقرة، ولوذبحـوا أى بقـرة لأجزأت، ولكن الله بعد سؤالهم أختار لهم الوسط ﴿ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾.

وفى آخر السورة بين هذه الوسطية فى العبادات فى قوله تعالى: ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاةِ الوُسْطَى﴾.

وسنت الأسس الاجتماعية والاقتصادية على هذه السنة الوسطية على مـدى السـورة لا إفراط ولا تفريط.

واهتمت سورة آل عمران بالأسس الأخلاقية للأمة المسلمة، فاقترن وصف الأمة بالخيرية، وعمرت جنباتها بكلمة الخير. يقول تعالى:

﴿ ولْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الخَيْرِ ويَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾.

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾.

﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾.

﴿ بِيَدِكَ الخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً﴾.

﴿ ومَكَرُوا ومَكَرَ اللَّهُ واللَّهُ خَيْرُ المَاكِرِينَ﴾.

﴿ ومَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ واللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾.

﴿ بَلِ اللَّهُ مَوْلاكُمْ وهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾.

﴿ ولَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ ورَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

﴿ ولا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنفُسِهِمْ﴾.

﴿ ومَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ﴾.

"يقول السيوطى: وسورة البقرة تضمنت قواعد الدين وآل عمران مكملة لمقصوده، فالبقرة بمنزلة إقامة الدليل على الحكم وآل عمران بمنزلة الجواب عن شبهات الخصوم، ولهذا ورد فيها ذكر المتشابه لما تمسك به النصارى. وأوجب الحج فى آل عمران، وأما فى البقرة فذكر أنه مشروع، وأمر بإتمامه بعد الشروع فيه. وكان خطاب النصارى فى آل عمران أكثر، كما أن خطاب اليهود فى البقرة أكثر، لأن التوراة أصل والإنجيل فرع لها. والنبى ﷺ لما هاجر إلى المدينة دعا اليهود وجاهدهم، وكان جهاده للنصارى فى آخر الأمر" (١).

ويقول الرازى:

"ذكر الله فى سورة البقرة ثمانية أنواع من الدلائل، ثم أعاد فى سورة آل عمران ثلاثة أنواع منها، تنبيهاً على أن العارف بعد صيرورته عارفا لابد له من تقليل الالتفات إلى الدلائل يكمل له الاستغراق فى معرفة المدلول. فكان الغرض من إعادة ثلاثة أنواع من الدلائل وحذف البقية، التنبيه على ماذكرناه... ثم ختم تلك الآية فى البقرة بقوله تعالى: ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، وختم هذه الآية فى آل عمران بقوله: ﴿ لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾، لأن العقل له ظاهر وله لب، ففى أول الامر يكون عقلا، وفى كمال الحال يكون لبا " (٢).

وتتشابه المبانى الأساسية للسورتين لوحدة الموضوع الذى تهدفان إليه، وهو إخراج الأمة المسلمة أمة وسطا تشهد على الناس بهدى الله، وكيانها كأمة واحدة لاستمساكها بالحق وبعدها عن الاختلاف، وغايتها كخير أمة تقوم على القيم والأخلاق.

ومن ثم كانت البداية واحدة:

﴿ الـم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ١، ٢].

﴿ الـم(١) اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢) نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ [آل عمران: ١، ٣].

وكانت الخاتمة واحدة:

﴿ واعْفُ عَنَّا واغْفِرْ لَنَا وارْحَمْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

﴿ رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾ [آل عمران: ١٩٣].

---

(١) السيوطى، الإتقان فى علوم القرآن، ج ٣ ص ٣٣٢، ٣٣٣.

(٢) الرازى، مفاتيح الغيب، ج ٩ ص ١١٥.

وافتتحت سورة البقرة:

﴿ أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾ [البقرة: ٥].

وختمت سورة آل عمران:

﴿ واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

وفي الوسط:

﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾ [البقرة: ١٣٦].

﴿قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾ [آل عمران: ٨٤].

وقد اهتمت سورة البقرة وسورة آل عمران بتوضيح مسالك أهل الكتاب: ﴿ ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين﴾ [البقرة: ٦١]. ﴿ ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء﴾ [آل عمران: ١١٢].

وفي اختلافهم:

﴿ وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم﴾ [البقرة: ٢١٣].

﴿ وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم﴾ [آل عمران: ١٩].

وفي بناء الكعبة:

﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل﴾ [البقرة: ١٢٧].

﴿ إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين (٩٦) فيه آيات بينات مقام إبراهيم﴾ [آل عمران: ٩٦،٩٧].

وفي حكمة الابتلاء:

﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم﴾[البقرة: ٢١٤].

﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾ [آل عمران: ١٤٢].

وفي حقيقة الشهادة:

﴿ ولا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ ولَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤].

﴿ ولا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

وفي صفة الحنيفية:

﴿ وقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً ومَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[البقرة: ١٣٥].

﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً ولا نَصْرَانِيّاً ولَكِن كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً ومَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧].

وفي مهمة الرسول:

﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا ويُزَكِّيكُمْ ويُعَلِّمُكُمُ الكِتَابَ والْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: ١٥١].

﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ويُزَكِّيهِمْ ويُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ والْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وفي التفكر:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ واخْتِلافِ اللَّيْلِ والنَّهَارِ والْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ والسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ واخْتِلافِ اللَّيْلِ والنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

وتحدثت السورتان عن البر:

﴿ ولَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا ولَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى﴾ [البقرة: ١٨٩].

﴿ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢].

وعن الحج:

﴿ وإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وإِسْمَاعِيلُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦].

وبين دفتى السورتين تتحدد مسيرة الفلاح، حيث تخرج الأمة الوسط فى منهاجها والأمة واحدة فى ترابطها، وخير أمة أخرجت للناس فى غاياتها.

وهنا نبه الله تعالى فى سورة البقرة وهو فى سياق إرسائه لقواعد الأمة التشريعية على أهمية القواعد الأخلاقية، بينما نبه الله تعالى فى سورة آل عمران وهو فى سياق إرسائه لقواعد الأمة الأخلاقية على أهمية القواعد التشريعية.

ومن هنا ابتدأت سورة البقرة بقوله تعالى: ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

وختمت سورة آل عمران بقوله تعالى: ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

حقوق الإنسان وواجباته
كما تقررها سورة
النساء

حقوق الإنسان وواجباته
كما تقررها سورة النساء

مقدمة

ظهر فى العصر الحديث دعاوى وإعلانات عن حقوق الإنسان، مثل وثيقة الماجناكارتا عام١٢١٥ م وإعلان استقلال الولايات المتحدة عام ١٧٨٩ م والإعلان الفرنسى لحقوق الإنسان عام ١٧٨٩ م.وكلها إعلانات وطنية- تصدرها كل دولة- لا دولية تخص الناس جميعا.

وكل هذه الإعلانات تقوم على اعتبار أن حرية الإنسان المطلقة دون قيد هى الأصل، وأن الإنسان تنازل عن بعض حرياته للمجتمع الذى يتولى مسؤولية الحماية والتنظيم.

ثم صدر الإعلان العالمى لحقوق الإنسان من الجميعة العامة للام المتحدة فى سنة ١٩٤٨م. هذا الإعلان الأخير، كان اتجاها للخروج من دائرة الوطن فى هذا الشأن إلى دائرة العالمية. ثم أفرغت مبادئ الإعلان فى التعهد الدولى الخاص بالحقوق المدنية والسياسية الذى اعتمد بقرار الأمم المتحدة سنة ١٩٦٦م وعرض للتصديق والانضمام إليه من جانب الدول الأعضاء. ومنذ ذلك الحين لم تتوقف الجمعية العامة للأمم المتحدة وأجهزتها ولجانها المتخصصة عن صياغة العديد من الإعلانات الأخرى التى تحدد حقا معينا، كالإعلان الخاص بحق الشعوب فى تقرير مصيرها، والإعلانات الخاصة بمنع التمييز، وحقوق المرأة وحقوق الطفل، وتحريم الرق والعبودية والسخرة، وحقوق الإنسان فى العدل وحقوق الأقليات. وساهمت الوكالات المتخصصة التابعة للأمم المتحدة، كل فى مجاله، فى إصدار إعلانات عالمية أخرى كحرية الإعلام والثقافة الجنسية واللاجئين وجرائم الحرب... ويتفاوت عدد الدول المصدقة على هذه الإعلانات

ونظرا لأنه لا يمكن الفصل بين نظم المجتمعات ومفاهيمها وعقائدها لأنها فى الحقيقة تنبثق عنها، فإنه لايمكن الفصل بين دعاوى حقوق الإنسان فى عصرنا والعقيدة التى قام عليها المجتمع الغربى الحديث. فقد انبثقت كل هذه الحقوق من الفلسفة التى قام عليها المجتمع الغربى. فالمجتمع الغربى يقيم نظام حياته على الفلسفة العلمانية Secularism وهى مشتقة من الكلمة اللاتينية Seaculum ومعناها الدنيوية فى مواجهتها للدين، الذى كانت تمثله الكنيسة. والهدف من الحياة عندها هو البحث عن اللذة وتمجيد القوة، ورؤيتها تقوم على أساس نسبية

المعرفة وفق هذه الأهداف، فلا يوجد ثوابت ولا مطلق في القيم والمعارف والغايات. وفى عالمها كل شئ مباح؟ نرى ذلك فى الإباحة الجنسية، والتفلت من القيود الأسرية، وتعدد وسائل التسلية، وتنوع أنواع السلع والشهوات. وهى وإن كانت لاتنكر الدين إلا أنها تزيحه من التأثير على واقع الحياة، وتؤمن أنه بإمكان الإنسان وحده معرفة حقائق الكون والحياة، فتنكر الرجوع إلى الغيب كمصدر للمعرفة اللانهائية، وتعطى الإنسان وحده حق التشريع لنظامه الاجتماعى والسياسى والاقتصادى، وتحدد أخلاقياته وقيمه من واقع مصالحه ورغباته.

ومن ثم كان التركيز على مفهوم الحقوق والحريات الفردية فى الفكر والسلوك والاقتصاد والعلاقات. وكانت الديموقراطية- تبعا لذلك- هى أساس الحقوق السياسية، والسوق الحر هو قانون الاقتصاد، والمذهب النفعى Pragmatism هو محور السلوك الاجتماعى والأخلاقى. وبهذا سقط الإنسان صريع المذاهب العدمية كالوجودية من الناحية الفكرية، وصريع الإباحية فى علاقاته الاجتماعية، ليعانى تمزق الأسرة وتفشى أمراض الجنس والأمراض النفسية، وصريع الاغترار بالقوة فى العلاقات السياسية فتصبح الغاية تبرر الوسيلة، فيقوم بالاجتياح العسكرى لإذلال الشعوب، والضغوط المميتة لإملاء الشروط، ولتعانى المجتمعات من مشاكل صراعات اللون والجنس والدين.

والذى يدل على ارتباط هذه الدعاوى بعقيدة المجتمع، أنه بعد الحرب العالمية الثانية ظهرت الأفكار الاشتراكية التى ركزت على الحقوق الاقتصادية على حساب الحقوق السياسية، ذلك لأن عقيدتها رفضت الدين واعتبرته أفيونا للشعوب، واعتبرت أن الدنيا هى الحقيقة الوحيدة، فأعلت من شأن المادة ممثلة فى أدوات الإنتاج وأعطت لها خاصية التطور عن طريق ماسموه بالتناقض والصراع. ومن ثم اعتبرت حق الملكية سرقة، وحرية العبادة تخلفا وقيم الأسرة استغلالا، وبررت الدكتاتورية باسم مصالح الطبقة العاملة. ومن ثم كان لها رؤيتها الخاصة لتلك الحقوق، ومقاييسها الخاصة فى التطور.

وبعد سقوط النظام العالمى الثنائى القطبية وانفراد الولايات المتحدة بزعامة العالم، دخل **مفهوم حقوق الإنسان مرحلة جديدة غريبة. فكلنا يعرف أن حقوق الإنسان استخدمت من قبل الغرب كسلاح تشهيرى إبان الحرب الباردة. وهى تهدر اليوم لحساب مصالح الغرب. ومن ثم فمفهوم حقوق الإنسان السائد نتاج تطور سياسى فى الفكر الغربى الاستعمارى على وجه التحديد، ولم يشترك فى صياغته وتحديد أبعاده ووضع ضماناته ممثلون غير الغرب. ولهذا كثيرا ما لايخدم هذا الإعلان ولايتلاءم مع بقية شعوب العالم لاختلاف الخلفيات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والدينية.**

ومن ثم يمكن إيجاز سلبيات هذه الإعلانات فيما يلي:

١ - الازدواجية والإنتقائية والكيل بمكيالين، ولعل ماحدث فى قضية فلسطين أكبر دليل.

٢ - استغلال هذه الشعارات كأسلوب للضغط السياسى فى العلاقات الدولية لإخضاع الدول تحت مسمى إرادة المجتمع الدولى ممثلا فى مجلس الأمن الذى يديره الغرب بزعامة أمريكا.

٣ - غلبة جماعات الضغط السياسى والاقتصادى فى كل دولة على حدة، وفى شركات الاحتكار المتعددة الجنسيات على المستوى الدولى، واستغلال ذلك فى التلاعب بهذه الحقوق.

٤ - وضع الحق كشعار، وفى الصياغة القانونية من المرونة مايكفي لإهداره والعمل بخلافه.

٥ - اتساع مفهوم الحقوق وتشعبه حتى زاحم القوانين الداخلية والدولية، دون مراعاة للحدود الفاصلة ولا للأولويات والترتيب.

والحقيقة أنه كما يقول ديورانت:" لايوجد مثال يعتمد عليه، فى التاريخ السابق لعصرنا، لمجتمع نجح فى المحافظة على الحياة الأخلاقية دون مساعدة الدين [1]".

نشرت جريدة الهيرالد تريبيون في ٢٨ يناير سنة ١٩٩٨ وثيقة عن اجتماع مجلس العمل المتبادل Interactive Council في مؤتمر السابقين، الذي عقد في مدينة هامبورج الألمانية في مطلع نفس العام. ومنهم رؤساء لألمانيا وفرنسا وأمريكا.

وبالطبع فإن الرؤساء السابقين، وقد ارتفع عنهم أضواء السلطة وضغوط جماعات المصالح، لم يكن غريبا أن يصدر عنهم مشروع بعنوان "إعلان مسئوليات الإنسان". وذلك في نفس السنة التي قامت فيها الاحتفالات بإعلانات حقوق الإنسان.

يقول هؤلاء الزعماء السابقين في هذه الوثيقة:-

١ - إن التركيز المبالغ فيه علي الحقوق يمكن أن يؤدى إلي صراعات لانهاية لها.

٢ - ومن هنا لابد أن تستكمل ببيان مسئوليات الإنسان، بناء علي القاعدة الذهبية: حب للغير ما تحب لنفسك، ولا ترض للغير ما لا ترضاه لنفسك. وهذا كفيل بالقضاء علي ازدواجية المعايير.

٣ - وضع قواعد وحدود لحرية الملكية فلا تستغل بقوتها وتظلم بسطوتها، ووضع قواعد و حدود لحرية التعبير.

---

(١) Will & Arier Ddurant, The Lessons of History ,p.٥٠ , N.Y. Simon & Shuster, ١٩٦٨.

والمنهج الإسلامى وحده هو القادر أن ينقذ البشرية من هذا الانحدار، وأن يستجيب لصرخات المستضعفين فى كل مكان، وأن ينشر العدل والرحمة فى كل الدنيا، حين تتسع معه رؤية العالمين من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، ومن حدود الأرض إلى آفاق السماوات، ومن صغر عالم الشهادة إلى امتداد عالم الغيب. إن الإنسان صاحب العقيدة يتولد داخله حافز لايهدأ حتى يشيع الخير حوله، وحتى يرد الظالم عن ظلمه، وحتى لايسمع صوت مستغيث أو ملهوف أو مظلوم. وذلك حين تستقيم الجماعة على شرع الله، وتقيم أمورها على الشورى، و تؤسس مجتمعها على العدل، وتعمر نفوسها بالرحمة، لهذا لا تضيع الحقوق ولا يشقى الانسان.

وتعاليم القرآن تحقق حرية الإنسان عقيدته ورأيه، وتصونهما بكافة الضمانات، وتفتح للتعبير كافة القنوات.

ولقد حصن الإسلام من أربعة عشر قرنا هذه الحقوق بالواجبات كما يلى:

١- أن افتقاد حقوق الإنسان الغربية لهذا البعد حول هذه الحقوق إلى حقوق للأقوياء على حساب الضعفاء، لذا كان الاهتمام الإسلامى فى إرساء الحقوق على وصف الضعفاء.

٢- أن الحقوق الغربية لافتقادها للواجبات تحولت إلى شعارات يتستر بها للاستغلال، فعلى المستوى المحلى، تحول حق الحرية على المستوى الاقتصادى إلى حرية الرأسمالية فى الاحتكار والربا والغصب، وتحول حق الحرية الجنسية إلى تدمير الفرد صحيا ونفسيا، وتدمير الأسرة كوحدة متماسكة بقيمها يبنى عليها المجتمع السوى. كما تحول حق الحرية على المستوى العالمى إلى حرية الأقوياء فى استعمار الشعوب ونهبها، بل استخدم كسلاح حربى لتدمير المعارضين أوالذين يعترضون على إجرام الدول القوية وإهدارها لحقوق الشعوب.

٣- أن الحقوق إذا لم يصاحبها واجبات أصبحت عبءاً على الأمة. فبمقدار ماتتسع الواجبات تتسع الحقوق، خذ مثلا حق الرعاية المعاشية وتحرير أفراد المجتمع من الفقر والعوز، إن لم يصاحبه فروض فى أموال الأغنياء لتحولت القضية إلى مسخ كما هو موجود تحت مسمى التأمينات والضمان الاجتماعى فى الغرب.

وابتداء نقول، إن سرد تاريخ حقوق الإنسان عن العالم الغربي، وإهدار لغيره من الحضارات، مغالطة واستهانة بعقول الناس. فالأمر بالعدل والإحسان والرعاية الاجتماعية

والنهي عن الفحشاء والمنكر والبغي فطرة في ضمير البشرية منذ وجد إنسان علي ظهر الأرض. توالت برعايتها وتنميتها وإيقاظها مواكب الرسل والأنبياء عبر الزمان.

وحسبنا هنا أن نذكر واقعة تدحض افتراء أدعياء البحث النزيه في الغرب. فقد روي ابن اسحاق: اجتمعت قبائل في دار عبد الله بن جدعان، فتعاقدوا وتعاهدوا علي ألا يكون بمكة مظلوما من أهلها أو غيرهم إلا قاموا معه حتي ترد عليه مظلمته. فسمت قريش ذلك الحلف حلف الفضول، أي حلف الفضائل.

وفي هذا الحلف قال رسول الله ﷺ: **(شهدت غلاما مع عمومتي حلف المطيين، فما يسرني أن لي حمر النعم وإني أنكثه)** [1].

ويكفينا أن نشير إلي ملامح هذا البيان الإلهي عن حقوق الإنسان. فالإنسان في القرآن مخلوق مكرم سخر له كل ما في السماوات والأرض، وتكريمه عام لكل جنس ولون وليس بالمال أو الجاه أو الدم. وهذا هو دستور المساواة التي افتتحت به سورة النساء.

يقول رسول الله (ﷺ) في حجة الوداع: **(أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربي علي أعجمي ولا لعجمي علي عربي فضل إلا بالتقوى)** [2].

عن أبي سعيد الخدرى، قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ يتقاضاه دينا كان عليه. فاشتد عليه، حتي قال له: أحرج عليك إلا قضيتنى، فانتهره أصحابه وقالوا: ويحك تدرى من تكلم؟ قال: إني أطلب حقي. فقال النبي ﷺ: **(هلا مع صاحب الحق كنتم ؟** ثم أرسل إلي خولة بنت قيس فقال لها: **إن كان عندك تمر فأقرضينا حتي يأتينا تمرنا فنقضيك**. فقالت: نعم بأبي أنت يارسول الله. قال: فأقرضته،فقضي الأعرابي وأطعمه فقال: أوفيت. أوفي الله لك. فقال رسول الله ﷺ: **أولئك خيار الناس،إنه لا قدست أمة لا يأخذ الضعيف حقه غير متعتع)** [3]

وحسبنا أن نبين هنا أن علماء المسلمين قبل أن يعرف الغرب هذه الحقوق بقرون كثيرة قد رتبوا هذه الحقوق واعتبروها ضرورية وطبيعية فى خمس؛ هى حفظ الدين والنفس والنسل والمال والعقل.

ثم حددوا الواجبات الضرورية لكفالتها لكل إنسان فى الأمة.

---

(١) الألبانى، تحقيق مشكاة المصابيح للتبريزى ج١ ص ٤٠٦ وقال صحيح.

(٢) قال الحاكم، حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه، وقال الذهبى فى التلخيص صحيح وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح.

(٣) الألباني، صحيح سنن ابن ماجة ج٢ ص ٥٥.

يقول الشاطبى: " تكاليف الشريعة ترجع إلى حفظ مقاصدها فى الخلق، وهـذه المقاصد لاتعدو ثلاثة أقسام: أحدها أن تكون ضرورية، والثانى أن تكون حاجية، والثالث أن تكـون تحسينية. فأما الضرورية فمعناها أنها لابد منها فى قيام مصالح الدين والدنيا، بحيث إذا فقدت لم تجر مصالح الدنيا على استقامة، بل على فساد وتهارج وفوت حياة.... ومجموع الـضرورات خمس، وهى حفظ الدين والنفس والنسل والمال والعقل. وقد قالوا: إنها مراعاة فى كل ملـة.. وأما الحاجيات فمعناها أنها مفتقر إليها من حيث التوسعة ورفع الضيق المؤدى فى الغالـب إلى الحرج والمشقة اللاحقة بفوت المطلوب. فإذا لم تراع، دخل على المكلفين على الجملة الحـرج والمشقة.. وأما التحسينات فمعناها الأخذ بما يليق من محاسن العـادات وتجنـب الأحـوال المدنسات التى تأنفها العقول الراجحات [1].

الحقوق والواجبات من سورة النساء

وفى القرآن المبين سورة عظيمة اهتمت اهتماما بالغا بحقوق الإنسان، حـددتها ورتبتـها وصانتها فى ترتيب معجز وفى عرض مبين يبين عالم السورة وموضوعها المترابط.

بدأت السورة- وهى ثانى أطول سور القرآن- هذا البيان بنداء للبشر كافة يذكرهم بـأن ربهم واحد، وأنهم خرجوا من رحم نفس الأم، فهم إخوة خلقوا من نفس واحدة، ومن هـذا الواقع يهيب بهم أن يتقوا الله- الذى لاملجأ لهم سواه- فى عباده، وأن يراعوا صلة الرحم التى تصلهم بالتعاطف والتراحم. يقول تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ واحِدَةٍ وخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً ونِسَاءً واتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ والأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النساء: ١].

وتختم السورة بنداء عام للإنسانية، بعد أن قامت الحجة والبرهـان، وظهر النور وبان،أن يؤمنوا بالله ويعتصموا به حتى تشيع الرحمة بين جنبات الإنسانية، وينعم العباد بفضل الله.

يقول تعالى:**﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً (١٧٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ واعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وفَضْلٍ ويَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً (١٧٥)﴾** [النساء: ١٧٤، ١٧٥].

---

(١) الشاطبى الموافقات ج ٢ ص ٤، ٦.

واعلم أن هذه السورة مشتملة على أنواع كثيرة من التكاليف، وذلك لأنه تعالى أمر الناس فى أول هذه السورة بالتعاطف على الأولاد والنساء والأيتام، والرأفة بهم وإيصال حقوقهم إليهم وحفظ أموالهم عليهم، وبهذا المعنى ختمت السورة، وهو قوله: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾... وأنه تعالى جعل هذا المقطع مطلعا لسورتين فى القرآن: إحداهما؟ هذه السورة وهى السورة الرابعة من النصف الأول من القرآن، والثانية: سورة الحج. وهى أيضا السورة الرابعة من النصف الثانى من القرآن. ثم إنه تعالى علل الأمر بالتقوى فى هذه السورة بما يدل على معرفة المبدأ، وهو أنه تعالى خلق الخلق من نفس واحدة، وهذا يدل على كمال قدرة الخالق وكمال علمه وكمال حكمته وجلاله، وعلل الأمر بالتقوى فى سورة الحج بما يدل على كمال معرفة المعاد، وهو قوله: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١] فجعل صدر هاتين السورتين دلالة على معرفة المبدأ ومعرفة المعاد، ثم قدم السورة الدالة على المبدأ على السورة الدالة على المعاد [(١)].

ووصف تعالى ذكره نفسه بأنه الموحد، بخلق جميع الأنام من شخص واحد، معرفا عباده كيف كان مبتدأ إنشائه ذلك من النفس الواحدة، ومنبههم بذلك على أن جميعهم بنو رجل واحد وأم واحدة، وأن بعضهم من بعض، وأن حق بعضهم على بعض واجب وجوب حق الأخ على أخيه، لاجتماعهم فى النسب إلى أب واحد وأم واحدة. وأن الذى يلزمهم من رعاية بعضهم حق بعض، وإن بعد التلاقى فى النسب، فيردون إلى النسب الجامع بينهم، فيلزمهم مثل الذى يلزمهم من ذلك فى النسب الأدنى. وعاطفا بذلك بعضهم على بعض، ليتناصفوا ولا يتظالموا، وليبذل القوى من نفسه للضعيف حقه بالمعروف على ما ألزمه الله له.. عن ابن عباس: تساءلون به: تعاطفون به... اتقوا الله فى الأرحام فصلوها [(٢)].

يقول رسول الله ﷺ:

(من سره أن يبسط له فى رزقه أو ينسأ له فى أثره فليصل رحمه) [(٣)].

وقال: **(الصدقة على غير ذى الرحم صدقة، وعلى ذى الرحم اثنتان: صدقة وصلة).**

---

(١) الرازى مفاتيح الغيب ج ٩ ص ١٢٨، ١٢٩.

(٢) الطبرى، جامع البيان ج ٣ ص ٥٦٥، ٥٦٩.

(٣) رواه مسلم ج ٢ ص ٤٢٢، الألبانى، تحقيق مشكاة المصابيح للتبريزى ج ١ ص ٤٠٦.

الأساس العقيدى

إن الإنسان محدود العمر محدود العلم محدود القدرة، لذلك لايمكنه أن يدرك المنهج الصواب الذى يتحرك به في تيار الحياة،شاهد علي ذلك تخبطه بين إفراط وتفريط وغلو وتقصير في قوانينه التي لاتستقر علي حال. فهو حاضر يتصل بالماضي ويتجه للمستقبل، ولايحيط بذلك إلا الله. وهو يتأثر بالكون وحركته التي تتشابك فيها الآثار والمؤثرات، ولايعلم مافي السماوات والأرض إلا الله. ولهذا أرسل الله له الرسل بالوحي تبيانا لما لايطيق معرفته،من حقيقة المبدأ والمعاد، والغيب والشهادة، والخلق والأمر.

فضلا عن أن الإنسان ضعيف أمام هواه فإذا شرع انحاز ومال إلي نفسه، وإلي أهله وإلي قومه،يدرى أم لايدرى. وهذا مانشاهده في أهل الحكم وجماعات الضغط في كل مكان وزمان. لذلك كان تحقيق العدل مناطه التلقي من عليم حكيم يهدى إلي الحق وإلي طريق مستقيم.

ويقسم الله تعالي أنهم لايصيرون موصوفين بصفة الإيمان إلا عند حصول شرائط:

أولها قوله تعالي:﴿ **فَلا ورَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ**﴾،[سورة البقرة ايه ٦٥]وهذا مما يدل علي أن من لم يرض بحكم الرسول لايكون مؤمنا.

واعلم أن من يتمسك بهذه الآية في بيان أنه لاسبيل إلي معرفة الله تعالي إلا بإرشاد النبي المعصوم قال:لأن قوله: ﴿**لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ**﴾ [سورة البقرة ايه ٦٥] بأنهم لايحصل لهم الإيمان إلا بأن يستعينوا بحكم النبي عليه الصلاة والسلام في كل مااختلفوا فيه.

الشرط الثاني: قوله: ﴿ **ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ**﴾ [سورة البقرة ايه ٦٥]، أى لاتضيق صدورهم من أقضيتك. واعلم أن الراضي بحكم الرسول عليه الصلاة والسلام قد يكون راضيا به في الظاهر دون القلب،فبين في هذه الآية أنه لابد من حصول الرضا به في القلب. واعلم أن ميل القلب ونفرته شئ خارج عن وسع البشر،فليس المراد من الآية ذلك،بل المراد منه أن يحصل الجزم واليقين في القلب بأن الذى يحكم به الرسول هو الحق والصدق.

الشرط الثالث: قوله تعالي﴿**ويُسَلِّمُوا تَسْلِيماً**﴾ [سورة البقرة ايه ٦٥]، واعلم أن من عرف بقلبه كون ذلك الحكم حقا وصدقا قد يتمرد عن قبوله علي سبيل العناد أو يتوقف في ذلك القبول،فبين تعالي أنه كما لابد في الإيمان من حصول ذلك اليقين في القلب،فلا بد أيضا

من التسليم معه في الظاهر. فقوله: ﴿ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ﴾ [سورة البقرة ايه ٦٥] المراد به الانقياد في الباطن. وقوله: ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ [سورة البقرة ايه ٦٥]، المراد منه الانقياد في الظاهر والله أعلم."[١]

عبرة التاريخ

تقص السورة علينا بعض نواحي انحرافات أهل الكتاب التي تمثل عدوانا علي حقوق الإنسان،فتبين انحرافات اليهود وضلا لاتهم:

١- أنهم كانوا يحرفون الكلم عن مواضعه..... وفي كيفية التحريف وجوه:

أ-كانوا يبدلون اللفظ بلفظ آخر..

ب - إلقاء الشبه الباطلة، والتأويلات الفاسدة، وصرف اللفظ عن معناه الحق إلي معنى باطل بوجوه الحيل اللفظية،كما يفعله أهل البدعة في زماننا هذا بالآيات المخالفة لمذاهبهم.[٢]

٢- شهادة الباطل.فحين سألت قريش أحد اليهود فقالت: أنت سيدنا وسيد قومك،إنا قوم ننحر الكوماء- الناقة العظيمة السنام- ونقرى الضيف، ونصل الرحم، ونسقي الحجيج، ونعبد آلهتنا التي وجدنا آباءنا يعبدون، وهذا الصنبور المنبتر من قومه،قد قطع الرحم،فمن أهدى،نحن أو هو؟ فقال: أنتم أهدى منه، وأقوم دينا. "[٣]

وكان عجيبا أن يقول اليهود: إن دين المشركين خير من دين محمد ومن معه، وإن المشركين أهدى سبيلا من الذين آمنوا بكتاب الله ورسوله - ﷺ - ولكن هذا ليس بالعجيب من اليهود. إنه موقفهم دائما من الحق والباطل، ومن أهل الحق وأهل الباطل. إنهم ذوو أطماع لاتنتهي، وذوو أهواء لاتعتدل، وذوو أحقاد لاتزول !

٣- التحايل علي الشريعة:، وهؤلاء كانوا بأيلة من ساحل البحر، فأمروا بالسكون عن كل شغل في يوم السبت فلم يفعلوا،بل اصطادوا وتصرفوا.ويقاس علي الحيتان وفي سائر الأعمال.

---

(١) الرازى، مفاتيح الغيب ج ١٠ ص ١٣١، ١٣٢.

(٢) الرازى، مفاتيح الغيب ج١٠ ص ٩٤-٩٦.

(٣) ابن عطية، المحرر الوجيز ج٤ ص ٩٩-١٠٠.

٤- نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وهي أفعال ضد ما أمروا به، وذلك أن الميثاق الذى رفع الطور من أجله نقضوه.. فجعلوا بدل ذلك الانتهاء إلي انتهاك أعظم حرمة وهي قتل الأنبياء..

وقالوا قلوبنا غلف،أى أوعية للعلم فلا حاجة بنا إلي علم سوى ماعندنا،فكذبوا الأنبياء...وأنه تعالي طبع عليها وختم عليها فلا يصل أثر الدعوة والبيان إليها..

٥- قولهم علي مريم بهتانا عظيما،بنسبتها إلي الزنا لأنه ظهر عند ولادة عيسي عليه السلام من الكرامات والمعجزات،مادل علي براءهّا من كل عيب..

ثم إنهم إدعوا قتل المسيح عيسي بن مريم رسول الله وماقتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم، لأن هذا يدل علي أنهم كانوا راغبين في قتله مجتهدين في ذلك،فلا شك أن هذا القدر كفر عظيم."(١)

٦- أكل أموال الناس بالباطل: إن أنواع الذنوب محصورة في نوعين: الظلم للخلق، والإعراض عن الدين الحق،أما ظلم الخلق،فإليه الإشارة بقوله تعالي: ﴿ **وبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيراً** ﴾ [سورة البقرة ايه١٦٠]،ثم إنهم مع ذلك في غاية الحرص علي طلب المال،فتارة يحصلونه بالربا مع أنهم نهوا عنه، وتارة بطريق الرشوة وهو المراد بقوله: ﴿ **وأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ** ﴾ [سورة البقرة ايه١٦١].

يقول تعالي: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذينَ أُوتُوا نَصيبًا منَ الْكتَاب يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَ يُرِيدُونَ أَنْ تَضلُّوا السَّبِيلَ(٤٤)وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائكُمْ وَكَفَى بِاللَّه وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّه نَصيرًا(٤٥)منَ الَّذينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلمَ عَنْ مَوَاضعه وَيَقُولُونَ سَمعْنَا وَعَصَيْنَاوَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بكُفْرهمْ فَلَا يُؤْمنُونَ إِلَّا قَليلًا(٤٦)يَاأَيُّهَا الَّذينَ أُوتُوا الْكتَابَ ءَامنُوا بمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لمَا مَعَكُمْ منْ قَبْلِ أَنْ نَطْمسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْت وَكَانَ أَمْرُ اللَّه مَفْعُولًا(٤٧)إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفرُ أَنْ يُشْرَكَ به وَيَغْفرُ مَا دُونَ ذَلكَ لمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ باللَّه فَقَد افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا(٤٨) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا**

---

(١) الرازى، مفاتيح الغيب ج١١ ص٧٧ الي ٧٨.

يُظْلَمُونَ فَتيلًا(٤٩)انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّه الْكَذبَ وَكَفَى به إثْمًا مُبينًا(٥٠)أَلَمْ تَرَ إلَى الَّذينَ أُوتُوا نَصيبًا منَ الْكتَاب يُؤْمنُونَ بالْجبْت وَالطَّاغُوت وَيَقُولُونَ للَّذينَ كَفَرُوا هَؤُلَاء أَهْدَى منَ الَّذينَ ءَامَنُوا سَبيلًا(٥١)أُولَئكَ الَّذينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجدَ لَهُ نَصيرًا(٥٢)﴾

واستثني الله تعالي من هؤلاء الراسخون في العلم منهم والمؤمنون حيث يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة، والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر،أولئك سنؤتيهم أجرا عظيما يقول تعالي: **﴿ لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي العلْمِ منْهُمْ والْمُؤْمنُونَ يُؤْمنُونَ بمَا أُنزلَ إلَيْكَ ومَا أُنزلَ من قَبْلكَ والْمُقيمينَ الصَّلاةَ والْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ والْمُؤْمنُونَ باللَّهِ والْيَوْمِ الآخرِ أُوْلَئكَ سَنُؤْتيهمْ أَجْراً عَظيماً﴾** [سورة البقرة أيه ١٦٢].

ثم تصحح السورة عقائد أهل التثليث من النصارى، وهذا ما أخذت تبينه بعض الدوائر العلمية المعاصرة.تقول دائرة المعارف الأمريكية: " لقد بدأت عقيدة التوحيد - كحركة لاهوتية - بداية مبكرة جدا في التاريخ. وفي حقيقة الأمر فإنها تسبق عقيدة التثليث بالكثير من عشرات السنين.

وإذا كانت عقيدة التثليث قد اقتحمت المسيحية مؤخرا، وأخذت صيغة رسمية في القرن الرابع الميلادى،فما كانت تمثل إلا فكر الأقلية،الذى لا يمكن فرضه إلا بسلطان الامبراطور الوثني قسطنطين.....

إن نظرة سريعة علي ملحمة الصراع في القرن الرابع بين محاولات إنقاذ بقايا التوحيد في تعاليم المسيح عليه السلام،الذى حمل لواءه آريوس، و لم يكن هو أول القائلين به،ضد فكرة التثليث التي قال بها اسكند واثناسيوس، لترينا حقيقة القول الذى نقلناه آنفا عن دائرة المعارف الأمريكية من أن أغلب المسيحيين لم يقبلوا التثليث.[1]

يقول تعالي: **﴿ يَا أَهْلَ الكتَاب لا تَغْلُوا في دينكُمْ ولا تَقُولُوا عَلَى اللَّه إلاَّ الحَقَّ إنَّمَا المَسيحُ عيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّه وكَلمَتُهُ أَلْقَاهَا إلَى مَرْيَمَ ورُوحٌ مِّنْهُ فَآمنُوا باللَّه ورُسُله ولا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انتَهُوا خَيْراً لَّكُمْ إنَّمَا اللَّهُ إلَهٌ واحدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ ولَدٌ لَّهُ مَا في السَّمَوَات ومَا فِي الأَرْضِ وكَفَى باللَّه وكيلاً (١٧١)﴾**

---

(١) أحمد عبد الوهاب، القرآن لايشهد لتوراة اليهود، المركز الإسلامي العام لدعاة التوحيد والسنة، مسجد العزيز بالله ١٤١٩هـ ص٢ ١٣-١٣٣.

موضوع السورة

نستطيع أن نلخص حقوق الإنسان وواجباته التي بينتها السورة فيما يلي:-

حقوق الضعفاء من يتامي وسفهاء:

تبدأ السورة بحق الضعفاء علي المجتمع، سواء كانوا من اليتامي أو السفهاء.. ويضع التشريعات التي تحميهم.

فقد كان أهل الجاهلية لا يورثون النساء والأطفال. فأرست السورة قواعد إعطائهم حقهم في الميراث. وكان ذلك تحريرا للنساء من طغيان الرجال وتحقيق استقلالهم المادى والمعنوي.

وقد كانوا في الجاهلية يأكلون حقوق هؤلاء الضعاف في الميراث ومهور النساء،بل وذلك أيضا فيما يسمي الحضارة المعاصرة حين تقصر بعض الدول الميراث علي حامل اللقب. وتتوسع السورة في هذا الحق من الورثة حتي أولي القربي واليتامي والمساكين. ويذكر القرآن أن ترك الذرية الضعاف أمر قد يحدث لكل أحد، لهذا كان القسط معهم أمر يعود علي الجميع بالأمان والكفاية.

يقول تعالي: ﴿**وآتوا اليَتَامَى أَمْوَالَهُمْ ولا تَتَبَدَّلُوا الخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ولا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوباً كَبِيراً (٢)**﴾

ويقول تعالي: ﴿ **ولا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَاماً وارْزُقُوهُمْ فِيهَا واكْسُوهُمْ وقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفاً (٥) وابْتَلُوا اليَتَامَى حَتَّى إذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ولا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وبِدَاراً أَن يَكْبَرُوا ومَن كَانَ غَنِياً فَلْيَسْتَعْفِفْ ومَن كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً (٦)**﴾

والمراد بالسفهاء كل من لم يكن له عقل يفي بحفظ المال، ويدخل فيه النساء والصبيان واليتامي وكل من كان موصوفا بهذه الصفة.

وسبب ذلك أن المال قوام المعايش، ليس لصاحبه فقط، وإنما للمجتمع بأسره. فبالمال يقوم الإعمار، والإعمار يفتح مجال الأعمال والارتزاق. فإذا ترك لتصرف السفيه، لم يضع صاحبه فقط، وإنما ضاعت فئات من المجتمع تعمل فيه وترتزق من ورائه.

واجب أداء الأمانات:

فهناك صلة عضوية بين سورتى النساء والمائدة. فى سورة النساء يقول تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّـهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّـهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً (٥٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وأُولِي الأَمْرِ منكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ والرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ والْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وأَحْسَنُ تَأْوِيلاً (٥٩)**﴾ [النساء: ٥٨، ٥٩]

قال العلماء: نزلت الآية فى ولاة الأمور، عليهم أن يؤدوا الأمانات إلى أهلها، وإذا حكموا بين الناس أن يحكموا بالعدل، ونزلت الثانية: فى الرعية من الجيوش وغيرهم، عليهم أن يطيعوا أولى الأمر الفاعلين لذلك فى قسمهم وحكمهم ومغازيهم وغير ذلك، إلا أن يأمروا بمعصية الله. فإذا أمروا بمعصية الله فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق. فإن تنازعوا فى شىء ردوه إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وإن لم تفعل ولاة الأمر ذلك، أطيعوا فيما يأمرون به من طاعة الله ورسوله، لأن ذلك من طاعة الله ورسوله، وأديت حقوقهم إليهم، كما أمر الله ورسوله. قال تعالى فى سورة المائدة: ﴿ **وتَعَاوَنُوا عَلَى البِرِّ والتَّقْوَى ولا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ والْعُدْوَانِ**﴾.

وقد أمر الله سبحانة وتعالي المؤمنين في هذه الآية بأداء الأمانات في جميع الأمور،سواء كانت تلك الأمور من باب المذاهب والديانات.، أو من باب الدنيا والمعاملات. ومعاملة الإنسان إما أن تكون مع ربه أو مع سائر العباد أو مع نفسه، ولابد من رعاية الأمانة في جميع هذه الأقسام الثلاثة.

أما رعاية الأمانة مع الرب،فهي في فعل المأمورات وترك المنهيات، وهذا بحر لاساحل له. قال ابن مسعود: الأمانة في كل شئ لازمة،في الوضوء والجنابة والصلاة والزكاة والصوم. وقال ابن عمر رضي الله عنهما،إنه تعالي خلق فرج الإنسان وقال هذا أمانة خبأتها عندك فاحفظها إلا بحقها. واعلم أن هذا باب واسع،فأمانة اللسان أن لايستعمله في الكذب والغيبة والنميمة والكفر والبدعة والفحش وغيرها، وأمانة العين أن لايستعملها في النظر إلي الحرام، وأمانة السمع أن لايستعمله في سماع الملاهي والمناهي، وسماع الفحش والأكاذيب وغيرها، وكذا القول في جميع الأعضاء.

وأما القسم الثاني: وهو رعاية الأمانة مع سائر الخلق فيدخل فيها رد الودائع، ويدخل فيه ترك التطفيف في الكيل والوزن، ويدخل فيه أن لايفشي علي الناس عيوبهم، ويدخل فيه عدل الأمراء مع رعيتهم وعدل العلماء مع العوام بأن لايحملوهم علي التعصبات الباطلة،بل

يرشدوهم إلي اعتقادات وأعمال تنفعهم في دنياهم وأخراهم، ويدخل فيه نهي اليهود عن كتمان أمر محمد ﷺ، ونهيهم عن قولهم للكفار:إن ماأنتم عليه أفضل من دين محمد ﷺ، ويدخل فيه أمر الرسول عليه الصلاة والسلام برد المفتاح إلي عثمان بن طلحة، ويدخل فيه أمانة الزوجة للزوج في حفظ فرجها، وفي أن لاتلحق بالزوج ولدا يولد من غيره، وفي إخبارها عن انقضاء عدتها.

وأما القسم الثالث: وهو أمانة الإنسان مع نفسه فهو أن لايختار لنفسه إلا ماهو الأنفع والأصلح له في الدين والدنيا، وأن لايقدم بسبب الشهوة والغضب علي مايضره في الآخرة، ولهذا قال عليه الصلاة السلام (**كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته**). فقوله: **يَـأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَات**،يدخل فيه الكل...

ومن هذه الأمانات رعاية حقوق السفهاء من الأوصياء علي مالهم. يقول تعالي: **﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا(٥)﴾**

" واعلم أنه تعالي لما نهي عن إيتاء المال السفيه أمر بعد ذلك بثلاثة أشياء:

١- قوله: **﴿وَارْزُقُوهُمْ﴾**، ومعناه: وأنفقوا عليهم، ومعني الرزق من العباد هو الإجراء الموظف لوقت معلوم. يقال: فلان رزق عياله أى أجرى عليهم، وإنما قال:فيها، و لم يقل منها لئلا يكون ذلك أمرا بأن يجعلوا بعض أموالهم رزقا لهم،بل أمرهم أن يجعلوا أموالهم مكانا لرزقهم بأن يتجروا فيها ويثمروها فيجعلوا أرزاقهم من الأرباح لامن أصول الأموال.

٢- **﴿وَاكْسُوهُمْ﴾**، والمراد ظاهر

٣- **﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾**، واعلم أنه تعالي إنما أمر بذلك لأن القول الجميل يؤثر في القلب فيزيل السفه، أما خلاف القول المعروف فإنه يزيد السفيه سفها ونقصانا."[١]

والفوائد الثلاث الذى أخذت من هذا التفسير لأهميتها هي:

١- الإرشاد بالمحافظة علي رأس المال واقتصار الإنفاق علي الدخل.

٢- أن رأس المال وإن كان ملكية خاصة إلا أن للجماعة حق الانتفاع منه، لذا لزم المحافظة عليه، ومن ثم نسب إلي الجماعة في هذا الشأن قيدا علي الملكية الخاصة في حالة السفه.

٣- معاملة الضعفاء بالمعروف وفعلا، حتي لايتأزموا نفسيا،بل يكون ذلك دافعا لنضجهم وراحتهم نفسيا.

---

(١) الرازى، مفاتيح الغيب ج ٩ ص١٤٩-١٥٠.

قوله تعالي: ﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا* ﴾

فشرط في دفع أموالهم إليهم شرطين:

١- بلوغ النكاح: المراد من بلوغ النكاح هو الاحتلام...

٢- إيناس الرشد: ... أصل الإيناس في اللغة الإبصار.. وهو أن يعلم أنه صلح لماله حتي لا يقع منه إسراف، ولا يكون بحيث يقدر الغير علي خديعته.

والوصي لما تكفل بإصلاح مهمات الصبي وجب أن يتمكن من أن يأكل من ماله بقدر عمله قياسا علي الساعي في أخذ الصدقات وجمعها،فإنه يضرب له في تلك الصدقات بسهم..

والأمر بالشهادة عند دفع الأموال إليهم،بأن الغرض منه رعاية جانب الصبي، لأنه إذا كان لا يتمكن من ادعاء دفع المال إليه إلا عند حضور الشاهد، صار ذلك مانعا له من الظلم والبخس والنقصان."[١]

حقوق المرأة:

ويلخص معالم شخصية المرأة القول الجامع لرسول الله ﷺ، وهو يقرر أصل المساواة بين الرجل والمرأة مع قدر من الاختصاص في بعض المجالات:"**إنما النساء شقائق الرجال**".[٢]

ودور المرأة في الأسرة هو المهمة الأساسية الأولي، وهذا لا ينفي أن لها مهام أخرى في المجتمع وإن نمو الوعي الاجتماعي والتعاون الوثيق بين الزوجين عاملان ضروريان للتنسيق بين المهمة الأولي للمرأة وبين غيرها من المهام التي قد تفرضها مصلحة المجتمع المسلم ليمضي في طريق النهوض و التقدم.[٣]

وقد كفل الإسلام للمرأة كافة حقوقها، ومنع عنها الظلم والاستغلال، وأعطاها الكرامة والحرية. وأمر بمعاشرتها بالمعروف، وجعل للزواج قدسية،فلاينفض لمجرد عابر من كراهية أو غضب. إلا أن ذلك كله يحجب لو ارتكبت الفاحشة المبينة.

---

(١) الرازى، مفاتيح الغيب، ج٩ ص١٥٢-١٥٥.

(٢) رواه أبو داود، الألباني، صحيح الجامع الصغير ج١ص٤٦١.

(٣) عبد الحليم أبو شقة، تحرير المرأة في عصر الرسالة.ج١ ص ٤٥، ٤٦ دار القلم سنة ١٩٩٥.

كان أهل الجاهلية لايورثون النساء والأطفال، ويقولون لايرث إلا من طاعن بالرماح وذاد عن الحوزة وحاز الغنيمة،فبين تعالي أن الإرث غير مختص بالرجال،بل هو أمر مشترك فيه بين الرجال والنساء، وأنه سبحانه وتعالي يحرم عليهم تلك العادة الجائرة.

وكانت العرب في الجاهلية لا تعطي النساء من مهورهن شيئا، ولذلك كانوا يقولون لمن ولدت له بنت: هنيئا لك النافجة، ومعناه أنك تأخذ مهرها إبلا فتضمها إلي إبلك فتنفج مالك أى تعظمه.. والمعني: أى آتوهن مهورهن،فإنها نحلة أى شريعة ودين ومذهب، وماهو دين ومذهب فهو فريضة... وقيل نحلة أى عطية وهبة... وقيل: عن طيب نفس،فأمر الله بإعطاء مهور النساء من غير مطالبة منهن ولا مخاصمة.

يقول تعالي: **﴿ للرِّجَالِ نَصيبٌ ممَّا تَرَكَ الْوَالدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَللنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ممَّا قَلَّ منْهُ أَوْ كَثُرَ نَصيبًا مَفْرُوضًا(٧)﴾**

ويقول تعالي: **﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَّرِيئاً (٤)﴾**

ولا يحل لكم أيها الذين آمنوا، أن تعضلوا نساءكم فتضيقوا عليهن وتمنعوهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف، لتذهبوا ببعض ماآتيتموهن من صدقاتكم،إلا أن يأتين بفاحشة من زنا أو بذاء عليكم، وخلاف لكم فيما يجب عليهم لكم - مبينة ظاهرة،فيحل لكم حينئذ عضلهن والتضييق عليهن، لتذهبوا ببعض ماآتيتموهن من صداق إن هن افتدين منكم به....

يقول نعالي: **﴿يَا أَيُّهَا الَذينَ آمَنُوا لا يَحلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهاً ولا تَعْضُلُوهُنَّ لتَذْهَبُوا ببَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إلاَّ أَن يَأْتِينَ بفَاحشَة مُّبَيِّنَة وعَاشرُوهُنَّ بالْمَعْرُوفِ فَإن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً ويَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً (١٩)﴾**

وقد كان الرجل في الجاهلية إذا مات وكانت له زوجة جاء ابنه من غيرها أو بعض أقاربه فألقي ثوبه علي المرأة وقال: ورثت امرأته كما ورثت ماله. فصار أحق بها من سائر الناس ومن نفسها،فإن شاء تزوجها بغير صداق،إلا الصداق الأول الذى أصدقها الميت، وإن شاء زوجها من إنسان آخر وأخذ صداقها و لم يعطها منه شيئا.

فهذا المال حقها، فمن ضيق الأمر عليها ليتوسل بذلك التشديد والتضييق، وهو ظلم،إلي أخذ المال وهو ظلم آخر،فلاشك أن التوسل بظلم إلي ظلم آخر يكون إثما مبينا.

وقد بذلت نفسها لك وجعلت ذاتها لذتك وتمتعك، وحصلت الألفة التامة والمودة الكاملة بينكما،فكيف يليق بالعاقل أن يسترد منها شيئا بذله لها بطيبة نفسه،إن هذا لا يليق البتة بمن له طبع سليم وذوق مستقيم ".[1]

ويعتبر القرآن المعاشرة الجنسية ميثاقا غليظا،يجب احترامه والمحافظة عليه.

يقول تعالي: ﴿ **وإنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وآتَيْتُمْ إحْدَاهُنَّ قنطَاراً فَلا تَأْخُذُوا منْهُ شَيْئاً أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وإثْماً مُّبِيناً (٢٠) وكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ منكُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً (٢١)** ﴾

نهي الله تعالي عن نكاح مافوق الأربع،حذارا من أموال اليتامي أن يتلفها أولياؤهم، وذلك أن قريشا كان الرجل منهم يتزوج العشر من النساء والأكثر والأقل،فإذا صار معدما، مال علي مال يتيمه الذى في حجره فأنفقه أو تزوج به. فنهوا عن ذلك، وقيل لهم. إن أنتم خفتم علي أموال أيتامكم أن تنفقوها،فلا تعدلوا فيها،من أجل حاجتكم إليها، لما يلزمكم من مؤن نسائكم،فلا تجاوزوا فيما تنكحون من عدد النساء علي أربع، وإن خفتم أيضا من الأربع أن لا تعدلوا في أموالهم،فاقتصروا علي الواحدة...

وقال آخرون:.. أن القوم كانوا يتحوبون في أموال اليتامي أن لا يعدلوا فيها، ولا يتحوبون في النساء أن لا يعدلوا فيهن،فقيل لهم: كما خفتم أن لا تعدلوا في اليتامي،فكذلك فخافوا في النساء أن لا تعدلوا فيهن. ولا تنكحوا منهن إلا من واحدة إلي الأربع، ولا تزيدوا علي ذلك. وإن خفتتم أن لا تعدلوا أيضا في الزيادة عن الواحدة،فلا تنكحوا إلا مالا تخافون أن تجوروا فيهن."[2]

يقول تعالي: ﴿ **وإنْ خفْتُمْ أَلاَّ تُقْسطُوا في اليَتَامَى فَانكحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وثُلاثَ ورُبَاعَ فَإنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُوا (٣)** ﴾

ومن تكريم الإسلام للمرأة أن منع الزواج من المحارم. والزواج من المحارم كان منكرا في كل زمان عند ذوى الفطر السليمة ممقوتا عندهم.

---

(١) الرازى، مفاتيح الغيب ج ١٠ ص ١٣،١٤.

(٢) الطبرى، جامع البيان ج ٣ ص ٥٧٣-٥٧٧.

١- إن الزواج بين الأقارب يضوى الذرية، ويضعفها مع امتداد الزمن، لأن اســتعدادات الضعف الوراثية قد تتركز وتتأصل في الذرية. علي العكس ما إذا تركت الفرصة للتلقيح الدائم بدماء أجنبية جديدة،تضاف استعداداها الممتازة،فتجدد حيوية الأجيال واستعداداها.

٢- أو يقال: إن بعض الطبقات المحرمة كالأمهات والبنات والأخوات والعمات والخالات وبنات الأخ وبنات الأخت. وكذلك نظائرهن من الرضاعة. وأمهات النساء، بنات الزوجات - الربائب والحجور - يراد أن تكون العلاقة بهن علاقة رعاية وعطف، واحترام وتــوقير،فلا تتعرض لما قد يحدث في الحياة الزوجية من خلافات تؤدى إلي الطلاق والانفصال،مع رواسب هذا الانفصال،فتخدش المشاعر التي يراد لها الدوام.

٣- أو يقال: إن بعض هذه الطبقات كالربائب في الحجور، والأخت مع الأخــت، وأم الزوجة وزوجة الأب، لايراد خدش المشاعر البنوية أو الأخوية فيها. فالأم التي تحس أن ابنتها قد تزاحمها في زوجها، والبنت والأخت كذلك، لا تستبقي عاطفتها البريئة تجاه بنتــها الــتي تشاركها حياتها، أو أختها التي تتصل بها أو أمها، وهي أمها. وكذلك الأب الذى يــشعر أن ابنه قد يخلفه علي زوجته، والابن الذى يشعر أن أباه الراحل أو المطلق،غريم له، لأنه سبقه علي زوجته. ومثله يقال في حلائل الأبناء الذين من الأصلاب، بالنسبة لما بين الابــن والأب مــن علاقة لا يجوز أن تشاب.

٤- أو يقال: إن علاقة الزواج جعلت لتوسيع نطاق الأسرة، ومدها إلي مــاوراء رابطــة القرابة. ومن ثم فلا ضرورة لها بين الأقارب الأقربين،الذين تضمهم آصرة القرابة القريبة. ومن ثم حرم الزواج من هؤلاء لانتفاء الحكمة فيه، و لم يبح من القريبات إلا من بعدت صــلته،حتي ليكاد أن يفلت من رباط القرابة."[١]

يقول تعالي: **﴿ ولا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً ومَقْتاً وسَاءَ سَبِيلاً (٢٢)﴾**

وقد كان الإسلام تحريرا شاملا للإنسان من صور الظلم الذى يطبــع الجاهليــة في كــل عصر،حيث يحكم منطق القوة وأسلوب الاستكبار. ومن مفردات هذا التحرير تحرير الضعاف من النساء والولدان،فأعطاهم حقهم في الميراث وحق المرأة في اختيــار زوجهــا وحقهــا في مهرها... وشرع طريق الإصلاح سبيلا لحماية الأسرة وأسلوبا لتماسكها وإشاعة السلام بين أفرادها.

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن ج ١ ص٦٠٨- ٦٠٩ عن د.علي عبد الواحد وافي، الأسرة والمجتمع ص ٢٦-٥٦ والعقــاد، حقائق الإسلام وأباطيل خصومه.

ومن أركان تماسك الأسرة وإحصالها قوامة الرجل. واعلم أن فضل الرجال علي النساء حاصل من وجوه كثيرة،بعضها صفات حقيقية، وبعضها أحكام شرعية.

أما الصفات الحقيقية فاعلم أن الفضائل الحقيقية يرجع حاصلها إلي أمرين: إلي العلم وإلي القدرة. ولاشك أن عقول الرجال وعلومهم أكثر، ولاشك أن قدرتهم علي الأعمال الشاقة أكمل،فلهذين السببين حصلت الفضيلة للرجال علي النساء في العقل والحزم والقوة، والكتابة في الغالب والفروسية والرمي، وأن منهم الأنبياء والعلماء، وفيهم الإمامة الكبرى والصغرى والجهاد والآذان والخطبة والاعتكاف والشهادة في الحدود والقصاص بالاتفاق، وفي الأنكحة عند الشافعي رضي الله عنه، وزيادة النصيب في الميراث والتعصيب في الميراث، وفي تحمل الدية في القتل الخطأ، وفي القسامة والولاية وفي النكاح والطلاق والرجعة وعدد الزواج، وإليهم الانتساب. فكل ذلك يدل علي فضل الرجال علي النساء.

والسبب الثاني لحصول هذه الفضيلة: قوله تعالي:﴿وبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾، يعني الرجل أفضل من المرأة لأنه يعطيها المهر وينفق عليها. ثم إنه تعالي قسم النساء قسمين،فوصف الصالحات منهن بأنهن قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله.

والنشوز هو معصية الزوج والترفع عليه بالخلاف، وأصله من قولهم نشز الشئ إذا ارتفع..

قال الشافعي رضي الله عنه: أما الوعظ فإنه يقول لها: اتقي الله فإن لي عليك حقا وارجعي عما أنت عليه، واعلمي أن طاعتي فرض عليك، ونحو هذا. ولايضربها في هذه الحالة لجواز أن يكون لها في ذلك كفاية. فإن أصرت علي ذلك النشوز فعند ذلك يهجرها في المضجع وفي ضمنه امتناعه عن كلامها... ولايزيد في هجره الكلام ثلاثا، وأيضا فإذا هجرها في المضجع فإن كانت تحب الزوج شق عليها فتترك النشوز، وإن كانت تبغضه وافقها ذلك الهجران،فكان ذلك دليلا علي كمال نشوزها. وفيهم من حمل ذلك علي الهجران في المباشرة، لأن إضافة ذلك إلي المضاجع يفيد ذلك. ثم عند هذه الهجرة إن بقيت علي النشوز ضربها... والضرب مباح وتركه أفضل...

وينبغي أن يكون الضرب بمنديل ملفوف أو بيده، ولا يضرب بالسياط ولا بالعصا، وبالجملة فالتخفيف مراعي في هذا الباب علي أبلغ الوجوه..."[1]

" عن عطاء قال: قلت لابن عباس: ما الضرب غير المبرح ؟ قال: السواك وشبهه،يضربها به... عن الحسن قال: ضربا غير مبرح غير مؤثر."[2]

---

(١) الرازى، مفاتيح الغيب ج ١٠ ص ٦٨ -٧٣ .

(٢) الطبرى، جامع البيان ج٤ ص ٧١.

"ثم قال تعالي: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ﴾،أى إذا رجعن عن النشوز إلي الطاعة عند التأديب فلاتبغوا عليهن سبيلا،أى لا تطلبوا عليهن الضرب والهجران طريقا علي سبيل العنت والإيذاء إن الله كان عليا كبيرا،... المقصود منه تهديد الأزواج علي ظلم النسوان. والمعني أنهن إن ضعفن عن دفع ظلمكم وعجزن عن الانتصاف منكم،فالله سبحانه علي قاهر كبير قادر ينتصف لهن منكم ويستوفي حقهن منكم."[1]

يقول تعالي﴿والْمُحْصَنَاتُ منَ النِّسَاء إلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كتَابَ اللَّه عَلَيْكُمْ وأُحلَّ لَكُم مَّا وراءَ ذَلكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالكُم مُّحْصنينَ غَيْرَ مُسَافحينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم به منْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ولا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فيمَا تَرَاضَيْتُم به من بَعْد الفَرِيضَة إنَّ اللَّهَ كَانَ عَليماً حَكيماً(٢٤)ومَن لَّمْ يَسْتَطعْ منكُمْ طَوْلاً أَن يَنكحَ الْمُحْصَنَات الْمُؤْمنَات فَمن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتكُمُ الْمُؤْمنَات واللَّهُ أَعْلَمُ بإيمَانكُمْ بَعْضُكُم مِّن بَعْض فَانكحُوهُنَّ بإذْن أَهْلهنَّ وآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بالْمَعْرُوف مُحْصَنَات غَيْرَ مُسَافحَات ولا مُتَّخذَات أَخْدَان فَإذَا أُحْصنَّ فَإنْ أَتَيْنَ بفَاحشَة فَعَلَيْهنَّ نصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَات منَ العَذَاب ذَلكَ لمَنْ خَشيَ العَنَتَ منكُمْ وأَن تَصْبرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ واللَّهُ غَفُورٌ رَّحيمٌ(٢٥)﴾

"وحاصل الكلام أنهم كانوا قد سألوا عن أحوال كثيرة من أحوال النساء،فما كان منها غير مبين الحكم ذكر أن الله يفتيهم فيها، وماكان منها مبين الحكم في الآيات المتقدمة ذكر أن تلك الآيات المتلوة تفتيهم فيها، وجعل دلالة الكتاب علي هذا الحكم إفتاء من الكتاب. "[2]

ففي مطلع السورة اعتني بحقوق الزوجة وحماية الأسرة حين يكون النشوز من قبل المرأة، وهنا في آخر السورة يكون القسط والإصلاح بين الزوجين حين يكون النشوز من جانب الزوج،فلحماية الأسرة حتي لا تتفرق لا حرج علي المرأة أن تسترضي زوجها لتصلحه، والقلوب بيد الله،فالحب لايمكن العدل فيه، ولكن الشارع الحكيم يضع حدا أدني للعدل في النفقة والمعاملة حتي لا يجور الزوج فتصبح الزوجة معلقة. أما إذا أغلقت القلوب فلا فائدة من بقاء الزوجية لأنه لن يكون وراء ذلك إلا الشقاق والضرر. ويتخلل ذلك كله الحض علي التقوى والإحسان والإصلاح.

---

(١) الرازى، مفاتيح الغيب ج١٠ ص ٧٤.

(٢) الرازى، مفاتيح الغيب ج١١ ص ٥٠.

يقول تعالي:

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيماً (١٢٧) وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً (١٢٨) وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً (١٢٩) وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلاً مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعاً حَكِيماً (١٣٠)﴾

واجب العفة:

الإسلام يعلن حق كل إنسان في الحياة الطاهرة، وحقه في أن يحمي أهله وأسرته من وباء الفاحشة، ويحافظ علي كرامة الإنسان ولا يهدرها. وهنا يصطدم البيان القرآني بالإعلان الغربي الذي يعطي الحرية الجنسية إلي آخر المدى.وقد رأينا ما ترتب علي ذلك من دمار الإنسان، وانحلال الأسرة وتفسخ المجتمع،مما يأباه كل عاقل كريم النفس يصون المروءة ويحترم الإنسان.

ومع أن هذا الانطلاق البهيمي ينتهي دائما بتدمير الحضارة وتدمير الأمة التي يشيع فيها – كما وقع في المدنية الإغريقية والرومانية والفارسية، وتدمير قوم لوط قديما،فالعالم الغربي اليوم الذى يدعي أنه متحضر لا يأخذ العبرة من ذلك.، وقد أخذت تتهاوى علي الرغم من جميع مظاهر التقدم الساحق في الحضارة الصناعية،الأمر الذى يفزع العقلاء هناك، وإن كانوا يشعرون – كما يبدو من أقوالهم – أنهم أعجز من الوقوف في وجه التيار المدمر.

ويفتح باب التوبة واسعا، ويشدد العقوبة ردعا لكل من ينحرف. ذلك لأن من حق كل إنسان أن يعيش في وسط عفيف يأمن فيه علي عرضه وماله. ولذلك ركزت السورة علي إعلاء شأن فضائل العفة والطهارة والإحصان والتبشيع من جرائم الفاحشة والسفاح واتخاذ العشيقات.

يقول تعالي: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً (١٥) وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّاباً رَحِيماً

(١٦) إنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّه للَّذينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بجَهَالَة ثُمَّ يَتُوبُونَ من قَرِيب فَأُوْلَئكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وكَانَ اللَّهُ عَليماً حَكيماً (١٧) ولَيْسَتَ التَّوْبَةُ للَّذينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَات حَتَّى إذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ المَوْتُ قَالَ إنِّي تُبْتُ الآنَ ولا الَذينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَئكَ أَعْتَدْنَا لَهُـــمْ عَذَاباً أَليماً (١٨)﴾

ويحض المسلمين علي الزواج حماية لهم، ويرشح لهم المحصنات ويحذرهم من السفاح واتخاذ الأخدان. يقول تعالي:

﴿والْمُحْصَنَاتُ منَ النِّسَاء إلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كتَابَ اللَّه عَلَيْكُمْ وأُحلَّ لَكُم مَّا ورَاءَ ذَلكُمْ أَن تَبْتَغُوا بأَمْوَالكُم مُّحْصنينَ غَيْرَ مُسَافحينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم به منْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُـــورَهُنَّ فَرِيضَةً ولا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِنْ بَعْدِ الفَرِيضَةِ إنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمـــاً حَكِيمـــاً (٢٤)﴾

حق الملكية:

حق الملكية، يعتبر من أهم حوافز التعمير والابتكار، ودوافع النهوض والتنمية. يحمي هـــذا الحق الإسلام ويصونه،فيجرم كل ألوان أكل المال بالباطل.. وشرط الملكية التي تصان كونهـــا ملكية نظيفة متزهة عن الربا والاحتكار،كما يحدث في المجتمعات الغربية المتوحشة، وفي نفس الوقت يحميها من المصادرة كما حدث في المجتمعات الاشتراكية المنتكسة.

والله تعالي نهي عن أكل الأموال بالباطل، وعن قتل النفس، وأمر بما سهل تـــرك هـــذه المنهيات، وهو أن يرضي كل أحد بما قسم الله له،فإنه إذا لم يرض بذلك وقع في الحسد، وإذا وقع في الحسد وقع لا محالة في أخذ الأموال بالباطل وفي قتل النفوس،فأما إذا رضي بما قدره الله أمكنه الاحتراز عن الظلم في النفوس وفي الأموال.

وأخذ المال بالباطل وقتل النفس من أعمال الجوارح،فأمر بقوله تعالي **﴿يَا أَيُّهَا الَذينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إلاَّ أَن تَكُونَ تجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ولا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إنَّ اللَّهَ كَانَ بكُمْ رَحيماً (٢٩) ومَن يَفْعَلْ ذَلكَ عُدْوَاناً وظُلْماً فَسَوْفَ نُصْليه نَاراً وَكَـــانَ ذَلكَ عَلَى اللَّه يَسيراً (٣٠) إن تَجْتَنبُوا كَبَائرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتكُمْ ونُدْخلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيماً (٣١) ولا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ به بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَال نَـــصيبٌ مِّمَّـــا اكْتَسَبُوا ولِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ واسْأَلُوا اللَّهَ من فَضْله إنَّ اللَّهَ كَانَ بكُلِّ شَيْءٍ عَليماً (٣٢)﴾**، أولا بتركها ليصير الظاهر طاهرا عن الفعال القبيحة، وهو الشريعة. ثم أمـــر بعـــده

بترك التعرض لنفوس الناس وأموالهم بالقلب،علي سبيل الحسد، ليصير الباطن طاهرا عن الأخلاق الذميمة، والإنسان من داخله حين يرى النعمة علي غيره من شعورين:

١- أن يتمني زوال تلك السعادات عن ذلك الإنسان.

٢- أن لايتمني ذلك،بل يتمني حصول مثلها له.

أما الأول فهو الحسد المذموم، لأن المقصود الأول لمدبر العالم وخالقه: الإحسان إلي عبيده والجود إليهم وإفاضة أنواع الكرم عليهم،فمن تمني زوال ذلك فكأنه اعترض علي الله تعالي فيما هو المقصود بالقصد الأول من خلق العالم وإيجاد المكلفين، وأيضا ربما اعتقد في نفسه أنه أحق بتلك النعم من ذلك الإنسان فيكون هذا اعتراضا علي الله وقدحا في حكمته، وكل ذلك مما يلقيه في الكفر وظلمات البدعة، ويزيل عن قلبه نور الإيمان، وكما أن الحسد سبب للفساد في الدين،فكذلك هو السبب للفساد في الدنيا،فإنه يقطع المودة والمحبة والموالاة ويقلب كل ذلك إلي أضدادها. فلهذا السبب نهي الله عباده عنه."[1]

وقيل في سبب نزول هذه الآية أن النساء تكلمن في تفضيل الله الرجال عليهن في الميراث،فذكر تعالي في هذه الآية أنه إنما فضل الرجال علي النساء في الميراث، لأن الرجال قوامون علي النساء. فإنهما وإن اشتركا في استمتاع كل واحد منها بالآخر،أمر الله الرجال أن يدفعوا إليهن المهر، ويجروا عليهن النفقة،فصارت الزيادة من أحد الجانبين مقابلة بالزيادة من الجانب الآخر،فكأنه لافضل البتة..

واجب التكافل المعاشي:

وفي نفس الوقت الذى يحمي فيه هذه الملكية الخاصة، ويحصنها بأن تكون خالية من أكل المال بالباطل،يضع عليها واجب رعاية المحتاجين.

فالإسلام يكفل لكل فرد فيه حد أدني مبني علي الحق، فلا يجوع إنسان ولا يعري. ويجعل ذلك واجب علي الأسرة في حقوق ذوي القربي، وواجب علي المجتمع في حق الزكاة. وهذا التكافل لليوم موضع حيرة في الغرب، فقطاع الإعانات الاجتماعية يتقلص تحت ضغط اليمين الرأسمالي الذي يتفلت من الضرائب ويسعي لإزاحتها من القانون. وتخرج تقاليع من الغرب، تحت عنوان الطريق الثالث، تبشر بالرفاهية للجميع، وكل همها كسب أصوات الغالبية التي يسخرها الرأسماليون، وليس عندهم إلا تمويهات وشعارات فارغة.

---

(١) الرازى، مفاتيح الغيب ج١٠ ص ٦٥، ٦٦.

يقول تعالي: ﴿واعْبُدُوا اللَّهَ ولا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وبِذِي القُرْبَى والْيَتَامَى والْمَسَاكِينِ والْجَارِ ذِي القُرْبَى والْجَارِ الجُنُبِ والصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وابْنِ السَّبِيلِ (٣٦)﴾، ينبه الحق تبارك وتعالي هنا إلي حقوق الوالدين،"ثم تتسع المرحمة إلي ذوى القربي ثم يمتد الإحسان إلي اليتامي والمساكين والجار القريب والصاحب في الطريق،ثم ابن السبيل المنقطع عن أهله وماله ثم الرقيق.

واعلم أنه تعالي قرن إلزام بر الوالدين بعبادته وتوحيده في مواضع: أحدها في هذه الآية. وثانيها: قوله: ﴿وقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إلاَّ إِيَّاهُ وبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾[الإسراء آية ٢٣]. وثالثها: قوله: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي ولِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤)﴾ [لقمان آية ١٤]. وكفي بهذا دلالة علي تعظيم حقهما ووجوب برهما والإحسان إليهما. ومما يدل علي وجوب البر إليهما قوله تعالي: ﴿فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ ولا تَنْهَرْهُمَا وقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً (٢٣)﴾ [الإسراء آية ٢٣]. وقال: ﴿ ووَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً﴾[العنكبوت آية ٨]. وقال في الوالدين الكافرين: ﴿وإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً﴾[لقمان آيه ١٥].

قوله تعالي: ﴿وبذى القربي﴾، أمر بصلة الرحم كما ذكر في أول السورة.

وقوله تعالي﴿ الْيَتَامَى﴾، واعلم أن اليتيم مخصوص بنوعين من العجز: أحدهما: الصغر، والثاني عدم المنفق.

وقوله تعالي ﴿والْمَسَاكِينِ﴾، الإحسان إلي المسكين إما بالإجمال إليه أو بالرد الجميل. كما قال تعالي: ﴿وأما السائل فلا تنهر﴾.[الضحي: ١٠]

وقوله تعالي﴿ والْجَارِ ذِي القُرْبَى والْجَارِ الجُنُبِ﴾: الجار ذى القربي هو الذى قرب جواره، والجار الجنب هو الذى بعد جواره...

والصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ: هو الذى صحبك بأن حصل بجنبك إما رفيقا في سفره ,إما جارا ملاصقا وإما شريكا في تعلم أو حرفة وإما قاعدا إلي جنبك في مجلس أو مسجد أو غير ذلك،من أدني صحبة التأمت بينك وبينه،فعليك أن ترعي ذلك الحق."[1]

وقوله تعالي ﴿وابْنِ السَّبِيلِ﴾، وهو المسافر الذى انقطع عن بلده، وقيل: الضيف.

وما ملكت أيمانكم، واعلم أن الإحسان إلي المماليك طاعة عظيمة.. وهو من وجوه:

١- ألا يكلفهم فوق طاقتهم.

---

(١) الرازى، مفاتيح الغيب ج١٠ ص٧٧، ٧٨.

٢- ألا يغلظ لهم في القول.

٣- أن يسد حاجتهم.

ولما ذكر تعالي في الآية أن النساء أسوة الرجال في أن لهن حظا من الميراث، وعلم تعالي أن في الأقارب من يرث ومن لا يرث، وأن الذين لا يرثون إذا حضروا وقت القسمة،فإن تركوا محرومين بالكلية ثقل ذلك عليهم،فلا جرم أمر الله تعالي أن يدفع شئ عند القسمة حتي يحصل الأدب الجميل وحسن العشرة....وقدم اليتامي علي المساكين لأن ضعف اليتامي أكثر وحاجتهم أشد. فكان وضع الصدقات فيهم أفضل وأعظم في الأجر... والمراد بالقول المعروف أن لا يتبع العطية المن والأذى بالقول أو يكون المراد الوعد بالزيادة والاعتذار لمن لم يعطه شيئا."[1]

يقول تعالي: ﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا(٨)﴾

حقوق الأقليات:

من أهم الواجبات التي فرضها الله علي الأمة المسلمة هو واجب تحرير المستضعفين من بأس المستكبرين.

يقول تعالي:

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا(٧٥)الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا(٧٦)﴾

إن الله تعالي خلق السماوات والأرض اختبارا للإنسان عن عمره فيما أفناه وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وإذا وضعت القيود واستخدم الإرغام وساد الاستبداد،ضاق نطاق الحرية التي يتمتع بها الإنسان. فالحرية شرط للحساب والجزاء. وبها يختار الله المقربين والأبرار ممن أنعم الله عليهم من النبيين والشهداء والصديقين والصالحين.

---

(١) الرازى، مفاتيح الغيب ج٩ ص ١٥٨- ١٥٩.

ومن هنا كانت قاعدة عدم الإكراه في الدين، وتحرير البشر من بأس الطغاة والمستكبرين، واجب علي المسلمين.

ولما كان المستكبرين لا يتنازلون عن ظلمهم بالوعظ والحدة، وإنما يبطشون بكل من يعارضهم،فرض الله علي المسلمين مقاومتهم وتحرير العباد من بأسهم، وبالطبع فإن ذلك يتكلف تضحيات بالأموال والأنفس،مما يقتضي درجة عالية من الإيمان بالله والدار الآخرة. فالقتال هنا قتال في سبيل الله،في مواجهة جيش الطغاة الذى يقاتل في سبيل الطاغوت.

وفي نفس الوقت يضع واجبا علي المستضعفين أن يخرجوا من الأرض الظالم أهلها فرارا بدينهم.

يقول تعالي: ﴿ إنَّ الَذينَ تَوَفَّاهُمُ المَلائكَةُ ظَالمي أنفُسهمْ قَالُوا فيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفينَ في الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّه واسعَةً فَتُهَاجرُوا فيهَا فَأُوْلَئكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وسَاءَتْ مَصيراً (٩٧) إلاَّ الُمسْتَضْعَفينَ منَ الرِّجَال والنِّسَاء والْولْدَان لا يَسْتَطيعُونَ حيلَةً ولا يَهْتَدُونَ سَبيلاً (٩٨) فَأُوْلَئكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وكَانَ اللَّهُ عَفُواً غَفُوراً (٩٩)﴾، أى ظالميها بترك الهجرة، ... وقول الملائكة: فيم كنتم ؟ تقرير وتوبيخ، وقول هؤلاء: كنا مستضعفين في الأرض،اعتذار غير صحيح،إذ كانوا يستطيعون الحيل، ويهتدون السبيل،ثم وقفتهم الملائكة علي ذنبهم بقولهم: ألم تكن أرض الله واسعة؟ والأرض في قول هؤلاء هي أرض مكة خاصة، وأرض الله هي الأرض بالإطلاق. والمراد:فتهاجروا فيها،إلي موضع الأمن. وهذه المقالة إنما هي بعد توفي الملائكة لأرواح هؤلاء، وهي دالة علي أنهم ماتوا مسلمين، وإلا فلو ماتوا كافرين لم يقل لهم شئ من هذا. وإنما أضرب عن ذكرهم في الصحابة لشدة ماواقعوه، ولعدم تعين أحد منهم بالإيمان ولاحتمال ردته. وتوعدهم الله تعالي بأن مأواهم جهنم،ثم استثني منهم من كان استضعافه علي حقيقة: من زمنة الرجال وضعفة النساء والولدان... ثم رجي الله تعالي هؤلاء بالعفو عنهم، وعسي من الله واجبة،كما أنها دالة علي ثقل الأمر المعفو عنه. قال الحسن: عسي من الله واجبة. قال غيره: هي بمنزلة الوعد،إذ ليس يخبر بعسي عن شك ولا توقع. وهذا يرجع إلي الوجوب."[1]

---

(١) ابن عطية، المحرر الوجيز ج٤ ص ١٩٣، ١٩٤.

واجب القتال:

الإسلام لا يعرف قتالا إلا في سبيل تحرير المستضعفين، لايعرف القتال للغنيمة ولا يعرف القتال للسيطرة، ولايعرف القتال للمجد الشخصي أو القومي. إنه لا يقاتل للاستيلاء علي الأرض، ولا للاستيلاء علي السكان، لا يقاتل ليجد الخامات للصناعات، والأسواق للمنتجات،أو لرؤوس الأموال يستثمرها في المستعمرات وشبه المستعمرات. إنه لا يقاتل لمجد شخص، ولا لمجد بيت، ولا لمجد طبقة، ولا لمجد دولة، ولا لمجد أمة، ولا لمجد جنس،إنما يقاتل في سبيل الله، لإعلاء كلمة الله في الأرض، ولتمكين منهجه من تصريف الحياة، ولتمتيع البشرية بخيرات هذا المنهج وعدله المطلق بين الناس،مع ترك كل فرد حرا في اختيار العقيدة التي يقتنع بها،في ظل هذا المنهج الرباني الإنساني العالمي العام. وحين يخرج المسلم ليقاتل في سبيل الله يقصد إعلاء كلمة الله.. من يريدون أن يبيعوا الدنيا ليشتروا بها الآخرة، ولهم حينئذ فضل من الله عظيم في كلتا الحالتين: سواء من يقتل في سبيل الله ومن يغلب في سبيل الله أيضا."[1]

قوله تعالي: ﴿ **وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ والْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ والنِّسَاءِ والْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا واجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وِلِياً واجْعَلْ لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيراً (٧٥)** ﴾

فالجهاد واجب، ومعناه أنه لاعذر لكم في ترك المقاتلة وقد بلغ حال المستضعفين من الرجال والنساء والولدان من المسلمين إلي ما بلغ في الضعف،فهذا حث شديد علي القتال، وبيان العلة التي لها صار القتال واجبا، وهو مافي القتال من تخليص هؤلاء المؤمنين من أيدى الكفرة، لأن هذا الجمع إلي الجهاد يجرى مجرى فكاك الأسير...

والمراد بالمستضعفين من الرجال والنساء والولدان قوم من المسلمين بقوا بمكة وعجزوا عن الهجرة إلي المدينة، وكانوا يلقون من كفار مكة أذى شديدا. قال ابن عباس: كنت أنا وأمي من المستضعفين من النساء والولدان...

إنما ذكر الله الولدان مبالغة في شرح ظلمهم،حيث بلغ أذاهم الولدان غير المكلفين،إرغاما لآبائهم وأمهاتهم، ومبغضة لهم بمكانهم، ولأن المستضعفين كانوا يشركون صبيانهم في دعائهم استنزالا لرحمة الله بدعاء صغارهم الذين لم يذنبوا..."[2]

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن ج٢ ص٧٠٥-٧٠٧.

(٢) الرازى، مفاتيح الغيب ج١٠ ص ١٤٥-١٤٦.

وينبه الله المسلمين إلي ما يمكن أن يحدث من خلل في صفهم من ضعاف الإيمان الذين يرفعون أصواتهم ولكن عزائمهم خائرة،فلم تشرق نور الآخرة في قلوبهم، و لم تتأكد حقيقة حتمية الموت في نفوسهم، ولهذا يستمسكون بدنياهم ويتشبثون بحياتهم.

وشأن هؤلاء أن:

١- يتباطؤوا عن الجهاد،فإذا انتصر المسلمون ندموا علي فوات الغنيمة، وإن انهزم المسلمون فرحوا بالنجاة من المصيبة.

٢- غلبة الجبن عليهم فيخافون الناس كخشية الله أو أشد خشية.

٣- أنهم يظهرون الطاعة للجماعة في الظاهر، ويضمرون العصيان في خلواتهم.

٤- لضعف عزائمهم يذيعون الإشاعات دون تثبت أو تمحيص سواء كانت إشاعات أمن أو خوف، وهو مايسبب بلبلة في جماهير الناس.

ومن هنا نبه الله المسلمين في أول السياق أن لا ينفرد مجاهد في مسيرته، وإنما يسير مع جماعة أو ينفروا جميعا.

وفي وسط السياق يهيب الله بالمؤمنين أن ينفروا لتحرير المستضعفين من العباد، وأن يستجيبوا لاستغاثة الرجال والنساء والولدان بالنصرة من الظالمين والخروج من ظلم الطغاة.

وفي آخر السياق يؤكد الله علي رسوله بأن يقوم بواجب التحرير حتي ولو وحده، وأن يحرض المؤمنين علي هذا الواجب،حتي ينقشع بأس الجبارين.

حق الحياة:

كل المسلم علي المسلم حرام دمه وماله وعرضه، وحتي الكافر لا يجوز قتاله إن أعطي الذمة أو الأمان أو العهد، وحتي العدو لا يجوز قتله قبل التبين والإعذار. ويحذر الله المسلمين أن يستهينوا بالدماء، حتي وهم في حالة حرب مع الأعداء. ويضع العقوبة المانعة علي من يتخطي هذه الحدود. ولا يجوز الاقتراب من هذا الحق إلا فى حالات استثنائية تتصل بحقوق الآخرين أو بحقوق أساسية للمجتمع.

وحفظ النفس من المقاصد الأساسية للشريعة. فحق الحياة حق مصون لكل فرد،فهو أمانة استودعها الله عبده ليقوم بالرسالة التي أرادها الله في الأرض. ومن ثم كان سلب هذا الحق مصادمة لسنن الله والاعتداء عليه جريمة تستحق أقسي العقوبات.

ومن هنا يحيط الإسلام النفس الإنسانية بالحصانة،فإن الدماء أحق ما احتيط له،إذ الأصل صيانتها في أهبها-جلدها-،فلا تباح إلا بأمر بين لا إشكال فيه."[1]

قال ﷺ: " **ألا إن أحرم الأيام يومكم هذا. ألا وإن أحرم الشهور شهركم هذا. ألا وإن أحرم البلد بلدكم هذا،ألا وإن دماءكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا،في شهركم هذا،في بلدكم هذا. ألا هل بلغت؟** قالوا: نعم. قال: **الله اشهد.**" وقال ﷺ " **كل المسلم علي المسلم حرام،دمه وماله وعرضه.**" كما قال ﷺ " **المؤمن من أمنه الناس علي أموالهم وأنفسهم، والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب.**" [2]

ويقول رسول الله ﷺ: " **قتل المؤمن أعظم عند الله من زوال الدنيا**"[3]

وفي ميدان المعركة المحايدون،نبه الله المسلمين أن يكفوا عنهم إذا اعتزلوا القتال وأعلنوا السلام.

فإذا رغب إنسان في السلام مع المسلمين واعتزل من يقاتلهم،أمنه الإسلام علي نفسه وحفظ حياته. فالإسلام يصون دم المنتسب إلي أهل الأمان، ولايجوز استباحة دم من لجأ إلي من بينه وبين المسلمين عهد،فالموادعة جائزة بين أهل الحرب وأهل الإسلام.[4]

أما إذا كانوا يناورون ويتذبذبون ويتقلبون في الفتنة فليس لهم حرمة. ولايتخذ المؤمنون منهم وليا ولا نصيرا. يقول تعالي: **﴿إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً (٩٠) سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُوْلَائِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً مُّبِيناً (٩١)﴾**

هذا " في علاقات المسلمين مع المعسكرات الأخرى. فأما في علاقات المسلمين بعضهم ببعض،مهما اختلفت الديار، وفي ذلك الوقت كما في كل وقت كان هناك مسلمون في شتي الديار،فلا قتل ولا قتال. لا قتل إلا في حد أو قصاص. فإنه لايوجد سبب يبلغ من ضخامته أن

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ج٣ ص ١٨٩٩.

(٢) الألباني، صحيح سنن ابن ماجه ج٢ ص ٣٤٨، ٣٤٩.

(٣) الألباني، صحيح الجامع الصغير ج٢ ص٨٠٤.

(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ج٣ ص ١٨٧٥.

يفوق مابين المسلم والمسلم من وشيجة العقيدة، ومن ثم لا يقتل المسلم أبدا. وقد ربطت بينهما هذه الرابطة الوثيقة. اللهم إلا أن يكون ذلك خطأ. "[١]

واجب التبين:

لما شرع القتال لتحرير المستضعفين، وضع الإسلام الضوابط التي تحمي من القتل الخطأ والقتل العمد لسبب غير أسباب التحرير.

ويقول تعالي: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّه فَتَبَيَّنُوا ولا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الحَيَاة الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّه مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً (٩٤)**﴾

جمع المفسرون علي أن هذه الآيه إنما نزلت في حق جماعة من المسلمين لقوا قوما فأسلموا فقتلوهم وزعموا أنهم إنما أسلموا من الخوف."[٢]

يحذر الله المسلمين أن يستهينوا بالدماء حتي وهم في حالة حرب مع الأعداء. فهناك المستضعفون الذين غلبوا علي أمرهم،كما كان المسلمون في مكة من قبل أن يمن الله عليهم بالعزة والمكنة. فإذا نطق الرجل في دار الحرب بالشهادتين أصبح معصوم الدم يمتنع قتله ويجرم من تسول له نفسه ارتكاب هذا الخطأ.

وفي كفارة القتل الخطأ ذكر تعالي " ثلاث كفارات: كفارة قتل المسلم في دار الإسلام، وكفارة قتل المسلم عند سكونه مع أهل الحرب، وكفارة قتل المسلم عند سكونه مع أهل الذمة وأهل العهد. ثم ذكر عقيبه حكم قتل العمد مقرونا بالوعيد،فلما كان بيان حكم قتل الخطأ بيانا لحكم اختص بالمسلمين كان بيان حكم القتل العمد الذى هو كالضد لقتل الخطأ.

يقول تعالي: ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاَّ خَطَئاً وَمَن قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَئاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِه إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُوا فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِه وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّه وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً (٩٢)**﴾ويقول تعالي: ﴿**وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً (٩٣)**﴾

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن ج٢ ص ٧٣٢، ٧٣٦.

(٢) الرازى، مفاتيح الغيب ج١٠ ص ١٨٩-١٩٠.

عن أسامة بن زيد: " بعثنا رسول الله ﷺ في سرية فصبحنا الحرقات من جهينة،فأدركت رجلا فقال: لاإله إلا الله،فطعنته،فوقع في نفسي من ذلك،فذكرته للنبي ﷺ،فقال رسول الله ﷺ: **أقال لاإله إلا الله وقتلته ؟** قلت: يارسول الله إنما قالها خوفا من السلاح. قال: **أفلا شققت عن قلبه حتي تعلم أقالها أم لا ؟** فمازال يكررها علي حتي تمنيت أني أسلمت يومئذ."(١)

حق المحاكمة العادلة:

إذا ساد المجتمع الظلم، وغلبت المصالح الشخصية علي القيم، والأنانية علي الخير، عاش الناس في غابة لا يأمنون علي أنفسهم ولا علي أموالهم وأولادهم. حيث تصبح العدالة شعارا حقيقته الظلم،معبرة فقط عن حقوق الأقوياء والأغنياء وأصحاب السلطان. فتضيع بذلك حقوق الناس، ويتهم الأبرياء، وتستباح الأعراض، وينكل بدعاة المعروف سجنا وتعذيبا، وقتلا وتشريدا، ويوصمون بكل قبيح، ويحشد شهود الزور وقضاة الجور لكبتهم واستباحة دمائهم وأعراضهم. وهنا ينمو النفاق ويترعرع لتبرير الظلم وفلسفة الاستبداد ودعم مصالح المستغلين. وتنمو بطانة منتفعة تصفق وتزين للباطل، وتحرض وتشوه الحق، ليلقي إليها الفتات و تستعلي علي العباد بقوة الظالمين.

ونستطيع أن نقدم لهذا بتتبع توجيهات هذا المقطع في التلخيص التالي:

١- ينبه الله سبحانه وتعالي ابتداء إلي أنه نزل إلينا الكتاب بالحق،رحمة منه، ليحكم بين الناس بالعدل، وفي ذلك وحده الضمان لتحقيق العدل بين العباد.

٢- لهذا كان من أعظم الآثام رمي الأبرياء بما اكتسب الظالمون من الخطايا والآثام.

٣- وكان من البهتان والإثم العظيم الدفاع عن أهل الباطل والجدال عن الخائنين الذين ارتكبوا هذه الآثام.

٤- وهؤلاء الناس أنهم لا يتعاملون في وضوح وصراحة،بل يبيتون في مؤامرة هذه المظالم،يستخفون في ذلك من الناس، ولايستخفون من الله، وهو معهم إذ يبيتون مالا يرضي من القول.

---

(١) صحيح مسلم ج١ ص ٥٤.

٥- التذكير بفضل الله علي رسوله والمؤمنين بتحريرهم من هذه الضلالات بإنزال الكتاب والحكمة وتعليم المؤمنين بهذه الفضائل، ولولا ذلك لاستطاع هـؤلاء الخـائنين الآثمـين أن يضلوهم عن طريق العدل والإنصاف.

٦- يبين الله طبيعة المجتمع المسلم في مناجاته،فهي مناجاة في الحض علي الصدقة والمعروف والإصلاح بين الناس.

٧- ويبين خصائصه وشروط قبوله،أن يكون خالصا لوجه الله تعالي حبا فيه وطمعـا في ثواب الآخرة. بعد أن يكون صوابا في طاعته لما أنزل الله. وهذا هو ضمان القسط دون تزييفه وضمان القصد دون تحريفه. وهذا هو الإسلام لوجه الله والإحسان في الأعمال. وهذه هـي حقيقة الدين القيم.

... اتفق أكثر المفسرين علي أن أكثر هذه الآيات نزلت في طعمة بن أبيرق... سرق درعا فلما طلبت الدرع منه رمي واحدا من اليهود بتلك السرقة، ولما اشتدت الخصومة بين قومـه وبين قوم اليهودى،جاء قومه إلي النبي ﷺ وطلبوا منه أن يعينهم علي هذا المقصود، وأن يلحق هذه الخيانة باليهودى. فهم الرسول عليه الصلاة والسلام بذلك،فترلت الآية..[1]

وينظر الإنسان من هذه القمة السامقة علي السفوح الهابطة،في جميع الأمم علـي مـدار الزمان،فيراها هنالك في السفوح، ويرى بين تلك القمة السامقة والسفوح الهابطـة صـخورا متردية،هنا وهناك،من الدهاء، والمراء، والسياسة، والكياس والبراعة والمهارة ومصلحة الدولـة ومصلحة الوطن ومصلحة الجماعة،إلي آخر الأسماء والعنوانات."[2]

يقول تعالي: ﴿ **إنَّا أنزَلْنَا إلَيْكَ الكتَابَ بالحَقِّ لتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بمَا أَرَاكَ اللَّهُ ولا تَكُـن لِّلْخَائنِينَ خَصيماً (١٠٥) واسْتَغْفِرِ اللَّهَ إنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحيماً (١٠٦) ولا تُجَادلْ عَنِ الَذينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إنَّ اللَّهَ لا يُحبُّ مَن كَانَ خَوَّاناً أَثيماً (١٠٧) يَسْتَخْفُونَ منَ النَّاسِ ولاَ يَسْتَخْفُونَ منَ اللَّه وهُوَ مَعَهُمْ إذْ يُبَيِّتُونَ مَا لا يَرْضَى منَ القَوْلِ وكَانَ اللَّهُ بمَا يَعْمَلُونَ مُحيطاً (١٠٨) هَا أَنتُمْ هَؤُلاء جَادَلْتُمْ عَنهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادلُ اللَّهَ عَنهُمْ يَـوْمَ القِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وكِيلاً (١٠٩)** ﴾

---

(١) الرازى، مفاتيح الغيب، ج١١ ص ٢٦.

(٢) سيد قطب ج ٢ ص ٧٥١-٧٥٣.

واجب الحكم بين الناس بالعدل:

وهنا كان النداء الإلهي للبشر،يربيهم علي قيم العدل، ويحفزهم علي شهادة الحق، ويهديهم إلي نجوى الخير، وينشأهم علي الأمر بالمعروف، ويحررهم من كل خوف إلا من الله، ومن كل رغبة إلا نعيم الآخرة.

وجماع ذلك كله أنه من الحقوق الأساسية للإنسان أن يكون آمنا في مجتمعه ناعما بالعدل في الحكم، والقسط في المعاملات مادام مستقيما علي نظامه ومطيعا لشريعته محافظا علي حقوق الآخرين.

والقرآن يرسي حق الإنسان،الذى يحميه من كل ظلم،بشريعته التي يخضع لها الحاكم قبل المحكوم والقوى قبل الضعيف والغني قبل الفقير، لاتحيز ولاجور،بل قسط وشهادة لله ولو علي أعز شيء وهو النفس، ولو علي أقرب إنسان والدا أو قريبا. محذرا من اتباع الهوى للعدول عن طريق الحق لأن الله خبير بكل خلجات النفس، وذلك مقتضي الإيمان بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر.

ولقد تقدم في هذه السورة أمر الناس بالقسط كما قال تعالي: ﴿ **وإنْ خِفتُمْ ألاَّ تُقْسِطُوا فِي اليَتَامَى**﴾، وأمرهم بالإشهاد عند دفع أموال اليتامي إليهم، وأمرهم بعد ذلك ببذل النفس والمال في سبيل الله، وأجرى في هذه السورة قصة طعمة بن أبيرق واجتماع قومه علي الذب عنه بالكذب والشهادة علي اليهودى بالباطل،ثم إنه تعالي أمر في هذه الآيات بالمصالحة مع الزوجة، ومعلوم أن ذلك أمر من الله لعباده أن يكونوا قائمين بالقسط،شاهدين لله علي كل أحد،بل وعلي أنفسهم،فكانت هذه الآية كالمؤكد لكل ماجرى ذكره في هذه السورة من أنواع التكاليف.

يقول تعالي:

﴿ **يَا أَيُّهَا الَذينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامينَ بالْقسْط شُهَدَاءَ للَّه ولَوْ عَلَى أَنفُسكُمْ أَو الوَالدَيْنِ والأَقْرَبِينَ إن يَكُنْ غَنياً أَوْ فَقيراً فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الهَوَى أَن تَعْدِلُوا وإن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبيراً (١٣٥)**﴾

اعلم أن الأمانة عبارة عما إذا وجب لغيرك عليك حق فأديت ذلك الحق إليه فهذا هو الأمانة، والحكم بالحق عبارة عما إذا وجب لإنسان علي غيره حق فأمرت من وجب عليه ذلك الحق بأن يدفعه إلي من له ذلك الحق، ولما كان الترتيب الصحيح أن يبدأ الإنسان بنفسه في جلب المنافع ودفع المضار ثم يشتغل بغيره، لاجرم أنه تعالي ذكر الأمر بالأمانة أولا، ثم بعده

ذكر الأمر بالحكم بالحق،فما أحسن هذا الترتيب، لأن أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط...

قوله تعالي: ﴿ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً (٥٨)﴾، أي نعم شئ يعظكم به ذاك، وهو المأمور من أداء الامانات والحكم بالعدل."[1]

حق حرية التعبير:

تؤصل السورة حرية الإنسان في الاعتقاد والتفكير والاختيار، ويعتبر ذلك من ضـــرورات الإنسان كضرورة الأكل والشراب.

وقد كفل القرآن حرية التعبير، لأنه ابتداء بمجتمع الشورى ألزمهم الله بها، ومجتمع النصيحة فهي أمانة في عنق كل مسلم، وهو مجتمع الاستمساك بالحق ولو كلف صاحبه مالا يطيق.

وهو مجتمع حرية العقيدة حيث من أصوله لا إكراه في الدين، ومن عنده شـــك في ذلـــك فليسأل اليهود الذين لم يسلموا من اضطهاد أحد في العالم القديم والحـــديث إلا المـــسلمين، وليسأل النصارى الذين يعيشون إلي يومنا هذا في مجتمعنا مصانة حقوقهم، وليسأل عن مصير المسلمين في الأندلس وعن قصتهم اليوم في البوسنة.

إن من أصول الإسلام ألا يفرض علي أهل الكتاب ما يخالف عقيدتهم، ولكـــن إذا كـــان تحريم الربا موجود عند كل دين، وإذا كان فرض الصدقة للفقير وستر العورة مفروض عنـــد الجميع،فما معني إنكار ذلك علي الإسلام ؟ وإذا كانت الغالبية تضع أساس شرائعها بما يتفـــق ومبادئها في كل دولة فلماذا ينكر علي المسلمين ذلك ؟

والناظر للتاريخ الإسلامي بإنصاف يجد أن تنوع الآراء كان هـــو القاعـــدة. ونظـــرة إلي المدارس الفقهية واحترام الفقهاء للخلاف في الرأي،مدى ما يتمتع به المسلمين من حريـــة في التعبير. ولكن كان ذلك في ظل ضوابط تضمن أن يكون الخـــلاف خـــلاف تنـــوع،يثرى الحضارة، لاخلاف تضاد يقوض أساسها ويؤدى إلي فشلها بالنزاع.

والحقيقة التي لا ننكرها أنه علي المستوى السياسي لم تستمر الخلافة الراشدة إلا فترة قصيرة نسبيا، وكان من مقوماتها اختيار الخليفة وبيعته، وفرض الشورى والإلزام بها، وممارسة الأمـــر بالمعروف والنهي عن المنكر في كل جوانب الحياة ومنها الحكم.

---

(١) الرازى مفاتيح الغيب، ج١٠ ص ١١١-١١٤.

و لم تعرف البشرية حقوق الإنسان إلا منذ قريب، وكان يسود الدنيا استبداد ممثل في ملوك جبابرة علي مستوى الدولة، وأمراء مستبدون علي مستوى المقاطعات، ووجدوا في أوروبا من رجال الدين من يمد لهم في طغيانهم،حتي كان ذلك سببا في نفور أوروبا من الدين جملة وقيام العلمانية التي ترفض القيم، وما سبب ذلك من مشاكل ومخاطر يعانيها العصر.

ومن ثم كان اهتمام السورة الكبير في نوع الحديث الذى يقال والرأى الذى يبدى. فوصف المؤمنون بأنهم:لا يكتمون الله حديثا. ووصف الكافرين بأنهم: لا يكادون يفقهون حديثا. وكان الخلق الحق في القول مأخوذ من صفات الله تعالي: ومن أصدق من الله حديثا.

وكانت الكلمة لذلك أمانة. فنبه علي المؤمنين في الصلاة أن يكونوا واعين: حتي تعلموا ما تقولون. بينما كانت من صفات الكافرين: يحرفون الكلم عن مواضعه.. ليا بألسنتهم وطعنا في الدين. وكان توجيه القرآن إلي الرسول الكريم في معاملة المسيئين:وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولا بليغا.

ولقد حدثتنا سورة النساء عن مواصفات حرية التعبير التي تحقق احترام الذات لأفراد الأمة، وتثرى رؤيتها بالتناصح والتشاور، وتوفر كافة الرؤى الباعثة علي التقدم والازدهار. من ذلك:

١ – أن تكون بالمعروف. وقد عمرت السورة بتأكيد هذه الخصيصة،فعند الوصية بالضعاف من الأمة يكرر القرآن النصيحة للمسلمين بأن يقولوا لهم قولا معروفا.

وقد رأينا في شروط المناجاة،التي أمر الله بها عباده،حفاظا علي أواصر الود، وإشاعة لروح التعاطف بين الجماعة،أن تكون هذه المناجاة قوامها الأمر بالمعروف،قال تعالي: **﴿ لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتَغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيماً (١١٤)﴾**.

و لا خير فيما يتناجي فيه الناس ويخوضون فيه من الحديث إلا ما كان من أعمال الخير. ثم إنه تعالي ذكر من أعمال الخير ثلاثة أنواع: الأمر بالصدقة، والأمر بالمعروف، والإصلاح بين الناس. وإنما ذكر الله هذه الأقسام الثلاثة، وذلك لأن عمل الخير إما أن يكون بإيصال المنفعة أو بدفع المضرة،أما إيصال الخير: فإما أن يكون من الخيرات الجسمانية وهو إعطاء المال، وإليه الإشارة بقوله **﴿ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾**. وإما أن يكون من الخيرات الروحانية، وهو عبارة عن تكميل القوة النظرية بالعلوم،أو تكميل القوة العملية بالأفعال الحسنة، ومجموعهما عبارة عن الأمر بالمعروف وإليه الإشارة بقوله**﴿ أَوْ مَعْرُوفٍ﴾**، وإما إزالة الضرر فإليها الإشارة بقوله: **﴿أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾**، فثبت أن مجامع الخيرات مذكورة في هذه الآية..

وهذه الأقسام الثلاثة من الطاعات، وإن كانت في غاية الشرف والجلالة، إلا أن الإنسان إنما ينتفع بها إذ أتي بها لوجه الله وابتغاء مرضاته،فأما إذا أتي بها للرياء والسمعة انقلبت القضية فصارت من أعظم المفاسد."[1]

٢- أن يكون القول سديدا. والسديد المصيب للحق المتصف بالصواب القائم علي العدل[2]. وفي هذا تحرير للمجتمع من فئة المضللين التي تزيف الحقائق وتبرر المظالم وتخدع الناس خصوصا الضعاف منهم. و ذلك مما يوصي الله تعالي به من نوع الكلمة التي يخاطب بها اليتيم فيقول: ﴿ ولْيَخْشَ الَذينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ ولْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٩)﴾.

٣- أن يكون القول بليغا. وهذا خصيصة في خطاب المخالف في الرأى الذى يناور به ويظهر غير مايبدى،فحين إعراض قوم عن الحق مع ادعائهم الإيمان يكون القول مقنعا مؤسسا علي منطق مقبول للرد علي هذا التبييت مع ما يحمله من الزجر والردع.[3]

وذلك من قوله تعالي: ﴿ " أُوْلَئِكَ الَذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وعِظْهُمْ وقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً (٦٣)﴾

وتعاليم القرآن تحقق حرية الإنسان عقيدته ورأيه، وتصونهما بكافة الضمانات، وتفتح للتعبير كافة القنوات.

يقول تعالي: ﴿ إن تُبْدُوا خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُواً قَدِيراً (١٤٩)﴾.

" اعلم أن معاقد الخيرات علي كثرتها محصورة في أمرين: صدق مع الحق، وخلق مع الخلق. والذى يتعلق بالخلق محصور في قسمين: إيصال نفع إليهم، ودفع ضرر عنهم.

فقوله: ﴿ إن تُبْدُوا خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ﴾،إشارة إلي إيصال النفع إليهم،أو تعفو، إشارة إلي دفع الضرر عنهم. فدخل في هاتين الكلمتين جميع أنواع الخير وأعمال البر."[4]

" ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُواً قَدِيراً،﴾ يقول: لم يزل ذا عفو عن خلقه،يصفح عمن عصاه وخالف أمره،ذا قدرة علي الانتقام منه. فاعفوا أنتم أيضا،أيها الناس، عمن أتي إليكم ظلما، ولا تجهروا له بالسوء من القول، وإن قدرتم علي الإساءة إليه،كما يعفو عنكم ربكم مع

---

(١) الرازى، مفاتيح الغيب ج١١ ص ٣٣-٣٤.

(٢) ابن عطية، المحرر الوجيز، ج٣ ص ٥٠٩.

(٣) ابن عطية، المحرر الوجيز ج٤ ص١١٩.

(٤) الرازى، مفاتيح الغيب ج١١ ص ٧٣.

قدرته علي عقابكم، وأنتم تعصونه وتخالفون أمره."[1] ولكن الإسلام كما هي عادته يضع هذا الحق في وسطه الفاضل،فيقابله بالواجب الذى يصونه عن الإفراط كما حماه من التفريط. إنه يشترط أن يكون إبداء الرأى خيرا،فالله لا يحب الجهر بالسوء إلا لمن ظلم. فليس علي سبيل المثال إشارة الفاحشة رأي، ولا سب المخالف رأى، ولا إشاعة الهزيمة رأى.

واجب عفة القول:

ولكن الإسلام كما هي عادته يضع هذا الحق في وسطه الفاضل، فيقابله بالواجب الذي يصونه عن الظن السيء، والقذف الظالم، واقتحام الخصوصيات. إنه يشترط أن يكون إبداء الرأي خيرا.يقول تعالي: ﴿ **لا يُحِبُّ اللَّهُ الجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ القَوْلِ إلاَّ مَن ظُلِمَ وكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً (١٤٨)**﴾. ويعاقب الذي يتهم الناس بالباطل، ويشوه سمعة الأبرياء. فالظن السوء يؤدي إلي الصراع، والهمة الباطلة تؤدي إلي البوار. وقد رأينا من ذلك ما أقلق ذوي الضمائر الحرة والنفوس العفيفة من تشهير ورمي بالأقذار في الغرب بالحق والباطل، في الصحافة السوداء والإعلام القمئ، مما يؤدي إلي؟ إشاعة الفاحشة في المجتمع، ويقلق مضاجع الأبرياء ويعتدي علي الحرمات، ويعتبرون ذلك قمة الحضارة والتقدم.يقول تعالي ﴿**ومَن يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِد اللَّهَ غَفُوراً رَّحِيماً (١١٠)ومَن يَكْسِبْ إثْماً فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسه وكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً (١١١)ومَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وإثْماً مُّبِيناً (١١٢)**﴾

ولقد بينت السورة محاذير يجب اجتنابها، ولا يمكن ادعاء حرية الرأى فيها،منها تجريم إذاعة الشائعات وترويجها دون تثبت،يضر بالأمن القومي للأمة ضررا بليغا، ويثير الفتن والخلافات، ويؤدى إلي الصراعات والعداوات. وقد كان السبب في هذا التحريم " جماعة من ضعفة المسلمين كانوا إذا سمعوا شيئا من أمر المسلمين فيه أمن نحو ظفر المسلمين وقتل عدوهم أو فيه خوف نحو هزيمة المسلمين وقتلهم،أفشوه وهم يظنون أنه لاشيء عليهم في ذلك... والأولي ترك الإذاعة للأخبار حتي يكون النبي ﷺ هو الذى يذيعها أو يكون أولي الأمر منهم هم الذين يتولون ذلك... لأنهم يعلمون ما ينبغي أن يفشي وما ينبغي أن يكتم... وقيل أن هؤلاء الضعفة كانوا يسمعون إرجافات المنافقين علي المسلمين فيذيعونها فتحصل بذلك المفسدة."[2]

---

(١) الطبرى، حامع البيان ج٤ ص ٣٤٣.

(٢) الشوكاني، فتح القدير ج١ ص ٤٩١.

وفي ذلك قال الله تعالي: ﴿ **وإذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الخَوْفِ أَذَاعُوا به ولَوْ رَدُّوهُ إلَى الرَّسُولِ وإلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنهُمْ لَعَلِمَهُ الَذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنهُمْ ولَوْلا فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ ورَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إلاَّ قَلِيلاً (٨٣)**﴾.

ولقد اهتم هذا المقطع بتعرية صنف من الناس يعتبر عدوا لحرية التعبير،ألا وهم المنافقون.

ولعل أخطر مايئد حرية التعبير هو النفاق. والنفاق خصلة الضعفاء الذين يظهرون غير مايبطنون،فتنطق ألسنتهم بما ليس في قلوبهم، ومن هنا نرى ركوهم إلي الظالمين، وغمطهم الحق، وتسللهم بالتخريب والتشكيك. وهم لذلك أعداء حرية التعبير. يزيفون الحقائق، ويهدرون القيم، ويحيدون عن الاستقامة، ويمالئون الباطل.يقول تعالي: ﴿**إنَّ المُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وهُوَ خَادِعُهُمْ وإذَا قَامُوا إلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ ولا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إلاَّ قَلِيلاً (١٤٢) مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لا إلَى هَؤُلاءِ ولا إلَى هَؤُلاءِ ومَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً (١٤٣)**﴾

" قال ابن عباس: رخص للمظلوم أن يدعو علي من ظلمه، وإن صبر وغفر كان أفضل له، وصفة دعائه علي الظالم أن يقول: اللهم أعني عليه،اللهم استخرج حقي منه،اللهم حل بيني وبينه.

...وإذا كان الرجل مجاهرا بالظلم دعا عليه جهرا، ولم يكن له عرض محترم، ولابدن محترم، ولامال محترم."[1] يقول تعالي ﴿ **لا يُحِبُّ اللَّهُ الجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ القَوْلِ إلاَّ مَن ظُلِمَ وكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً (١٤٨)**﴾

(١) ابن العربي، أحكام القرآن ج١ ص ٥١٣.

حقوق الأمة وواجباتها
من سورة المائدة

حقوق الأمة وواجباها
من سورة المائدة

مقدمة

تتواكب الطيبات من الحلال مع أمن المجتمع وسلامه، ويتواكب مع الحرام العدوان وفقدان الأمان، ومن ثم تنبه السورة إلى وجود صلة قوية بين طهارة المطعم والمشرب والنكاح والجسم والروح، وسلوك الإنسان اجتماعيا، فإن كان مأكل الإنسان من الحلال الطيب تحقق السلام والبر، وإن حرص على الطهارة بنكاح المحصنات العفيفات صلحت الحياة وطابت، وإذا حرص على طهارة الجسم والروح بالوضوء والصلاة انتهى عن الفحشاء والمنكر والبغى. وإن تناول الخبائث وأكل السحت، ظهرت العداوة والبغضاء. فالخمر والقمار يوقع العداوة والبغضاء، ويصدان عن ذكر الله وعن الصلاة، وكذلك أكل الميتة والدم ولحم الختزير وما أهل لغير الله به، والسفاح واتخاذ الأخدان يدمر الحياة ويشقيها، وإذا حرم الإنسان من الوضوء والصلاة أسنت النفس وقست القلوب. ويحقق الإسلام هذا الواقع بصوت الضمير العام بالتقوى وسوط السلطان القائم على الزجر والردع.

الحدود والحقوق

يجب أن نعرف أن ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين، بل لاقيام للدين ولا للدنيا إلا به، فإن بنى آدم لا تتم مصلحتهم إلا بالإجتماع لحاجة بعضهم إلى بعض. ولابد لهم عند الاجتماع من رأس، حتى قال النبى (ﷺ): **(إذا خرج ثلاثة فى سفر فليؤمروا أحدهم)** [1].. فأوجب ﷺ تأمير الواحد فى الاجتماع القليل العارض فى السفر، تنبيها بذلك على سائر أنواع الاجتماع. ولأن الله تعالى أوجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ولايتم ذلك إلا بقوة وإمارة. وكذلك سائر ما أوجبه من الجهاد والعدل وإقامة الحج والجمع والأعياد ونصر المظلوم. وإقامة الحدود لاتتم إلا بالقوة والإمارة... " [2].

---

(١) صحيح الجامع الصغيرج ا، ص ١٤٨.

(٢) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج ٢٨، ص ٣٩٠.

وإن كان العالم الغربي اليوم يفخر بأنه مجتمع سيادة القانون، فإن الإسلام سبقهم بقرون فى تأكيد هذا المبدأ عنده تحت مسمى سيادة الشريعة. ولكن الفرق بين الغرب والإسلام أن القانون عندهم من وضع الإنسان، وهو ما يجعله مثقلا بقصور الإدراك الإنسانى. حيث لايعرف إلا القليل عن خبايا النفس الإنسانية. كما لا يعرف الكثير عن المؤثرات المهولة التى لا يستطيع قياسها فى الكون والحياة، والتى تؤثر بالتالى على الإنسان والمجتمعات. لهذا كانت قوانينه تتغير بإستمرار ويظهر قصورها بعد وقت قصير، وتثقل بالتالى بالتعديلات والاستثناءات. هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن الإنسان ضعيف أمام الهوى الذى يجعله يتحيز عند التشريع لنفسه أو لقومه أو لمصلحته. ولهذا تعانى الديمقراطيات الغربية، باعتراف الجميع، من استغلال مراكز القوى لأجهزة الحكم ومجالس التشريع، سواء كان بضغط المال من أرباب الأعمال أو بضغط القوة من جماعات الضغط، التى تستخدم حتى الاغتيال لتحقيق مصالحها. وهذه حقيقة لاينكرها اليوم أحد، إلا إذا كان غبيا أو متغابيا.

ولا يختلف المجتمع العلمانى الغربى المعاصر عن مجتمع الكنيسة فى العصر الوسيط فى ذلك. والفرق بين الاثنين أن الغرب يرد التشريع الوضعى عنده لمجالسه النيابية، والكنيسة كانت تشرع بهواها، تحل وتحرم بغير ما أنزل الله، وإن ادعت أنه من عند الله. فالحكومة الإسلامية ليست حكومة تشرع بهواها بدعوى السلطة الدينية أو الحكومة الإلهية، وإنما هى أمينة على تطبيق حكم الله ونائبة عن الأمة فى تحقيق مصالحها، ويجرى عليها حكم الله مثلها مثل كل المسلمين.

وحسب المجتمعات ما أصابها من مآسى لفقدانها ثوابت العدل الإلهى والطهارة الربانية،مما نراه فى فساد الحكام وطغيان الدول، ومما نشاهده من انهيار الأخلاق واندحار القيم. فافتقد الأمن الجماعى وضاعت العافية والطهارة.

ومن هنا يتميز الإسلام، حيث له ثوابت لا تتغير ولا تتعرض لعجز البشر أو تعصف بها أهواؤهم. هذه الثوابت التشريعية والأخلاقية التى لا تتغير مع تغير المجتمعات زمانا ومكانا، يمضى حكمها على الحاكم والمحكوم سواء. فضلا عن أن الإسلام يستقل التشريع فيه عن الدولة، فليس القانون تعبيرا عن إرادتها حيث الفصل العضوى بين الهيئة التى تتولى التشريع وبين الهيئات السياسية والنيابية، ويحكى لنا التاريخ الموثق كيف كان الرجل العادى يستطيع أن يقاضى رجل الدولة، ويقف أمام القاضى دون خوف أن يستغل سلطانه فى تعطيل سيادة التشريع. كما لا يجرؤ أحد فى ظل دولة إسلامية أن يأتى بتشريع يخالف حكم الله أو يعطله أو ينحرف به عن مراده، ولا يطيق أن يأمر الناس بمعصية الله دون أن يخالفوه أو أن يخرجوا عليه.

يقول رسول الله (ﷺ): (**السمع والطاعة حق على المرء المسلم فيما أحب أو كره، ما لم يؤمر بمعصية. فإذا أمر بمعصية فلا سمع عليه ولا طاعة**)[1].

هذه الثوابت التشريعية ليست أحكاما من سلطات ديكتاتورية، وليست أحكاما من مجالس كنسية، وليست أحكاما من مجالس شعبية. ولقد فشل أساطين القانون الدستورى المعاصرين فى تحقيقه. فلم يفلحوا فى استنباط مبادئ عامة تلتزم السلطة التى تصدر القوانين الوضعية بحدودها ولاتتخطاها، وإنما يعرف العالم اليوم فقط الازدواجية فى المعايير وفق مصالح جماعات الضغط أو طواغيت الحكام والدول. وقد رأينا ذلك بوضوح فى تحديد معايير حقوق الإنسان فى مقدمة سورة النساء.

والهدف من تحديد واجبات الجماعة قبل الأفراد وحقوقها عليهم، هو إقامة مجتمع مسلم لله، يسوده السلام والطهارة، ويتعاون أفراده على البر والتقوى، ويتناهون عن الإثم والعدوان، وهنا تتحقق النعمة ويسود الرضوان. وإذا ما تعدى المجتمع هذه الحدود تفشت الفتنة وعم الخسران حيث لا يتعاون الناس إلا على الإثم والعدوان.

وهذا هو مفترق الطرق بين مجتمعين، مجتمع البر والتقوى الذى يجعل القوامة لله فلا يحكم إلا بما أنزل الله ولا يوالى إلا المؤمنين، ومجتمع الإثم والعدوان الذى يشرع له البشر، فيتفشى فيه حكم الجاهلية وموالاة الكافرين.

ومن هنا تبين سورة المائدة الحلال فى الطعام والشراب والنكاح، ضمانا لطهارة المجتمع وتحقيقا للسلام والأمان بين جنباته. وتضع العقوبات على المخالفات سواء كانت كفارات أم حدودا، تحقيقا لمقاصد الشارع فى حفظ النفس والعقل والعرض والدين والمال.

وحتى لا يعتدى أحد على مال غيره أو نفسه أو عرضه شرعت الحدود لمعاقبة الحرابة أو السرقة أو القتل أو الزنا، والكفارات لمعاقبة المعاصى كالحنث فى الأيمان وقتل الصيد للمحرم واعتبر الله ذلك عقدا وميثاقا على الإنسان أن يوفيه.

والحكم بين الناس يكون فى الحدود والحقوق، وهما قسمان:

فالقسم الأول: الحدود والحقوق التى ليست لقوم معينين، بل منفعتها لمطلق المسلمين،أو نوع منهم. وكلهم محتاج إليها. وتسمى حدود الله، وحقوق الله: مثل حد قطاع الطريق والسراق والزناة ونحوهم. ومثل الحكم فى الأموال السلطانية، والوقوف والوصايا التى ليست لمعين. فهذه من أمور الولايات ولهذا قال على بن أبى طالب رضى الله عنه: لابد للناس من

(١) رواه البخارى ومسلم، صحيح الجامع الصغير، ج١، ص ٦٨٨.

إمارة: برة كانت أو فاجرة. فقيل: يا أمير المؤمنين هذه البرة قد عرفناها، فما بال الفاجرة؟ فقال: يقام بها الحدود، وتأمن بها السبل، ويجاهد بها العدو، ويقسم بها الفيء. وهذا القسم يجب على الولاة البحث عنه، وإقامته من غير دعوى أحد، وكذلك تقام الشهادة فيه من غير دعوى أحد.

وكثير مما يوجد من فساد أمور الناس، إنما هو لتعطيل الحد بمال أو جاه. وهذا من أكبر الأسباب التى هى فساد أهل البوادى والقرى والأمصار.. وهى سبب سقوط حرمة المتولى، وسقوط قدره من القلوب، وانحلال أمره، فإذا ارتشى وتبرطل على تعطيل حد، ضعفت نفسه أن يقيم حدا آخر، وصار من جنس اليهود الملعونين..

وهذا القسم الذى ذكرناه من الحكم فى حدود الله وحقوقه مقصوده الأكبر هو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر..

وأما المعاصى التى ليس فيها حد مقدر ولا كفارة، كالذى يأكل مالا يحل كالدم والميتة أو يخون الأمانة أو يغش فى المعاملة أو يرتشى فى حكمه أو يلبى داعى الجاهلية.. إلى غير ذلك من أنواع المحرمات: فهؤلاء يعاقبون تعزيرا وتبهيلا وتأديبا بقدر مايراه الوالى...

القسم الثانى: الحدود والحقوق التى لآدمى معين، فمنها النفوس.. والقصاص فى الجراح والقصاص فى الأعراض.. وإذا كانت الفرية ونحوها لا قصاص فيها، ففيها العقوبة..

ومن الحقوق الإبضاع، فالواجب الحكم بين الزوجين بما أمر الله تعالى به.. وأما الأموال فيجب الحكم بين الناس فيها بالعدل كما أمر الله ورسوله..

ولاغنى لولى الأمر عن المشاورة، فإن الله تعالى أمر بها نبيه ﷺ.. وقد أثنى الله على المؤمنين بذلك.. وإذا استشارهم، فإن بين له بعضهم مايجب اتباعه من كتاب الله أو سنة رسوله أو إجماع المسلمين، فعليه اتباع ذلك... وإن كان أمرا قد تنازع فيه المسلمون، فينبغى أن يستخرج كل منهم رأيه ووجه رأيه، فأى الآراء كانت أشبه بكتاب الله وسنة رسوله عمل بها[1].

والسورة على أساس هذه القاعدة تقيم المجتمع المسلم على الطهارة فى المطعم والمشرب والإحصان فى النكاح ويتناهى عن المنكر. بينما يتعاطى المجتمع الكافر الخبائث والسحت، ويتعود قومه على الفحشاء، ولايتناهون عن منكر فعلوه.

---

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوى ج ٢٨ ص ٣٧٢، ٣٨٢، ٣٨٦، ٣٨٧.

تبين السورة أن تحقيق الأمن والسلام في المجتمع يتوقف علي تمسكه بتعاطي الحلال من الطيبات في الأكل والشراب، والمحصنات في الزواج والنكاح. والضمان الوحيد لتحقيق هذا الهدف هو التزام حكم الله في تحديد الحلال والحرام. وواضح في السورة أن هذا التحديد يترتب عليه التزام من الحكام بإشاعة الحلال الطيب، واجتثاث الحرام الخبيث من المجتمع. ومن هنا تتحدد حقوق الدولة علي الناس في التعاون علي البر والتقوى والتزام بالسمع والطاعة، وتتحدد واجباتها في إشاعة الطهارة والطيبات وتحريم الخبائث،ثم إقامة الحدود والكفارات والقصاص.

ولقد كان الأساس العقيدى في سورة النساء يبين أن التحاكم إلي شرع الله حد بين الكفر والإيمان،فحدد بذلك مسؤولية المحكومين. وفي هذه السورة بيان بأن الحكم بما أنزل الله حد بين الكفر والإيمان،فحدد بذلك مسؤولية الحاكمين.

وقد رحم الله عباده بأن أنزل إليهم كتباً فيها منهج الهدي، وختم الوحي بالقرآن الكريم الذي انزل علي خاتم المرسلين، ليحكم بين الناس فيم اختلفوا فيه.

إن كتاب هذه الأمة هو كتاب الله الأخير للبشر، وهو يصدق مابين يديه من الكتاب في أصل الاعتقاد والتصور، ولكنه - بما أنه هو الكتاب الأخير - يهيمن علي كل ماسبقه وإليه تنتهي شرعة الله التي ارتضاها لعباده إلي يوم الدين،فما أقره من شرائع أهل الكتاب قبله فهو من شرع الله، وما نسخه فقد صفته هذه وإن كان واردا في كتاب من الكتب المترلة....

يقول تعالي: ﴿ **وأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الكِتَابِ ومُهَيْمِناً عَلَيْهِ**﴾ "وهذا خطاب من الله تعالي ذكره لنبيه محمد ﷺ: أنزلنا الكتاب الذى أنزلناه إليك،مصدقا للكتب قبله، وشهيدا عليها أنها حق من عند الله،أمينا عليها،حافظا لها.

وأصل الهيمنة الحفظ والارتقاب... أمينا وشاهدا علي الكتب التي خلت قبله.

قوله تعالي: ﴿ **فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ ولا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الحَقِّ**،..﴾.

وهذا أمر من الله تعالي ذكره لنبيه محمد ﷺ،أن يحكم بين المحتكمين إليه من أهل الكتاب وسائر أهل الملل بكتابه الذى أنزله إليه، وهو القرآن الذى خصه بشريعته... فإني أنزلت إليك القرآن مصدقا في ذلك مابين يديه من الكتب، ومهيمنا عليه رقيبا،يقضي علي ما قبله من سائر الكتب قبله، ولا تتبع أهواء هؤلاء اليهود، الذين يقولون:إن أوتيم الجلد في الزاني المحصن دون الرجم، وقتل الوضيع بالشريف إذا قتله، وترك قتل الشريف بالوضيع إذا قتله،فخذوه، وإن لم تؤتوه

فاحذروا،عن الذى جاءك من عند الله من الحق، وهو كتاب الله الذى أنزله إليك. يقول لـــه: اعمل بكتابي الذى أنزلته إليك إذا احتكموا إليك فاخترت الحكم عليه، ولا تتـــركن العمـــل بذلك اتباعا منك أهواءهم، وإيثارا لها علي الحق الذى أنزلت إليك في كتابي."[١]

قوله تعالي: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً ومِنْهَاجاً﴾، "يقول سبيلا وسنة، والسنن مختلفـــة هي في التوراة شريعة وفي الإنجيل شريعة وفي الفرقان شريعة. ويحل الله فيها مايـــشاء ويحـــرم مايشاء ليعلم من يطيعه ومن يعصبه. والدين الذى لا يقبل الله غيره هو التوحيد والإخلاص لله الذى جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام. وقيل المخاطب بهذه الآية هذه الأمة ومعناهـــا: لكل جعلنا القرآن منكم،أيتها الأمة،شرعة ومنهاجا،أى هو لكم كلكم تقتدون به. وحـــذف الضمير المنصوب في قوله:لكل جعلنا منكم، أى جعلنا: يعني القرآن،شرعة ومنهاجا،أى سبيلا إلي المقاصد الصحيحة، وسنة أى طريقا ومسلكا واضحا بينا."[٢]

قوله تعالي: ﴿ ولَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحدَةً ولَكن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْـــتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٤٨)﴾

" يقول تعالي ذكره: ولو شاء ربكم لجعل شرائعكم واحدة، و لم يجعل لكل أمـــة شـــريعة ومنهاجا،غير شرائع الأمم الأخرى ومناهجهم،فكنتم تكونون أمة واحدة لاتختلف شـــرائعكم ومناهجكم، ولكنه تعالي ذكره يعلم ذلك،فخالف بين شرائعكم ليختبركم،فيعـــرف المطيـــع منكم من العاصي، والعامل بما أمره في الكتاب الذى أنزله إلي نبيه ﷺ من المخالف.... فبادروا أيها الناس،إلي الصالحات من الأعمال والقرب إلي ربكم،بإدمان العمل بما في كتابكم الـــذى أنزله إلي نبيكم،فإنه إنما أنزله امتحانا لكم وابتلاء، ليتبين المحسن منكم مـــن المـــسئ،فيجازى جميعكم علي عمله جزاءه عند مصيركم إليه،فإن إليه مصيركم جميعا،فيخبر كل فريق منكم بما كان يخالف فيه الفرق الأخرى،فيفصل بينهم بفصل القضاء، وتبين المحق بمجازاته إياه بجناته،من المسئ بعقابه إياه في النار. فيتبين حينئذ كل حزب عيانا،المحق منهم من المبطل."[٣]

---

(١) الطبرى، جامع البيان ج٤ ص٦٠٦-٦٠٩.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ج٢ ص ٥٨٨ دار الفكر، طبعة ثانية ١٣٨٩هـــ.

(٣) الطبرى، جامع البيان ج٤ ص ٦١٢ -٦١٣.

تبين السورة العبر ة من تاريخ أهل الكتاب: فاليهود نقضوا ما أخذه الله عليهم من ميثاق علي الحكم بما أنزل الله. ثم تفصل ما ترتب علي ذلك من انحرافات وفساد وعدوان.

لذلك حرفوا الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به،فكانت الخيانة طبعهم إلا القليل منهم، وأشارت السورة إلي حادث تغييرهم لحكم رجم الزاني رعاية لكبرائهم.

فيصفهم تعالي بقوله: ﴿ **سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئاً وإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٤٢) وكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ومَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٣)**﴾

والنصارى أيضا نقضوا ميثاقهم ونسوا حظا مما ذكروا به،فكانت النتيجة أن عاشوا في صراع ملئ بالعداوة والبغضاء. والتاريخ القديم والحديث شاهد علي قسوة قلوب اليهود والصراع بين طوائف المسيحيين. وكان من أشد ألوان التحريف ونقض الميثاق أن قالوا بألوهية المسيح عليه السلام، وزعموا أنهم أبناء الله وأحبائه حتي يستبيحوا لأنفسهم المعصية.

يقول تعالي: ﴿**ومِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظّاً مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ والْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١٤)**﴾ والسورة تحدثنا عن عصيان اليهود رسلهم والخروج عن أمرهم،يقول تعالي علي لسان موسي عليه السلام: ﴿ **يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ولا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١) قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢)**﴾

ومن غرائب الأمور أن اليهود قالوا ما يقوله علماء الاقتصاد الغربيين اليوم أن الموارد في الكون شحيحة، وحقيقة الأمر أن نعم الله كثيرة، ولكن الانحراف عن حكم الله يحول النعمة إلي نقمة، والهدى إلي فتنة، تعم فيها العداوة والبغضاء، ولاتطفأ نار حرب حتي توقد أخرى.

يقول تعالي: ﴿ **وقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ ولُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ولَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَاناً وكُفْراً وأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ والْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ ويَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً واللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٦٤) ولَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا واتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ولأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٦٥) ولَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ**

والإنجيلَ ومَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُوا من فَوْقِهِمْ ومن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ (٦٦)﴾ وهكذا كان تاريخ أهل الكتاب يدور بين التفـريط في حق الله، والغلو في الدين،فضلوا الطريق وأضلوا العباد.

ونقضوا ميثاق البر والتقوى فحقت عليهم اللعنة علي لسان أنبيائهم داود وعيسي ابن مريم لما فعلوه من:

١- عصيان وعدوان.

٢- لم يتناهوا عن المنكر الذى استشرى فعله.

٣- تولي الكافرين من دون المؤمنين، ولو كانوا مؤمنين ماتخذوا أعداء الله أولياء.

ويقول تعالي: ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَـانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩) تَرَى كَثِيراً مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وفِي العَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (٨٠) ولَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ والنَّبِيِّ ومَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ ولَكِنَّ كَثِيراً مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٨١)﴾

موضوع السورة

تبدأ السورة بتحديد ميثاق البر والتقوى وهو عقد اتفاق على إقامة مجتمع يسوده السلام والطهارة، ويتعاون على البر والتقوى ويتناهى عن الإثم والعدوان.

العقد والميثاق:

يقول تعالي: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾

"والعقد هو وصل الشئ بالشئ علي سبيل الاستيثاق والإحكام، والعهد إلزام، والعقــد التزام علي سبيل الإحكام. ولما كان الإيمان عبارة عن معرفة الله تعالي بذاته وصفاته وأحكامه وأفعاله، وكان من جملة أحكامه أنه يجب علي جميع الخلق إظهار الانقياد لله تعالي في جميــع تكاليفه وأوامره ونواهيه،فكان هذا العقد أحد الأمور المعتبرة في تحقق ماهية الإيمان.... يعــني ياأيها الذين التزمتم بإيمانكم أنواع العقود والعهود في إظهار طاعة الله،أوفوا بتلك العقود."[١]

(١) الرازي، مفاتيح الغيب ج١١ ص٩٦٦.

"واعلم أن التكاليف وإن كثرت إلا أنها محصورة في نوعين: التعظيم لأمر الله، والشفقة علي خلق الله،فقوله: ﴿ **كونوا قوامين لله**﴾، إشارة إلي النوع الأول وهو التعظيم لأمر الله، ومعني القيام لله هو أن يقوم لله بالحق في كل مايلزمه القيام به من إظهار العبودية وتعظيم الربوبية. وقوله: ﴿ **شهداء بالقسط**﴾، إشارة إلي الشنقة علي خلق الله،يقول لاتحاب في شهادتك أهل ودك وقرابتك، ولا تمنع شهادتك أعداءك وأضدادك.

ثم قال تعالي: ﴿ **ولايجرمنكم شنآن قوم علي ألا تعدلوا**﴾، أى لا يحملنكم بغض قوم علي أن لاتعدلوا، وأراد أن لا تعدلوا فيهم لكنه حذف للعلم، والآية عامة، والمعني: لا يحملنكم بغض قوم علي أن تجوروا عليهم وتجاوزوا الحد فيهم،بل اعدلوا فيهم وإن أساءوا إليكم، وأحسنوا إليهم وإن بالغوا في إيحاشكم،فهذا خطاب عام، ومعناه أمر الله تعالي جميع الخلق بأن لا يعاملوا أحدا إلا علي سبيل العدل والإنصاف، وترك الميل والظلم والاعتساف

ثم قال تعالي﴿**اعدلوا هو أقرب للتقوى**﴾،فنهاهم أولا عن أن يحملهم البغضاء علي ترك العدل ثم استأنف فصرح لهم بالأمر بالعدل تأكيدا وتشديدا،ثم ذكر لهم علة الأمر بالعدل وهو قوله: ﴿ **هو أقرب للتقوى**﴾،... وفيه تنبيه علي وجوب العدل مع الكفار الذين هم أعداء الله تعالي، فما الظن بوجوبه مع المؤمنين الذين هم أولياؤه وأحباؤه.."[١]

تحقيق السلام والرخاء:

أول عقد يبينه الله في مطلع السورة هو عقد الأمان. فالله يهدى بكتابه من اتبع رضوانه سبل السلام، ومن هنا يربي القرآن الإنسان علي مراعاة الحرمات،في المكان والزمان،في قلب الأمة المسلمة ومعقد قبلتها،في البيت الحرام.فالبيت حرم، والأشهر الحرم،فلا يجوز له الصيد وهو محرم، ولا يحل له الهدى والقلائد حتي تبلغ محلها، وأن يراعي توفير أقصي حد من الأمان للقاصدين إلي الحج يبتغون فضلا من الله ورضوانا.

إنها منطقة الأمان يقيمها الله في بيته الحرام،كما يقيم فترة الأمان في الأشهر الحرم،منطقة يأمن فيها الناس والحيوان والطير والشجر أن ينالها الأذى، وأن يروعها العدوان. إنه السلام المطلق يرفرف علي هذا البيت،استجابة لدعوة إبراهيم – أبي هذه الأمة الكريم – ويرفرف علي الأرض كلها أربعة أشهر كاملة في العام – في ظل الإسلام – وهو سلام يتذوق القلب البشرى

---

(١) الرازى، مفاتيح الغيب ج١١ ص١٤٢، ١٤٣.

حلاوته وطمأنينته وأمنه، ليحرص عليه - بشروطه - وليحفظ عقد الله وميثاقه، وليحاول أن يطبقه في الحياة كلها على مدار العام، وفي كل مكان."[1]

يقول تعالى: ﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلاَئِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٩٧) اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩٨) مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٩٩)﴾

وتضيق الحياة والظلم والعدوان قرين الشرك والجاهلية. والحياة الطيبة تتحقق بالإيمان والخضوع لحكم الله.

يقول تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ (٦٦)﴾

" واعلم أنه تعالى لما بالغ في ذم أهل الكتاب وفي تهجين طريقتهم بين أنهم لو آمنوا واتقوا لوجدوا سعادات الآخرة والدنيا،أما سعادات الآخرة فهي محصورة في نوعين:

١- رفع العقاب.

٢- إيصال الثواب.

.. واعلم أنه تعالى لما بين في الآية الأولى أنهم لو أقاموا حكم الله لفازوا بسعادات الآخرة،بين في هذه الآية أيضا أنهم لو آمنوا لفازوا بسعادات الدنيا ووجدوا طيباتها وخيراتها....

.. ثم قال تعالى: ﴿ **منهم أمة مقتصدة**﴾، معنى الاقتصاد في اللغة الاعتدال في العمل من غير غلو ولا تقصير، وأصله القصد، وذلك لأن من عرف مطلوبه فإنه يكون قاصدا له على الطريق المستقيم من غير انحراف ولا اضطراب،أما من لم يعرف موضع مقصوده فإنه يكون متحيرا،تارة يذهب يمينا وأخرى يسارا،فلهذا السبب جعل الاقتصاد عبارة عن العمل المؤدى إلى الغرض. ثم في هذه الأمة المقتصدة قولان:

١- أن المراد منها الذين آمنوا من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام من اليهود والنجاشي من النصارى. فهم على القصد من دينهم، وعلى المنهج المستقيم منه. و لم يميلوا إلى طرفي الإفراط والتفريط.

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن ج٢ ص ٨٦٨.

٢- المراد منها الكفار من أهل الكتاب الذين يكونون عدولا في دينهم، ولايكون فيهم عناد شديد ولاغلظة كاملة... وكثير منهم ماأسوأ عملهم،فمنهم الأجلاف المذمومون المبغضون الذين لا يؤثر فيهم الدليل ولا ينجع فيهم القول."[١]

والخلاصة أنه في ظل حكم الله وطاعته تقوم الحضارة الصالحة علي أسس العمل الصالح إعمارا واستمتاعا. وفي ظله يتحقق الإنتاج الرشيد بتحريم أكل السحت والإثم والعدوان والإفساد في الأرض، ويتحقق الإشباع الرشيد بالطيبات من الرزق وبالمحصنات من النساء. وبإقامة الحدود ومنع الظلم والعدوان. فيسود الدنيا الرخاء، وينعم الناس بالأمن.

حق التعاون علي البر والتقوى:

نلحظ اليوم أن أى حكومة أو خطة لا يتيسر لها النجاح مالم يكن هناك تجاوب من الأمة معها. فإحساس الرأى العام بالانتماء والمسؤولية له جانب عظيم من الأهمية في تحقيق أهداف الأمة.

يتحدد حق الحكام علي الرعية حين يقومون بالحكم بما أنزل الله لتحقيق الأمن والسلام في ربوع البلاد أن تتعاون الرعية علي البر والتقوى، وأن تلتزم بالسمع والطاعة.

يقول تعالي: ﴿ **وتَعَاوَنُوا عَلَى البِرِّ والتَّقْوَى ولا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ والْعُدْوَانِ واتَّقُوا اللَّهَ إنَّ اللَّهَ شَدِيدُ العِقَابِ (٢)**﴾ "يعني جل ثناؤه: وليعن بعضكم،أيها المؤمنون،بعضا،علي البر، وهو العمل بما أمر الله بالعمل به. والتقوى، وهو اتقاء ماأمر الله باتقائه واجتنابه من معاصيه... ولايعن بعضكم بعضا علي الإثم: يعني علي ترك ما أمركم الله بفعله، والعدوان: يقول: ولا علي أن تتجاوزوا ما حد الله لكم في دينكم وفرض لكم في أنفسكم وفي غيركم... واحذروا الله،أيها المؤمنون،أن تلقوه في معادكم وقد اعتديتم حده فيما حد لكم، وخالفتم أمره فيما أمركم به،أو نهيه فيما نهاكم عنه،فتستوجبوا عقابه، وتستحقوا أليم عذابه. ثم وصف عقابه بالشدة فقال عز ذكره: إن الله شديد عقابه لمن عاقبه من خلقه، لأنها نار لا يطفأ حرها، ولا يخمد جمرها، ولا يسكن لهبها،نعوذ بالله منها ومن عملٍ يقربنا منها "[٢]

---

(١) الرازى، مفاتيح الغيب ج١١ ص ٣٩-٤١.

(٢) الطبرى، جامع البيان ج٤ ص ٤٠٥-٤٠٧.

حق السمع والطاعة:

يقول تعالي: ﴿ واذْكُرُوا نعْمَةَ اللّه عَلَيْكُمْ ومِيثَاقَهُ الَذي واثَقَكُم بِهِ إذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وأَطَعْنَا واتَّقُوا اللّهَ إنّ اللّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [سورة المائدة آية ٧]

فبينما قال اليهود لموسي عليه السلام سمعنا وعصينا، وعصوه حين أمرهم أن يدخلوا الأرض المقدسة،فإن سمات المسلمين تتضح في قولهم سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير.

اعلم أنه تعالي لما ذكر هذا التكليف أردفه بما يوجب عليهم القبول والانقياد، وذلك من وجهين:

١- كثرة نعمة الله عليهم... ومعلوم أن كثرة النعم توجب علي المنعم عليه الاشتغال بخدمة المنعم والانقياد لأوامره ونواهيه..ولم يقل نعم الله عليكم، لأنه ليس المقصود منه التأمل في أعداد نعم الله،بل المقصود منه التأمل في جنس نعم الله لأن هذا الجنس جنس لايقدر غير الله عليه،فمن الذى يقدر علي إعطاء نعمة الحياة والصحة والعقل والهداية والصون عن الآفات، والإيصال إلي جميع الخيرات في الدنيا والآخرة، فجنس نعمة الله جنس لا يقدر عليه غير الله... فكيف يعقل نسيانها مع أنها متواترة متوالية علينا في جميع الساعات والأوقات....

٢- السبب الثاني من الأسباب التي توجب عليهم كونهم منقادين لتكاليف الله تعالي: هو الميثاق الذى أوثقهم به...ثم حذرهم من نقض تلك العهود والمواثيق... فالله يعلم بذلك وكفي به مجازيا..

واجب إباحة الطيبات وتحريم الخبائث:

تتواكب الطيبات من الحلال مع أمن المجتمع وسلامه، ويتواكب مع الحرام العدوان وفقدان الأمان، ومن ثم تنبه السورة إلى وجود صلة قوية بين طهارة المطعم والمشرب والنكاح والجسم والروح، وسلوك الإنسان اجتماعيا، فإن كان مأكل الإنسان من الحلال الطيب تحقق السلام والبر، وإن حرص على الطهارة بنكاح المحصنات العفيفات صلحت الحياة وطابت، وإذا حرص على طهارة الجسم والروح بالوضوء والصلاة انتهى عن الفحشاء والمنكر والبغى. وإن تناول الخبائث وأكل السحت، ظهرت العداوة والبغضاء. فالخمر والقمار يوقع العداوة والبغضاء، ويصدان عن ذكر الله وعن الصلاة، وكذلك أكل الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به، والسفاح واتخاذ الأخدان يدمر الحياة ويشقيها، وإذا حرم الإنسان من الوضوء والصلاة أسنت النفس وقست القلوب. ويحقق الإسلام هذا الواقع بصوت الضمير العام بالتقوى وسوط السلطان القائم على الزجر والردع.

فعند تأسيس قواعد الأمن والسلام،يؤسس الله تعالي قواعد الطهارة والطيبات،طهارة الظاهر في أمور الطعام والشراب والزواج والنكاح، وطهارة الباطن في نية العبادة لله في كل طعام وشراب، وتحريم ما أهل به لغير الله، وماذبح للأوثان، وما نجم عن الميسر كالاستقسام بالأزلام.وطهارة الظاهر والباطن في الوضوء والاغتسال فإن لم يتيسر الماء فالتيمم بالصعيد الطيب.

يقول تعالي: **﴿ يَا أَيُّهَا الَذينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَات مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ ولا تَعْتَدُوا إنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ المُعْتَدِينَ (٨٧) وكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً واتَّقُوا اللَّهَ الَذي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ (٨٨)﴾**

"روى أنه ﷺ وصف يوم القيامة لأصحابه في بيت عثمان بن مظعون وبالغ وأشبع الكلام في الإنذار والتحذير،فعزموا علي أن يرفضوا الدنيا ويحرموا علي أنفسهم المطاعم الطيبة والمشارب اللذيذة، وأن يصوموا النهار ويقوموا الليل، وأن لايناموا علي الفرش، ويخصوا أنفسهم ويلبسوا المسوح ويسيحوا في الأرض.

عن أنس رضي الله عنه قال: جاء ثلاثة رهط إلي بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ،فلما أخبروا كأنهم تقالوها وقالوا: أين نحن من النبي وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. قال أحدهم: أما أنا فأصلي الليل أبدا، وقال آخر: وأنا أصوم الدهر أبدا ولا أفطر، وقال آخر: وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا. فجاء رسول الله ﷺ فقال: **أنتم الذين قلتم كذا وكذا.. أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، ولكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد وأتزوج النساء،فمن رغب عن سنتي فليس مني.**"[١]

وهنا يشجب الرهبانية وتحريم الطيبات، وفي نفس الوقت يبيح تعالي الصيد ماعدا صيد البر للمحرم، وفي شجب تحريم مالم ينزل الله به سلطانا من بحيرة وسائبة ووصيلة وحام،حيث التحريم عدوان علي سلطان الله.

والخبائث تفسد النفس وتهدم المجتمع، وتهدد السلام والأمن الاجتماعى. وفى مطلع السورة ذكر الله الحلال من الأنعام، فحرم الميتة والدم ولحم الخنزير فى الجانب الحسى، وحرم ما ذبح لغير الله فى الجانب المعنوى. ثم ذكر الحلال في النكاح من المسلمات ومن أهل الكتاب، وفى نهاية السورة ذكر الحلال من صيد البر والبحر وتحريم الخمر والميسر والأنصاب والأزلام. وبين

---

(١) البخارى ج٣ص ٢٣٧.

ما فيها من إيقاع العداوة والبغضاء في صفوف المؤمنين والصد عن ذكر الله. كما حرم صـــيد البر للمحرم والهدى والقلائد، التي ما أنزل الله بها من سلطان.

يقول تعالي: ﴿ قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠٠)﴾

وفي مطلع السورة كان البيان القرآني بالحل المطلق للطيبات التي لم يحرمها الله. وفي آخــر السورة النهي المطلق عن تحريم أى من هذه الطيبات التي أحلها الله.

وبينما كان البدء نهي عن حل شعائر الله والشهر الحرام والهدى والقلائد ولا آمين البيــت الحرام،كان الختام في مشيئة الله أن يجعل البيت الحرام قياما للناس والـــشهر الحـــرام والهـــدى والقلائد.

والبدء كان بشارة المؤمنين بكمال النعمة وتمام الإسلام ويـــأس الكـــافرين مـــن ديـــن الإسلام،كان الختام ببشارة أنه لن يضر الضالون المؤمنين إذا اهتدوا.

واجب إقامة الحدود:

الحدود: الحواجز، والحد: المنع.

فالحدود هي العقوبات المقدرة التي تكون الجريمة فيها اعتداء علي حقوق الله تعـــالي أى حقوق المجتمع، ويكون فيها انتهاك لحمي الفضيلة،التي أوجب الشارع الإسلامي حمايتها...

" إن جلب المنفعة ودفع المضرة مقاصد الخلق، وصلاح الخلق في تحصيل مقاصدهم، لكنـــا نعني بالمصلحة المحافظة علي مقصود الشرع، و مقصود الشرع من الخلق خمسة: هو أن يحفظ عليهم دينهم وأنفسهم وعقلهم ونسلهم ومالهم. فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة، وكل ما يفوت هذه الأصول فهو مفسدة، ودفعها مصلحة. وهـــذه الأصـــول حفظها واقع في مرتبة الضرورة فهي أقوى المراتب في المصالح. ومثاله قضاء الـــشارع بقتـــل الكافر المضل وعقوبة المبتدع الداعي إلي بدعته،فإن هذا يفوت علي الخلق دينـــهم. وقـــضاؤه بإيجاب القصاص،إذ به حفظ النفوس. وإيجاب حد الشرب إذ به حفظ العقول التي هي ملاك التكليف. وايجاب حد الزني إذ به حفظ الأنساب. وإيجاب زجر النصاب والسراق إذ به حفظ الأموال التي بها معايش الناس وهم مضطرون إليها. وتحريم تفويت هذه الأمور الخمسة والزجر

عنها يستحيل ألا تشتمل عليه ملة من الملل، وشريعة من الشرائع التي أريد بها إصلاح الخلـــق. ولذا لم تختلف الشرائع في تحريم الكفر والقتل والزني والسرقة وشرب السكر."[1]

"عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه كنا في مجلس عند النبي ﷺ فقال: **بايعوني علـــي أن لاتشركوا بالله شيئا ولاتسرقوا ولاتزنوا... فمن وفي منكم فأجره علي الله، ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب به فهو كفارته، ومن أصاب من ذلك شيئا فستره الله عليه،إن شاء غفر له وإن شاء عذبه.**"[2]

وحتي يحمي القرآن هذه الحقوق ويضمن احترام الواجبات شرعت العقوبات لمن يتجـــاوز الحد، وكلف الحاكم بإقامة هذه الحدود. فشرع القصاص في القتل، وعقوبة الحرابة وعقوبـــة السرقة في هذا المقطع،أما حد الاعتداء علي الأعراض بالزنا أو القذف فأشير إليـــه في المقطـــع التالي في كتمان اليهود لحكم الرجم في التوراة وأجل التفصيل إلي مناسبة تتصل بقيم الأخلاق في علاقات المسلمين في سورة النور.وأشير إلي حد الردة في المقطع التالي وربط بمفهوم الولاية لغير الله، وأشير إلي حد السكر بعده.

وحدود الله التي تقيمها الدولة بسلطالها هي الملجأ الأخير لتحقيق دولة الطهارة والأمان،إذا لم تسعف التربية علي رعاية حقوق الله واليوم الآخر في نفس يـــسول لهـــا الـــشيطان الإثم والعدوان.

ومن هذه الحدود ما يحقق الأمن علي النفس والمال وهي: حد الحرابة وحد السرقة وحـــد الردة، ومنها ما يضمن تحقيق الطهارة وهي: حد الزنا وحد الخمر.

إن المسلمين حين أقاموا هذه الحدود كونوا خير أمة أخرجت للناس،يأمن الإنسان فيهـــا علي دينه ونفسه وعقله وعرضه وماله. وكانت المساواة قائمة لا فضل لشريف علي وضيع ولا لغني علي فقير ولا قريب علي بعيد،الكل أمام شرع الله سواء.

ويوم أن فرطت الأمة في حدود الله،أصبح الطعن في الدين من الملحدين ثقافـــة وفكـــرا، وأصبح الإجرام متفشيا ومتزايدا، وسرق الشريف قبل الفقير فاختلس أموال الدولة وتـــاجر في ضروراهما، ولا يمر وقت إلا ونسمع عن اغتصاب وهتك عرض وما خفي كان أعظم، وأصبح الزنا أمرا عاديا تحت شعار حرية المرأة ومساواتها بالرجل. أما تهديد أمن المجتمع قتلا ونهبا فلا تخلو منه دولة من الدول. كل ذلك نتيجة الجـــرى وراء حكـــم الجاهليـــة باســـم المدنيـــة والحضارة،دون اعتبار لما أصابهم من أمراض مستعصية وأسرة مفككـــة وتنـــاقص في النـــسل

---

(١) الغزالي، المستصفي ج١دار الكتب العلمية سنه ١٣٢٢ ص ٢٨٧ ,٢٨٨.

(٢) صحيح البخاري ج٨ ص١٩٨.

وضياع للمثل ملأ المجتمع بالمرضى النفسيين والمجانين، وضياع للصحة والموارد بالسكر والإدمان.

والإسلام يعتمد في محاربة الجريمة علي سوط السلطان، ولكنه في الدرجة الأولي يعتمد علي صوت الضمير. وحدود الله التي تقيمها الدولة بسلطانها هي الملجأ الأخير لتحقيق دولة الطهارة والأمان،إذا لم تسعف التربية علي رعاية حقوق الله واليوم الآخر في نفس يسول لها الشيطان الإثم والعدوان.

وقد ذكر بالسورة حدودا وحددت عقوبتها وحدودا أخرى أشارت إليها، وحددت السنة عقوبتها. وهذه الحدود التي ذكرت هي:

١- حد الحرابة:

أجمع جمهور الفقهاء علي أن جرائم الحرابة هي سلب الأموال وقتل الأنفس،فهما جريمتا الحرابة يرتكبوهما مجتمعتين أو منفردتين،متعاونين علي الإثم والعدوان...والفرق بين القتل هنا، والقتل قصاصا أن هذا حد لا يحتاج إلي دعوى، ولا يقبل العفو. كما أن الفرق بين السلب هنا والسرقة أن السرقة تكون في خفاء، وهذا يكون جهرا، وأن السرقة هنالك توجب قطع يد واحدة، وهذا يوجب قطع الأيدى والأرجل من خلاف.

يقول تعالي: **﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٣)﴾**

" قال مالك: المحارب الذى يقطع السبيل وينفر بالناس في كل مكان. ويظهر الفساد في الأرض، وإن لم يقتل أحدا،إذا ظهر عليه يقتل، وإن لم يقتل فللإمام أن يرى فيه رأيه بالقتل أو الصلب أو القطع أو النفي.."[1]

قوله تعالي: **﴿ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٤)﴾**. "إن التوبة في أصل معناه الديني تتضمن حقائق ثلاث:

١- الندم علي الذنب.

٢- إنهاؤه وعدم الاستمرار عليه.

٣- العزم علي ألا يعود إليه.

---

(١) ابن العربي، أحكام القرآن ج١ ص٥٩٦-٥٩٨.

وفسر الفقهاء التوبة بالظاهر المادى،من غير تعرض للباطن النفسي، والظاهر المادى يتكون من عنصرين:

١- أن يستسلموا ويقدموا الطاعة وهم قادرون علي الاستمرار في إثمهم،فإنه لا محل للتوبة إلا إذا كانت قبل القدرة عليهم.

٢- أن يؤمنوا الناس ويتركوا المكان الذى يباشرون فيه الجريمة.

والتوبة تكون في حالين:

١- أن يتوبوا قبل أن يرتكبوا أى جريمة غير مجرد الحرابة،فلم يقتلوا و لم يسلبوا مـــالا، و لم يزنوا، و لم يشربوا خمرا،أو يقيموا أماكن لها،بل عادوا إلي الحق قبل أن تسلط عليهم ســيوفه. وهؤلاء لاعقوبة، لأنهم قد عدلوا عن الجريمة و لم يتموها، ومن هم بسيئة فلم يفعلها لم يكتب عليه شئ.

٢- أن يتوبوا بعد أن ارتكبوا جرائم، وهذا فيه تفصيل،فإن كان مـــا ارتكبـــوه يوجـــب قصاصا إذا ارتكب منفردا من غير حرابة لجرائم القتل وقطع الأطراف،فإن القصاص لا يسقط إذا طلبه ولي الدم إلا أن يعفوا. وإذا ارتكبوا ما يوجب حدا وهو السرقة،فالأكثرون علـــي أن حد السرقة يسقط. ولكن يجب رد المال، لأن رد المال من حقوق العباد، والتوبة لا تـــسقط حقوق العباد."[1]

٢- حد السرقة:

يقول تعالي:

﴿ والسَّارِقُ والسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ واللَّــهُ عَزِيـــزٌ حَكِيمٌ (٣٨) فَمَن تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُـــورٌ رَّحِـــيمٌ (٣٩) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ واللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٠)﴾

وقد ثبت حد السرقة بالكتاب والسنة والإجماع.

ويشترط في إجراء حد السرقة:

١- النصاب لقوله ﷺ:**(تقطع يد السارق في ربع دينار وصاعدا)**

---

(١) أبوزهرة، نظرة إلي العقوبة في الإسلام ص ٢١٧، ٢١٨.

٢- الحرز: وهو المكان الذى يحفظ فيه فالقطع فيه بعد الإخراج،أو الحافظ الذى يكـون عند ماله والقطع فيه بمجرد الأخذ.

٣- المكلف: وهو العاقل البالغ.لقوله ﷺ:(**رفع القلم عن ثلاثة: عن النائم حتي يستيقظ وعن الصبي حتي يشب وعن المعتوه حتي يعقل.**)[1]

ولا يكون قطع إلا فيما يتفق الفقهاء علي وجوب القطع فيه صيانة للناس من التشويه مـا أمكن، وللبعد عن شبهة اختلاف المذاهب، ولكي يكون مستحقا للقطع استحقاقا لا مجـال للريب فيه قط، ولو كان خلاف في موضوع السرقة - ولو بقول مرجوح - لا نرى وجوب القطع، لأنه إذا كان عدم القطع قد وسعه صاحب هذا الرأى،فإنه يسعنا ماوسعه.

ولو أننا أحصينا من يستحق القطع في أمر اتفق عليه الفقهاء، لوجدنا يدا واحدة تقطع في عشرة آلاف يد سارقة،أو آخذة للمال بغير حق.

وإننا لو أحصينا السرقات التي يقتل في سببها الأبرياء، لوجدنا النسبة بين السارقين واحدا في كل مائة. فهل يشفق القانونيون والاجتماعيون علي يد خائنة في عشرة آلاف من المغتصبين والسارقين، ولايشفقون علي الأبرياء الذين تغتال نفوسهم من السارقين في سبيل سرقتهم؟ إن هذا منطق غريب، ولكن الذى أدى إليه أن العقول شاه إدراكها بالمنطق الأوروبي،فبعدت عن منطق الإسلام الصحيح الذى يحمي مكارم الأخلاق.

" إن المجتمع المسلم يوفر لأهل دار الإسلام - علي اختلاف عقائدهم - ما يدفع خـاطر السرقة عن كل نفس سوية.

ومن تاب من السرقة فندم علي مامضي، وأقلع في المستأنف، ، وأصلح أيـضا في سـائر أعماله، وارتفع إلي فوق، فإن الله يتوب عليه، ويذهب عنه حكم السرقة فيما بينه وبـين الله تعالي، وهو في المشيئة مرجو له الوعد، وليس تسقط عنه التوبة حكم الدنيا مـن القطـع إن اعترف أو شهد عليه....."[2]

٣- حد الزنا:

هذا الحد اكتفي فيه في هذه السورة،حين ذم اليهود لتحايلهم علي شرع الله في حد الرجم رعاية لوجهائهم الذين انتشر فيهم هذا الداء، وترك تفصيل الحد مع حد القـذف للحـديث المفصل عنه في سورة النور.

---

(١) الألباني، صحيح الجامع الصغير ج ١ ص ٦٥٩ رواه الترمذى .

(٢) ابن عطية، المحرر الوجيز ج٤ ص ٤٣٩.

ثبتت عقوبة الرجم بالأحاديث الصحيحة علي الزاني المحصن أوالزانية المحصنة، وشروط الإحصان الحرية والبلوغ والعقل والدخول في زواج صحيح.

عن البراء بن عازب قال مر علي النبي ﷺ بيهودى محمما مجلودا فدعاهم ﷺ فقال: **هكذا تجدون حد الزني في كتابكم ؟** قالوا: نعم. فدعا رجلا من علمائهم فقال: **أنشدك بالله الذى أنزل التوراة علي موسي،أهكذا تجدون حد الزني في كتابكم ؟** قال: لا، ولولا أنك نشدتني بهذا لم أخبرك،نجده الرجم، ولكنه كثر في أشرافنا فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد. قلنا تعالوا فلنجتمع علي شئ نقيمه،علي الشريف والوضيع،فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم. فقال رسول الله ﷺ: **الله إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه فأمر به فرجم.**

فأنزل الله تعالي:(**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الكُفْرِ**..إلي قوله: **إنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ**). وتثبت جريمة الزنا بأمرين:

- شهادة أربعة رجال عدول برؤية الجاني متلبسا تلبسا كاملا بجريمة الزنا.
- الاقرار بشرط أن يكون بالغا عاقلا، ولا يشترط الإسلام.."[1]

٤- حد الردة

قوله تعالي: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ﴾

الإسلام لا يكره الناس علي الدخول فيه، ولكنه لا يرضي أن يكون الدين الحق ملعبة في يد البعض يعتنقه اليوم، ويرجع عنه فيما بعد. وقديما لجأ بعض أهل الديانات الأخرى كاليهود إلي مكيدة خبيثة،فقد كانوا يأمرون أتباعهم أن يؤمنوا بالنبي ﷺ في أول النهار والرجوع عنه في آخره،كي يقول من لا يعلم: مارجع هؤلاء عن الإسلام بعد الدخول فيه إلا لأمر ظهر لهم وخفي علينا.

ثم إن كثيرا من الدول المعاصرة المتحضرة تعتبر الخارج عن الجماعة أو الطاعن في نظام الدولة الاجتماعي أو السياسي مستحق لأشد العقاب من نفي أو سجن،بل وإعدام.وتعتبره خائنا لوطنه.

والمرتد عن الإسلام بغير حجة وبينة إنما هو خارج عن الجماعة الإسلامية، ومعوق عن الإيمان، وساع بالفساد في الأرض، ومقوض لوحدة المسلمين، ومشكك في دينهم الحق،الذى

---

(١) أبو شهبة، الحدود في الإسلام ص ١٤٣ الي ١٤٥.

يقوم عليه نظامهم العقدي والسلوكي والاجتماعي والأخلاقي والسياسي... وكل واحد من هذه المفاسد كافية في الحكم عليه بالقتل، وإراحة المجتمع منه،فما بالك بهذه كلها.

ولو أن رجلا في دولة،حتى الدولة العلمانية،خرج علي نظام الدولة ودستورها واستهزأ به، وانضم إلي أعدائها ووالاهم،كنتاج طبيعي لحالة الفصام بينه وبين قومه،مما يهدد الأمن القومي للمجتمع ويكشف عوراته ويفشي أسراره،فإنه يتهم بالخيانة العظمي ولا يكون له جزاء إلا الموت.فلماذا يرضون لأنفسهم هذا وينكرون علي الإسلام ؟ [1]

والمرتد هو من خرج عن الإسلام بعد أن كان فيه، وسمي مرتدا لأنه ارتد إلي الوراء حيث الضلال بعد الهداية والرشد، ولا يوجد أحد ذاق بشاشة الإسلام وخرج منه، وإن خرج فذلك دليل أنه لم يكن من المهتدين بهدى الإسلام.

"والإيمان بالقلب والإسلام مظهره،فمن خرج عن الإيمان،فلا بد من مظاهر تدل علي ذلك، ولابد أن تكون هذه المظاهر قاطعة في الدلالة علي الخروج عن الإسلام، لأن العقوبة التي تترتب عليه شديدة قاسية.

ولذلك اتفق العلماء علي أنه لا يفتي بردة مسلم إذا فعل فعلا أو قال قولا يحتمل الكفر ويحتمل غيره. بل روى عن الإمام مالك: أنه قال إذا تكلم المسلم بكلمة تحتمل الكفر من مائة وجه، وتحتمل الإيمان من وجه فإنه لا يحكم بالكفر. وقد قالوا: إن من المظاهر الدالة علي الكفر قطعا مايأتي:-

١- سب النبي ﷺ،فإن الله تعالي أمرنا بأن نصلي عليه ونسلم،فقال: ﴿صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾.

٢- إنكار المحرمات الثابتة بدليل قطعي لا شبهة فيه،كمن ينكر تحريم أكل الخنزير وتحريم شرب الخمر التي لا خلاف بين المسلمين في أنها خمر.

٣- إنكار معلوم من الدين بالضرورة،كإنكار الصلوات الخمس،أو إنكار عدد ركعاتها.

٥- جحود الفرائض التي ثبتت بدليل قطعي كالزكاة والصوم والصلاة والحج.

وفي الخلاصة: لا نكفر مسلما أقر بالشهادتين وعمل بمقتضاهما،بمعصية أو رأى،إلا أن يجحد معلوما من الدين بالضرورة أو يعمل عملا لا يحتمل تأويلا إلا الكفر.

---

(١) محمد محمد أبو شهبة، الحدود في الإسلام ص٣٢٢-٣٢٥.

وحد الردة ثابت بالأحاديث النبوية. قال ﷺ:**(من بدل دينه فاقتلوه).**[1] وقال:**(لايحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتـارك لدينـه المفـارق للجماعة.)**[2]

وقد ثبت أن أبا بكر الصديق قاتل المرتدين، وقتل منهم من قتل، وقد وافقه كل الصحابة وعاونوه في القتال،فكان ذلك إجماعا.

" وقد قرر جمهور الفقهاء أن المرتد يستتاب قبل العقوبة،سواء أكان ذكرا أم كان أنثـي. والحجة أنه ورد عن النبي ﷺ أنه أمر بالاستتابة...

٥ – حد السكر

يقول تعالي:**﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ(٩١)﴾.**

يقول رسول الله ﷺ:

***(كل شراب أسكر فهو حرام).**

***(من شرب الخمر في الدنيا ثم لم يتب منها حرمها في الآخرة).**

***(من أشراط الساعة أن يظهر الجهل، ويقل العلم، ويظهر الزنا، وتشرب الخمر، ويقل الرجال، ويكثر النساء،حتي يكون لخمسين امرأة قيمهن رجل واحد).**

***(لايزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولايشرب الخمر حين يـشربها وهـو مـؤمن، ولايسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن).**[3]

***(ماأسكر كثيره فقليله حرام).**[4]

---

(١) رواه البخاري وأبوداود، صحيح الجامع الصغير للسيوطي، تحقيق الألباني ج٢ ص١٠٥٤.

(٢) متفق عليه، نفس المصدر ج٢ ص ١٢٦٥.

(٣) البخاري ج٧ ص ١٣٥،١٣٦.

(٤) الألباني، صحيح سنن النسائي ج٣ ص١١٣٧.

" في اشتقاق لفظ الخمر وجهان:

١- سميت خمرا لأنها خامرت العقل،أى خالطته فسترته.

٢- تركت فاختمرت،أى تغير ريحها.

والميسر هو قمارهم في الجزور، والأنصاب هي آلهتهم التي نصبوها يدونها والأزلام سهام مكتوب عليها خير وشر.

ولقد أجمع المسلمون علي تحريم شراب الخمر، وأجمعوا علي وجوب الحد علي شاربها سواء شرب قليلا أم كثيرا.

* أن رسول الله ﷺ أتي برجل قد شرب الخمر فجلده بجريدتين نحو أربعين. قال: وفعله أبو بكر، ولما كان عمر ودنا الناس من الريف والقرى قال: ماترون في جلد الخمر؟ فقال عبد الرحمن بن عوف: أرى أن تجعلها كأخف الحدود،قال: فجلد عمر ثمانين.(١)

القصاص:

يقول تعالي: ﴿ وكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بالنَّفْسِ والْعَيْنَ بالْعَيْنِ والأَنفَ بالأَنف والأُذُنَ بالأُذُن والسِّنَّ بالسِّنِّ والْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ ومَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٤٥)﴾

من العلماء من يعتبر القصاص من الحدود،رغم أن القصاص عند جمهور العلماء من حقوق العباد يجوز لولي الدم أن يتنازل عنه،حيث لا يشترطون في الحد إلا كونه عقوبة مقدرة من الشارع سواء أكانت الجناية تتعلق بحقوق العباد أم بحقوق الله.

القصاص في أصل معناه اللغوى: المساواة بإطلاق ومعناه في اصطلاح الفقهاء: المساواة بين الجريمة والعقوبة، وهو عقوبة مقدرة ثبتت بالقرآن والسنة.

وقد بين الله تعالي أن القصاص شريعة النبيين أجمعين، وهنا في هذه السورة ذكر سبحانه بيان ماجاء في التوراة من أحكام القصاص. " والله تعالي كتب فرضا علي بني إسرائيل أنه من قتل نفسا فيجب في ذلك أخذ نفسه. ثم هذه الأعضاء المذكورة كذلك،ثم استمر هذا الحكم في هذه الأمة بما علم من شرع النبي ﷺ وأحكامه. ومضي عليه إجماع الناس... وفي هذه الآية بيان لفساد فعل بني إسرائيل في تعزز بعضهم علي بعض، وكون بني النضير علي الضّعف في

(١) صحيح مسلم ج٢ ص ٥٦.

الدية من بني قريظة،أو علي ألا يقاد بينهم. بل يقنع بالدية. ففضحه الله بهذه الآية، وأعلم أنهم خالفوا كتابهم."[1]

فالجزاء من جنس العمل، وبذلك تتحقق العدالة. ولا يصح أن تكون العقوبة أقل من الجريمة، لأن ذلك يكون رأفة بالجاني، والرأفة به ظلم. وبذلك تكون العقوبة رادعة مانعة، لأن المجرم إذا علم أنه إن قتل يقتل أحجم، ولا يكون كذلك إذا ظن أنه يفلت بأي وجه من الوجوه. وأي إهمال لحق المجني عليه وأهله يشيع جرائم الثأر والانتقام دون ضابط مما يؤدي إلي الفوضي وانتشار الظلم.

" ومن المقررات الشرعية أنه لا يطل دم في الإسلام،فلا تذهب جريمة قتل من غير عقوبة،أو بالأحرى من غير أن يقتص من الجاني أو تعوض أسرة المجني عليه. فالدية أمر ثابت مقرر لورثة كل من يقتل ولا يمكن القصاص من القاتل،إما لعدم توافر شروط القصاص، وإما لعدم معرفة الجاني. والدية تجب علي الجاني أو عصبته فإن عجزا فبيت المال... فالدولة مسؤولة عن تقصير آحادها، ولأنه لا يطل دم في الإسلام يقرر فقه القرآن والسنة أنه لا يصح أن يقال: إن الجناية تقيد ضد مجهول،أو تحفظ لعدم معرفة الجاني،فيذهب الدم هدرا..

إن علي قاضي الحسبة أو والي الحسبة أن يتحروا ويبحثوا حتي يصلوا، وإن عجزوا كانت القسامة، وهي علي أظهر الأقوال في الفقه الإسلامي: أن يحلف خمسون من أهل القرية التي حدث فيها القتل،أو أهل الحي الذى كان فيه،أنهم ماقتلوه ولا يعرفون له قاتلا،فيحلف كل واحد علي ذلك، ويشترط أن يكونوا عدولا. وإنه غالبا بعد حلف هذه الأيمان المغلظة أن يعرف القاتل،فإنه لا يحدث غالبا قتل في قرية أو حي إلا إذا كان القاتل معلوما لبعضهم... فإن حلف أولئك الذين طلبت إليهم هذه الأيمان،كان لابد من الدية. إما أن تفرض علي أهل القرية، وإما أن تفرض علي الدولة في بيت مال المسلمين، وإن هذا يدل علي ثلاثة أمور:

١- التعاون بين المسلمين في إظهار المجرمين، وحماية الآمنين،فالتعاون كما هو مطلوب لجلب المنفعة،هو مطلوب أيضا لدفع المضرة، وحماية الدماء.

٢- احترام دم الإنسان سواء أكان مسلما أم غير مسلم،فإنه لا يذهب دم شخص مستظل براية الإسلام هدرا قط.

٣- أنه يشير إلي مسئولية الدولة عن الدماء والأمن، وأنها إن قصرت في حماية الآمنين حتي تعرضوا للقتل كان عليها أن تتعرف وتتحرى وتبحث،فإن لم يمكن المعرفة لم تلق عنها

---

(١) ابن عطية، المحرر الوجيز ج ٤ ص ٤٦١-٤٦٢.

التبعة،بل تتحمل الدية كفاء مالها من حقوق، لأنه لا يقتل إلا بتقصير من الدولة فعليها تبعة التقصير بدفع الدية، ولو كان المقتول ذميا.

الكفارات:

ونوع آخر من العقوبات فرضها الله علي ارتكاب الحرام، وهي الكفارات.

يقول تعالي:

﴿لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٨٩)﴾

قوله تعالي: **﴿ لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ﴾**

قد ذكرنا أن سبب نزول الآية الأولي أن قوما من الصحابة حرموا علي أنفسهم المطاعم والملابس واختاروا الرهبانية وحلفوا علي ذلك،فلما نهاهم الله تعالي عنها قالوا: يارسول الله فكيف نصنع بأيماننا؟ فأنزل الله هذه الآية."[1]

قوله تعالي: **﴿ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٨٩)﴾.**

" ذكر الله عز وجل في الكتاب الخلال الثلاث مخيرا فيها، وعقب عند عدمها بالصيام. فالخلة الأولي هي الإطعام، وبدأ بها لأنها كانت الأفضل في بلاد الحجاز لغلبة الحاجة فيها علي الخلق، وعدم شبعههم. ولا خلاف في أن كفارة اليمين علي التخيير. وإنما اختلفوا في الأفضل من خلالها. وعندى أنها تكون بحسب الحال، فإن علمت محتاجا فالإطعام أفضل، لأنك إذا أعتقت لم ترفع حاجتهم وزدت محتاجا حادى عشر إليهم، وكذلك الكسوة تليه، ولما علم الله غلبة الحاجة بدأ بها بالمهم المقدم...

(١) الرازي، مفاتيح الغيب ج١١ ص ٥٩-٦٢.

وأجمعت الأمة علي أكلة اليوم وسطا في كفارة اليمين وشبعا في غيرها... واتفقوا علي أن الوسط هنا هو المترلة بين الطرفين."[1]

وفي كفارة الصيد للمحرم يقول تعالي: ﴿ يَا أَيُّهَا الَذينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وأَنتُمْ حُرُمٌ ومَن قَتَلَهُ منكُم مُّتَعَمِّداً فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ به ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْياً بَالِغَ الكَعْبَة أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلكَ صيَاماً لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِه عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ومَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ منْهُ واللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ (٩٥)﴾

" اعلم أن هذا نوع آخر من الأحكام، ووجه النظم أنه تعالي كما قال: ﴿ لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾، ثم استثني الخمر والميسر عن ذلك،فكذلك استثني هذا النوع من الصيد عن المحللات، وبين دخولهم في المحرمات....

وقد ابتلي الله المسلمين بالصيد وهم محرمون عام الحديبية حتي كانت الوحش والطير تغشاهم في رحالهم،فيقدرون علي أخذها بالأيدى، وصيدها بالرماح، وما رأوا مثل ذلك قط،فنهاهم الله عنها ابتلاء..."[2]

" إن مخافة الله بالغيب هي قاعدة هذه العقيدة في ضمير المسلم. القاعدة الصلبة التي يقوم عليها بناء العقيدة وبناء السلوك، وتناط بها أمانة الخلافة في الأرض بمنهج الله القويم.

والله خيره بين ثلاثة أشياء: اثنان منها توجب تنقيص المال، وهو ثقيل علي الطبع، وهو الجزاء بالمثل والإطعام، والثالث: يوجب إيلام البدن وهو الصوم. وذلك أيضا ثقيل علي الطبع، والمعني:أنه تعالي أوجب علي قاتل الصيد أحد هذه الأشياء التي كل واحد منها ثقيل علي الطبع حتي يحترز عن قتل الصيد في الحرم وفي حال الإحرام."[3]

الشهادة بالقسط:

يقول تعالي: ﴿ يَا أَيُّهَا الَذينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ المَوْتُ حينَ الوَصِيَّة اثْنَان ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَان منْ غَيْرِكُمْ إنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ المَوْتَ تَحْبسُونَهُمَا منْ بَعْد الصَّلاَة فَيُقْسمَان باللَّه إن ارْتَبْتُمْ لا نَشْتَرِي به ثَمَناً ولَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ولا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّه إنَّا إذاً لَّمنَ الآثمينَ (١٠٦) فَإنْ عُثرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إثْماً

---

(١) ابن العربي، أحكام القرآن ج٢ ص ٦٤٩-٦٥٠.

(٢) الرازى، مفاتيح الغيب ج١٢ ص ٧١،٧٢.

(٣) الرازى، مفاتيح الغيب، ج١٢ ص ٧٣-٨٠.

فآخَرَان يَقُومَان مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الأَوْلَيَان فَيُقْسِمَان بِاللَّه لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِن شَهَادَتِهِمَا ومَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ (١٠٧) ذَلِكَ أَدْنَى أَن يَأْتُوا بِالشَّهَادَة عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ واتَّقُوا اللَّهَ واسْمَعُوا واللَّهُ لاَ يَهْدِي القَوْمَ الفَاسِقِينَ (١٠٨)﴾

فكما كان التنبيه علي ضرورة القيام لله بتنفيذ أحكامه كان التنبيه علي الشهادة بالقسط في أول السورة في قوله تعالي: **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّه شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ولا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى واتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٨)﴾**.

و السورة هنا تبين مواصفات الشهادة:

* اثنان ذوا عدل منكم، "ولابد أن تستمر صلاحية الشاهدين والمقر إلي وقت تنفيذ الحد... والشهادة تشترط الأهلية لأدائها إلي وقت التنفيذ، فإن فسقوا أو حدوا في قذف قبل التنفيذ بطلت شهادتهم."[1]

*ولو حدث شك يقسمان بالله علي عدالة شهادتهما وبراءتهما من الإثم بوصفين:

١- لايشتريا بها ثمنا ولو كان ذا قربي. ٢- ولايكتما الشهادة.

*والذى يشكك في هذه الشهادة بغير وجه حق فهو من المعتدين.

*وينبه الله تعالي أن في هذه التحوطات ضماناً:

١- لإيتاء الشهادة علي وجهها. ٢- خوف الشاهدين من أن ترد شهادتهما.

" وقد وردت كلمة شهيد في كتاب الله تعالي بأنواع مختلفة:

*منها قوله: **﴿ واسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ من رِّجَالِكُمْ﴾**،معناه أحضروا.

* ومنها قوله: **﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾**،قضي.

* قوله تعالي: **﴿ والْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾**، يعني يقرون.

* ومنها قوله: **﴿شَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾**،يعني حكم.

* ومنها قوله: **﴿ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَات بِاللَّه إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾**،يعني حلف.

تلك شهادات الناس في محاكمات الدنيا وما فيها من محاذير، أما الشهادة في محاكمة الآخرة فلا يملك أحد إلا أن يقول إلا الحق.

---

(١) أبو زهرة نظرة إلي العقوبة في الإسلام، ص٢٤٢.

ختمت السورة بشهادة عيسى على النصارى الذين اتخذوه وأمه إلهين من دون الله، تبرأ أن يقول ما ليس له بحق، وأنه ما قال إلا ما أمر الله بتوحيده وتنزيهه عن الشريك، وأن مسئولية شهادته تنحصر حينما كان معهم، وأنه حين توفى كان الله تعالى رقيباً عليهم وهوعلى كل شيء شهيد.

يقول تعالي: ﴿ وإذْ قَالَ اللَّهُ يَا عيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ للنَّاسِ اتَّخذُوني وأُمِّيَ إِلَهَيْنِ من دُون اللَّه قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لي بحَقٍّ إن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلمْتَهُ تَعْلَمُ مَا في نَفْسي ولا أَعْلَمُ مَا في نَفْسكَ إنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوب (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إلاَّ مَا أَمَرْتَني به أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وربَّكُمْ وكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّا دُمْتُ فيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَني كُنتَ أَنتَ الرَّقيبَ عَلَيْهِمْ وأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧)﴾

المناسبة

فى سورة النساء يقول تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَذينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامينَ بالْقسْط شُهَدَاءَ للَّه ولَوْ عَلَى أَنفُسكُمْ أَوِ الوَالدَيْنِ والأَقْرَبينَ إن يَكُنْ غَنياً أَوْ فَقيراً فَاللَّهُ أَوْلَى بهمَا فَلا تَتَّبعُوا الْهَوَى أَن تَعْدلُوا وإن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإنَّ اللَّهَ كَانَ بمَا تَعْمَلُونَ خَبيراً (١٣٥)﴾وفي سورة المائدة يقول تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَذينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامينَ للَّه شُهَدَاءَ بالْقسْط ولا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدلُوا اعْدلُوا هُوَ أَقْرَبُ للتَّقْوَى واتَّقُوا اللَّهَ إنَّ اللَّهَ خَبيرٌ بمَا تَعْمَلُونَ (٨)﴾.
قال الإمام أبو حيان فى نهره: إن التى جاءت فى سورة النساء جاءت فى معرض الاعتراف على نفسه وعلى الوالدين والأقربين، فبدأ فيها بالقسط الذى هو العدل والسواء، من غير محاباة نفس ولا والد ولا قرابة.

وهنا- فى سورة المائدة- جاءت فى معرض ترك العداوات والإحن، فبدئ فيها بالقيام لله إذ كان الأمر بالقيام لله أولاً أردع للمؤمنين، ثم أردفت بالشهادة بالعدل.

فالتى فى معرض المحبة والمحاباة بدئ فيها بما هو آكد وهو القسط، والتى فى معرض العداوة والشنآن بدئ فيها بالقيام لله.

فناسب كل معرض ما جيء به إليها"[1].

يقول الألوسى:

---

(١) البقاعى، نظم الدرر فى تناسب الآى والسور ج ٢ ص ٤٠٧.

(ووجه اعتلاقها بسورة النساء- على ما ذكره الجلال السيوطى عليه الرحمة، أن سـورة النساء قد اشتملت على عدة عقود صريحا وضمنا، فالصريح عقود الأنكحة. وعقد الصداق وعقد الحلف وعقد المعاهدة والأمان، والضمنى عقد الوصية والوديعة والكفالة والعارية والإجارة، وغير ذلك الداخل فى عموم قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾، فناسب أن تعقب بسورة مفتتحة بالأمر بالوفاء بالعقود، فكأنه قيل: يا أيها الناس أوفوا بالعقود التى فرغ من ذكرها فى السورة التى تمت، وإن كان فى هذه السورة أيضاً عقود، ووجه أيضاً تقديم النساء وتأخير المائدة، بأن أول تلك: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾، وفيها الخطاب بذلك فى مواضع، وهو أشبه بتنزيل المكى، وأول هذه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وفيها الخطاب بذلك فى مواضع، وهو أشبه بخطاب المدنى. وتقديم العام وشبه المكى أنسب.

ثم إن هاتين السورتين فى التلازم والاتحاد نظير البقرة، وآل عمران، فتانك اتحدا فى تقرير الأصول من الوحدانية والنبوة ونحوهما، وهاتان فى تقرير الفروع الحكمية. وقد ختمت المائدة فى صفة القدرة، كما افتتحت النساء بذلك، وافتتحت النساء ببدء الخلق، وختمت المائدة بالمنتهى من البعث والجزاء، فكأنهما سورة واحدة، واشتملت على الأحكام من المبدأ والمنتهى)[1].

ويقول السيوطى:

وأما سورة النساء فتضمنت أحكام الأسباب التى بين الناس وهى نوعان: مخلوقة لله ومقدورة لهم كالنسب والصهر. ولهذا افتتحت بقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ ثم قال: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾، فانظر هذه المناسبة العجيبة فى الافتتاح وبراعة الاستهلال حين تضمنت الآية المفتتح بها ما أكثر السورة فى أحكامه من نكاح النساء ومحرماته والمواريث المتعلقة بالأرحام، وأن ابتداء هذا الأمر كان بخلق آدم ثم خلق زوجه ثم بث منهما رجالا كثيرا ونساء فى غاية الكثرة. وأما المائدة فسورة العقود تضمنت بيان تمام الشرائع ومكملات الدين والوفاء بعهود الرسل وما أخذ على الأمة وبها تم الدين. فهى سورة التكميل لأن فيها تحريم الصيد على المحرم الذى هو من تمام الإحرام، وتحريم الخمر الذى هو من تمام حفظ العقل والدين، وعقوبة المعتدين من السراق والمحاربين الذى هو من تمام حفظ الدماء والأموال، وإحلال الطيبات الذى هو من تمام عبادة الله تعالى. ولهذا ذكر فيها ما يختص بشريعة محمد ﷺ كالوضوء والتيمم والحكم بالقرآن على كل دين. ولهذا أكثر

(١) الألوسى، ج٣ ص ٢٢١، ٢٢٢.

من لفظ الإكمال والتمام. وذكر فيها أن من ارتد عوض الله بخير منه، ولا يزال هـــذا الـــدين كاملاً [(١)].

وكما هدفت سورة النساء إلى وضع التنظيمات التى تكفل تحقيق مقاصد الشريعة فى حفظ الدين والنفس والعرض والعقل والمال، فإن سورة المائدة شرعت العقوبات التى تحمى بها هـــذه المقاصد.

---

(١) السيوطى، الأتقان فى علوم القرآن ج ٣ ص ٣٣٢، ٣٣٣ المكتبة العصرية ١٩٨٨ م.

بين سورة النساء وسورة المائدة:

بينما حددت سورة النساء حقوق الإنسان وواجباته وبينت قاعدتها فى طاعة الله ورسوله، تحدد سورة المائدة حقوق الأمة وواجباتها وتبين قاعدتها فى الحكم بما أنزل الله وإقامة حدوده.

كما أخبر تعالى فى آخر سورة النساء أن اليهود لما نقضوا المواثيق التى أخذها عليهم، حرم عليهم طيبات أحلت لهم من كثير من بهيمة الأنعام... ناسب افتتاح هذه بأمر المؤمنين الـذين اشتد تحذيره لهم منهم بالوفاء الذى جلّ مبناه على القلب... فأمرهم بالوفاء لأنه أحـل لهـم بشامل علمه وكامل قدرته، لطفاً بهم ورحمة لهم، ما حرم على من قبلهم من الإبـل والبقـر والغنم..

ففى سورة النساء بالنسبة لحفظ النفس:

﴿ ومَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أن يَقْتُلَ مُؤْمناً إلاَّ خَطَئاً﴾.

وفى سورة المائدة:

﴿ وكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ والْعَيْنَ بِالْعَيْنِ والأَنفَ بِالأنفِ والأُذُنَ بِـالأُذُنِ والسِّنَّ بِالسِّنِّ والْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾.

وفى حفظ العرض وجدنا فى السورتين اهتماما بالنكاح وتحديداً للفاحش منه والمحـصن، والمحرم والحلال. وبينما بينت سورة النساء القواعد المستقرة للزواج من اليتيمات، والعلاقة بين الرجل والمرأة من ناحية القوامة وحل الخلافات، ذكرت سورة المائدة حل نكاح المحصنات من المؤمنات ومن أهل الكتاب بشرط إعطائهن مهورهن: تجنب السفاح واتخاذ الأخدان.

وفى حفظ العقل فى سورة النساء:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾.

وفى سورة المائدة:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إنَّمَا الخَمْرُ والمَيْسِرُ والأَنصَابُ والأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾.

وفى حفظ المال نجد فى سورة النساء:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾.

وفى سورة المائد ة:

﴿ والسَّارِقُ والسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ واللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

نلاحظ تكرار لفظ الطعام ومشتقاته فى سورة المائدة- وركزت على سيد الطعام وهو لحوم الحيوانات وعلى الشراب خصوصا أخبثه وهو الخمر. بينما انفردت سورة النساء بأكبر عدد من لفظ النساء، حيث تكرر سبع عشرة مرة. و نجد فى سورة المائدة النص على جواز زواج المحصنات من أهل الكتاب.

ولقد وضحت سورة النساء حقوق الإنسان وواجباته.. ووجدنا فى قلب هذه الواجبات مسؤولية الإنسان عن طاعة الله ورسوله والتحاكم إلى شرع الله، فعشنا مع أمر الطاعة على مدى السورة:

﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾.

﴿ ولَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وأَطَعْنَا واسْمَعْ وانظُرْنَا لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وأَقْوَمَ﴾.

﴿ ومَن يُطِعِ اللَّهَ ورَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾.

﴿ ومَن يُطِعِ اللَّهَ والرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم﴾.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وأَطِيعُوا الرَّسُولَ وأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ والرَّسُولِ﴾، ﴿ ومَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

﴿ ويَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾.

﴿ فَلا ورَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ ويُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾.

وهنا فى سورة المائدة، نجد تحديد واجبات الحاكمين وحقوقهم قبل الرعية. وفى قلب هذه الواجبات الحكم بما أنزل الله وإقامة حدوده. يقول تعالى فى السورة:

﴿... وإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾.

﴿... يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾.

﴿... ومَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ﴾.

﴿... ومَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ﴾.

﴿ ولْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ...﴾.

﴿... فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾.

﴿ وأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ولا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ واحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ...﴾.

﴿ وأن احْكُم بَيْنَهُم بمَا أنزَلَ اللَّهُ ولا تتَّبِعْ أهْوَاءَهُمْ... ﴾.

﴿ وكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وعندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّه... ﴾.

﴿ أفَحُكْمَ الجَاهليَّة يَبْغُونَ ومَنْ أحْسَنُ مِنَ اللَّه حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾.

﴿ إنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾.

لهذا نجد أنه بينما فى سورة النساء يتوجه الخطاب للمحكومين أن يقوموا بالقسط طاعة لله ورسوله وأن يؤدوا الشهادة منزهة عن الهوى والغرض فى قوله تعالى:

﴿ يَا أيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّه ولَوْ عَلَى أنفُسِكُمْ أوِ الوَالِدَيْنِ والأقْرَبِينَ إن يَكُنْ غَنِياً أوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أوْلَى بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الهَوَى أن تَعْدِلُوا وإن تَلْـوُوا أوْ تُعْرِضُوا فَإنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ﴾

نجد فى سورة المائدة يتوجه الخطاب للحاكمين أن تكون القوامة حكما بكتابه، وضـمان الشهادة بالقسط تحقيقا للعدل، فى قوله تعالى:

﴿ يَا أيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّه شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ولا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى ألاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أقْرَبُ لِلتَّقْوَى واتَّقُوا اللَّهَ إنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

يقول ابن العربى:

" ومن كان قيامه لله فشهادته وعمله يكون بالعدل، ومن كان قيامه بالعـدل فـشهادته وعمله لله سبحانه، لارتباط أحد هما بالآخر ارتباط الأصل بالفرع، والأصل هـو القيـام لله والعدل مرتبط به "[1].

والغلو ضد العدل، فالقسط وسط بين الغلو والخسران. لهذا عرضت السورتان الأخريتـان من واقع تجربة التاريخ، مرة فى غلو النصارى فى عيسى عليه السلام ومرة فى معاصى اليهود فى التحريف والنسيان وأكل السحت.

فعن الغلو يقول تعالى فى سورة النساء:

﴿ يَا أهْلَ الكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ ولا تَقُولُوا عَلَى اللَّه إلاَّ الحَقَّ إنَّمَا المَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّه ﴾

ويقول تعالى فى سورة المائدة:

﴿ قُلْ يَا أهْلَ الكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الحَقِّ ولا تَتَّبِعُوا أهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِـن قَبْلُ وأضَلُّوا كَثِيراً وضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾.

---

(١) ابن العربى، أحكام القرآن ج١ ص ٥٨٥.

وعن التقصير يقول تعالى في سورة النساء:

﴿وأَخْذِهِمُ الرِّبَا وقَدْ نُهُوا عَنْهُ وأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾.

وفي سورة المائدة:

﴿وتَرَى كَثِيراً مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ والْعُدْوَانِ وأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

ويدعم أساس العدل بفريضة الصلاة، التي تولد حافزا قويا يحمي مقيمها من الفحشاء والمنكر والبغي:

ففي سورة النساء أمر بإبعاد السكارى عن الصلاة وتفصيل عن التيمم:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ولا جُنُباً إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً﴾.

وفي سورة المائدة أمر بإقامة الصلاة وتفصيل عن الوضوء:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وجُوهَكُمْ وأَيْدِيَكُمْ إِلَى المَرَافِقِ وامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وأَرْجُلَكُمْ إِلَى الكَعْبَيْنِ وإِن كُنتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا...﴾.

سنن الحضارات
كما تبينها
سورة الأنعام

سنن الحضارات
كما تبينها سورة الأنعام

مقدمة

بعد أن بين الله تعالى القواعد التى تقوم عليها الأمة المسلمة فى سورتى البقرة وآل عمران، ثم حدد حقوق الإنسان والجماعة وواجباتهما فى سورتى النساء والمائـدة، أخـذ بأيـدينا فى سورتى الأنعام والأعراف لتعريفنا بعوامل قيام الحضارات واندحارها وهو ما يطلق عليه القرآن الكريم مصطلح "الاستخلاف ".

السنن والحضارة

المدنية لغة من مادة مدن، متصلة بالمدينة والعيش فيها، وهى فى عرفنا الجارى تعنى الجانب المادى والمظهرى فى الحياة من بيئة طبيعية، ومنشآت إنسانية، وسلع إنتاجية، وما يرتبط بها من نظم وقوانين.

والثقافية تعنى التشذيب والتهذيب والتقويم والخدمة والفطانة، ونعرفها اليوم على أنها مـا يقابل المدنية من الناحية المعنوية فى حياة الناس، بما فى ذلك ما يتصل بالروح والفكر والعقـل والذوق والمشاعر، فهى تعنى الحياة الروحية والفكرية والعلمية والأدبية والفنية.

والحضارة بمفهومها الحديث هى جماع المدنية والثقافة، أى الحياة بأحاسيسها وأشـواقها بتقاليدها وتطلعاتها، وهى إذن المؤشر الذى يميز بين أمة وأمة.

إن مقياس التقدم فى المدنية الغربية الآن مرتبط بالقيم المادية فحسب، ولهذا يقيسون ازدهار الأمم وتخلفها بمقدار الدخل الذى يحصل عليه الفرد، فالدول التى يزيد دخل الفرد فيها عـن كذا دولار تعتبر متقدمة والتى تقل عنه تعتبر متخلفة.

ولقد تهافت رجال من النخبة المثقفة فى العالم المسلم على موائد الغرب، يأخذون منه دون تمييز بين التقدم المادى والانحدار القيمى، معتقدين أن هذا التفوق المادى لا يمكن الوصول إليه إلا بالأخذ الكامل لكل مفاهيم الغرب وسلوكياته.

وفى السورة يبين ربنا تبارك وتعالى أن الحضارة لا تستمر ولا تثمر إلا إذا قامـت علـى عنصرين:

١ – الإبداع المادى ٢ – القيم الإيمانية.

فإن انفرد أحدهما دون الآخر كان ذلك إيذانا بدمار هذه الحضارة.

ولا يمكن أن تقوم الحضارة على قيم روحية فحسب، فالرهبانية الانعزالية تجفف ينبوع النعم، وتؤدى بالعمران إلى الأفول والبوار، ولابد إذن لقيام الحضارة أن يقوم الإبداع المادى فى حضن القيم الإيمانية.

إن الإنسان خلق من طين ثم كرمه الله بنفخة من روحه. وبذلك ألهمه الفجور والتقوى والهدى والضلال. فهو يصفو حتى يطاول السماء، ويهبط حتى يكون كالأنعام. وهو فى صفائه يظل مشدوداً إلى الأرض، وفى كبوته يظل متطلعاً إلى السماء. وبهذا كان فى إمكانه أن يصلح وأن يفسد، وأن يتقى وأن يفحش، وأن يعدل وأن يظلم.

وما تميز الإنسان عن الحيوان إلا بالروح التى نفخها الله فيه، وما استقامت له حياة إلا حين تلقى الوحى من ربه وعمل به، وكان الله لطيفا بعباده بإرسال الرسل، حين ينتكس البشر فى جاهلية بعد إسلام، ليأخذ بأيديهم إلى الحق والخير. وظلت الرسل تترى حتى أذن الله بحفظ الوحي وختم الرسالات بمحمد ﷺ، فكان الإسلام هو شاطئ النجاة للبشر، وملجأ الأمان للعباد، ببيانه للحق، وهدايته للصراط المستقيم.

ويبين القرآن بوضوح أن التحولات الكبرى فى العالم، والتغيرات الجذرية فى حركة التاريخ، ومنها صعود وهبوط الحضارات، يرتبط ارتباطا عضوياً بنوع القيم التى تحرك الإنسان وهو يضرب فى الأرض.

والإبداع المادى وحده، وفق تجارب الإنسانية، لا يشكل حافزاً للنهضة وامتلاك زمام التفوق وتحقيق الرخاء إلى أمد طويل. ولا يمكن له مهما تطورت مفاهيمه أن يحافظ على المستوى الموجود، أو أن يحقق مزيداً من التقدم، إذا ما غابت قناعة الإنسان ودأبه، وأحس بالمسئولية واستعد للتضحية، وهذا لا يتحقق إلا بالإيمان والإسلام. ولقد رأينا أمام أعيننا انهيار العالم الاشتراكى المدوى بسبب سلبية الإنسان ويأسه، نتيجة فساد المنهج وطغيان السلطة. فالقوة العسكرية لم تهزم الاشتراكية، ولكن هزمتها الروح الإنسانية. والغرب اليوم يترنح نتيجة فقدان الإنسان توازنه، فالتركيز على الرفاهية المادية وحدها، يعصف بمنجزاته ويهدد بدمار مدنيته، فضياع الدين أورث الإنسان عدمية يائسة قانطة، لم تشبعها لذة مؤقتة، ولا مباهج استهلاكية. وغياب القيم دمر الإنسان حيوياً ونفسياً، فمزق الأسرة بأنياب التحلل، وتفشى الظلم فى العالم، فتحول إلى غابة مسلحة بمخالب نووية وكيماوية وبيولوجية قاتلة، يكفى انطلاقها لخراب الدنيا وإبادة الحياة.

ولقد حقق العالم المسلم استقلاله بتضحيات عزيزة من أبنائه، ولكن لأنه غيب الإسلام عن نهضته جرى وراء أفكار غربية كالديمقراطية والاشتراكية، يبست جذوره، وضاع منه سر قوته، وفقد من أقدامه الطريق الوحيد الذى يضمن له نهضته، والقوة التى تدفع التنمية فى مجتمعه، وبهذا تحرك دائماً فى دائرة الإحساس بالدونية، وهو يلهث فى ضعف وراء التقليد والتبعية.

ولا يمكننا أن نعتبر أوروبا متحضرة وهى تعصى الله وتلغ فى الحرام وتمعن فى الظلم. والأمة التى تتخذ مشرعين من دون الله يفسرون لهم بغير سلطان، ويبيعون لهم الغفران، ويزهدونهم فى الدنيا، فى رهبانية تاركين الحياة يدمرها الطواغيت بالإفساد والاستكبار، ليست من الحضارة فى شيء. فالحضارة ليس معناها النمو المادى فحسب، وليس معناها السمو الروحى فقط، وإنما هى ابتغاء ما أفاء الله علينا من نعم الدنيا استثماراً لما أعده الله لنا فى الدار الآخرة.

إن الله تعالى خلق الدنيا وسيلة للآخرة، وسن قوانينها على أن تكون دار ابتلاء وليست دار جزاء، بينما الآخرة غاية لا وسيلة، وكيفت قوانينها لتكون دار جزاء لا دار ابتلاء. لذلك يعطى الله الدنيا لمن أحب ومن لا يحب، ولا يعطى الآخرة إلا لمن أحب. ومن هنا فالمشروع الإنسانى لا تقتصر حساباته النهائية على أجل الدنيا، وإنما يمتد إلى أفق الآخرة، وقد يكسب الإنسان الدنيا، ولكنه فى نهاية الحساب يكون خاسراً فى الآخرة.

وسنة الله الماضية فى مسيرة الحضارات تقوم على قاعدة أساسية هى أن القيم الإيمانية مرتبطة تماماً بالسنة الطبيعية لأنها كلها سنة الله فى الأرض. فكما يتفتت كوكب أو نجم حين يخرج عن مساره فى الكون بانحرافه عن النظام العام، تهلك الأمة حين تخالف أمر ربها وتختار الجاهلية بديلاً عن الإسلام.

فالذنوب تهلك أصحابها تماما كما يهلك الوباء أهله، فهى تؤدى إلى الدمار على المستوى الفردى وعلى المستوى الجماعى. إما بقارعة من الله، وإما بالانحلال البطيء الذى ينخر فى جسد الأمة.

يقول تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَاراً وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ (٦)﴾

ورغد العيش مرتبط بالإيمان والتقوى، والبركة تظهر آثارها بطاعة الله فى وفرة فى الرزق، وعافية فى البدن ورضا فى النفس، ورعاية من الله تصرف الأذى، وبركة فى المال والولد.

ففى أمة يختفى فيها الاحتكار يزيد الإنتاج بفعل المنافسة فتتوفر الجودة وتنخفض الأسعار، وفى أمة تحرم الربا ينمو الاستثمار ويتلاشى الاستغلال ويطارد الظلم، فيستقر الإنتاج ولا يتخبط، وفى أمة تمنع الميسر تتحرر سوقها من الأزمات والانهيارات، ويأمن ملاكها على مالهم، فيتوفر مناخ النمو والرخاء. وفى مجتمع تجتث فيه الخبائث من الخمر والميتة والخنزير يطهر المجتمع من الرجس والأمراض، ويتحرر الناس من العداوة والبغضاء، وفى مجتمع تصان فيه البيئة من التلوث وتتحرر من الفساد فتبقى صالحة كما خلقها الله، يأمن الناس على حاضرها وعلى مستقبلهم، ويطيب الرزق ويفيض.

والحقائق العلمية تبين كيف أن كفر الإنسان وظلمه هما سبب شقائه ومآسيه. فيشقى بالحاجة فى مكان الوفرة، ويلفه الغم والحزن والخوف وكان فى إمكانه أن يعيش راضياً مطمئناً آمناً. ونظرة واحدة إلى ما يثور بين الأمم من صراعات وحروب نتيجة الاستكبار والعصبية والجهالة، تبين مدى حماقة البشر حين يبذلون الجهد فى تطوير آلات الدمار وتعميق جذور الفتن وتدمير فطرة الإنسان.

ومن رحمة الله بالبشرية لتفيق من خمارها، وتتنبه من غفلتها أن يبتليها بالبأساء والضراء، لتتنبه إلى عجزها وتعرف سنن الله فى الوجود، وتعلم يقينا أن اللجوء إلى الله هو الملجأ الوحيد لأمنها ورخائها، فتسلم لله أمرها، وتتقيه فى نفسها، وتطيعه فى شئونها، وتتجه إليه داعية متضرعة خاشعة خاضعة، وإن استمرت فى غيها فالله غنى عنها، فيأخذها بغتة بياتاً وهم نائمون أو نهاراً وهم يلعبون، فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون.

يقول تعالي: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (٤٢) فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٤٣) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ (٤٤) فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٥)﴾

وتؤكد الحقائق والتجارب أن أى استراتيجية تضمن تنمية مستقرة لا يتحقق لها النجاح ولا تصل إلى أهدافها وغاياتها إلا بعقيدة تسرى فى دم الإنسان، فلا تهدأ حتى تقيم واقعا محدد المعالم، وقيماً تضمن إشباع الروح جنبا إلى جنب مع الإشباع المادى، وشريعة تؤمن البشر من أهواء البشر فى التسلط والاستغلال.

إن كل الحضارات التى صعدت بالإنسان قامت على أساس من الرسالات التى أوحى بها

الله ليخرج البشرية من الظلمات إلى النور، ومن العذاب إلى الرحمة. و لم تعرف الإنسانية فى كل تاريخها أمة تقيم حياتها على المبادئ، وتجاهد لسيادتها فى الأرض، إلا فى الرسالات.

والكون والحياة تحكمهم بذلك سنن ثابتة جعلها الله قانوناً، يتفاعل الإنسان معه ويعمل من خلاله. وهذا شرط ضرورى لاختبار الإنسان، وهو يسعى إلى ربه ليعرفه من آياته فى كتابه وفى الكون والتاريخ، بالحجة والبرهان لا بالخوارق والمعجزات.

وهذه السنن الثابتة هى التى تحكم نمو الحضارات واندحارها. فأى حضارة تقام على القيم الإيمانية وحدها أو القيم الدنيوية وحدها، محكوم عليها بالاندحار. وينبه الله تعالى أنه قد يملى لهم حتى يفرحوا بما أوتوا. ثم يأخذهم بغتة فيكون العذاب أشد إيلاماً. وأن شرط استمرار الحضارة وتحقيقها للحياة الرغيدة لأهلها، أن يتحقق الإبداع المادى فى حضن القيم الإيمانية. فيصاحب الرخاء قيم التقوى والإصلاح.

وينبه الله تعالى أن قوانين الكون والحياة ليست مانعة لطلاقة مشيئته، فهو يتدخل فيها حيثما شاء وكيفما شاء. كما يحدث عندما تنحرف الحضارة عن سبيل المؤمنين إلى سبيل المجرمين، فيأخذها بعذاب من عنده أو من عند أنفسهم.

كما ينبه الله تعالى أن هذه القوانين الثابتة بالنسبة للحضارات لا تنطبق على ابتلاء الإنسان. فالدنيا بالنسبة للمؤمن دار ابتلاء وليست دار جزاء، يبتلى فيها بالخير ليشكر، ويبتلى فيها بالضر ليصبر، وهنا ينال ثواب الدنيا والآخرة. وحاله فى كلا الأمرين خير. عكس الكافر الذى تبطره النعمة وييئسه الضر، وهنا يعذب فى الدنيا والآخرة.

فالله كما يبتلى الناس بالنفع فهو يبتليهم بالضر. ويحدد الله القصد من وراء الابتلاء والضراء بأنه حفز للمؤمنين على التضرع لله، وهذا من أعلى المقامات فى الدنيا. فيُشهد بذلك المؤمن الدنيا على إسلامه، ويطيع أوامر ربه ويستعلى على شهواته. وينتصر على شياطين الإنس والجن الذين يشيعون زخرف القول غرورا، ويواجه أكابر المجرمين فى المجتمع الذين يمكرون بالناس يضلونهم.

وبينما اهتمت سورة المائدة بتبيان الحلال والحرام من الطعام والشراب فى حدود تطهير الإنسان وتوفير احتياجاته الأساسية، تقدم سورة الأنعام الحلال والحرام من الحرث والأنعام فى مجتمع الوفرة والرخاء حيث الجنات المعروشات وغير المعروشات، وفى الحياة الطيبة من الأنعام فى الركوب والفرش والمتاع.

الأساس العقيدي

توضح السورة الأسس التى تقوم عليها الحضارة، ويمكن تلخيصها فيما يلى:

١- الإيمان فطرة:

تدعو السورة الإنسان إلى فتح منافذ المعرفة عنده، من عقل وحس، على أسرار الكون المنظور، داعية إلى النظر والتأمل فى هذا الكون المعجز، حيث تنطق الدلائل والآيات بالخالق الحكيم العليم.

وتدعو السورة إلى فتح منافذ المعرفة على التاريخ كتاب الزمان، نراه فى آثار القرون السابقة، ونحن نكتشف أسباب نهضتها وأسباب نكستها، لأخذ العبرة ومعرفة الحكمة. وتدعو السورة إلى تدبر كتاب الله الكريم حيث المعجزة الإلهية تتجلى فى هذا الكتاب المقروء، وبه تنقطع الحجة عند الاعتذار بأن الكتب السابقة نزلت على طوائف سابقه، فقد جاء القرآن بالبينة وقامت به الحجة، وتحقق الهدى والرحمة. فالذى يعرض عنه ظالم لنفسه مستحق لعذاب الله.

يقول تعالي: ﴿ إنَّ اللَّهَ فَالقُ الحَبِّ والنَّوَى يُخرِجُ الحَيَّ منَ المَيِّت ومُخرِجُ المَيِّت منَ الحَيِّ ذَلكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٩٥) فَالقُ الإصْبَاحِ وجَعَلَ اللَّيلَ سَكَناً والشَّمْسَ والْقَمَرَ حُسْبَاناً ذَلكَ تَقْديرُ العَزيزِ العَليمِ (٩٦) وهُوَ الَذي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لتَهْتَدُوا بهَا في ظُلُمَات البَرِّ والْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَات لقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٩٧) وَهُوَ الَذي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ واحدَة فَمُسْتَقَرٌّ ومُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَات لقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (٩٨) وهُوَ الَذي أَنزَلَ منَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا به نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا منْهُ خَضراً نُّخْرِجُ منْهُ حَبّاً مُّتَرَاكباً ومنَ النَّخْلِ من طَلْعهَا قنْوَانٌ دَانيَةٌ وجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَاب وَالزَّيْتُونَ والرُّمَّانَ مُشْتَبهاً وغَيْرَ مُتَشَابه انظُرُوا إلَى ثَمَرِه إذَا أَثْمَرَ ويَنْعه إنَّ في ذَلكُمْ لآيَات لِّقَوْمٍ يُؤْمنُونَ (٩٩)﴾

كل هذه الآيات المنظورة والمقروءة كافية لمعرفة الله تعالى، وهى بطبيعتها خوارق إذا ما عرفتها النفوس السوية والعقول الذكية حق المعرفة، وهى تغنى عن اللجاجة بطلب المعجزات الحسية.

والعقل الراشد لا يحتاج إلى خارقة من الخوارق العارضة ليؤمن بالله. إن السنة المألوفة خارقة لو تأمل فيها، والذى لا يؤمن بالخارقة الكبيرة فى الكون المنظور والقرآن المسطور، لا يؤمن بالخوارق الصغيرة.

إن معارضة بعض البشر للرسل والرسالات تقوم ابتداء على العناد والاستكبار، فآيات الله الكونية، وما أعطاه للرسل من معجزات وما حمله الرسل من هدى ونور، كافية لفتح مغاليق القلوب، وداعية لالتماس سبل الهداية لمن كان صادقاً فى التعرف على الحق، ولمن سمع نداء فطرته وأعمل ما حباه الله من عقل وحكمة.

ويعرض الكفار عن هذه الآيات، وبصلف يطلبون خوارق صغيرة وأمامهم هذه الخوارق الكبيرة فيقولون: لولا أنزل عليه ملك أو يطلبون نزول كتاب من السماء. ولو أنزل عليهم الله ملكا لكان فى ذلك هلاكهم، ولو جعله فى صورة البشر لما استطاعوا التمييز والتبس عليهم الأمر، ولو أنزل الله عليهم كتابا من السماء لقالوا هذا سحر مبين، فهم لا يتأملون الهداية بعقولهم، ولا يقفون أمام إعجازها بقدر ما يشدهم ويكبتهم القهر لحسهم.

ورغم أن حياة الرسول التى نقلت إلينا صحيحة لاشك فيها، من الله فيها عليه بالكثير من الخوارق والمعجزات الحسية، فإن الرسول ﷺ أبى إلا أن يبين أن معجزته الخالدة، ممثلة فى كتاب الله العظيم، آية بينة تفتح عقول الناس على آيات الله فى الكون والتاريخ، وتوقظ فطرهم على التوحيد والتسبيح.

ولهذا رد رسول الله ﷺ على من ظن أن الخسوف يوم موت ابنه إبراهيم معجزة **بقوله:** **"إن الشمس والقمرآيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم ذلك فاذكروا الله "**[1].

ومن هنا نفهم مقصود الآية التي تعبر عن يقين رسول الله ﷺ في قوله تعالي: **﴿ قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وكَذَّبْتُم به مَا عندي مَا تَسْتَعْجِلُونَ به إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّه يَقُصُّ الْحَقَّ وهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ (٥٧) قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ واللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ (٥٨)﴾**

وهنا تبين السورة ما واجهه رسول الله (ﷺ) من إلحاح الكافرين فى طلب معجزات حسية حتى يؤمنوا، ليعتذروا أمام عقولهم القاصرة وأهوائهم الجامحة عن عدم الاستجابة للحق من جهة، متصورين أنهم يضعون الرسول فى موقف حرج، يشفى غليل قصورهم وزيغ أهوائهم.

---

(١) رواه البخارى فى صحيح الجامع الصغير حـ١ ص ٣٣٨.

يقول تعالي: ﴿ وأَقْسَمُوا باللّه جَهْدَ أَيْمَانِهمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عندَ اللّه ومَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ (١٠٩) ونُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا به أَوَّلَ مَرَّةٍ ونَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠) ولَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ المَلائِكَـةَ وكَلَّمَهُمُ المَوْتَى وحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾

ويقول تعالي: ﴿ ولَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧) وقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ولَوْ أَنزَلْنَا مَلَكاً لَّقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لا يُنظَرُونَ (٨) ولَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً ولَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ (٩)﴾

ويقول تعالي: ﴿ ولَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ المَلائِكَةَ وكَلَّمَهُمُ المَوْتَى وحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَـيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ ولَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (١١١)﴾

ويوجه القرآن الرسول ﷺ ألا يأسي عليهم، ولايحزن علي إعراضهم فيقول تعالي: ﴿ وإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِـي السَّـمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ ولَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الهُدَى فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الجَاهِلِينَ (٣٥)﴾

وأن يغلق الباب علي لجاجتهم فيأمره تعالي أن يقول: ﴿ قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَـزَائِنُ اللّه ولا أَعْلَمُ الغَيْبَ ولا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَـلْ يَـسْتَوِي الأَعْمَى والْبَصِيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ (٥٠)﴾

٢– حقيقة الغيب

نوه الله تعالى فى كتابه العزيز بشأن العقل والملاحظة الحسية فى تحقيق الرشـادة الفكريـة بإعمار الأرض، وبدون استخدام العقل والحس فى أمور الدنيا تعشق الخرافة ويجثم التخلـف والضياع، والعقل آية الكون المنظور فى ملكوت السماوات والأرض، وآية الكتاب المقـروء الذى أوحى به الله إلى رسله.

ولقد أعطى الله البشرية الكون (ملكوت السموات والأرض)، كتاب الله المنظور ودعاهم أن يتأملوه ويتفكروا فى شأنه، ويسيروا فى الارض ليعرفوا التاريخ ويدركوا عبره، ويغوصوا فى أعماق أنفسهم ويعلموا خفى أسرارها. وهذه الآيات كلها تشهد لوحدانيته، وتنطق بعلمـه وحكمته.

إن الإنسان الذى يؤمن بوجود شيء بآثاره، ويدافع عن علمية هذا الإدراك، لا يمكـن أن يكون منكرا حين يرى آيات الله فى كونه وخلقه ونفسه، ولا يشهد له بالوحدانية.

يقول تعالي: **﴿ وهُوَ الَذي خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ بالْحَقِّ ويَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الحَقُّ ولَهُ المُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الغَيْبِ والشَّهَادَةِ وهُوَ الحَكِيمُ الخَبِيرُ (٧٣)﴾**

وقد رحم الله البشر بآية مباركة هى الوحى الذى أنزله فى كتاب لهداية العباد وتعـريفهم بحقيقة الكون والحياة ورسالتهم فيه. فأرسل الرسل ومعهم الكتاب ليبين لهم ما خفى عنهم ولا يطيقون معرفته بعقلهم وحواسهم من علم الغيب. والعقل السليم حـين يتـدبر كتـاب الله ويشاهد مناحى الإعجاز فيه، يصدق بكلمات الله ويهتدى بها فى حياته وعباداته. وتقوم هذه المدركات الإنسانية بدور بالغ الأهمية فى تحقيق الإيمان فى القلب، بوعى ويقين.

وبعد هذا الإيمان، يقود العقل الراشد إلى الإيمان اليقينى بالغيب، ثم تلقيه من الله كما أوحاه إلى رسله.

تماما كما يحدث فى الظواهر الدنيوية، فعندما سار التيار الكهربائى وأنـار، حـاولوا أن يدركوا ذلك السيال الذى يحتلث فيضىء، وافترضوه دون أن يروه بآثاره، ولليـوم يؤمنـون بالكهرب " الألكترون" و لم يلمسوه بحواسهم.

إن عدم رؤيتهم للكهرب لم يمنعهم أن يؤمنوا به، ومن الرشد أن يسأل عمـا لا يمكنـه معرفته وأيقن بوجوده. ومن الجهل والغباء أن ينكر وجود شىء لأنه لا يـراه، أو يلجـأ إلى الخيال لمعرفته دون علم أو يقين.

فالله حق يشهد على ذلك كل ما فى الكون، ولكن معرفة الله تعالى فى ذاته الكاملة وأسمائه الحسنى، التى هى صفات ذاته وفعلها، خلقا وأمرا، فوق متناول العقل والحس. ومن مقتـضى علمه وحكمته أن يكون هناك ابتلاء وحساب وجزاء فى الدار الآخرة، فسنن الله كلها تشهد بالآخرة. ولكن العقل لا يمكنه إذا وصل إلى هذه المشارف أن يتجاوز حدوده، فيعرف أحوال الآخرة وحقائقها.

ومن هنا كانت نصيحة رسول الله (ﷺ) لأمته: **"تَفَكّروا فى خلـق الله، ولا تفكـروا فى الله."**[(١)]

فليس إلا الله يبين للإنسان حقيقة الكون والحياة ورسالته فيه. ومن ثم فإن شرعه الحياة التى تحدد له الصراط المستقيم خصيصة للالوهية، إذا ادعاها البشر لأنفسهم تحيـزوا لأنفـسهم أو أهلهم أو قومهم فظلموا العباد بأهوائهم، أو اعتمدوا على الظن وتخبطوا فى الضلال لعجـزهم

---

(١) صحيح الجامع الصغير، للسيوطى، تحقيق الألبانى ج ا، ص ٥٧٢.

عن معرفة الصراط المستقيم، فى كون متسع يؤثر فى واقعه، وزمان متصل بماضى وممتد إلى مستقبل مغيب، ونفس تغمض أغوارها إلا على خالقها.

ولولا أن الله هدى ورحم عباده بإرسال رسلهم، لكانت حياة الإنسان ضلالا وعذابا، وتخبطا وشقاء. ولكان بطن الأرض خير من ظاهرها. فإرسالهم ضرورة تتفق مع حكمة الله وإعذاره للناس.

ومع الرسل أنزل الله الكتب فيها البيان الشافى عن حقيقة الكون والحياة، وفيها شرعة الحياة ومنهاجها الذى يهدى إلى سبل السلام.

وكان كل رسول يرسل إلى قومه خاصة حتى ختمت الرسالات بمحمد ﷺ، وحفظ الوحى من النسيان والتحريف، فكانت الحجة على الناس كافة فى كل مكان، وكان فيه النجاة والهدى والرحمة لكل من ألقى السمع وهو شهيد.

والخبر الصادق يعتبر مصدرا يقينا من مصادر المعرفة، وإلا لما تيسر للإنسان علم ما يسعفه فيه عمره وسدرته. ولهذا يعجب ربنا تعالى من قوم لا يقدرونه حق قدره حين ينكرون الرسالة. فمن مقتضى حكمته أن يبين للإنسان ما غيب عنه، كيلا يكون للناس حجة بعد الرسل. ومن ثم كان الكتاب مباركا لكل ذى عقل سليم ليعرف ربه فيعبده ولا يعصاه. وكان ذلك الحشد من الرسل والأنبياء الذين ذكرهم الله بعد قصة إبراهيم عليه السلام. فهم حملة منارات الهدى بما حملهم الله تعالى من الكتاب والحكم والنبوة، يقتدى بهم المؤمنون على مدار الزمان، ليتذكروا رسالتهم ويعرفوا غايتهم فيسيروا على الصراط المستقيم والذين يحادون هذه الحقيقة، ويواجهونها بالخوض واللعب، سيرون سفاهتهم حين يحين موقم أو يترل الله العذاب بقومهم.

يقول تعالي: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (٩١) وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩٢) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (٩٣)﴾

وعند اكتمال العقل مع الوحى فى قلب إنسان، يصل الإنسان إلى قمة الرشـــادة. وتعمـــر نفس الإنسان بحقيقة التوحيد.

وحين يقوم المجتمع على هذا الإيمان ولا يشوبه شرك، يتحقق له الأمان والاطمئنان، فـــلا خوف ولا حزن، ويمتلئ بالرضا والسكينة. ويتحقق النماء والرخاء. وهنا تزدهـــر الحـــضارة ويرفع الله درجات أهلها فى معارج الدنيا والآخرة.

أما هؤلاء الذين أشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا من أشياء وأحياء وأمـــوات، فتمتلـــئ حياتهم بالخوف والحزن، سواء من طواغيت الإنس والجن، أو من الأوهام والأباطيل فهـــم فى خوف من أشباح غير حقيقية لا تستحق الاهتمام من العقلاء، بل العاقل من خاف مـــن الله الحق فلا يشرك به ما لم ينزل به سلطانا. والشرك بذلك سبب رئيـــسى فى حبـــوط أعمـــال المشركين وأفول حضارتهم، ثم يوكل الله شرف إبلاغ الرسالة إلى قوم آخرين.

وحتى لو أمهل الله الكافرين، وحتى لو أملى لهم ففتح عليهم أبواب كل شىء، فإن مصير الأفراد غير مصير المجتمعات. فالموت آت لا ريب فيه ويحم بالإنسان دون إنذار، وعندئذ يترك كل ما بيده من الدنيا، حيث لا تنفعه شفاعة، ولا يؤازره ما كان يعبد من دون الله، فـــتنزع الملائكة روحه وتلقى بها إلى عذاب الهون جزاء افترائه واستكباره.

وقد كان هذا هو الأسلوب العلمى الذى يهتدى به الراشدون فى المعرفة الحقة. وقد كـــان هذا منهج إبراهيم عليه السلام وهو يعلم قومه ويهديهم سبيل الرشاد. وهى الحجة التى أتاهـــا الله إبراهيم على قومه، ومنهج الأنبياء وأتباعهم من قبله ومن بعده لإقامة الحجة على العبـــاد. وكان تكريم الله لهم بالهداية والأمان، وتشريفهم بالكتاب والحكم والنبوة، فجعلهم الله منارات للهداية، ورموز للاقتداء على مدار الزمان.

يقول تعالى: ﴿ وعندَهُ مَفَاتحُ الغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إلاَّ هُوَ ويَعْلَمُ مَا فِي البَرِّ والْبَحْـــرِ ومَـــا تَسْقُطُ من ورَقَة إلاَّ يَعْلَمُهَا ولا حَبَّة فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ ولا رَطْبٍ ولا يَابِسٍ إلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِين (٥٩)﴾

لا إله إلا الله

"وأشهد أن لا إله إلا الله كلمة قامت بها الأرض والسموات، وخلقـــت لأجلـــها جميـــع المخلوقات، وبها أرسل الله رسله، وأنزل كتبه، وشرع شرائعه، ولأجلـــها نـــصبت المـــوازين ووضعت الدواوين، وقام سوق الجنة والنار، وبها تقاسمت الخليقة إلى المؤمنين والكفار، والأبرار

والفجار، فهى منشأ الخلق، والأمر والثواب والعقاب، وهى الحق الذى خلقت له الخليقة، وعنها وعن حقوقها السؤال والحساب، وعليها يقع الثواب والعقاب، وعليها نصبت القبلة وعليها أسست الملة، ولأجلها جردت سيوف الجهاد. وهى حق الله على جميع العباد، فهى كلمة الإسلام ودار السلام، وعنها يسأل الأولون والآخرون. فلا تزول قدم للعبد بين يد الله حتى يسأل عن مسألتين: ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتم المرسلين؟ فجواب الأولى بتحقيق لا إله إلا الله معرفة وإقرارا وعملا، وجواب الثانية بتحقيق أن محمد رسول الله معرفة وإقرار وانقياد وطاعة ".[1]

فحقيقة لا إله إلا الله هى المحور الذى يدور عليه الكون والحياة، حيث سنة الله لا تتبدل، وكل ما فى الكون خاضع لمشيئة الله، القمر يدور حول الشمس فنعرف حساب الزمان، والنبات والحيوان خاضعان لسنة فى نموهما وبقائهما. الله هو الذى يخرج الحب من النوى والحى من الميت والنهار من الليل. ويسقط المطر فيخرج به الحب والنخل والعنب والزيتون والرمان. والنظر إلى ثمره وينعه، يرينا آيات الله الباهرة.

يقول تعالي: ﴿ **ذَلكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وكِيلٌ (١٠٢)** ﴾

ويقول سبحانه: ﴿ **اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (١٠٦)** ﴾

فالأمة المستخلفة من الله فى الأرض تقيم حضارتها على توحيد الله وتتريهه عن الشرك واجتناب الفواحش ومنها الزنا وقتل النفس، والإحسان إلى الوالدين، ورعاية اليتيم والمحافظة على ماله، والقسط فى المعاملات، والعدل فى القول، والوفاء بالعهد.

وينتج عن هذا التحرير الكامل للبشر من أشباح الخوف من الأوهام والحزن على المتاع القليل، ويبث فى النفوس كل عوامل الأمن والاطمئنان.

وسورة الأنعام تبين القيم العليا التى تشكل الحضارة الإسلامية وأعظمها التوحيد الخالص، وهو أهم وأول الوصايا التى نزلت فى السورة. فهو قاعدة كل علم حق وكل حضارة صالحة، فأى علم لا يقوم على أساسه علم باطل لا يتجاوز الدنيا بمتاعها القليل وعمرها القصير. وأى عمل لا يدور حول محوره إنما هو عمل حابط لأنه يصطدم بسنن تدير الكون كله فى حركته ونحو غايته.

---

(١) ابن القيم، زاد المعاد ج٢، ص ٤٠٣، المطبعة المصرية.

فعقيدة (لا إله إلا الله) التي تكشف للمؤمن حقيقة الوجود، وتحدد له رسالته التاريخية مـــا تكاد تستقر فى الضمير حتى تحرك صاحبها لتحقيق واقع محدد المعالم، مطلوب إنشاؤه بحافز لا يهدأ حتى يقام،. فهو يقيم الشهادة أولاً فى نفسه بأن يطابق بين واقع حياته وبين ما يعتقــد، ويطابق بين مجتمعه وبين ما يهدف إليه الدين من غايات وما يحققه من قيم، ويدعو إليها الناس جميعا حتى يتحرر العباد من كل ظلم وقهر واستبداد.

ومن أجل ذلك خلقت السماوات والأرض، وتوالى الليل والنهار، وسيرت الرياح ونـــزل المطر، وأخرج الحى من الميت والميت من الحى، واستخلف الإنسان فى الأرض.

والسورة تقدم حقيقة التوحيد على محورين:

١- توحيد الله فى عالم الغيب، فهو الرازق الذى يطعم ولا يطعم، وهو النافع الضار، وهو المحيى المميت. وأى نسبة لهذه الفاعلية لشىء أو حتى معناه شرك بالله وفساد فى الاعتقاد. وبعد عن الحق.

٢- توحيد الله فى عالم الشهادة. فلا تشريع إلا من الله، وإذا أحل البشر ما حـــرم الله، أو حرموا ما أحل الله، فقد أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا.

عبرة التاريخ

تقدم السورة في قصة إبراهيم عليه السلام نموذجا لأسلوب الاستدلال علي الإيمـــان بـــالله تعالي، وذلك باستخدام العقل والحس في النظر إلي الحكمة في خلق السموات والأرض.

اعلم أنه سبحانه كثيرا ما يحتج على مشركى العرب بأحوال إبراهيم عليه السلام، وذلـــك لأنه يعترف بفضله جميع الطوائف والملل، فالمشركون كانوا معترفين بفضله مقرين بأنهم مـــن أولاده، واليهود والنصارى والمسلمون كلهم معظمون له معترفون بجلال قد ره. فلا جرم ذكر الله حكاية حاله فى معرض الاحتجاج على المشركين.

يقول تعالى:﴿ **وإذْ قَالَ إبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إنِّي أَرَاكَ وقَوْمَـــكَ فـــي ضَلال مُّبِين (٧٤) وكَذَلِكَ نُرِي إبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ ولِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى القَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِـــنَ القَـــوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧)**﴾

" الملكوت هو الملك، والتاء للمبالغة، كالرغبوت من الرغبة والرهبوت من الرهبة.

وكانت الإراءة بعين البصيرة والعقل، لا بالبصر الظاهر والحس الظاهر واحتج القـائلون بهذا القول بوجوه:

أ- أن ملكوت السموات عبارة عن ملك السماء، وقدرة الله لا ترى، إنما تعرف بالعقل، وهذا كلام قاطع، إلا أن يقال المراد بملكوت السماوات والأرض نفس السموات والأرض، إلا أن على هذا التقدير يضيع لفظ الملكوت ولا يحصل منه فائدة.

ب- أنه تعالى ذكر هذه الإراءة فى أول آية على سبيل الإجمال وهو قولـه: ﴿ وكَـذَلكَ نُرِي إبْرَاهِيمَ﴾ ثم فسرها بعد ذلك بقوله: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً﴾

فجرى ذكر هذا الاستدلال كالشرح والتفسير لتلك الإراءة. فوجب أن يقـال إن تلـك الإراءة كانت عبارة عن هذا الاستدلال.

ج- أنه تعالى قال فى آخر الآية: ﴿ وتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِه﴾، والرؤيـة بالعين لا تصير حجة على قومه، لأنهم كانوا غائبين عنها، وكانوا يكذبون إبراهيم فيها ومـا كان يجوز لهم تصديق إبراهيم فى تلك الدعوى إلا بدليل منفصل ومعجزة باهرة، وإنما كانت الحجة التى أوردها إبراهيم على قومه في الاستدلال بالنجوم من الطريق الذى نطق به القرآن. فإن تلك الأدلة كانت ظاهرة لهم، كما أنها كانت ظاهرة لإبراهيم.

د- إن إراءة جميع العالم تفيد العلم الضرورى بأن للعالم إلها قادرا على كـل الممكنـات. ومثل هذه الحالة لا يحصل للإنسان بسببها استحقاق المدح والتعظيم.

ألا ترى أن الكفار فى الآخرة يعرفون الله تعالى بالضرورة وليس لهم فى تلك المعرفة مـدح ولا ثواب. وأما الاستدلال بصفات المخلوقات على وجود الصانع وقدرته وحكمته فذاك هو الذى يفيد المدح والتعظيم.

هـ- أن اليقين عبارة عن العلم المستفاد بالتأمل، إذا كان سبوقا بالشك. وقوله تعالى: ﴿ ولِيَكُونَ مِنَ المُوقنينَ﴾، كالغرض من تلك الإراءة، فيصير تقدير الآية: نرى إبراهيم ملكـوت السماوات والأرض لأجل أن يصير من الموقنين. فلما كان اليقين هو العلم المستفاد من الدليل، وجب أن تكون تلك الإراءة عبارة عن الاستدلال.

قوله تعالى: ﴿ وحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وقَدْ هَدَانِ ولا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ به إلاَّ أن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً وسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ ولا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ به عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بالأَمْنِ إن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) الَّذِينَ آمَنُوا ولَمْ يَلْبِسُوا إيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وهُم مُّهْتَدُونَ (٨٢) وتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِه نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣)﴾

وعندما أتى إبراهيم عليه السلام بهذه الحجة القاطعة التى لا يمكن إنكارها، تمسك قومه بالضلال وأصروا عليه، بل خوفوه بغبائهم أن تضره وتؤذيه الأصنام التى لا تضر ولا تنفع، فقال لهم إبراهيم عليه السلام: وكيف أخاف الأصنام التى لا خطب لها، وهى حجارة وخشب، إذا أنا نبذتها و لم أعظمها، ولا تخافون أنتم من الله عز وجل، وقد أشركتم به فى الربوبية أشياء لم يترل بها عليكم حجة؟

ثم تساءل على جهة التقرير: من أحق بالأمن؟ ثم أجاب: إن ذلك ليس إلا للمؤمن الذى نزه إيمانه عن الشرك.

ولذا نزل قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ولَمْ يَلْبِسُوا إيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾،شق ذلك على المسلمين فقالوا يارسول الله، وأينا لا يظلم نفسه؟ قال: ليس ذلك، إنما هو الشرك، ألم تسمعوا ما قال لقمان لابنه: ﴿ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان]: [١].

ويتحقق الأمن فى واقع مجتمع التوحيد بما يلى:

١- توحيد الله تعالى فى عالم النفع والضر يحرر الإنسان من الخوف على حاجته، سواء كان هذا الخوف من خزعبلات خرافية أو من طواغيت سلطانية. فيتحرر من كل عوامل الخوف.

٢- توحيد الله تعالى فى الرزق، يحقق للمؤمن تحررا من الخضوع لغير الله حيث لا يملك أى شيء أو حى دفع الرزق إليه. وهنا لا يفرح بما أوتى ولا يحزن على ما فاته.

٣- توحيد الله فى العبادة يحرر الإنسان من ضغوط وهمية اخترعها أصحاب مصلحة ليضمنوا ولاء العامة لهم بتخويفهم بالخرافات والاستفادة من هذا الخوف بالمال والجاه.

٤- التوحيد يحرر الناس من هؤلاء المفترين الذين شرعوا للعباد بغير ما أنزل الله فحرموا طيبات أحلت للناس من بهيمة الأنعام وغيرها.

---

(١) الألباني، صحيح سنن الترمذي ج ٣، ص ٤٩.

٥- توحيد الله فى التشريع يحرر العباد من الخبائث التى تضر أجسادهم وأرواحهم، كالميتة والدم ولحم الخنزير، ويرد باطل شياطين الإنس والجن الذين يحلون ما حرم الله بغيا وافتراء.(١)

موضوع السورة

تبين السورة على هذا الأساس نقطة الافتراق بين الصراط المستقيم الذى خطه الله كسبيل لمسيرة المؤمنين، والفرق الشتى المتعددة، والشيع المتناحرة، والسبل الشتى التى يشقى فيها الكافرون باتباعهم سبيل المجرمين.

فهناك نوعان من السبل: سبيل المجرمين وسبيل المؤمنين، وعليه يفترق الطريق بين نوعين من الحضارات، الحضارة التى تقوم على تقوى الله وطاعته، فتنشئ الإبداع المادى فى حضن القيم الإيمانية، وتعيش حياتها وهى ترنو إلى الآخرة، فيكفل لها الله حياة طيبة فى الدنيا وجزاء حسنا فى الآخرة، ونوع آخر من الحضارات تكون كل غاياتها محصورة فى شهوات الدنيا، وتجعل هذا الهدف هو محل اهتمامها الوحيد.

يقول تعالي: ﴿ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٢٩)﴾ وهنا يملى الله لهم ويزيدهم من شهواتها، حتى إذا فرحوا بما أوتوا كان الأخذ أشد إيلاما فى الدنيا ولعذاب الآخرة أشق. وعذاب الدنيا يكون كما تبين السورة، بعذاب من السماء أو الأرض أو انتشار الفتن والصراع بين بعضهم البعض، أو الحروب التى يذيق بعضهم فيها بأس بعض. وهنا تؤكد السورة أن هلاك الحضارات يكون بالذنوب من أصحابها.

وهذه نقطة الافتراق بين الاستمتاع الحلال والاستمتاع الحرام، إن عوامل الاستقرار وعوامل الاضطراب، بين آفاق الرحمة وآفاق العذابفطريق الإسلام هو الطريق الوحيد للحضارة، والانحراف عن الإسلام يؤذن بانهيار الحضارة وشقاوة أهلها، لأنهم اتبعوا السبل فتفرقوا واختلفوا

يقول تعالي: ﴿ **الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٩)** ﴾

ويقول تعالي: ﴿ **وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ (١١٦)** ﴾

---

(١) الرازى، ، مفاتيح الغيب ج ١٣ ص ٥٣-٥٥.

ويقول سبحانه: ﴿ وأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ ولا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣)﴾

سبيل المجرمين:

إن قيمة الإيمان لا تتعلق بقيمة من قيم الأرض، فلا يعطاها إنسان لأنه ذو جاه أو مال، وإنما يعطيها الله لمن اطلع على سريرته، وعلم صدقه، فثبته على الحق، وإن كان ضعيفاً تزدريه الأعين. وهذا يشعل الغيظ فى قلوب المستكبرين فيجحدون البينات، ويعاندون الحق. إنه ليس يمنعهم عن الإيمان نقص الحجة والبرهان، وإنما المكابرة والعناد الصفيق. ومن ثم يستعينون بالاستهزاء والسخرية، بديلا عن التبين والتفكر.

"والمشركون على أصناف: منهم عبدة أصنام، أشركوا فى العبودية لا فى الخلق، ومنهم آزر الذى حاجه إبراهيم- عليه السلام- ومنهم عبدة الكواكب، وهم فريقان: منهم من قال: هى واجبة الوجود، ومنهم من قال: ممكنة، خلقها الله وفوض إليها تدبير هذا العالم الأسفل، وهم الذين حاجهم إبراهيم- عليه السلام- بالأفول، ومنهم من قال: لهذا العالم كله إلهان: فاعل خير، وفاعل شر، وقالوا: إن الله وإبليس أخوان، فالله خالق الناس والدواب والأنعام، وإبليس خالق السباع والحيات والعقارب والشرور، ويلقبون بالزنادقة وهم المجوس، لأن الكتاب الذى زعم زردشت أنه نزل من عند الله سمى بالزند "[1].

ومن هنا افتتحت السورة فى آياتها الثلاث الأولى، وفى قصة إبراهيم- عليه السلام- بالحجج الدامغة على فساد عقيدة الثنوية التى كان يؤمن بها أهل فارس. فالذى خلق السموات والأرض هو الذى خلق النور والظلمة، فهو سبحانه فالق الإصباح، وهو تعالى الذى جعل الليل سكنا.

" وتذكر آيات السور قبح طريقة المشركين فى إنكار البعث... وظلمهم وجهالاتهم وأباطيلهم وسخافة عقولهم بوضعهم الأشياء فى غير مواضعها، وإخراجها عمن هى له، ونسبتها إلى من لا يملك شيئاً، ومن قتل الأولاد وتسييب الأنعام وتحريم ما رزقهم الله افتراء عليه وغير ذلك.

وذكر تعالى فى السورة تفاصيل سفاهة المشركين، وأشار إلى معانيها، وصرح بما أثمرته من الخيبة، وتؤزهم الشياطين الذى يتكلمون على ألسنة الأصنام أو سدنتها إلى ذلك أزا. ولما كان

(١) برهان الدين البقاعى: نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور، ص ٦٨٧، ٦٨٨. دار الكتب العلمية ١٩٩٥.

السفه منافياً لرزانة العلم، الذى لا يكون الفعل الناشئ عنه إلا عن تأن وتدبر وتفكر وتبصر، وهم بسفاهتهم خسروا ثلاث خسرات، مع إدعائهم غاية البصر بالتجارات: النفس بقتل الأولاد، والمال بتحريم ما رزقهم الله، فأفادهم ذلك خسارة الدين.

ولما كان مدار القرآن على تقرير التوحيد والنبوة وتوابعها، والمعاد والقضاء والقدر والفعل بالاختيار، وأتقن تقرير هذه الأصول لاسيما فى هذه السورة، وانتهى إلى شرح أحوال السعداء والأشقياء، وعجَّب سبحانه ممن أشرك وأنكر البعث وفعل أفعال المشركين تعجيباً بعد تعجيب، وهجن طريقتهم ووبخهم توبيخاً فى إثر توبيخ بتكذيبهم للداعى من غير حجة، وحكى أقوالهم الباطلة ودعاويهم الفاسدة، مع ادعائهم أنهم أبصر الناس، وبطلبهم للآيات تعنتا، مع إدعائهم أنهم أعقل الناس، وإخلاصهم فى الشدة وإشراكهم فى الرخاء، مع إدعائهم أنهم أشكر الناس، وعبادتهم للجن وتعوذهم بهم، مع إدعائهم أنهم أشجع الناس إلى أن عجَّب منهم فيما شرعوه لأنفسهم فيما رزقهم سبحانه من حيوان وجماد، ومضوا عليه خلفا عن سلف تنبيها على ضعيف عقولهم وقلة علومهم، وتنفيراً للناس من الالتفات إليهم والاغترار بأقوالهم.. وبين تعالى عظيم ملكه، وشمول قدرته، وباهر اختياره وعظمته، زيادة فى التعجيب منهم فى تصرفه فى ملكه بغير إذنه سبحانه، وشرعهم ما لم يأذن فيه، فى سياق كافل بإقامة الحجة على تقرير التوحيد "[1].

وتقسم السورة ظلمات الشركين إلي نوعين: شرك في عالم الغيب، وشرك في عالم الشهادة:

١- الشرك في عالم الغيب:

يقول تعالى ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ (١٠٠)﴾

من المشركين من قال أنه لجملة هذا العالم، بما فيه من السموات والأرضين إلاهان: أحدهما فاعل الخير، والثانى فاعل الشر.. واعلم أن المجوس قالوا: كل ما فى العالم من الخيرات فهو من يزدان، وجميع ما فيه من الشرور فهو من أهرمن، وهو المسمى بإبليس فى شرعنا.. فأثبتوا لله شريكا هو إبليس.. وكانوا يقولون عسكر الله هم الملائكة وعسكر إبليس هم الشياطين.. والله مع عسكره من الملائكة يحاربون إبليس مع عسكره من الشياطين.. فأثبتوا لله شركاء من الجن.

(١) البقاعي: نظم الدرر جـ ٢، ص ٧٢٠.

وكان الكفار يقولون الملائكة بنات الله.. وهى مدبرة لأحوال العالم، وهكذا بين الله تعالى عن قوم أنهم أثبتوا إبليس شريكا له تعالى، ثم بعد ذلك حكى عن أقوام آخرين أنهم أثبتوا لله بنين وبنات، أما الذين أثبتوا البنين فهم النصارى وقوم من اليهود، وأما الذين أثبتوا البنات فهم العرب الذين يقولون الملائكة بنات الله.[1]

وخرقوا معناه افتعلوا وافتروا، وقد كان البعض يتصور أن هذه جاهليات قديمة لعقول متخلفة، حتى طلع علينا آخر القرن العشرين بطائفة تعبد الشيطان، وتتقرب إليه بارتكاب كل ألوان الفجور والانحراف، ولها طقوسها وخزعبلاتها التى جاوزت كل معقول، ودنست كل طاهر بدعوى إرضاء الشيطان. تقدست ذات الله وتنزهت عن الشريك والولد والصاحبة، تعالى الله عما يقولون علوا كبيراً.

٢- شرك فى عالم الشهادة:

هدى الله سبحانه وتعالى عباده إلى حكمه رحمة بهم، ولكن الشياطين يزينون للناس استباحة الحرام بألوان شتى من الفلسفات المزخرفة والأباطيل المموهة. وكتاب الله الذى أنزله لعباده تمت فيه كلمته تعالى صدقا فى القول وعدلا فى الحكم، وفى هذا الضمان الوحيد للقسط فى الدنيا والنعيم فى الآخرة، ولقد بين الله تعالى لهم فيه حقيقة الكون والحياة وفصل فيه الحلال والحرام، وبهذا حررهم من أوهام الشياطين ومن ظلم الحكام وقهر الأكابر وتزييف المجرمين، فلا يستطيعون التبديل أو التحريف.

ولقد امتلأت قلوب الشياطين من الجن والإنس بالحقد على المؤمنين، لتكريم الله لهم، ولاستعلائهم على الشهوات، مما لا يحقق لهم العلو والاستكبار. فشنوا حربا مشبوبة بتزيين الباطل لصرف البشر عن حكم الله بفلسفات زائفة من زخرف القول، يترددون فيها من إفراط إلى تفريط، ومن طغيان إلى خسران.

ولعلنا فى عصرنا هذا نرى بوضوح هذه الشعارات الجوفاء، والفلسفات الضالة، فى أوهام الليبرالية الغربية التى عدلت عن حكم الله، والاشتراكية المادية التى جعلت المادة وثنا معبودا. ورأينا كم سخرت أجهزة الإعلام لتضليل الناس، وزخرفت هذه الأفكار بالأباطيل، واستمر أكابرها فى ظلم العباد، والإجرام فى حق البشرية، حتى هوت الاشتراكية غير مأسوف عليها، مخلفة وراءها مآسى تقشعر منها الجلود. وتنهار الليبرالية الغربية اليوم بما شوهت به الإنسانية

(١) الرازى، مفاتيح الغيب ج ١٣ ص ٩٢-٩٥.

من انحلال ودعارة، وأشقت به العباد من استعمار واستكبار وحاولت إفساد صلاح الكـون بالأنانية والجشع.

وصفت إليها عقول ضائعة، همها في شهواتها، وخوفها أورثها الذل، لبعدهم عن الإيمـان بالله والإيمان بالآخرة، فرضوا بهذه الأباطيل واقترفوا بها كل إثم وفجور.

وهكذا نتج عن طاعة أكثر البشر من دون الله ما يصيب البشرية اليوم من مآسي وعذاب.، وما يهددها من مخاطر ومصائب.

يقول تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢) وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ (١١٣) أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١١٤) وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١١٥) وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ (١١٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١١٧)﴾

وتبين السورة أنواع الشرك بالله في عالم الشهادة، وذلك في الحكم والتشريع بغير ما أنزل الله وتبين أنواعه:

- استباحة الحرام كالميتة بزخرف القول غرورا، بدعوى أن ما أماته الله أحق أن يؤكل أكثر مما أماته الإنسان بالذبح.
- الذبح لغير الله تقديساً لظواهر الطبيعة أو لأموات أو لشياطين..

يقول تعالى: ﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ (١١٨) وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيراً لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ (١١٩) وَذَرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ (١٢٠) وَلاَ تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (١٢١)﴾

- تحريم الحلال من الحرث والأنعام بدون سلطان من الله.
- استباحة قتل البنات.

يقول تعالي: ﴿وجَعَلُوا لله ممَّا ذَرَأَ منَ الحَرْث والأنْعَامِ نَصيباً فَقَالُوا هَذَا لله بـزَعْمهِمْ وهَذَا لشُرَكَائنَا فَمَا كَانَ لشُرَكَائهِمْ فَلا يَصلُ إلَى الله ومَا كَانَ لله فَهُوَ يَصلُ إلَى شُرَكَائهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (١٣٦) وكَذَلكَ زَيَّنَ لكَثيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكينَ قَتْـلَ أَوْلادهـمْ شُـرَكَاؤُهُمْ ليُرْدُوهُمْ وليَلْبسُوا عَلَيْهمْ دينَهُمْ ولَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ ومَا يَفْتَرُونَ (١٣٧) وقَالُوا هَذه أَنْعَامٌ وحَرْثٌ حجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إلاَّ مَن نَّشَاءُ بزَعْمهِمْ وأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وأَنْعَامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ الله عَلَيْهَا افْترَاءً عَلَيْه سَيَجْزِيهم بمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣٨) وقَالُوا مَـا فـي بُطُون هَذه الأَنْعَامِ خَالصَةٌ لِّذُكُورِنَا ومُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجنَا وإن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فيـه شُـرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وصْفَهُمْ إنَّهُ حَكيمٌ عَليمٌ (١٣٩)﴾

ثم بين الله تعالى ما حرمه عليهم من ميتة ودم مسفوح أو لحم خنزير أو ما أهل لغير الله به، رعاية لطهارتهم وسلامتهم واحتراما لعقولهم، وبين ما حرمه على بنى إسرائيل من كل ذى ظفر وشحوم البقر والغنم إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم، وذلك عقوبة منه تعالى لهم على بغيهم، ورفع ذلك الإصر والأغلال عن المسلمين.

وحكمة التحريم: " طهرة الخلق من مضار أبدانهم ورجاسة نفوسهم ومجهلة قلـوبهم فمـا اجتمعت فيه كان أشد تحريما، وما وجد فيه شيء منها كان تحريمه بحسب.. فمن اغتذى بدنه من شيء ظهرت أخلاق نفس ذلك المغتذى به وأوصافه فى نفسه، ورين على القلب أو صفاء لتقوية ما يسمى عليه من ذكر الله أو كفر به بذكر غيره.. فالميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير رجس للنفس وما أهل لغير الله به فسق يرين على القلب.. وألحق بها فى هذه السورة الخمـر لأنه رجس كالخنزير.."[1].

الصراط المستقيم:

تبين السورة للمؤمنين سبيل التعامل مع أصناف الناس حسب اختلاف اعتقاداتهم وقيمهم:

- سبيل المؤمنين يقوم على إعلاء قيم الإيمان فوق قيم الدنيا، ومن هنا كان الاعتـزاز بالمؤمن وتكريمه واجب مهما كان حاله من الغنى أو الفقر، ومهما كان جاهه من رئاسـة أو سلطان. يقول تعالي: ﴿ ولا تَطْرُد الَذينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بالْغَدَاة والْعَشيِّ يُرِيدُونَ وجْهَهُ مَـا عَلَيْكَ منْ حسَابِهم مِّن شَيْءٍ ومَا منْ حسَابكَ عَلَيْهم مِّن شَيْءٍ فَتَطْـرُدَهُمْ فَتَكُـونَ مَـنَ الظَّالمِينَ (٥٢) وكَذَلكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم ببَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْننَا أَلَـيْس

(١) البقاعى: نظم الدرر جـ ٢، ص ٧٣٢- ٧٣٤.

اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (٥٣) وإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥٤)﴾

• من سبيل المؤمنين الإعراض. عن الذين يخوضون فى آيات الله، والابتعاد عن الذين يتخذون الدين هزواً ولعباً، مع تذكيرهم بسفاهة عقولهم وسوء مصيرهم.

يقول تعالي: ﴿ **وإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٦٨) وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَكِن ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٦٩)﴾**

• ترك الإساءة إلى الكفار حتى لا يسبوا بجهلهم مقدسات الإسلام، وعدم إثارتهم والبعد عن كل ما يزيدهم كفرا، والاقتراب منهم بكل وسيلة تشرح صدورهم للإسلام.

يقول تعالي: ﴿ **ولا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٠٨)﴾**

ولما أبطل تعالى دين الكافرين كله أصولاً وفروعاً فى التحريم والإشراك، وبين فساده بالدلائل النيرة، ناسب أن يخبرهم بالدين الحق مما حرمه الملك الذى له الخلق والأمر.. فليس التحريم لأحد غيره... فدعاهم إلى الخروج من حضيض الجهل والتقليد وسوء المذهب إلى أوج العلم ومحاسن الأعمال.

والآيات فى آخر السورة مرتبة جملها أحسن ترتيب:

١- فبدأ بالتوحيد، فى صريح البراءة من الشرك.

٢- وقرن به البر بالوالدين، لأنهما من باب شكر المنعم وتعظيماً لأمر العقوق... فلما وصى بأول واجب للمنعم الأول الموجد من العدم، أتبعه ما لأول منعم بعده بالتسبب فى الوجود، فأمر بالإحسان إليهما.

٣- ولما أوصى بالسبب فى الوجود نهى عن التسبب فى الإعدام، فنهي عن قتل الأولاد للفقر، فهو الرزاق لكم ولهم. والآباء موسرون ولكنهم يخشون الفقر، فبدأ بتأكيد رزق الولد قبل رزقهم.

٤- وأتبعه النهى عن مطلق الفواحش، وهى ما غلظت قباحته، وعظم أمرها بالنهى عن القربان، و لم يفرق بين الظاهر منها والباطن.

٥- ثم نهى عن مطلق القتل تنفيراً منه.

ولما كانت هذه الأشياء شديدة على النفس ختمها بما لا يقوله إلا المحب الشفوق، ليتقبلها القلب حين يوصى من يحب، ولما كانت هذه الأشياء لعظيم خطرها وجلالة وقعها فى النفوس، لا تحتاج إلى مزيد فكر فهى بذلك منهاج العقلاء.

٦- ولما كان المال عديل الروح من حيث إنه لا قوام لها إلا به، ابتدأ الآية التى تليها بالأموال، ولما كان أعظمها خطراً وحرمة مال اليتيم لضعفه وقلة ناصره ابتدأ بالنهى عن قربه، فضلاً عن أكله إلا بالتى هى أحسن كتثميره ليحفظ المال حتى بلوغ اليتيم.

٧- ثم ثنى بالمقادير من كيل ووزن، لأنهما الحكم فى أموال الأيتام وغيرهم بميزان العدل الذى لا إفراط فيه ولا تفريط.

٨- العدل فى الشهادة والحكم. ولما كانت النفوس مجبولة على الشفقة على القريب، أمر بألا يحابى طمعاً فى مناصرته أو خوفاً من مضارته.

٩- ثم ختم بالعهد لجمعه الكل فى القول والفعل، فأمر بالوفاء بكل ما على الإنسان وله.

١٠- وختم هذه الآيات أيضاً بالتوصية منه تعالى لهم على ذلك، وهو المحسن إليهم فيما أنعم به. وحض على تذكر هذه الوصية، فتحبون لغيركم ما تحبونه لأنفسكم، وتحكمون لهم بما ترضونه حكماً لأنفسكم "[1].

يقول تعالي: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً ولا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وإِيَّاهُمْ ولا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا ومَا بَطَنَ ولا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) ولا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وأَوْفُوا الْكَيْلَ والْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وسْعَهَا وإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا ولَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ ولا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣)﴾

هذه وصايا الله لقيام الحضارة الصالحة، حيث ترتفع قيم العدل والإحسان، والعفة والأمان، وهذه الوصايا هى الامتحان والابتلاء الذى يختبر به الإنسان، والتى من أجلها خلقت السموات والأرض والجنة والنار، وهى رسالة الإنسان فى الكون والحياة، التى على أساسها جعل الناس خلائف، وعلى وقائعها يكون العقاب والثواب. من أحسن ضوعف له فى الحسنات، ومن أساء فلا يجزى إلا بقدر إساءته، وما ربك بظلام للعباد.

---

(١) البقاعى: نظم الدرر جـ ٢، ص ٧٤٠- ٧٤٣.

" ثم تختم السورة بتسبيحة التوحيد المطلق، والعبودية الكاملة، تجمع الصلاة والاعتكاف والمحيا والممات وتخلصها لله وحده، لله رب العالمين، القوام المهيمن المتصرف المربى الموجه الحاكم للعالمين، فى إسلام كامل لا يستبقى فى النفس ولا فى الحياة بقية لا يعبِّدها لله".(1)

يقول تعالي: ﴿ **قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦١) قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبّاً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (١٦٤) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٦٥)** ﴾

المناسبة

"ذكر الله تعالى فى السورة الخلق والإنشاء لما فيهن من النيِّرين (الشمس والقمر) والنجوم، وفلق الإصباح، وفلق الحب والنوى، وإنزال الماء وإخراج النبات والثمار بأنواعها، وإنشاء جنات معروشات، وغير معروشات، والأنعام ومنها حمولة وفرش، وكل ذلك تفصيل لملكه..

ولما كان المقصود من هذه السورة بيان الخلق والملك أكثر فيها من ذكر الرب، الذى هو بمعنى المالك والخالق والمنشئ، واقتصر فيها على ما يتعلق بذلك من بدء الخلق الإنسانى، والملكوتى، والملكى، والشيطانى والحيوانى والنباتى..

ولما ذكر تعالى فى سورة المائدة طيبات ما أحل لنا، ثم ذكر بعده أنه تعالى لم يجعل من بحيرة ولا سائبة ولاحام، فأخبر الكفار أنهم حرموا أشياء مما رزقهم الله، افتراء على الله، وكان القصد بذلك تحذير المؤمنين أن يحرموا شيئاً مما أحل الله، فيشابهوا بذلك الكفار فى صنيعهم، وكان ذكر ذلك على سبيل الإيجاز. ساق هذه السورة لبيان ما حرمه الكفار فى صنيعهم، فأتى به على الوجه الأبين، والنمط الأكمل، ثم جادلهم فيه، وأقام الدلائل على بطلانه، وعارضهم وناقضهم إلى غير ذلك مما اشتملت عليه القصة. فكانت هذه السورة شرحاً لما تضمنته المائدة من ذلك على سبيل الإجمال. وتفصيلاً، وبسطاً وإتماماً وإطناباً. وافتتحت بذكر الخلق والملك،

---

(1) سيد قطب: فى ظلال القرآن جـ ٣، ص ١٢٤٠، ١٢٤١.

لأن الخالق والمالك هو الذى له التصرف فى ملكه ومخلوقاته إباحة ومنعاً، وتحريماً وتحليلاً.
فيجب أن لا يتعدى عليه بالتصرف فى ملكه.. وكل ربع من القرآن افتتح بسورة أولها الحمد:
فأول القرآن سورة الحمد لله الفاتحة.
والربع الثانى الحمد لله الأنعام.
والربع الثالث، الحمد الله الكهف.
والربع الرابع الحمد لله سبأ وفاطر.
وجميع هذه الوجوه التى استنتجتها من المناسبات بالنسبة إلى أسرار القرآن كنقطة فى بحر".[1]

(١) السيوطى، تناسق الدرر فى تناسب السور ص ٥٠- ٥٣ دار الكتاب العربى ١٩٨٣ م.

تفسير الحضارات والتاريخ
كما تبينه
سورة الأعراف

تفسير الحضارات والتاريخ
كما تبينه سورة الأعراف

مقدمة

بينما عنيت سورة الأنعام بتبيان الأساس العقدى لقيام الحضارات واندحارها، فإن سورة الأعراف تبين تفسير هذه الحقيقة على مسار التاريخ الإنسانى من البداية حتى النهاية.

ومن المفيد للإنسان أن يذكر الماضى وهو يتطلع إلى المستقبل، ويرى من عثرات السابقين ما يحميه من السقطات. وهذا هو مغزى تفسير التاريخ.

نظريات تفسير التاريخ

ولقد احتلت دراسة التاريخ مكانة هامة بين مختلف فروع المعرفة الإنسانية من قديم، ومن ثم كان السؤال: هل التاريخ بهذا المعنى علم من العلوم أو فن من الفنون؟ بمعنى: هل يمكن وضع التاريخ الإنسانى فى قانون كقانون الجاذبية شأنه شأن بقية العلوم التجريبية؟ أم أن للإنسان خصيصة تستعصى فى كثير من جوانبه على الحتمية؟ هل هناك حتمية للسلوك والمشاعر وفق المصالح والرغبات؟ وهل السلوك والمشاعر محكومان بمحيط من البيئة والإمكانات، أم أن هناك مساحة من الحرية يستعصى فيها الإنسان على هذه الحتميات؟ وهو ترداد لنفس سؤال قديم: هل الإنسان مسير أم مخير؟

كما أن المحللين لنظريات تفسير التاريخ يقسمونها أيضاً إلى قسمين: تحليل يحاول العثور عليها من خلال أحداث مستقلة أو شخصيات منفردة، وتحليل يحاول العثور على التفسيرات من خلال دورات منتظمة، حيث يرى أن التاريخ عبارة عن مجموعة من الدورات التى لابد أن تنتهى بالانحلال والتفكك والكوارث، ومن مؤيدى هذا التفسير المؤرخ العربى ابن خلدون الذى يرى أن كل دولة يجب أن تمر بعدة أدوار هى دور العمران، ثم دور القوة والازدهار، ثم دور الضعف والانحلال، ومن هؤلاء أيضاً شبنجلر فى هذا القرن، حيث يعتقد أن التاريخ مسرح لعدد كبير من الحضارات، وتاريخ كل حضارة كتاريخ الكائن العضوى، أى أنها تنشأ وتنضج ثم تذبل وتموت. وكما أن سياق الحياة واحد بالنسبة للكائنات الحية فللحضارات

سياق واحد تسير عليه، فالتاريخ إذن إنما هو مجموعة دورات حياة حضارية، ولكل حضارة دورة حياة مقفلة، ولها سماتها الخاصة بها.

والمؤرخ الإنجليزى توينبى يرى أن الحضارة تنشأ بالتحدى، عندما تتحدى ظروف المجتمع وتنشأ أقلية مبدعة تتولى الرد على هذا التحدى عن طريق القيام بالاستجابة اللازمة لذلك، أى أن نشوء الحضارة هو عملية تحد واستجابة، وأن تاريخ البشرية إنما هو سلسلة من التحديات والاستجابات [1].

ولقد تبلورت فى القرن التاسع عشر معظم نظريات التفسير التاريخى، ولو أن عدداً من هذه النظريات لها جذور تعود إلى عصور قديمة. ويمكن إجمالا تقسيم هذه النظريات إلى نظريات مثالية، ونظريات مادية،. وأخيراً تفسيرات دينية، ونلخصها فيما يلى:

١- النظريات المثالية:

ويمكن عرضها فى تفسيرين:

(أ) التفسير البطولى للتاريخ: وهو يعنى أن أعمال الرجال العظماء هى التى تصنع الحوادث التاريخية فى هذا العالم. ومن أشهر المدافعين عن نظرية التفسير البطولى للتاريخ توماس كارليل، المؤرخ الإنجليزي فى القرن التاسع عشر، والذى بلور نظريته فى كتابه الأبطال، حيث يقول: " فى اعتقادى أن التاريخ العام تاريخ ما أحدث الإنسان فى هذا العالم، إنما هو تاريخ من ظهر فى الدنيا من العظماء. فهم الأئمة وهم المكيفون للأمور وهم الأسوة والقدوة، وهم المبدعون لكل ما وفق إليه أهل الدنيا، وكل ما بلغه العالم، وكل ما نراه فى هذا الوجود "[2].

وهكذا انتهى هذا التفسير إلى اعتبار الإنسان إلها، يحرك هذا الكون ويحدد مسار التاريخ، ولعمرى لو كان هذا صحيحاً ما شقى الناس كل هذا الشقاء.

(ب) التفسير المثالى للتاريخ: ويعتبر أن الفكر أو العقل أساس كل ما هو موجود، ومن أنصار هذا الرأى هيجل فى القرن التاسع عشر، فالعقل فى نظر هيجل جوهر التاريخ، وأن كل شيء فى التاريخ يجرى بشكل عقلانى. ففلسفة التاريخ تسير فى مسار واحد مستقيم طيلة الزمن، وإن هذا المسار يمر بالإنسان الذى انتقل من حالة التوحش إلى المستوى القانونى، وتاريخ البشرية كله يمكن أن يوصف بأنه عملية طويلة استطاعت الإنسانية خلالها أن تحرز

(١) نور الدين حاطر وآخرون: موجز تاريخ الحضارة، جـ ١، ص ١٧، ١٨، مطبعة الكمال، دمشق ١٩٦٥.

(٢) توماس كارليل: الأبطال، ترجمة محمد السباعى، دار الكاتب المصرى، بيروت، ص ١٥.

تقدماً روحياً وأخلاقياً، وذلك عن طريق العقل البشرى، وهكذا يرى هيجل بأن هنـــاك إرادة مخططة وراء الحوادث التاريخية [1].

ويرى هيجل أن الفكرة التى عرفت نفسها بالقوة أرادت أن تعرف نفسها بالفعل، وذلك عن طريق المرور فى الضد وهو الطبيعة التى لا تعقل، لتصل إلى إدراك ذاتها فى وعى الإنـــسان ومؤسساته... والله وهو العقل المطلق، يتجلى فى الموجودات على سنة مطردة هى الـــصيرورة التى توفق بين الوجود المطلق والعدم [2]. سبحانه وتعالى عما يقول من بهتان.

وهكذا أصبح الكون المادى وهما يصيغه الفكر كما يريد، وأصبح العقل إلهاً يتجلى عـــن طريق العقل الإنسانى ومؤسساته فى العصر الحديث عند هيجل.

٢- النظريات المادية:

ويمكن جمع هذه النظريات فيما يلى:

(أ) التفسير الجغرافى للتاريخ: وهؤلاء يفسرون التاريخ وفق عامل واحـــد هـــو العامـــل الجغرافى، ومنهم الفيلسوف الفرنسى مونتسكو فى القرن الثامن عشر، الذى ركز اهتمامه على تعليل التاريخ بأسباب كالمناخ.. يعزى إليه تقدم الحضارات البشرية أو انحلالها أو تأخرها [3].

(ب) التفسير المادى للتاريخ: ونادى بذلك كارل ماركس فى نظريته عن المادية التاريخية. حيث يعلى ماركس من شأن المادة، ويعتبرها أصل الحياة، والمحرك الأول لها قوة الإنتاج الـــتى أعطاها خاصية التطور الجدلى الذاتى، وهنا طبق ماركس القوانين الهيجلية التى ترى أن الحركة تتم عن طريق التناقض والصراع، حيث يخرج من باطن الشىء الذى اجتمع فيه مع نقيـــضه، شىء ثالث مختلف عنهما. وهكذا يتحرك التاريخ فى حركة متعرجة ومتطورة، وأعطى لهـــذه الجدلية خاصية الحتمية التى لا يمكن معارضتها، وسمى إطاعة هذه القوانين وعى الضرورة.

---

(١) حان هيبوليت: مد خل إلى فلسفة التاريخ عند هيجل، ترجمة انكوان حمصى، ص ٤٣، مطـــابع وزارة الثقافـــة، دمـــشق ١٩٦٩.

(٢) رينيه سيرو: هيجل والهيجلية، ترجمة نهاد رضا، ص ٤٧، دار الأنوار، بيروت. أميل بريه: اتجاهات الفلسفة المعاصرة، ت. و.د.محمود قاسم ود. محمد القصاص، ص ٩٧. أندريه كريسون، إميل بريه، هيجل ت. د. أحمد كوى، ص ٢٢.

(٣) البان ج. ريدجرى: التاريخ وكيف يفسرون من كنفوشيوس إلى توينبى، ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد،ص ١٤٣، الهيئـــة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٢.

وطبق ذلك على التاريخ: حيث رآه يتحرك من عصر المشاعية وقوته الإنتاجية الحرية، إلى عصر العبودية وقوته الإنتاجية الإنسان العبد، وعصر الإقطاع وقوته الإنتاجية المحراث ورقيـــق الأرض، وعصر الرأسمالية وقوته الآلة، وأدوات الإنتاج هذه تخلق ثقافتها وعلاقتها الاجتماعية، وكل مرحلة تتناقض مع التي قبلها حتى تهزمها، أى إن السيطرة على طرق الإنتاج تقرر أيـــة طبقة وأية نماذج فكرية يمكن أن تسود فى فترة ما. ويرى أن الصراع المستمر بـــين الطبقـــات الاجتماعية المختلفة سيؤدى فى النهاية إلى انتصار البروليتاريا، أى طبقة العمال، حيث يتحقق عصر الشيوعية، وقوتها الإنتاجية الآلات الكبيرة، فتنتفى الملكية الفردية والاستغلال ويتحـــرر الإنسان. وهكذا ارتد ماركس بالإنسانية إلى عبادة الأشياء وظواهر الطبيعة، حيث أعطى لأداة الإنتاج قوة الخلق والتغيير [1].

وهكذا ترددت النظريات بين الإفراط فى تقديس المادة وإهدار الإرادة الإنسانية عن طريق ما ادعوه من حتمية وجبرية، وبين التفريط فيها وإعلاء شأن الإرادة الإنسانية بما أعطـــوه للإنسانية من صفات الأبطال. هكذا من ضلال إلى ضلال.

٣- التفسير الدينى للتاريخ:

التفسير الديني للتاريخ قديم، فعند اليونان وشعوب الشرق القديم اعتبروا حركة التاريخ خطة إلهية لخلاص العالم، تبدأ من بدء الخليقة حتى يوم القيامة. وظهر هـــذا التفـــسير فى تواريخ التوراة وفى كتابات الكنيسة المسيحية عن التاريخ، واستمر حتى كتابـــات تـــوينبى فى العصر الحديث. وتوينبى كان يعطى للدين والعرق والأقليات وأفذاذ الأفراد والجموع المحرومة دوراً هاماً فى عملية بناء الحضارة أو هدمها أو إحلال غيرها محلها فى كتابه " دراسة التاريخ"، ولكنه بعد الحرب العالمية الثانية أعطى المؤسسة الدينية أولاً ثم الاعتقاد الدينى ثانياً، الصدارة فى عملية التحدى لصنع الحضارة وإحلال حضارة محل أخرى.

يقول توينبي: " وإذن لا مناص لنا اليوم من أن نسائل أنفسنا ما هى أسس حضارتنا ؟ بأى المبادئ نؤمن؟ وإذا كانت هذه المبادئ قد تدهورت، فهل من سبيل لاستعادتها ؟ إن مبـــدأنا التقليدى هو تقديس الحرية الفردية، فكيف يكون هذا التقديس ؟ أول شروطه ألا نخلط بـــين أنفسنا وبين الإله، فإذا تشبه الإنسان بالله عبد نفسه، وحين يعبد الإنسان نفسه فهـــو ينـــشد السيطرة على المجموع ليستمد منه القوة. ومتى تحول المرء إلى عبادة نفـــسه وســـيطر علـــى

(1) Fundamemtals of Marxism-Leninism progress Publishers,Moscow١٩٦٤ p.١٦.

المجموع،فقد سلبهم حينئذ حريتهم وحولهم إلى عبيد، وعبادة الإنسان نفسه شيء تأباه المسيحية، ولقد ضحى الأولون بأنفسهم عمداً أيام قيام الإمبراطورية ليشهدوا الناس على أن المسيحية تأبى عليهم أن يكونوا عبيداً لقيصر، وكذلك الإسلام يأبى عبادة الإنسان، ومن قبل المسيحية والإسلام حرمت اليهودية عبادة الإنسان.

والتاريخ الإنسانى مؤلف من سلسلة من المواقف يتعين على الإنسان أن يختار بين المضي فى سبيل الله أو الانحراف عن هذا السبيل، وقد لوحظ أن حرية الإنسان تبلغ أقصاها حين يتم الاتصال بينه وبين الله، وتهوى إلى الحضيض حين ينأى الإنسان عن تعاليم الله وهديه"[١].

وفى هذا التفسير يتحرك الإنسان والجماعة مع هذا الكون فى حركة واحدة، تتضمن سنن الله وأوامره، التى على أساس طاعتها أو عصيانها يكون الجزاء فى الدار الاخرة، فهذا هو معنى الحياة وغايتها. وهو مقتضى الإيمان بوجود خالق، لهذا الكون وأنه سبحانه عليم حكيم، برهان ذلك ما نراه فى نظام الكون والحياة فلم يخلق الحياة عبثاً، وإنما لغاية يبتلى فيها الإنسان، ومن مقتضى هذه الحكمة أن تكون هناك آخرة يتم فيها الحساب، وإثابة الطائعين بالجنة ورضوان الله وعقاب العاصين بالنار وغضب الله[٢].

التفسير الإسلامى للتاريخ

الإنسان ككيان مادى يتغير ويتبدل حتى أنه لا يبقى منه شيء بعد سنين معدودة، ويظل هو الإنسان بعقيدته وخلقه وتاريخه، وتتداعى إلى العقل مع الصفة العقدية صورة نفسية وتصور محدد عن صاحبها إذا غاب أو حضر. إن الكيان المادى نسيج والعقيدة صبغته، فهو يتشكل بها ويأخذ أوصافه منها. والعقيدة حين تتشبع بها النفس تصدر عنها قيم بعينها، ومشاعر بعينها، بحيث يوصف الإنسان بها، ويتعرف عليه من خلالها. والعقيدة هى نقطة الافتراق بين الإنسان الراشد والحيوان الذى لا يفقه شيئاً، إن العقيدة تضع أقدامه على سر وجوده، فيحس أن لوجوده معنى، وأنه ليس مخلوقاً فقط للاستمتاع بالأكل والتلذذ بالشهوات، فهذه الحياة يشترك فيها مع الحيوان. وإنما يحيا فى اهتمامات كبيرة، ويمتلىء بآمال عظيمة، وتمتد ذاته إلى آفاق عريضة فى المكان والزمان.

---

(١) مجلة المجلات العلمية، أغسطس سنة ١٩٥٨ عن مجلة الكويكرز.

(٢) عماد الدين خليل: التفسير الإسلامي للتاريخ، ص ١٤، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٧٥.

وكما يتشكل الإنسان بالعقيدة، فإن النظام الاجتماعى والسياسى والاقتصادى ينمو من جذورها وعلى سوقها، كما يتفرع النبات ويورق ويثمر منها. ولقد أدركت الإنسانية ذلك بوضوح فى عصرها الحديث. فحيث انبثقت الحضارة الغربية من عقيدة تستبعد الله من مناهجها، وتعتبر الإنسان هو سيد الوجود، وأن حريته دون قيود غاية قصوى، تشكلت المؤسسات السياسية على ديموقراطية لا تضع حدوداً، حتى أن نواب إنجلترا أقروا الشذوذ الجنسى واعترفوا به. وتشكل نظامها الاجتماعى على الإباحية حتى تمزقت الأسرة وضاعت القيم، وتأسس نظامها الاقتصادى على الحرية فى المعاملات فأبيح الربا وأنشب الاحتكار مخالبه فى أحشاء الشعوب محلياً ودولياً ولم تفرق فى استهلاكها بين خبيث وطيب فأكلت الخنزير وشربت الخمر وتعاطت المخدرات.

ويوم أن تبنى المجتمع الروسى الشيوعية واعتنق فلسفة مادية وتفسيرا للكون والحياة يقوم على الصراع، تشكلت قيم فى المجتمع تقوم على الإلحاد، وتأسس نظام اجتماعى يقوم على الأحقاد ويدمر الامتياز، ونظام سياسى يقوم على الاستبداد والدكتاتورية، ونظام اقتصادى يقوم على الملكية العامة والتخطيط المركزى الذى يلغى الفرد ويقهره، وفى كل ذلك تأزم الواقع الاجتماعى وتعقدت النفوس ودمرت الفضائل، وكان مصير روسيا الانهيار بسلبية الإنسان فيها، ونرى فى الأفق القريب المصير المفجع للغرب وهو ينحدر نحو الهاوية لتدميره للإنسان فيه.

"وقد رأى المؤرخون حديثا بوضوح أن التاريخ ليس سياسة فقط، وإن من المستحيل أن نفصل السياسة عن الدين والدين عن الحياة الاجتماعية، والحياة الاجتماعية عن الأدب والفنون، وبصفة عامة أن نفرق بين الخيوط التى تمتزج معا لتكون نسيج ثقافة كاملة"[١].

إن الإنسان خلق من طين ثم كرمه الله بنفخة من روحه، وبذلك ألهمه الفجور والتقوى والهدى والضلال، فهو يصفو حتى يطاول السماء ويهبط حتى يكون كالأنعام، وهو فى صفاته يظل مشدوداً إلى الأرض، وفى كبوته يظل متطلعاً إلى السماء، وبهذا فى إمكانه أن يصلح أو أن يفسد.

إن الكون كما أراد الله يتميز بالتنوع والاختلاف، ولو ترك دون ضابط لتنافر وانحل، ولكن سنة الله تمسكه فى نظام. فهذا الكون من الذرة البسيطة إلى المجرة الضخمة يتحرك فيتخذ أشكالاً دائمة التغير والتحول والتطور، فالذرة لا تهدأ، والنجوم تتقد أو تخمد، والخلايا تتكون

---

(١) حلبرت هيمت: هجرة الأفكار- ترجمة سعد ريد ص ١٠٣.

وهدم، لا يعرف الكون السكون أبداً، والحال أيضاً فى الإنسان لا يتفق مع غيره فى الشكل أو الطبع بل متميز ومتنوع، وهو أيضاً فى حالة حركة، إما إلى شباب وإما إلى هرم، وكذلك المجتمعات متباينة مختلفة، وفى حركة دائمة، إما إلى حضارة أو إلى نكسة، إما إلى هدى أو إلى ضلال.

ولكن هذه الحركة التى فى الوجود، وفى الإنسان ومجتمعاته، لا تعمل كيفما اتفق، وإلا لتحول الوجود إلى فوضى تؤدى إلى اصطدامه وضياعه، ولكننا نرى تماسك الكون وانتظامه وتناسق الخلائق وانسجامها، وتتابع السنن وانتظامها. وذلك بإرادة رب قدير، إنه الله: ﴿ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه:٥].

والإنسان محكوم بهذه السنة فى حياته، محكوم بسنة التنفس ليحيا، وسنة الطعام ليعيش، وسنة الزواج ليمتد، لا يستطيع أن يوقف حركة دمه ولا دقات قلبه. هذه السنة هى قانون الله الذى يسلم له الكون به طوعا وكرهاً، ويذعن له كل شيء وكل حى رضى أم لم يرض،من أكبر سيارة فى السماء إلى أصغر ذرة فى الإنسان، يقول تعالى:

﴿ ولَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ والأَرْضِ طَوْعاً وكَرْهاً﴾ [آل عمران: ٨٣].

والكون ينتظم على سنة الله فى حركة متسقة ونظام متين، يقول تعالى:

﴿ لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ القَمَرَ ولا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس:٤٠]

ولو خرج أى شيء فى السماوات أو الأرض عن سنة الله لكان مصيره الفناء والضياع. وصدق الله العظيم: ﴿ ولَوِ اتَّبَعَ الحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ والأَرْضُ ومَن فِيهِنَّ﴾ إلا أن حكمة الله اقتضت أن يترك للإنسان شقا يختار فيه ليبتلى فى عمله يقول تعالى:

﴿ وقُلِ الحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن ومَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٨].

لقد أرسل الله الرسل رحمة وأنزل معهم الكتاب ليهتدي به الناس إلى الصراط المستقيم، فمن اتبعه هدى ورشد، ومن أعرض عنه ضل وشقى يقول تعالى: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ ولا يَشْقَى (١٢٣) ومَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكا﴾ [طه: ١٢٣، ١٢٤].

وحين يقص علينا القرآن قصة الإنسانية والرسالات من لدن آدم حتى ختمت بمحمد ﷺ يصورهم فى وحدة واحدة فى عقيدتها وقيمها وأصول شرائعها. ونشهد من القرآن صورة هذه الأمة الواحدة فى مواقف الصراع بين الحق والباطل، يقود المؤمنون موكباً كريماً عبر التاريخ، يرفع أعلام التوحيد، بينما تتعدد أعلام حزب الشيطان فى ضلالات شتى وهم يواجهون الأمة المسلمة على مر العصور.

وحياة الرسل وقصص الأنبياء هو المصدر الذى يستمد منه الفرد المسلم والجماعة المسلمةوالأمة المسلمة تفسير التاريخ وتحليل السياسة ومنهاج العمل الصالح.

ومصارع الظالمين من قبل، وهلاك أمم أشد قوة وأكثر أموالاً وأولادا، وأضخم عمراناً وسلطاناً، أكبر معين يستمد منه الفرد المسلم والجماعة المسلمة والأمة المسلمة العبرة من أحداث التاريخ.

ومن ثم لم تكن عبادة الطواطم أو النور والظلام أو الشمس والقمر، أو نسبة البنين والبنات إلى الله، إلا انحرافا عن أصل التوحيد الذى يقوم عليه الكون، والذى أرسلت به الرسل جميعا. فهى انحراف عن العقيدة السليمة التى بدأت بـ **لا إله إلا الله**، وسارت فى موكب مهيب عبر التاريخ لتحرر الإنسان من عبودية الإنسان والأشياء.

وهذا الأصل هو نقطة الافتراق بين مفهوم الحضارة ومفهوم التخلف، بين معنى التقدم ومعنى التأخر.

والحركة التاريخية فى القرآن حركة هادفة، حدد لها من أول يوم غاية تسعى إليها، وتحدد على أساسها علاقات الناس، من مودة وعداء، وولاء وبراء، وحرب وسلام.

و لم تعرف الإنسانية فى تاريخها الطويل أمة تقيم حياتها على المبادئ وتجاهد لسيادتها فى الأرض إلا فى الرسالات. والمظهر الخادع لدعوى الحرية الذى ظهر فى الثورة الفرنسية أو دعاوى حقوق الإنسان فى الغرب أو دعوى المساواة فى الثورة الشيوعية لم يلبث أن كشف عن أنياب الجشع والهوى والقهر والتسلط، الممثل فى عهد الإرهاب فى فرنسا وعصور النهب والاستعمار والجبروت فى سجل الغرب، وفى مخازى التاريخ الروسى الذى نعلمه اليوم وتقشعر منه جلودنا.

فالإسلام الذى أرسلت به الرسل هو وحده الضمان لتحرير الناس من عبودية الطواغيت ونوازغ الشهوات. وعقيدة لا إله إلا الله، التى تحدد للمؤمن رسالته التاريخية، ما تكاد تستقر فى الضمير حتى تحرك صاحبها بحافز لا يهدأ نحو تحقيق واقع محدد المعالم مكلف بإقامته، وهذا هو غاية حياته، التى يشهد بها الحق على الدنيا، حين يؤديها فى نفسه فيطابق بين واقع حياته وبين ما يعتقد، ويطابق بينها وبين مجتمعه حتى يكون كما أراد الله، ويجاهد بها الناس جميعا حتى يتحرروا من كل قيود تمنع اختيارهم الحر فى أعظم أمر خلقت من أجله السماوات والأرض، واستخلف الإنسان، وسخر له الكون وما فيه.

ولكننا ننبه أن القرآن ليس كتاب سرد للتاريخ يسجل فيه تفاصيل هذه الوقائع، وإنما يعنيه التحذير والأسوة، فيقتصر على النماذج الرئيسة، ويقدم من خلال تنوع عرضها الحكمة

والعبرة، ليتلقى المؤمنون فيها زادا من التجارب ترشد مسيرتهم وتجنبهم مزالق وآفات الأمم من قبلهم. وهذا هو مفهوم تفسير التاريخ الذى نستلهمه من القرآن.

الأساس العقيدى

لقد استغرقت المدنيات القديمة أمادا طويلة حتى قامت واستوت وكان ذلك لأمد قصير ثم كان اندحارها سريعا، وانفردت الحضارة الإسلامية بتسارع ظهورها فى أمـد قـصير، مـع استكمالها لكل المقومات الأساسية للحضارة واستمر بقاؤها طويلا، سواء فى بنيالها الثقافى أو التشريعى أو العمرانى، حيث صنعها الله على عينه، وأخرجها من القرآن إخراجا، وكان مـن أسس هذه الحضارة:

أن التوحيد الخالص، الذى يصل الإنسان بخالقه، فيحرره من استبداد الطواغيت، والـذل لشياطين الإنس والجن، والإيمان باليوم الآخر الذى يصل الإنسان بغايته، فتصبح الدنيا على يده حيث البذل لا فى قلبه حيث العبودية.. وسر المحنة التى يعيشها الغرب اليوم أنه لا يعرف له ربا يلجأ إليه، ولا عالما سوى الأرض. فشقت الإنسانية بظلم الأقوى للأضعف، واستعباد الدول للدول، فعرفت البشرية أبشع الجرائم، وسالت على الأرض دماء ملايين القتلـى فى حـروب عالمية شرسة، تتصارع على مناطق النفوذ، وعلى مصادر الثروة، وعلى استذلال الـشعوب، وحروب محلية مدفوعة بترعات الاستعلاء العنصرى سواء بصلة الدم أو العرق أو الجنس.

الإسلام هو دين البشر منذ خلق الله آدم عليه السلام، ودعوة الأنبياء واحدة إلى حقيقة لا إله إلا الله، وسيرة الرسل هى التاريخ الحق، الذى يعرف منه الراشـدون عوامـل النـهوض وعوامل الاندحار.

تذكر السورة أن كل الرسل دعوا قومهم إلي التوحيد، ،يقول تعالي علي لسان نوح عليـه السلام:

﴿ قَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَـافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩)﴾

وعلي لسان هود عليه السلام: **﴿ وإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ (٦٥)﴾**

وعلي لسان صالح عليه السلام:**﴿ وإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَـا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾**

وعلي لسان شعيب عليه السلام ﴿ وإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الكَيْلَ والْمِيزَانَ﴾

وموسي عليه السلام قال لقومه حين قال قومه له اجعل لنا إلها كما لهم آلهة: ﴿ قال أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهاً وهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى العَالَمِينَ (١٤٠)﴾

ومحمد ﷺ خاتم الرسل نادى في الناس: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَذي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُو يُحْيِي ويُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ ورَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وكَلِمَاتِهِ واتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨)﴾

وتوحيد الله سبحانه وتعالي هو أول خطوات العبد علي الصراط المستقيم،يأمر بالقسط، ويدعوه بأسمائه الحسني مخلصا له الدين.

ويعلمنا الله تعالي في السورة أسماءه الحسني الذى نعرفه به وندعوه،حتي يستقيم القلب واللسان علي التوحيد.

إن غاية الوجود الإنسانى هى عبادة الله تعالى، والتوحيد قمة هذه العبادات، فهو الحق الذى قامت به السموات والأرض، ومن أجله خلق الموت والحياة. وأى علم يبنى على غير أساسه فهو إلحاد باطل لا أصل له، وأى عمل لا يدور على محوره فهو عمل حابط لا قيمة له. وأسماء الله تعالى الحسنى هى التى تعرفنا على هذا الغيب وتبصرنا بحقيقته. فهى التى تبين المعرفة الحقة بالله تعالى، وهى التى تمثل الفاعلية الحقة فى جسم الكون، وهى التى ترشد إلى أسلوب العبادة الصحيح.

ولهذا كان طريق الراشدين يبدأ بمعرفة الله تعالى، ومن ثم دعائهم بأسمائه الحسنى، حيث هى التى تبين حقيقته وأمره ومراده فى الكون والحياة، فيهتدون إلى الحق ويعدلون فى الحياة.

" واعلم أنه تعالى لما وصف المخلوقين لجهنم بقوله: ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الغَافِلُونَ﴾،أمر بعده بذكر الله تعالى فقال: ﴿ ولِلَّهِ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾، وهذا كالتنبيه على أن الموجب لدخول جهنم هو الغفلة عن ذكر الله، والخلاص عن عذاب جهنم هو ذكر الله تعالى...

والآية تدل على أن الإنسان لا يدعو ربه إلا بتلك الأسماء الحسنى... فيكون مستحضرا لأمرين:

١- عزة الربوبية.

٢- ذلة العبودية [١]."

حقيقة الاسم: كل لفظ جعل للدلالة على المعنى إن لم يكن مشتقا، فإن كان مشتقا فليس باسم، إنما هو صفة. هذا قول النحاة... والحسنى ما فيها من معنى التعظيم، وقيل: ما وعد عليها من الثواب بدخول الجنة... وفى الأسماء ثلاثة أقوال:

١- أنها أسماؤه كلها التى فيها التعظيم والإكبار.

٢- أنها الأسماء التسعة والتسعون التى ورد فيها الحديث الصحيح: "**إن لله تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة.**"[٢]

٣- أنها الأسماء التى دلت عليها أدلة الوحدانية، وهى سبعة تترتب على الوجود: العلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام والحياة...

والذى أدلكم عليه أن تطلبوها فى القرآن والسنة، فإنها مخبوءة فيهما، كما خبئت ساعة الجمعة فى اليوم، وليلة القدر فى الشهر، رغبة، والكبائر فى الذنوب، رهبة. لتعم العبادات اليوم بجميعه والشهر بكليته، وليقع الاجتناب لجميع الذنوب. وكذلك أخفيت هذه الأسماء المتعددة فى جملة الأسماء الكلية، لندعوه بجميعها، فتصيب العدد الموعود به فيها.

رمعنى الإلحاد فى اللغة الميل عن القصد... والإلحاد فى أسماء الله تعالى يقع على ثلاثة:

١- إطلاق أسماء الله المقدسة الطاهرة على غير الله، مثل أن الكفار كانوا يسمون الأوثان بآلهة، ومن ذلك أنهم سموا أصناما باللات.. مشتقة من الإله، والعزى من العزيز ومناة من المنان...

٢- أن يسموا الله بما لا يجوز تسميته به، مثل تسمية من سماه أب وابن وروح قدس..

٣- أن يذكر العبد ربه بلفظ لا يعرف معناه ولا يتصور مسماه (كما يفعل بعض مبتدعة الصوفية)[٣]

يقول تعالي: ﴿ ولِلَّه الأَسْمَاءُ الحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وذَرُوا الَذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٨٠)﴾

---

(١) الرازى، مفاتيح الغيب ج ١٦ ص ٥٤، ٥٨، ٥٩.

(٢) رواه البخارى ومسلم، الألبانى، صحيح الجامع الصغيرج ا ص ٤٣٢.

(٣) ابن العربى، أحكام القران ج ٢ ص ٨٠٣- ٨٠٥.

عبرة التاريخ

تبدأ السورة ببيان متطلبات الدعوة،حيث تقف علي قمة المهام التي استخلف الإنسان من أجلها في الأرض، وعلي حسب النتائج يكون الحساب،فالثواب والعقاب في الآخرة.

ومن ثم وجه الخطاب إلي الداعية وهو الرسول ﷺ والمدعويين وهم المؤمنون، وموضوع الدعوة وهو الكتاب المترل من عند الله، ويحض المؤمنين علي الاتباع والتذكر، ويحذر من اتخاذ أولياء من دون الله، وأن يصبر فلا يضيق صدره بسبب تكذيب المعاندين.

يقول تعالي: ﴿ **الٓمٓصٓ(١) كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ولا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ (٣)**﴾

وفي سورة الأعراف أهتمام بموضوع الخلافة، فيقول ربنا على لسان أنبيائه:

هود عليه السلام لقومه: ﴿ **واذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ**﴾ [الأعراف: ٦].

وصالح عليه السلام لقومه: ﴿ **واذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ**﴾ [الأعراف: ٧٤].

وموسى عليه السلام لبنى إسرائيل: ﴿ **عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩)**﴾ [الأعراف: ١٢٩].

ويوصى أخيه هارون: ﴿**واخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وأَصْلِحْ ولا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (١٤٢)**﴾ [الأعراف:١٤٣].

ويؤنب بنى إسرائيل: ﴿ **بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي**﴾ [الأعراف: ١٥٠].

ومن ثم تتوالى موضوعات السورة وتعبر بنا التاريخ من أوله إلي آخره،من المبدأ إلي المعاد،من الدار الدنيا إلي الدار الآخرة.

بداية التاريخ

تبدأ قصة البشرية بإعلان ميلاد الإنسان في احتفال مهيب،في رحاب الملأ الأعلي،يعلنه الملك العزيز الجليل العظيم،زيادة في الحفاوة والتكريم، وتحشد له الملائكة، وفي زمرتهم، وإن لم يكن منهم إبليس،تشهده السموات والأرض وما خلق الله من شئ.

ومن هنا تبدأ الرحلة الكبرى،تبدأ بتمهيد عن تمكين الله للجنس البشرى في الأرض كحقيقة مطلقة وذلك قبل أن تبدأ قصة البشرية تفصيلا.

وتحكي لنا السورة مصارع الأمم السابقة حين عصت أمر الله وأشركت به ما لم يترل بـــه سلطانا.

وكذلك في المشهد ثلاثة نماذج من خلق الله،نموذج الطاعة المطلقة والتسليم العميق، ونموذج العصيان المطلق والاستكبار المقيت، وطبيعة ثالثة وهي الطبيعة البشرية.

إن هذا الإنسان – الذى خلق من قبضة من طين ونفخة من روح الله – يصل إلي القمـــة حين يستعلي علي غريزته ويكيف شهوته وفق غاية وجوده. وعندئـــذ يفـــوق – باقتحامـــه الصعاب – وبلزومه الطاعات – كل مخلوق من حوله. وهو يكون شرا من الحيوان حين تقوده شهواته إلي الفسوق والعصيان.

وتسلل الشيطان عن طريق إلهاب رغبة الإنسان في الخلود والملك، ومنها حرصـــه علـــي معصية أمر الله،فغرهما بقوله، وخدعهما بمكره، وغشهما بقسمه،كما غرهما بأن أدلاهما بحبل متقطع في هوة،فأكلا من الشجرة، وعصي آدم ربه فغوى. وقصد إبليس أن يكشف عورة آدم وما يليها من ضغوط غريزية،يستطيع عن طريقها إخراج بني آدم عن الصراط المستقيم.

لقد تمت الخدعة وآتت ثمرتها المرة، لقد أنزلهما الشيطان بهذا الغرور مـــن طاعـــة الله إلي معصيته. فأنزلهما إلي رتبة دنيا. ولقد شعرا الآن أن لهما سوآت تكشفت لهما،بعد أن كانـــت مواراة عنهما،فراحا يجمعان من ورق الجنة ويشبكانه بعضه في بعض،مما يوحي بأنها العورات الجسدية التي يخجل الإنسان فطرة من تعريتها.

يقول تعالي: ﴿ **فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا ووريَ عَنْهُمَا من سَوْءَاتِهِمَا وقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذه الشَّجَرَة إلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَـــا مِـــنَ الخَالِـــدِينَ (٢٠) وقَاسَمَهُمَا إنِّي لَكُمَا لَمنَ النَّاصحينَ (٢١) فَدَلاَّهُمَا بغُرُور فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَـــا سَوْءَاتُهُمَا وطَفقَا يَخْصفَان عَلَيْهمَا من ورَق الجَنَّة ونَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تلْكُمَـــا الشَّجَرَة وأَقُل لَّكُمَا إنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبينٌ (٢٢) قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وإن لَّمْ تَغْفرْ لَنَا وتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ منَ الخَاسرينَ (٢٣)**﴾

والإنس لا يرون الجن لأن قوله ﴿**إنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ**﴾، يتنـــاول أوقات الاستقبال من غير تخصيص، قال بعض العلماء: ولو قدر الجن على تغيير صور أنفسهم بأى صورة شاءوا وأرادوا، لوجب أن ترتفع الثقة عن معرفة الناس. فلعل هذا الذى أشـــاهده وأحكم عليه بأنه ولدى أو زوجى جنى صور نفسه بصورة ولدى أو زوجى، وعلـــى هـــذا

التقدير يرتفع الوثوق عن معرفة الأشخاص. وأيضا فلو كانوا قادرين على تخبيط الناس وإزالة العقل عنهم، مع أنه تعالى بين العداوة الشديدة بينهم وبين الإنس، فلم لا يفعلون ذلك فى حق البشر وفى حق العلماء والأفاضل والزهاد؟ لأن هذه العداوة بينهم وبين العلماء والزهاد أكثر وأقوى. ولما لم يوجد شيء من ذلك، ثبت أنه لا قدرة لهم على البشر بوجه من الوجوه. ويتأكد- هذا بقوله: ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾[1] [إبراهيم:آيه: ٢٢].

يقول تعالى: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ (٢٧)﴾

نهاية التاريخ

يصور ربنا تبارك وتعالى نهاية الحياة بالموت، حين تقبض الملائكة الأرواح، ويبدأ الحساب والجزاء، وينتهى العمل والابتلاء، ويحكى لنا القرآن الكريم خطاب الملائكة للكافرين تبكيتا وتعذيبا، وحوار التابعين مع المتبوعين تبكيتا وتأنيبا.

ويظهر أصحاب الجنة فى نعيمهم، صافية قلوبهم إخوانا لا غل فى صدورهم، لتهنأ صحبتهم، يسبحون الله ويحمده على هدايته لهم إلى الحق، وتوفيقهم إلى طريق الجنة. وينادى أصحاب الجنة أصحاب النار مذكرين أياهم بوعد الله الحق، وهنا يتوسل إليهم أصحاب النار وهم فى العذاب، من أجل شربة ماء أو شيء من النعيم الذى أعطاهم الله، فيعلمونهم أن الله حرمهما على الكافرين، جزاء اتخاذهم دينهم لهوا ولعبا، وتفضيلهم الدنيا الغرورة، ونسيانهم لقاء الله فى هذا اليوم، ويضع الله حجابا بينهما، حتى لا يتكدر أصحاب الجنة برؤيتهم.

وبين أصحاب الجنة وأصحاب النار يقف أصحاب الأعراف، الذين تساوت حسناتهم وسيآتهم فلم يدخلوا الجنة ويطمعون فيها، ونرى أصحاب الأعراف وهم يبكتون أصحاب النار ويهنئون أصحاب الجنة.

(١) الرازى مفاتيح الغيب ج ١٦ ص ٤٥.

سنن الكون والحياة

يبين القرآن الكريم أن الكون تحكمه سنة الله التى لا تتغير ولا تتبدل، من الذرة الصغيرة حتى المجرة الكبيرة، فكله يدور حول محور ويتجه إلى غاية، إذا خرج عنهما انفجر وتحطم، فالأسباب تؤدى إلى النتائج، والمقدمات تؤدى إلى النهايات، لا تبديل لسنة الله.

ومن هنا فإن سنة الله فى الأرض هى أنها إذا كانت طيبة، فأرسل عليها المطر رحمة منه، اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، وإن كانت سبخة خبيثة وأرسل إليها المطر لم تنبت إلا نكدا.

والحال كذلك مع البشر، إذا كانت نفوسهم طيبة وأرسل إليهم الرسل رحمة منه بالهدى، اتقت وأصلحت، وإن كانت النفوس خبيثة، فلا يصدر عنها إلا العصيان والإفساد.

فالقلب الطيب يشبه بالأرض الطيبة، والقلب الخبيث يشبه بالأرض الخبيثة، فكلاهما، القلب والتربة، منبت الزرع ومأتى الثمر، القلب ينبت نوايا ومشاعر وانفعالات واستجابات واتجاهات وعزائم وأعمالاً تبذل وآثارا فى واقع الحياة، والأرض تنبت زرعا وثمرا مختلفا أكله وألوانه ومذاقاته وأنواعه.مناخ السورة يصور مجتمع وفرة ورفاهية، فلم يقتصر فيه المتاع على الحاجات الأصلية وإنما تعداها إلى الزينة فى اللباس وفي الفراش والسكن والأثاث والطيبات.

يقول تعالي: ﴿ **وهُوَ الَذي يُرْسلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَته حَتَّى إذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثقَالاً سُقْنَاهُ لبَلَد مَّيِّت فَأَنزَلْنَا به المَاءَ فَأَخْرَجْنَا به من كُلِّ الثَّمَرَات كَذَلكَ نُخْرِجُ المَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذكَّرُونَ (٥٧) والْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ والَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إلاَّ نَكِداً كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (٥٨)**﴾

سنن الله التاريخية

بعد أن بين لنا القرآن الكريم نماذج من الانحرافات العقدية والأخلاقية والاقتصادية التى حدثت فى بعض الأمم السابقة.

تبين السورة السنة التى لا تتبدل، والتى تجرى على استخلاف البشر فى الأرض، وهى إيقاظ البشر على رسالتهم بابتلائهم بالسراء والضراء، حتى يلجأوا إلى ربهم فيعرفوه، ويتجهوا إليه بالدعاء والتضرع فلا ينسوه، ولكن البشر عموا عن هذا التنبيه، وتصوروا أنه عادة ودورة كما أصابت آباءهم من قبل، فحق عليهم العذاب جزاء غفلتهم عن الحق لإفسادهم فى الأرض.

وتلفت السورة الانتباه في دنيا الناس برحلة خاطفة عبر التاريخ إلي مصار ع الأمم المكذبة حين يأخذها العذاب، وهي في غاية الاسترخاء بالليل وهم نائمون،أو القيلولة وهم مستريحون،ثم انتباههم علي الكارثة واعترافهم بأنهم كانوا ظالمين، ليلفت أنظار الغاصبين بما في المخالفة والغفلة من سوء المصير.

يقول تعالي في أول السورة: **﴿ وكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتاً أَوْ هُمْ قَائِلُونَ (٤) فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلاَّ أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٥)﴾**

وفي وسط السورة تحذير للناس كافة **﴿ تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ (١٠١)﴾**

وفي آخر السورة يقول تعالي: **﴿ والَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ (١٨٢)﴾**

وتضع السورة القاعدة الكبيرة التي تميز المسيرة التاريخية، وهي أن الإيمان والتقوى تفتح على الأمم الوفرة والرخاء، حيث يبارك لها في حياتها، وأن الذنوب التي يكتسبونها من عصيانهم تترتب عليها كارثة لا يستطيعون لها دفعا.

ونظرة إلى تاريخ الأمم، وتوالي القرون، وهلاك السابقين بعصيانهم، كفيل بأن يفيق الناس على نداءات الرسل، وأن يفقهوا ما جاءتهم به من بينات، ولكن طبع الله على قلوبهم فلم يلتزموا بعهد أو ميثاق.

يقول تعالي: **﴿ ومَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ والضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (٩٤) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ والسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٩٥) ولَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا واتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ ولَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦) أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٧) أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وهُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨) أَ فَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (٩٩) أَوَ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ (١٠٠)﴾**

يقول رسول الله (ﷺ):

(يا معشر المهاجرين، خصال خمس إن ابتليتم بهن ونزلن بكم أعوذ بالله أن تدركوهن،

لم تظهر الفاحشة فى قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا بينهم الأوجاع التى لم تكن فى أسلافهم. ولم ينقصوا المكيال والميزان إلأ أخذوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان. ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا. ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط الله عليهم غيرهم فيأخذ بعض ما فى أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله إلا جعل بأسهم بينهم ".[1]

نماذج من الاستبداد السياسى

وتعرض السورة هنا نموذجا من الانحراف السياسى فمثلا فى استبداد فرعون وجبروته، وهذه ظاهرة مستمرة على مدى التاريخ الإنسانى، حيث يتكبر الإنسان الضعيف فى الأرض حين يملك ويسود فيستعبد الناس ويذل الرقاب ويعيث فى الأرض الفساد.

وهنا يصطدم مع الدعاة إلى الله الذين يرفعون راية التوحيد ليحققوا للبشر حريتهم من الطواغيت، ويحققوا المساواة والعدل بين الناس، ويحلوا فى البلاد الإصلاح بديلا عن الإفساد.

لقد أرسل الله موسى عليه السلام إلى الطاغية فرعون اللعين، يذكره بحقيقة الكون وسنن التاريخ، ويدعوه إلى أن يرسل بنى إسرائيل من إسارهم، وأن يرفع يد البطش الظالمة عن أجسادهم ونفوسهم.

واستعان فرعون بالملأ ليطفئ هذه الرسالة وساعده الكبراء من حاشيته والمنتفعين من ظلمه، باستدعاء من ظنوه قادرا على معارضته من السحرة الذين يمثلون علم عصره، فكان ذلك سبب إيمانهم حين رأوا البينات، وملأت قلوبهم بشاشة الإيمان حتى كان الموت فى سبيل الله أحب إليهم من الحياة..

ولكن فرعون اللعين أراد استثارة الجماهير، وشوش على الحقيقة، باتهامه موسى عليه السلام والسحرة أنهم دبروا مؤامرة ليغيروا نظام المجتمع ودستوره، ويخرجوا الناس من أوطانهم.

ووفق سنن الله التاريخية أخذ آل فرعون بالسراء والضراء لعلهم يعرفون الحق ويرجعون إلى ربهم، فإذا جاءتهم الحسنة ردوها إلى أنفسهم، وإذا أصابتهم السيئة نسبوها بالتطير إلى موسى ومن معه، ومضت سنة الله حين لم يفلح معهم وعظ ولا عبر، وأغلقت قلوبهم على الباطل، فاستأصل شأفتهم الله فأغرقهم أجمعين، ودمر ما صنعوه وما بنوه وأصبح كأن لم يكن،

---

(١) رواه ابن ماجه، الألبانى، سلسلة الأحاديث الصحيحة ج ١ص ١٦٧ المكتب الاسلامى ١٤٠٥ هـ.

وأورث المستضعفين من بنى إسرائيل الأرض المباركة بما صبروا وآمنوا، واستخلفهم فى الأرض لينظر كيف يعملون.

نماذج من الانحرافات العقيدية:

وقص علينا ربنا تبارك وتعالى قصة نوح وهود وصالح عليهم السلام مع أقوامهم، وكـــانوا يشركون بالله ويجعلون له أندادا،فبينوا لهم أنواعا من هذه الانحرافات، وحاولوا أن يــصححوا لهم معرفتهم بالله تعالى، واستكبر الطغاة، فمنهم من أغرقه الطوفان، ومنهم من أخذته الصيحة، ومنهم من أرسل الله عليهم حاصبا فأهلكهم واستأصل شأفتهم.

نموذج من الانحرافات الأخلاقية

ثم قص علينا ربنا تبارك وتعالى نوعا من الانحرافات الاجتماعية ممثلا فى فاحشة اللـــواط، فنهاهم لوط عليه السلام، وألح فى الإنكار، فهددوه وسفهوه، فانتقم الله منهم وأهلكهم بمطر السوء، فدمرهم تدميرا.

نموذج من الانحرافات الاقتصادية

ثم قص علينا قصة شعيب، حيث كان قومه يفسدون فى الأرض فيبخسون الكيل والميزان ويأكلون أموال الناس بالباطل مع شركهم بالله فحذرهم شعيب عليه السلام من هذا الإفساد فى الأرض، فكذبوه وأعرضوا عن هداه، فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين.

ويبين الله تعالى أن ما قصه تعالى من أسماء الرسل والأمم مجرد نماذج على سبيل المثـــال لا الحصر.

نماذج من الانتكاسات العقدية

أشد ما يواجه مسيرة الإسلام بعد أن يدخل قلوب الناس، هو تسلل الشرك بأنواعه والبدع بأشكالها، إلى مجتمعاتهم نتيجة وسوسة شياطين الإنس والجن، وغفلة المؤمنين عن ذكـــر الله، ونسيانهم أوامره ونواهيه وحقائق دينهم وأركانه.

هذه الظاهرة يبينها لنا ربنا تبارك وتعالي فيما حدث فى بنى إسرائيل حتى ورســـولهم بـــين ظهرانيهم، فقد أتوا فى مسيرتهم على قوم يعكفون علي أصنام لهم، فغرتهم طقوسها وهمهماتها،

فطلبوا من موسى بجهلهم أن يجعل لهم مثلها، ومن ثم أخذ موسى عليه السلام يعلمهم من جديد، ويبين لهم أن ذلك الباطل هالك ولا يجر إلا إلى الدمار والعذاب، وذكرهم بآلاء الله ونعمه عليهم فى إنجائهم من عدوهم، وإهلاكه لفرعون وملئه، ووراثتهم للأرض المباركة، حتى يثوبوا إلى رشدهم.

وكان هذا ميقات رحمة الله بهم، فأنزل على موسى وحيه، وكتب له فى الألواح موعظة وتفصيلا لكل شيء، وحتى لا يقع الناس فى الشرك، ويعرفوا طريق ربهم فلا تغريهم الشياطين فى مسالك البدع والضلال، وأمره تعالى أن يأخذها بقوة وأن يأمر قومه أن يأخذوا بأحسنها.

وقضت سنة الله أن ينصرف عن هذا الهدى المستكبرين فى الأرض بغير الحق، فيصيبهم العمى فلا يرون آيات الله، وينحرفون عن طريق الرشد وإن استبانوه، ويقعوا فى سبيل الغى فيتخذوه سبيلا، جزاء تكذيبهم وغفلتهم، فلا يقبل لهم عملا ولا يجزون إلا بالعذاب.

وكان الانحراف الثاني في غيبة موسى عليه السلام، حين زين السامرى لهم عبادة العجل، كما يفعل الفراعنة، وكانت هذه السقطة خطيرة لدرجة أن استبد الغضب بموسى عليه السلام فألقى الألواح، ثم فتح الله لهم باب التوبة بعد أن اعترفوا بذنبهم واقتصوا من أنفسهم.

وقد بين الله تعالى ما أنعم به عليهم من النعم الحسية: ففجر لهم العيون لمشربهم، وسخر لهم المن والسلوى لمآكلهم، وظلل لهم الغمام لوقايتهم، وكفل لهم المساكن لإيوائهم، فآواهم وكفلهم فى الترحال وفى الاستقرار.

وأنعم عليهم كذلك نعما معنوية فهيأ فطرتهم على الإسلام حين أخذ من ظهور بنى أدم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم، وأعطاهم عقولا تهديهم إليه وفصل لهم الآيات الدالة عليه، وأنزل لهم الوحى يبين لهم الحق ويهديهم إلى طريق الفلاح.

ولكنهم قابلوا ذلك بالإفساد والطغيان والظلم والعدوان، ويبين لنا تعالى هذه الانحرافات فيما يلى:

أ- بطر النعمة وتحريف كلام الله وإخراجه عن قصده، اتباعا لأهوائهم، بدلا من دعاء الله أن يحط عنهم ذنوبهم. يقول تعالى: ﴿ **وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (١٦١) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٦٢)** ﴾

ب- التحايل على أمر الله للهروب من ظاهر النص، كما فعلوا حين حرم عليهم صيد الحيتان في السبت فاحتجزوها ثم صادوها بعد ذلك.

يقول تعالي: ﴿ واسْئَلْهُمْ عَنِ القَرْيَةِ الَتي كَانَتْ حَاضِرَةَ البَحْرِ إذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْت إذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً ويَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٣)﴾

ت- انسلاخ بعض الذين أوتوا العلم عن آيات الله اتباعا للشهوات.

يقول تعالي: ﴿ واتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَذي آتَيْنَاهُ آيَاتنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الغَاوِينَ (١٧٥) ولَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بهَا ولَكنَّهُ أَخْلَدَ إلَى الأَرْضِ واتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكَلْب إن تَحْملْ عَلَيْه يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلكَ مَثَلُ القَوْمِ الَذينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ القَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦)﴾

وكان غضب الله عليهم لذلك عظيما، حتى مثلهم بأسوأ الأمثال، فوصفهم تعالى بما يلى:

١- القردة والخنازير، لاجترائهم على المعاصى في وقاحة وتبلد، ودون إحساس بالذنب ولا بتأنيب الضمير، يستوى عندهم الطيب والخبيث.

٢- الكلاب لانسلاخهم من آيات الله على علم منهم، فلهثوا وراء الدنيا دون توقف أو تفكير، كالكلب الذى يلهث فى حالة التعب وحالة الدعة.

٣- الأنعام، فى اقتصار حياهم على متاع الحياة الدنيا، أكلا ومتعة، دون فكر أو وعى، ولكن الأنعام تمسك نفسها حين تأخذ حاجتها، وهؤلاء لا يشبعون من الحرام ولا يتوقفون عند امتلاء، ومن ثم كانوا أضل من الأنعام.

وحكم الله عليهم بتسليط من لا يرحمهم إلى يوم القيامة، من البابليين حتى المجوس والروم، ومن قياصرة روسيا حتى نازية الألمان.

الرسالة الخاتمة

لما اختار موسى قومه لميقات ربه وأخذهم الرجفة، استجار موسى عليه السلام بربه ألا يأخذهم بما فعل السفهاء، وناشد ربه المغفرة والرحمة، وأن يكتب لهم الحسنة فى الدنيا والآخرة. وهنا أعلمه الله أن رحمته وسعت كل شيء، فسيكتبها للمؤمنين الذين يتقون ويؤتون الزكاة، ويتبعون الرسول ﷺ الذى به يكمل الدين وتتم النعمة.

وقد كان يقوم، قبل الرسالة الخاتمة، بهذه المهمة أنبياء بنى إسرائيل، وكان منهم أمة يدعون إلي الحق وبه يعدلون، لكن خلف من بعدهم خلف فضلوا عرض الدنيا على نعيم الآخرة وتصوروا بغرور أن الله يحابيهم ويغفر لهم فخلفوا العهد ونقضوا الميثاق وأصبحوا شهادة باطل لا شهادة حق لدين الله.

ومن ثم انتقلت الأمانة منهم إلى محمد ﷺ، الذى بشرت به كتبهم، ودعتهم حين مجيئه إلى اتباعه ونصرته، رسولا للعالمين، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث.

وحتى يتحقق الإيمان لابد من الإقرار بحقيقة لا إله إلا الله، ولكن هذه الحقيقة لا تتم إلا بعد الإقرار بشهادة أن محمدا رسول الله، ذلك لأن اتباعه هو السبيل لمعرفة الحق، فالإيمان به ونصرته هو مناط الفلاح.

وأعظم مهمات الرسالة الخاتمة هى التعريف بأسماء الله الحسنى، حتى يتعامل بها البشر مع ذات الله ثناء ودعاء، فمن عرف الله عرف الأمور على حقيقتها ومن لم يعرف الله ألحد فى أسمائه وجهل حقائق الأشياء، وإن حاز علوم الدنيا كلها.

"فهو وحده الذى يتصف بصفات الكمال ويتنزه عن شوائب النقص وغيره غارق فى بحر الفناء واقع فى حضيض النقصان. والقلب إذا غفل عن ذكر الله أقبل على الدنيا وشهواتها، فوقع فى نار الحرص وزمهرير الحرمان، ولا يزال فى رغبة إلى رغبة حتى لا يبقى له مخلص، وإذا أقبل على الذكر تخلص عن نيران الآفات، واستشعر بمعرفة الله حتى تخلص من رق الشهوات، فيصير حرا فيسعد بجميع المرادات..

والإلحاد هو العدول عن الحق والإدخال ما ليس منه فيه.. كإطلاق اسم الأب على ذات الله، أو وصف البشر بأسمائه تعالى "[1].

وحملت أمة محمد ﷺ أمانة فهدت بالحق، أى الثابت الذى يطابق الواقع، وبه عدلت أى يجعلون الأمور قسطا، لا زيادة فى شيء منها ولا نقص. ومن ثم أطلق أكثر المفسرين الآية على أمة محمد ﷺ،فحملت الأمانة بعد أن أضاعها بنو إسرائيل، وتحقق وعد الله فيهم، ودائما يتحقق وعد الله مع كل أمة تتمسك بالكتاب وتقيم الصلاة، بالجزاء والأجر العظيم لإحسانهم.

والرسالة الخاتمة رسالة كل زمان ومكان، لا تختص بأمة بعينها ولا زمان محدد، ولهذه الاستمرارية اتصفت بصفات هى:

١- الدعوة للتفكر، فإن تأمل سيرة رسول الله ﷺ، وتدبر إعجاز القرآن، بينة لكل من له عقل مستنير وقلب سليم.

٢- دعوة إلى الاعتبار بالنظر فى سنن الكون والتاريخ، فإن ذلك يهدى إلى حقيقة الألوهية واليوم الآخر، وينبههم وأجلهم القصير وسؤالهم العسير إذا ظلوا فى ضلالهم وطغيانهم يعمهون.

---

(١) البقاعى، نظم الدرر جـ ٤ ص ١٦٠.

٣- ومن ثم أكدت الرسالة على أن الغيب، ومنه وقت الساعة، لا يعلمه إلا الله وحده، ولا يعرفه نبى مرسل ولا ولى مقرب، ولما كان الغيب لله، فالنفع والضر بيده وحده، وما مهمة الرسول إلا إنذار الكافرين وتبشير المؤمنين.

يقول تعالي: **﴿ واكْتُبْ لَنَا فِي هَذه الدُّنْيَا حَسَنَةً وفِي الآخرَة إنَّا هُدْنَا إلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصيبُ به مَنْ أَشَاءُ ورَحْمَتِي وسعَتْ كُلَّ شَيْء فَسَأَكْتُبُهَا للَّذينَ يَتَّقُونَ ويُؤْتُونَ الزَّكَاةَ والَّذينَ هُم بآيَاتنَا يُؤْمنُونَ (١٥٦) الَّذينَ يَتَّبعُونَ الرَّسُولَ النَّبيَّ الأُمِّيَّ الَّذي يَجدُونَهُ مَكْتُوباً عندَهُمْ في التَّوْرَاة والإنْجيلِ يَأْمُرُهُم بالْمَعْرُوف ويَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ ويُحلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَات وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخَبَائثَ ويَضَعُ عَنْهُمْ إصْرَهُمْ والأَغْلالَ الَّتي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذينَ آمَنُوا به وعَزَّرُوهُ ونَصَرُوهُ واتَّبَعُوا النُّورَ الَّذي أُنزلَ مَعَهُ أُوْلَئكَ هُمُ الْمُفْلحُونَ (١٥٧) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إنِّي رَسُولُ اللَّه إلَيْكُمْ جَميعاً الَّذي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَات والأَرْضِ لا إلَهَ إلاَّ هُو يُحْيِي ويُميتُ فَآمنُوا باللَّهِ ورَسُوله النَّبيِّ الأُمِّيِّ الَّذي يُؤْمنُ باللَّه وكَلمَاته واتَّبعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨)﴾**

وكما بدأت السورة بذكر بداية التاريخ الإنسانى بخلق آدم عليه السلام وزوجه، وفتنة الشيطان لهما حتى عصيا الله، فانكشفت سوءاتهما، وأهبطا من الجنة إلى الأرض.

تختم السورة بذرية آدم التى تكاثرت بغشيان الذكر للأنثى، واشرأبت نفوس الزوجين إلى ولد تام الخلقة، واعدين بالشكر على النعمة.

ولكنهما بدلا من الشكر جعلا لله شركاء فيما آتاهما بعبادتهم لغير الله، وتقربهم لما لا يقدر على خلق ولا نصر، ولا يسمع، ولا يبصر سواء دعوه أم لم يدعوه.

يقول تعالي: **﴿ هُوَ الَّذي خَلَقَكُم مِّن نَّفْس واحدَة وجَعَلَ منْهَا زَوْجَهَا ليَسْكُنَ إلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفيفاً فَمَرَّتْ به فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئنْ آتَيْتَنَا صَالحاً لَّنَكُونَنَّ منَ الشَّاكرِينَ (١٨٩) فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالحاً جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٩٠) أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئاً وهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) ولا يَسْتَطيعُونَ لَهُمْ نَصْراً ولا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ (١٩٢)﴾**

موضوع السورة

بينما كان موضوع السورة في الأنعام ينظم علاقات الناس في الأكل والشراب والنكاح علي مستوى المجتمع، وهي الغرائز التي انبنت عليها غالبية أحكام الشريعة من معاملات وحدود،تقوم سورة الأعراف بالرعاية النفسية للإنسان ليستطيع مقاومة تزيين هذه الشهوات بإغواء شياطين الإنس والجن.

الأمر بالقسط:

موضوع السورة يدور علي طريق إدارة الغرائز،بتوجيهها إلي الحلال، وإبعادها عن الفواحش. وأخذنا عبرة التاريخ بالتحديد في قصة آدم وكيف أخرجه إبليس من الجنة بإثارة غرائزه. وكيف انتقم الله من قوم لوط لإصرارهم علي الفاحشة. وعلي بني اسرائيل لعدم تخليهم عن صيد الحيتان، وعلي عدم اتباع آيات الله واتباع الهوي والركون إلي الدنيا، وكيف خلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات.

يقول تعالي: ﴿ **يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٢٦) يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٧) وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٢٨) قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩) فَرِيقاً هَدَى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ (٣٠) يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢) قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٣)** ﴾

والقسط الذى أمر الله به هنا،هو السبيل إلي صلاح الإنسان والأمة. ثم التعريف بطريق دحر الشيطان من الذكر وقراءة القرآن.

ولما كان أهم متع الدنيا، الزينة فى المظهر والسمت، واللذة الجنسية التى جعلها الله وسيلة لبقاء الجنس البشرى، ولذة الأكل والشراب التى جعلها الله وسيلة لبقاء الإنسان. فإن منهج الحياة يقيمه ربنا تبارك وتعالى على القسط أى العدل، فلا بغى على الناس ولا جبن، وفى الجنس شرع النكاح ونهى عن الفحش أو الرهبانية. وفى الزينة أمر بالنظافة والجمال فى غير تكلف وتكبر أو إهمال وقذارة، وفى الأكل والشراب أباح الطيبات من الرزق دون إسراف أو إضاعة.

والمسيرة التاريخية بين المبدأ والمعاد تتأرجح فى اتجاهين متطرفين: الاتجاه الأول هو الذى يعتمد على الجانب المادى فحسب، وهو يتجلى فى الفنون والصناعات والمؤسسات، وتتحدد غايته فى الزينة والاستمتاع. والاتجاه الثانى ينظر إلى الحياة من جانبها الروحى فحسب، فينعزل ويتقشف، ويدع الدنيا وزينتها. فإذا ساد الاتجاه الأول فإن المدنية لا تنمو إلا فى الآلات والمبانى، ولا تهدف إلا إلى الترف والبذخ والمظهرية. ومن ثم تظهر أعراضها فى العرى والنهم. فينضب فى قلوب الناس معانى الرحمة والبساطة والعفة. أما إذا ساد الاتجاه الروحى الذى يهمل الحس والجسم وينبذ الحياة، فإن الحضارة تذوى، ويقف نمو الإنسان الفكرى والمادى، وتتحول الحياة الناشطة إلى خراب.

وأمر ربنا تبارك وتعالى بالقسط، وهو الأمر الوسط بين الإفراط صاعدا فى الحد وفى التفريط هابطا به[1].

إن ستر العورة تقوى وإصلاح، وعلى أساسها تتحقق العفة التى تصون صحة النسل وامتداده، وذلك لازم لسنة الله فى الاستخلاف والإبتلاء، كما تصون الأسرة التى هى محضن الرحمة، ولبنة المجتمع فيخرج منها عناصر سوية طيبة، ويتراحم الناس بصلة القربى، حيث يتلاقى البشر فى أنس، ويتواصلون فى مودة وبر، ويتلاحمون أمام الخاطر والملمات. وحين تكشف العورة تظهر الفاحشة ويشيع الفساد[2]، فتتحطم الأسرة وتبهت القرابة، فلا يعرف الأبناء آباءهم، ولا يرتبط الزوج بحليلته، فتنمو القساوة والأزمات النفسية، ويضيع الأبناء فى تيار الحياة، وتنتشر الأمراض والآفات، ويحل المقت والبلاء.

وستر العورة باللباس، وإن كان يحمى المجتمع من الانحراف، لكنه ليس الضمان الوحيد للعفة بالنسبة للفرد، فلا بد أن يكمل بلباس التقوى، التى تحصن الإنسان من الفواحش ظاهرها وباطنها.

---

(١) البقاعى: نظم الدرر ج ٣ ص ٢٤.

(٢) الجصاص من أحكام القرآن ج ٣ ص ١٣٠ دار الكتاب العربى.

إن ستر العورة مقصوده الأساسي هو حماية المجتمع من الفتنة، في الدرجة الأولي،أما الذى يحمي المرأة من الفتنة في الدرجة الأولي فالتقوى. فاللباس الذى يستر العورة واللباس الذى هو التقوى،عنصران متلازمان وضروريان لتحقيق العفة في المجتمع.

فتبين السورة بما وفق ما أمر الله، بستر العورات ومن يتقى الله فلا يمتلئ قلبه إلا بالعفاف، ويشهد ألا إله إلا الله، ويتجه إليه بالدعاء والإخلاص، فلا يقرب الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا يرتكب الآثام والموبقات، ولا يبغى على عباد الله، فقد استقام علـى صـراط الله المستقيم، وحقق غاية الوجود فى كيان أمة يرضى عنها الله، وفى مسيرة التاريخ وفق مـا أراد الله، ومن هنا يتحقق الفلاح ويثاب بخير الحياة الدنيا، وكان له النعيم خالصا يوم القيامة. فيبين المقطع منهاج أمة الرسالة الذى يقوم على الأسس التالية:

١- القسط: ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾.

٢- التوجه إلى الله بالعبادة: ﴿ وَأَقِيمُوا وجُوهَكُمْ عندَ كُلِّ مَسْجد.﴾

٣- الاستعانة بالله والإخلاص لله: ﴿ وادْعُوهُ مُخْلصينَ لَهُ الدِّينَ.﴾.

٤- أخذ الزينة والاعتدال فى الأكل والشراب: ﴿ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُوا واشْرَبُوا ولا تُسْرِفُوا.﴾

ومنهاج الكافرين يعرف بما يلى:

١- الفحش: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا ومَا بَطَنَ.﴾

٢- الإثم: ﴿ والإِثْمَ والْبَغْيَ بِغَيْرِ الحَقِّ.﴾

٣- الشرك: ﴿ وأَن تُشْرِكُوا بِاللَّه مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِه سُلْطَانًا﴾..

٤- القول: ﴿ وأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّه مَا لا تَعْلَمُونَ.﴾.

" يقول تعالى ذكره لهؤلاء الذين يتعرون عند طوافهم ببيته الحرام، ويبدون عوراتهم هنالك من مشركى العرب، والمحرمين منهم أكل ما لم يحرمه الله عليهم من حلال رزقه، تبررا عنـد نفسه لربه: خذوا زينتكم من الكساء واللباس عند كل مسجد، وكلوا من طيبات ما رزقتكم وحللته لكم اشربوا من حلال الأشربة لا تحرموا إلا ما حرمت عليكم فى كتابى أو على لسان رسولى محمد ﷺ."[1]

إن الله أباح الزينة لعباده فى اعتدال دون إفراط أو تفريط، تماما كما أباح الطيبـات مـن الرزق دون إسراف أو تقتير، وهى مثاب عليها فى الدنيا والآخرة.

---

(١) الطبرى، جامع البيان ج ٥ ص ٤٦٩.

قوله تعالى: ﴿ولا تُسْرِفُوا﴾ معناه: ولا تفرطوا، قال أهل التأويل: يريد: ولا تسرفوا بأن تحرموا على أنفسكم ما لم يحرم الله عز وجل، قال ابن عباس رضى الله عنهما: ليس فى الحلال سرف، إنما السرف فى ارتكاب المعاصى. قال القاضى أبو محمد رحمه الله: يريد فى الحلال القصد، واللفظ يقتضى النهى عن السرف مطلقا، فمن تلبس بفعل حرام، فتأول تلبسه به، حصل من المسرفين وتوجه النهى عليه. ومن تلبس بفعل مباح فإن مشى فيه على القصد وأوساط الأمور فحسن، وإن أفرط حتى دخل الضرر، حصل أيضا من المسرفين وتوجه النهى عليه، مثل أن يفرط إنسان فى شراء ثياب ونحوها ويستنفذ فى ذلك جل ماله، أو يعطى ماله أجمع ويكابد بعياله الفقر بعد ذلك ونحوه، فالله عز وجل لا يحب شيئا من هذا، وقد نهت الشريعة عنه[1].

وتختم السورة بأوامر تحصن المجتمع والفرد من الفواحش وتحضه علي القسط وهي:

١- أخذ العفو والأمر بالعرف والإعراض عن الجاهلين

يقول تعالي: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩)﴾

أ- وصية من الله عز وجل لنبيه ﷺ تعم جميع أمته، وأمر بجميع مكارم الأخلاق... وقال الجمهور فى قوله سبحانه ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ إن معناه: اقبل من الناس فى أخلاقهم وأقوالهم ومعاشرتهم ما أتى عفوا دون تكلف، فالعفو هنا: الفضل والصفو الذى تهيأ دون تحرص...[2]

ب- أما القسم الثانى: ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾، وهو الذى لا يجوز دخول التساهل والمسامحة فيه، فالحكم فيه أن يأمر بالمعروف... والمعروف هو كل أمر عرف أنه لا بد من الإتيان به، وأن وجوده خير من عدمه، وذلك لأن هذا القسم لو اقتصر على الأخذ بالعفو و لم يأمر بالعرف و لم يكشف عن حقيقة الحال، لكان ذلك سعيا فى تغيير الدين وإبطال الحق وأنه لا يجوز.

ج- ثم إنه إذا أمر بالعرف ورغب فيه ونهى عن المنكر ونفر منه، فربما أقدم بعض الجاهلين على السفاهة والإيذاء فلهذا السبب قال تعالى فى آخر الآية: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾.[3]

---

(١) ابن عطية، المحرر الوجيز ج٥ ص ٤٨٢.

(٢) ابن عطية، المحرر الوجيز ج٦ ص ١٨٥- ١٨٦.

(٣) الرازى، مفاتيح الغيب ج ١٦ ص ٧٨.

٢- الاستعاذة بالله

يقول تعالي: ﴿ **وإمَّا يَنزَغَنَّكَ منَ الشَّيْطَان نَزْغٌ فاسْتَعذْ باللَّه إنَّهُ سَميعٌ عَليمٌ (٢٠٠) إنَّ الَّذينَ اتَّقَوْا إذَا مَسَّهُمْ طَائفٌ مِّنَ الشَّيْطَان تَذَكَّرُوا فَإذَا هُم مُّبْصرُونَ (٢٠١) وإخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ في الغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصرُونَ (٢٠٢)**﴾

ويأمرنا الحق تبارك وتعالى بالاستعاذة به مما يلقيه الشيطان، وهنا يحدث التذكر الذى يوقظ المؤمن.

اعلم أن نزغ الشيطان عبارة عن وساوسه ونخسه فى القلب بما يسول للإنسان من المعاصى. عن أبي زيد: نزغت بين القوم إذا أفسدت ما بينهم، وقيل النزغ الإزعاج، وأكثر ما يكون عند الغضب، وأصله الإزعاج بالحركة إلى الشر، وتقرير الكلام أنه تعالى لما أمره بالعرف فعند ذلك ربما يهيج سفيها ويظهر السفاهة، فعند ذلك أمره تعالى بالسكوت عن مقابلته... ولما كان من المعلوم أن عند إقدام السفيه على السفاهة يهيج الغضب والغيظ ولا يبقى الإنسان على حالة السلامة، وعند تلك الحالة يجد الشيطان مجالا، حمل ذلك الإنسان على ما لا ينبغى، لا جرم بين تعالى ما يجرى مجرى العلاج لهذا الغرض فقال: ﴿ **فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ**﴾.[1]

٣-ذكر الله

يقول تعالى: ﴿ **واذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسكَ تَضَرُّعاً وخِيفَةً ودُونَ الجَهْرِ مِنَ القَوْلِ بِالْغُدُوِّ والآصَالِ ولا تَكُن مِّنَ الغَافِلِينَ (٢٠٥)**﴾

٤-الاستماع للقرآن

قوله تعالى: ﴿ **وإذَا قُرِئَ القُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾.

من رحمة الله بالناس أن أنزل كتابا يتلى فيتذكر العباد غاية الوجود، فيظلون دائما على وعى فلا يغفلون، أوتلهيهم الدنيا فيعدلون عن صراط الله المستقيم.

ويبين للمؤمنين طريق الفلاح فى الاستماع والإنصات للقرآن العظيم، ودوام الذكر﴿ **واذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وخِيفَةً ودُونَ الجَهْرِ**﴾ فى كل حين، فيكون كالملائكة فى التشريف والمترلة، إذا ما كان حالهم كحالهم من التواضع وإدمان العبادة والتسبيح والسجود والتواضع للعلى الكبير.

---

(١) الرازى، مفاتيح الغيب ج ١٦ ص ٧٩.

سورة الأعراف مقصود بها قصص الأمم فافتتحت بقوله تعالى:
﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾.
وختمت بقوله تعالى: ﴿ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

وبدأت السورة ببيان " أن هلاك من نقص عليك خبره من الأمم إنما كان لعدم الاتباع والركون إلى أوليائهم من شياطين الجن والإنس. ثم أتبع ذلك بقصة آدم عليه السلام، ليبين لعباده ما جرت سنته فيهم، من تسلط الشيطان وكيده وأنه عدو لهم.. ووقع فى قصة آدم هنا ما لم يقع فى قصة البقرة من بسط ما أجمل هناك، كتصريح اللعين بالحسد، وتصور خيريته بخلقه من النار، وطلبه الإنظار والتسلط على ذرية آدم والإذن له فى ذلك، ووعيده ووعيد متبعيه، ثم أخذه فى الوسوسة إلى آدم عليه السلام وحلفه له، وكل هذا مما أجمل فى سورة البقرة ولم تتكرر قصة إلا وهذا شأنها. أعنى أنها تفيد، مهما تكررت ما لم يكن حصل منها أو لا. ثم انجرَّت الآى إلى ابتداء قصة نوح عليه السلام واستمرت القصص إلى قصص بنى إسرائيل. فبسط هنا من حالهم وأخبارهم شبيه ما بسط فى قصة آدم وما جرى منه ومحنة إبليس. وفصل هنا الكثير وذكر ما لم يذكر فى البقرة.. ومن عجيب الحكمة أن الواقع فى السورتين من كلتا القصتين مستقل شاف. وإذا ضم بعض ذلك إلى بعض ارتفع إجماله ووضح كماله. فتبارك من هذا كلامه ومن جعله حجة قاطعة وآية باهرة [1].

ويمكن ذكر فوائد الألفاظ المختلفة مع ألفاظ سورة البقرة فيما يلى:

١- قال تعالى فى سورة البقرة: ﴿ ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ وقال هنا: ﴿ اسْكُنُوا﴾،فالفرق أنه لابد من دخول القرية أولاً، ثم سكناها ثانياً.

٢- والدخول حالة مخصوصة كما يوجد بعضها ينعدم، فإنه إنما يكون داخلاً فى أول دخوله، وأما ما بعد ذلك فيكون سكنى لا دخولاً.

إذا ثبت هذا فنقول: الدخول حالة منقضية زائلة وليس لها استمرار، فلا جرم يحسن ذكر فاء التعقيب بعده. فلهذا قال: ﴿ ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ وأما السكون فحالة مستمرة باقية، يكون الأكل حاصلاً معه لا عقيبه. فظهر الفرق.

---

(١) البقاعى، نظم الدرر جـ ٣ ص ٥، ٦.

٣- أنه ذكر فى سورة البقرة: **رغدا**، وما ذكره هنا. فالفرق أن الأكل عقيب دخول القرية يكون ألذ، لأن الحاجة إلى ذلك الأكل كانت أكمل وأتم، ولما كان ذلك الأكل ألذ لا جرم أن ذكر فيه قول **رغدا**. وأما الأكل حال سكون القرية، فالظاهر أنه لا يكون فى محل الحاجة الشديدة ما لم تكن اللذة فيه متكاملة، فلا جرم أن ترك قوله رغداً فيه.

٤- وهو قوله فى سورة البقرة: ﴿ **وادْخُلُوا البَابَ سُجَّداً وقُولُوا حِطَّةٌ**﴾ وفى سورة الأعراف على عكس منه، فالمراد التنبيه على أنه يحسن تقديم كل واحد من هذين المذكرين على الآخر، "وهذه السورة تدور حول الدعاء تضرعاً وخفية، فكان الأنسب تقديم قول حطة".

٥- وهو أنه قال فى سورة البقرة: ﴿ **خَطَايَاكُمْ**﴾، وقال ها هنا: ﴿ **خَطِيئَاتِكُمْ**﴾ فهو إشارة إلى هذه الذنوب سواء كانت قليلة أو كثيرة، فهى مغفورة عند الإتيان بهذا الدعاء والتضرع.

٦- وهو أنه تعالى قال فى سورة البقرة: ﴿ **وسَنَزِيدُ**﴾ بالواو، وهنا حذف الواو ﴿**سَنَزِيدُ**﴾فالفائدة فى حذف الواو أنه استئناف. والتقدير: كأنه قال: وماذا حصل بعد الغفران؟ فقيل له: سنزيد المحسنين.

٧- وهو الفرق بين قوله: ﴿ **أَنزَلْنَا**﴾ وبين قوله ﴿ **أَرْسَلْنَا**﴾ فلأن الإنزال لا يشعر بالكثرة، والإرسال يشعر بها، فكأنه تعالى بدأ بإنزال العذاب القليل، ثم جعل كثيراً، نظير الفرق بين انفجرت وانبجست (الانبجاس خروج الماء بقلة والانفجار خروجه بكثرة).

٨- وهو الفرق بين قوله: ﴿ **يَظْلِمُونَ**﴾، وبين قوله ﴿ **يَفْسُقُونَ**﴾،فذلك لأنهم موصوفون بكونهم ظالمين، لأجل أنهم ظلموا أنفسهم، وبكونهم فاسقين، لأجل أنهم خرجوا عن طاعة الله تعالى فالفائدة فى ذكر هذين الوصفين: التنبيه على حصول هذين الأمرين [1].

---

(١) الرازى: مفاتيح الغيب جـ ١٥، ص ٣٠.

بين سورة الأعراف و الأنعام

نلاحظ علاقة سورة الأعراف بسورة الأنعام فى أنه ختمت سورة الأنعام بقوله تعالى:

﴿ وهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ واتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

وابتدأ سورة الأعراف بقوله تعالى:

﴿ كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

واهتمت سورة الأنعام بعوامل نهضة الحضارات بالأمم وانحدارها فى قوله تعالى فى أولها:

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَاراً وجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ﴾.

وافتتحت سورة الأعراف التى تهتم بدروس التاريخ وعبره بقوله تعالى:

﴿ وكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتاً أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾

﴿ واذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾

وفي سورة الأنعام عن قوانين الحضارات

يقول تعالي: ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَاراً وجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾

﴿ ولَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ والضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾

وفي سورة الأعراف يقول تعالي: ﴿ ولَوْ أَنَّ أَهْلَ القُرَى آمَنُوا واتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ﴾

﴿ أَوَ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ ونَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ﴾

﴿ ومَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ والضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾

وفي سورة الأنعام سبيل المؤمنين يقول تعالي:

﴿ وكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ ولِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾

﴿ وإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾

﴿ وأنَّ هَذَا صرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ﴾
﴿ ولا تَقْرَبُوا الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا ومَا بَطَنَ﴾
﴿ وذَرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ وبَاطِنَهُ﴾
﴿ وأَوْفُوا الكَيْلَ والْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾

وفي سورة الأعراف يقول تعالى:
﴿ ولا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صرَاطٍ تُوعِدُونَ وتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾
﴿ وإن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً﴾
﴿ وإن يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً﴾
﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا ومَا بَطَنَ﴾
﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾

الولاء

كما تبينه

سورة الأنفال

الولاء
كما تبينه سورة الأنفـــــــــال

مقدمة

نزلت هذه السورة والمسلمون قلة،يخافون أن يتخطفهم الناس،فآواهم الله ونصرهم في بدر وهم أذلة. فكان التأكيد علي ترابطهم وتواصلهم له أهمية قصوى،في مواجهـــة كثـــرة مـــن الأعداء.

الأساس العقيدى

العقيدة أصل في علاقة المسلم بأخيه، وعلاقته مع الغير، لذلك،فإن عليها تبني حقوقـــه في النصرة والتحالف،من ولاء وبراء.

ويكتسب الإنسان خصائصه من عقيدته التي تحدد خلقه وتاريخه. وتصاحب هذه العقيـــدة صفات محددة تنعكس علي شخصه إذا غاب أو حضر. فالكيان المـــادى نـــسيج والعقيـــدة صبغته،فهو يتشكل بها ويأخذ أوصافه منها. والعقيدة حين تتشبع بها النفس تصدر عنها قـــيم بعينها، ومشاعر بعينها بحيث يوصف الإنسان بها، ويتعرف عليه من خلالها.

فالعقيدة هي نقطة الافتراق بين الإنسان الراشد والدواب التي لاتفقه شيئا،إن العقيدة تضع أقدامه علي سر وجوده،فيفهم أن لوجوده معنى، وأنه ليس مخلوقا فقط للاســـتمتاع بالأكـــل والتلذذ بالشهوات،فهذه يشترك فيها مع الدواب،بل يكون شرا منها إذا استعمل عقله في العبّ منها والتفنن فيها.

وعلي هذا الأساس تتحدد المعارك والحروب،حيث تصطدم الغايات والرغبـــات نتيجـــة اختلاف النفوس والاهتمامات. فإذا أردنا أن نعرف مسار المعارك علينا أن نعرف العقائد وراء نفوس الناس، وهذا يجعل رؤيتنا السياسية أكثر دقة وقراراتنا المصيرية أكثر رشادة.

ومن هنا عمرت سورة الأنفال ترسيخ أركان العقيدة في نفوس المؤمنين،فبينت مقومـــات صفة الإيمان الحق، وبينت صفات الكافرين بأعلامهم الشتى، لتعرف طبيعة نفوسهم وتتحـــدد مسارات نزوالهم.

وبينت السورة أن الإيمان يتحقق ببذل الجهد لإحداث التغيير إلي الدرجات العلي، وبدون ذلك يحدث التغيير إلي الدرجات الدنيا. فالإيمان يزيد بالقربات فيستنير القلب وينير الطريق إلي الله والذنوب تظلم القلب وتغبش الطريق إلي الله.

يقول تعالي: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ(٥٠)ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ(٥١)كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ(٥٢) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(٥٣)كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ(٥٤)﴾

وتحدثنا السورة عن سنن الله في الحياة، وبالتحديد في تغيير الواقع إلي المثل الأعلي،فيبين أن التغيير يأخذ منهجا محدد الخطوات:-

١- التغيير النفسي: ويتحقق بالإيمان،الذى يكتشف به الإنسان حقيقة الكون والحياة ورسالته فيه.

٢- التغيير الاجتماعي: وهو الإسلام،أى الالتزام بمنهج الله،حيث تتولد في النفس إرادة طاعة الله والرسول، ولا تهدأ حتي تقيم واقعا محدد المعالم. وهو التغيير الهيكلي.

٣- حماية منجزات التغيير: وذلك بالجهاد لحماية قواعد الحق والخير التي أرادها الله بعباده، وهي رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٤- الوعد: التغيير شرط لنزول نصر الله. ولا يرتبط النصر بقدرة الإنسان واستطاعته،فالإيمان وإن كان يمد المؤمن بقوة تعادل العشرة،فإنه ليس الأداة الوحيدة للنصر،فجنود الله لا يعلمها إلا هو، وهو ماحدث في بدر التي تحكي قصتها السورة.

٥- الوعيد: الفتنة والفساد يتعاظمان إذا ترك الناس الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. والعذاب يعم الجميع إذا،المفسد وغير المفسد.

و" أخبر الله تعالي أنه لايغير ما بقوم حتي يقع منهم،أو من الناظر لهم،أو ممن هو منهم بسبب،كما غير الله بالمنهزمين يوم أحد بسبب تغيير الرماة ما بأنفسهم إلي غير هذا من أمثلة الشريعة،فليس معني الآية أنه ليس يتزل بأحد عقوبة بأن يتقدم منه ذنب،بل قد تتزل المصائب بذنوب الغير."(١)

---

(١) القرطبي، أحكام القران ج ٥ ص ٢٥٢٣.

بدأت السورة في تعليم المؤمنين. فقد سألوا نصيبهم من الدنيا ممثلا في الأنفال،فكان الرد بيانا لواجباتهم في تربية أنفسهم علي الإيمان.

وبينما عنت السورة في مطلعها بتحرير النفس من جواذب الدنيا الممثلة في الأنفال:

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ(١)﴾

وفي وسط السورة أظهر الله تعالي سببا آخر للفتنة داخلي يتصل بعرض الدنيا:

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ(٢٨)﴾

و ختمت السورة بنفس المعني:

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(٦٧)﴾

والحد الأدني من الإيمان هو النطق بالشهادتين، ولكن الإيمان درجات،يزيد وينقص بالأعمال، ومن هنا عرفتهم السورة بالإيمان الحق،يقول تعالي: **﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ(٢)الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ(٣)أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ(٤)﴾**

وتبين السورة صفات المؤمنين التي تتحدد بمقتضاها سلوكياتهم وأهدافهم في معركة الحق والباطل. وهذه الصفات تبينها السورة ابتداء في صفات عقيدية هي معرفة الله وانفعال القلب بعظمته، والتجاوب الإيماني مع آيات القرآن وتلقيه في يقين وخبوت، وهنا تمتليء النفس بزاد التوكل علي الله فلا تخاف من أحد ولاتحزن علي دنيا.

" واعلم أن هذه الصفات الثلاث مرتبة علي أحسن جهات الترتيب:فإن المرتبة الأولي: هي الوجل من عقاب الله. والمرتبة الثانية: هي الانقياد لمقامات التكاليف لله.

والمرتبة الثالثة: هي الانقطاع بالكلية عما سوى الله، والاعتماد بالكلية علي فضل الله،بل الغني بالكلية عما سوى الله تعالي.

والصفة الرابعة والخامسة: قوله: **﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾**، واعلم أن المراتب الثلاثة المتقدمة أحوال معتبرة في القلوب والبواطن،ثم انتقل منها إلي رعاية أحوال الظاهر. ورأس الطاعات المعتبرة في الظاهر ورئيسها بذل النفس في الصلاة، وبذل المال في مرضاة الله. ويدخل فيه الزكوات والصدقات والصلات والإنفاق في الجهاد، والإنفاق علي المساجد والقناطر.

واعلم أن الله تعالي لما ذكر هذه الصفات الخمس: أثبت للموصوفين بها أمورا ثلاثة:
١- ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾، أى هم المؤمنون بالحقيقة...
٢- ﴿ لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، لهم مراتب بعضها أعلي من بعض.

واعلم أن الصفات المذكورة قسمان: الثلاثة الأولي هي الصفات القلبية والأحوال الروحانية، وهي الخوف والإخلاص والتوكل، والاثنتان الأخيرتان هما الأعمال الظاهرة والأخلاق، ولاشك أن لهذه الأعمال والأخلاق تأثيرات في تصفية القلب وفي تنويره بالمعارف. ولاشك أن المؤثر كلما كان أقوى كانت الآثار أقوى وبالضد. فلما كانت هذه الأخلاق والأعمال لها درجات ومراتب،كانت المعارف أيضا لها درجات ومراتب....

٣- ﴿ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾، المراد من المغفرة أن يتجاوز الله عن سيئاتهم، ومن الرزق الكريم نعيم الجنة...

والله تعالي خص من الصفات الباطنة التوكل بالذكر علي التعيين، ومن الأعمال الظاهرة الصلاة والزكاة علي التعيين،تنبيها علي أن أشرف الأحوال الباطنة التوكل، وأشرف الأعمال الظاهرة الصلاة والزكاة."[1]

وختمت السورة بتحديد الإيمان الحق علي المستوى الجهادى من الهجرة والجهاد والإيواء والنصرة.

يقول تعالي:﴿ والَّذينَ آمَنُوا وهَاجَرُوا وجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ والَّذِينَ آوَوْا ونَصَرُوا أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَّهُم مَّغْفِرَةٌ ورِزْقٌ كَرِيمٌ (٧٤)﴾

وهنا يبين الله تعالي كيف يرتقي المؤمن في مدارج الإيمان،فمن خشية الله واليقين بآياته والتوكل عليه،إلي إقام الصلاة والإنفاق في سبيل الله،إلي الهجرة والنصرة والجهاد.

عبرة التاريخ

كانت غزوة بدر أول غزوة غزاها النبي ﷺ، وكان فيها لقاء، وكانوا غير متأهبين للقتال غاية التأهب،إنما خرجوا للقاء العير،هذا مع أنهم عدد يسير، وعدد أهل النفير كثير، وكانوا في غاية الهيبة للقائهم والتوجس من قتالهم.

" روى أن عير قريش أقبلت من الشام وفيها أموال كثيرة ومعها أربعون راكبا منهم أبو سفيان، وعمرو بن العاص، وأقوام آخرون،فأخبر جبريل رسول الله ﷺ،فأخبر

(١) الرازى، مفاتيح الغيب ج ١٥ ص ٩٧-١٠١.

المسلمين،فأعجبهم تلقي العير لكثرة الخير، وقلة القوم،فلما أزمعوا وخرجوا،بلغ أهل مكة خبر خروجهم.. فخرج أبو جهل بجميع أهل مكة وهم النفير... وأخذت العير طريق الساحل ونجت.. ومضي المسلمون إلي بدر... وبدر كانت العرب تجتمع فيه لسوقهم يوما في السنة، واستشار النبي ﷺ أصحابه....

وكانت كراهية القتال حاصلة لبعضهم لالكلهم،بدليل قوله تعالي: ﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾، والحق الذى جادلوا فيه رسول الله ﷺ تلقي النفير.... وقوله: ﴿ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ ﴾، المراد منه: إعلام رسول الله بأهم ينصرون. وجدالهم قولهم: ماكان خروجنا إلا للعير، وهلا قلت لنا لنستعد ونتأهب للقتال؟ وذلك لأهم كانوا يكرهون القتال، ثم إنه تعالي شبه حالهم في فرط فزعهم ورعبهم بحال من يجر إلي القتل ويساق إلي الموت...وكان خوفهم لأمور: ١- قلة العدد. ٢- أهم كانوا رجّالة، وروى أنه ماكان معهم إلا فارسان. ٣- قلة السلاح."(١)

يقول تعالي: ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ(٥)يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ(٦)وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ(٧) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ(٨)﴾

وقد بين ابن قيم الجوزية في آخر كتاب الفروسية المحمدية،نذير الحروب أحسن جمع علي أتم وجه فأمر بأشياء ما اجتمعت قط في فئة إلا انتصرت وإن قلت فيجنب عدوها، وملاك ذلك وقوامه وأساسه وهو الصبر،فعلي هذه الدعائم تبني قبة النصر ومتي زالت أو بعضها زال من النصر بحسبه، وإذا اجتمعت قوى بعضها بعضا وصار لها أثر عظيم. ولما اجتمعت في الصحابة رضي الله عنهم لم تقم لهم أمة من الأمم،ففتحوا البلاد شرقا وغربا، ودانت لهم العباد سلما وحربا، ولما تفرقت فيمن بعدهم وضعفت،آل الأمر قليلا قليلا إلي ما ترى،فلا قوة إلا بالله، والجامع لذلك كله هو طاعة الله ورسوله،فإنها موجبة لتأييد المطيع بقوة من هو في طاعته. وذلك سر قول أبي الدرداء رضي الله عنه الذى رواه البخارى في باب (عمل صالح قبل القتال):إنما تقاتلون الناس بأعمالكم.(٢)

---

(١) الرازى، مفاتيح الغيب ج ١٥ ص ١٠٢-١٠٣.

(٢) البقاعي، نظم الدرر ج٣ ص ٢٢٥.

وهنا يلقي الله تعالي عليهم الدرس. فلله حكم تخفي علي العباد، وما علي المؤمن إلا أن يمضي لما أراد الله،يبذل أقصي الطاقة،ملتزما بتعاليم الله ورسوله، ويعد ما استطاع من القوة، لايستعجل النتيجة، ولا يحسب حساب الأعداء. فقدر الله طليق من كل قيد، ولاتمضي السنن والقوانين التي سنها إلا الأشياء والأحياء. والوعد القاطع أن الله ناصر المؤمنين وقاهر الكافرين. فلماذا يكره فريق من المؤمنين لقاء الجيش دون العير، ولماذا يجادلون في الحق بعد البيان.

إن النصر أيسر شئ حين يريده الله. فليس البشر هم الأداة الوحيدة لتحقيقه،فجنود الله كثيرة، وهذا ما بينه ربنا سبحانه وتعالي في هذا المقطع،فمن هذه الجنود كانت:

١- البشرى والتطمين بتنزيل الملائكة حين استغاث المؤمنون بربهم،فأنزل المدد بألف من الملائكة، ويتبعهم بأمثالهم. وأوحي الله إلي الملائكة بتثبيت قلوب المؤمنين وأقدامهم.

٢- ألقي في قلوب المؤمنين الطمأنينة والأمن والسكينة بدليل النعاس الذى غشيهم في موضع هو أبعد الأشياء عنه، وهو موطن الجلاد ومصاولة الأنداد، ولاينام إلا الآمن،فكيف تغمض العين إلا بإرادة الله ؟

٣- تنزيل المطر، ،في المنزل الذى ساروا منه إلي بدر فحصل للمسلمين منه ما ملؤوا منه أسقيتهم فتطهروا من حدث أو جنابة، ولبد لهم الرمل وسهل عليهم المسير، وأصاب المشركين ما زلق أرضهم حتي منعهم المسير،فكان ذلك سببا لسبق المسلمين لهم إلي المنزل وتمكينهم من بناء الحياض وتغوير ما وراء الماء الذى نزلوا عليه من القلب.[1]

٤- إلقاء الرعب في نفوس الكافرين،فيمكن منهم المؤمنين يضربون أعناقهم،جزاء مشاقتهم لله ورسوله،فحق عليهم العقاب من رب العالمين، وكان الله من وراء كيدهم يحبطه ويفقده أى فاعلية.

يقول تعالي: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ(٩)وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(١٠)إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ(١١) إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ(١٢)﴾

(١)البقاعي، نظم الدرر ج٣ ص ١٩٣.

ولهذا كله يدعو القرآن المؤمنين إلي عدم الفرار حين الزحف،فالذى يفر يسوء بسخط الله،إلا إذا كان مناورة في الحرب،أو انضماما إلي فئة أخرى يقاتل معها.

فالله هو الذى يحسم المعركة، وهو الذى قتل وهو الذى رمي، وما كان تواجد المؤمنين في الساحة إلا اختبارا من الله لإيمانهم.

ويبين الله تعالي للمؤمنين أن المقصود من استنفارهم ليس تحقيق النصر وإنما الابتلاء لتمحيص النفوس،فيتميز المؤمن عن الكافر.

وهذا من مقتضي حكمة الله التي خلق من أجلها الكون والحياة، وابتلي فيها الإنسان ليصطفيه. يقول تعالي: ﴿ لِيَمِيزَ اللّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٣٧)﴾

موضوع السورة

في السورة ترتيب هادف،حيث بدأ القسم الأول بالسؤال عن الأنفال،فكان درس التربية الأخلاقية للمؤمنين، وكان تنبيه إلي نوع الفتنة الداخلية في المال والولد. وكان توضيح صفات الكافرين. وبدأ القسم الثاني بالإجابة عن السؤال، وكان معه درس التربية الجهادية، وهنا نبه تعالي إلي نوع الفتنة ممثلة هجمة الكافرين، والتنبيه إلي مواجهتها وإلا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير. وفي كلا القسمين كان التوصية بالثبات عند اللقاء، وطمأنة المؤمنين بنصر الله ومدده. وفي كلا القسمين تأكيد علي وصف الكافرين بأنهم شر الدواب، لأنهم لا يسمعون ولا يعقلون، ولأنهم لا عهد لهم ولا ميثاق.

الجهاد لرد العدوان:

ويبين الله تعالي في السورة أن القتال شرع في الإسلام لمواجهة عدوان الكافرين ابتداء، ويختم المقطع بدعوة إلي الانتهاء عن العدوان فذلك خير، وإذا عادوا إليه فالمسلمون قادرون علي دحره. ويعدد الله تعالي أنواع هذا العدوان فيما يلي:

١- المكر بالمسلمين بحصارهم والتدبير لقتلهم. يقول تعالي"﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ(٣٠)﴾

٢- إنفاق الأموال للصد عن سبيل الله.وكان المشركون يمنعون من شاءوا من دخول البيت ويصدون المؤمنين عن الطواف، وصدوا رسول الله ﷺ ومن معه في عام الحديبية عن

الوصول إلي البيت. فضلا عن إنفاق الأموال لتجييش الجيوش للقضاء علي دعوة الحق. يقول تعالي: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ(٣٦)﴾

ولله في ذلك حكمة وهي تمييز الصفوف،فيميز الخبيث من الطيب ويجمع الخبيث بعضه علي بعضه فيلقيه في النار.

وبهذا لا بديل أمام المسليمن، إن استمر الكافرون في العدوان،غير دفعه ودحره بالقتال، وقبل ذلك يتوجه إليهم بالدعوة للانتهاء عن هذا العدوان , وأن يدخلوا في دين الله،فيغفر لهم، وذلك خير لهم، وإلا فالمسلمون جاهزون مستعدون للدفاع عن دينهم وأوطانهم. ذلك لأن غلبتهم معناها الفساد في الأرض، وفتنة الناس في دينهم، والاعتداء علي أعراض الناس وأموالهم،فلا رادع يردعهم، ولاخلق يمنعهم.

والله يتولي أمر المسلمين فهو ناصرهم،نعم المولي ونعم النصير " و لم تدخل فاء السبب هنا لأن المأمور به العلم واعتقاد كونه مولي واجب لذاته لا لشئ آخر،بخلاف ما في آخر سورة الحج حيث المأمور هناك الاعتصام بالله مهما كثروا وقويت شوكتهم.

وفي نهاية الجزء الأول منها ضرورة الجهاد بالنفس والمال وسببه:

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(٣٩)﴾

ختمت السورة بتوضيح ذلك:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ(٧٣)﴾

صفات المعتدين:

قبل أن يعدد سبحانه وتعالي صفات المشركين،يبين خذلان الشيطان لهم وتبرؤه منهم عند الفرقان بعد أن زين لهم سوء أعمالهم وأقنعهم بأنه لا غالب لهم ووعدهم بنصرهم،حين رأى عذاب الله وعقابه بهم. كذلك لم يغن عنهم تحريض المنافقين وتهوين أمر المسلمين لهم، وكم سيكون حسابهم حين تضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم ويذوقوا عذاب الحريق. ومن خلال التاريخ حين يقص علينا ربنا تبارك وتعالي إهلاكه لآل فرعون بذنوبهم لكفرهم بآيات الله وتكذيبهم لرسله.

وهنا يذكر ربنا تبارك وتعالي بأنه لايظلم أحدا ولا ينزع النعمة إلا ممن غـــير فطــرة الله فانغمس في الكفر والفسوق،فهو تعالي يمهل لإكمال الحكمة و لايهمل من استحق النقمة.

ومن خلال ذلك كله يستكمل سبحانه وتعالي أسباب قتالهم فيما يلي:

١- أُنهم خرجوا بطرا ورئاء الناس، وليسوا أصحاب قضية أو مبدأ.

٢- أُنهم يصدون عن سبيل الله يقول تعالي.

﴿ ولا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا من دِيَارِهِم بَطَراً ورِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّــهِ واللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٤٧)﴾

٣- أُنهم ينقضون عهدهم في كل مرة.

٤- أُنهم لا يتقون الله.

يقول تعالي: **﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّه الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَــا يُؤْمِنُــونَ(٥٥)الَّــذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ(٥٦)﴾**

ولهذا كله يأمر ربنا أن ننكل بهم إذا ظفرنا بهم في القتال،حتي يرتدع غيرهم ولايـسارع بالعدوان ولا يستهين بالإسلام وأهله.

ولما أمره بما يفعل بمن تحقق نقضه،أرشده إلي ما يفعل بمن خاف غدره،فأعلمهم قبل القتال بزوال العهد بينكم وبينهم، ولا تناجزوهم وهم علي توهم من وفاء العهد.،فالمسلون أهل عدل ونصفة.

صفات المجاهدين:

وأثبت تعالي صفات مشتملة علي الأخلاق والأعمال هي علامة الإيمان، لها تـأثيرات في تصفية القلوب وتنويرها بالمعارف الإلهية،هذه الصفات هي تقوى الله، وإصلاح مــا بينـــهم، وطاعة الله ورسوله. ودليل الإيمان خوف القلوب من الله تعالي وظهور ذلك في سائر معانيهم وأجسامهم، وإذا سمعوا آيات الله حصل لهم من نور القلب وطمأنينة النفس، ويكلون أمــرهم لله فهو يكفيهم من حيث لايحتسبون،فإن خزائنه واسعة، ويده سخاء الليل والنهار، ويتوكلون عليه في القتال والنصر فلا يخافون قلة أو ضعف.

ولما وصفهم بالإيمان الحامل علي الطاعة والتوكل،الجامع لهم،الدافع للمانع منها،قال متنقلا من عمل الباطن إلي عمل الظاهر،مبينا أن همتهم إنما هي العبادة والمكارم..صلاة وزكاة.

ووعدهم الله بمغفرة لذنوبهم إن رجعوا عن المنازعة في الأنفال وغيرها، ورزق كريم،أى لا ضيق فيه ولا كدر بوجه ما من منازعة..،فهو يغنيهم ويوسع عليهم [1].

حتى يتنزل نصر الله على عباده المؤمنين لابد من توفر متطلبات نفسية وسلوكية،هي علامة اليقين بربهم والطمأنينة في قلوبهم. من هذه المتطلبات:

١- السمع والطاعة لله ورسوله،فالذى لايسمع ولاينطق ولا يعقل هو الكافر الذى أغلــق فطرته وقلبه عن الإدراك والفهم. وإذا عذر الحيوان بذلك لأن ليس له عقل،فالإنسان الكــافر لاخير فيه لإعراضه عن الحق وهو بذلك شر من الدواب. فطاعة الرسول واجبة في أى أمر من الأوامر خف أو ثقل،سهل أو صعب،من الجهاد وغيره، ومن قسمة الغنائم وغيرها، وهذا دلالة الوعي واليقظة في قلوبكم وعقولكم.

٢- الاستجابة لله والرسول فيما أمر، لأن في هذه الاستجابة فلاحهم، وفلاحهـــم دليـــل الحياة في قلوبهم،فينقلكم تعالى بعز الإيمان والعلم عن حال الكفرة من الصمم والبكم وعـــدم العقل الذى هو الموت المعنوى، والعاقل من ابتدر هذا الفلاح قبل أن يحول بينه وبينه الموت.

٣- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،فيقوم حجاب بينكم وبين البلاء العام الذى لايصيب الظالمين وحدهم،فأصلحوا ذات بينكم تنجون من عقاب الله. ولما كان مـــن أشـــد العقـــاب الإذلال حذرهم منه بالتذكير بما كانوا فيه من القلة والضعف، ومنته عليه بالإيواء والنصرة.

يقول رسول الله ﷺ:

"ما من رجل يكون في قوم يعمل فيهم بالمعاصي يقدرون على أن يغيروا عليه فلا يغيروا إلا أصابهم الله بعذاب من قبل أن يموتوا." [2]

عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: بينما نحن حول رسول الله ﷺ إذ ذكر الفتنة فقال:

إذا رأيتم الناس قد مرجت عهودهم وخفت أماناتهم وكـــانوا هكـــذا، وشـــبك بـــين أصابعه،قال:فقمت إليه فقلت: كيف أفعل عند ذلك جعلني الله فداك ؟ قال:

الزم بيتك، واملك عليك لسانك، وخذ بما تعرف ودع ما تنكر، وعليك بأمر خاصـــة نفسك، ودع عنك أمر العامة. [3]

٤-الأمانة ونبذ الخيانة، والسبب الأكبر الذى يدفع إليها هو حب المـــال والولد،اللـــذين يدفعان للشح والحرص، والغلول والخيانة.

---

(١) البقاعي، نظم الدرر. ج ٣ ص ١٨٥.

(٢) الألباني، صحيح سنن أبي داود ج ٣ ص ٨١٩.

(٣) الألباني، صحيح سنن أبي داود ج ٣ ص ٨١٩.

٥- التحرر عن فتنة المال والولد،التي تؤدى إلي كل شر، والمسارعة إلي البذل والجهاد ابتغاء الأجر العظيم من الله..

٦- تقوى الله التي تجعل لهم فرقانا يعلو عندهم فيه الحق علي الباطل. وسمي لذلك عمر بن الخطاب فاروقا بإظهاره الإسلام في مكة واعتزازه به،ففارق الإيمان فيه الكفر فلا يزيغ عن الحق ولايخاف الباطل. فخوف أهل الباطل من الناس يزيدهم ذلا وخوف أهل الحق من الله يزيدهم عزا. وبالتقوى يكفر الله عن السيئات ويمحو بها المعاصي،ثم بعد الكفارة والمغفرة يزيد من فضله العظيم.

وصدق الله العظيم:﴿ **يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ(٢٤)وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ(٢٥) واذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ ورَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَات لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ والرَّسُولَ وتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧) واعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً ويُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ويَغْفِرْ لَكُمْ واللَّهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ (٢٩)**﴾

وهو سبحانه يجيبهم عن حقهم،من خلال تربيتهم علي مجموعة من الخلال يستكمل بها سبحانه مقتضيات نصره لهم، وهي:

١- الثبات في القتال والاستعانة في ذلك بذكر الله.

٢- الالتزام بطاعة الله ورسوله، ليتجنبوا التراع الذى يؤدى للفشل والضياع.

٣- الصبر علي المشاق والجلد علي المصاعب.

٤- التواضع للعباد والإخلاص لرب العباد،فالبطر والرياء والصد عن سبيل الله صفات المشركين.

يقول تعالي: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا واذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥) وأَطِيعُوا اللَّهَ ورَسُولَهُ ولا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وتَذْهَبَ رِيحُكُمْ واصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦) ولا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَراً ورِئَاءَ النَّاسِ ويَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ واللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٤٧)**﴾

سلام الأقوياء:

ومهما غدر الكفار فلن يتحقق لهم السبق ولن تحقق لهم خيانتهم أى سبق، لأن الله لن يترك المسلمين وحدهم، ولن يعجزه رد الكفار ودحرهم.

ويأمر الله المسلمين بأن يجنحوا إلي السلم، ولكن ليس سلم الضعفاء الذى يجترئ عليهم الأقوياء، ويفرضون عليهم ما يريدون، ويخضعونهم لجبروت قوتهم.

ولا بد للإسلام من قوة ينطلق بها في الأرض لإقامة الحق والعدل ودحر الظلم والفساد، وليرهب بها المؤمنون أعداء الله فلا يتجرأون علي المسلمين، وليقدر المسلم أن يستجيب بها لصرخات المستضعفين في الأرض،فيعلن الجهاد بالنفس وينفق ما قدر من المال،خالصا لله، لا رياء ولا بطرا، وإنما طاعة واستجابة لأمر الله. وما علي المسلمين إلا أن يعدوا علي قدر الطاقة، والله قادر علي نصرهم بجنوده التي لايعلمها إلا هو.

وإن مال الأعداء عن جانب الحرب إلي جانب السلم،فاجنح لها أيها الرسول،فليست الحرب غرضا مقصودا لذاته عندك،إنما أنت قاصد بها الدفاع لعدوانهم وتحديهم لدعوتك. فاقبل السلم منهم، وتوكل علي الله ولا تخف كيدهم ومكرهم،إنه سبحانه هو السميع لما يتشاورون به،العليم بما يدبرون ويأتمرون. فإن أرادوا من تظاهرهم بالجنوح إلي السلم خدعة ومكرا بك،فإن الله يكفيك أمرهم من كل وجه، وقد سبق له أن أيدك بنصره،فهو يكفيكم شرهم، وليس عليكم إلا الصدق في اللقاء والمسارعة إلي الإنفاق.

يقول تعالي: ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ(٦٠) وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(٦١)وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ(٦٢)** ﴾

ولاية التحالف والنصرة:

يعتبر الولاء للأمة في التحالف والنصرة، أمرا هاما لحماية الأمة من الخيانة ومن اختراق الصف المسلم،خصوصا وأن أعداء الأمة يوالون بعضهم بعضا. فإن لم يوال المؤمنون بعضهم بعضا،يسود الكفار، وعندئذ تكون فتنة في الأرض وفساد كبير.

يقول رسول الله ﷺ:

" المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا."[1]

" المسلم أخو المسلم لايظلمه ولايسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله عز وجل في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة. ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة."[2]

ويتحقق الولاء بالهجرة والإيواء وبنصرة المؤمن والجهاد في سبيل الله.

أ- الهجرة:

الهجرة لغة: المجافاة والترك.

واصطلاحا: الانتقال من بلد الكفر والشرك إلى دار الإسلام.

والهجرة مفهوم شامل،يبدأ بالهجرة إلى الله ورسوله،فيهاجر بقلبه من محبة غير الله إلى محبة الله، ومن عبودية الأشياء والأحياء إلى عبودية الواحد الباقي، ومن خوف العبيد ورجائهم إلى الثقة بما عند الله، ومن الخضوع والذل إلى غير الله إلى الحرية الكاملة بالعبودية الخالصة لله. وهذا يظهر أثره في هجران مايكرهه الله وإتيان مايحبه ويرضاه.

ويتبع ذلك الهجرة بمعنى الانتقال من دار الكفر إلى دار الإسلام. إن إقامة المسلم في دار الكفر تجعله ضعيفا مستكينا عرضة للفتنة في دينه. والإسلام يريد أن يكون المؤمن عزيزا، ويتحقق ذلك بتواجده في دار الإسلام مواليا للمؤمنين مقويا لشوكتهم.

ومن هنا كانت الهجرة فرض عين على كل مسلم، والمعيشة في دار الكفر في ضعف حرام بإجماع. ولا ولاية تحالف ونصرة لمسلم لايهاجر إلى دار الإسلام، وإن كانت له ولاية الأخوة والحب في الله. ولكن حين يستنصر في الدين فعلى المؤمنين نصره،إلا إذا كان هناك ميثاق مع من يعيش بين ظهرانيهم،فلا بد من احترام الميثاق.

يقول رسول الله ﷺ:

" **أنا برىء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين، لاتراءى نارهما.**"[3]

وقد كانت هذه الهجرة فرضا في أيام النبي ﷺ، وظلت كذلك إلى يوم القيامة. والتي انقطعت هي الهجرة إلى النبي ﷺ حيث كان. لقوله ﷺ حين جاء رجل يبايع على الهجرة: " **لاهجرة بعد فتح مكة ولكن أبايعه على الإسلام.**".[4]

---

(١) متفق عليه صحيح الجامع الصغير ج٢ ص ١١٢٨.

(٢) صحيح البخاري ج ٥ ص٩٧ كتاب المظالم .

(٣) رواه أبو داود والترمذي، صحيح الجامع الصغير ج ١ ص ٣٠٦.

(٤) صحيح البخاري ج٦ ص ١٨٩ باب الجهاد.

ب – الإيواء:

آوى لغة: المأوى:الملجأ والحرز...

ومن أركان ولاية التحالف والنصرة استقبال المهاجرين وإسكانهم،كما فعل الأنصار مع المهاجرين. وهنا تسيطر علي القلوب والسلوكيات عاطفة الأخوة، وخلق الإيثار، وينتفي الإحساس في داخل المهاجر بالغربة أو الحرمان.

ج– النصرة والجهاد:

الجهاد لغة: المشقة.

واصطلاحا: بذل الجهد في قتال الكفار.

لقد قضى الله في سننه أن الإيمان يقوى بالمجاهدة، والمجتمعات تصلح بالتدافع، والباطل يزهقه الحق،تماما كما أن الجسم يقوى برياضة المقاومة.

قول ابن تيمية::" لم يرد في ثواب الأعمال وفضلها مثل ما ورد فيه.. لأن نفع الجهاد عام لفاعله ولغيره في الدين والدنيا، وهو مشتمل علي جميع أنواع العبادات الباطنة والظاهرة،ففيه من محبة الله، والإخلاص له، والتوكل عليه، وتسليم النفس والمال له والصبر والزهد وذكر الله وسائر أنواع الأعمال مالا يشتمل عليه عمل آخر، والقائم به من الشخص والأمة بين إحدى الحسنين دائما: إما النصر والظفر وإما الشهادة والجنة."[1]

ومن ثم كان الولاء والهجرة والجهاد في سبيل الله دلالة الإيمان الحق، ومقومات خير أمة أخرجت للناس.

و" اعلم أنه تعالي قسم المؤمنين في زمان الرسول ﷺ إلي أربعة أقسام، وذكر حكم كل واحد منهم، وتقرير هذه القسمة أنه عليه السلام ظهرت نبوته بمكة ودعا الناس هناك إلي الدين،ثم انتقل من مكة إلي المدينة. فحين هاجر من مكة إلي المدينة صار المؤمنون علي أربعة أقسام: منهم من وافقه في تلك الهجرة، ومنهم من لم يوافقه فيها بل بقي هناك.

أما القسم الأول: فهم المهاجرون الأولون... وهؤلاء موصوفون بصفات أربعة:

١– أنهم آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وقبلوا جميع التكاليف التي بلغها محمد ﷺ...

---

(١) السياسة الشرعية ص ١١٨ الجامعةالإسلامية بالمدينة ١٣٨٩هـ.

٢- أنهم فارقوا الأوطان وتركوا الأقارب والجيران في طلب مرضاة الله، ومعلوم أن هذه الحالة حالة شديدة...

٣- المجاهدة بالمال،فلأنهم لما فارقوا الأوطان فقد ضاعت دورهم ومساكنهم وضياعهم ومزارعهم، وبقيت في أيدى الأعداء، وأيضا فقد احتاجوا إلي الإنفاق الكثير بسبب تلك العزيمة. وأيضا كانوا ينفقون أموالهم علي تلك الغزوات. وأما المجاهدة بالنفس فلأنهم كانوا أقدموا علي محاربة بدر من غير آلة ولا أهبة ولاعدة مع الأعداء الموصوفين بالكثرة والشدة. وذلك يدل علي أنهم أزالوا أطماعهم عن الحياة وبذلوا أنفسهم في سبيل الله.

٤- أنهم كانوا أول الناس إقداما علي هذه الأفعال والتزاما لهذه الأحوال، ولهذه المسابقة أثر عظيم في تقوية الدين... لأن إقدامهم علي هذه الأفعال يوجب اقتداء غيرهم بهم،فيصير ذلك سببا للقوة أو الكمال...

وأما القسم الثاني من المؤمنين الموجودين في زمان محمد ﷺ،فهم الأنصار، وذلك لأنه عليه السلام لما هاجر إليهم مع طائفة من أصحابه،فلولا أنهم آووا ونصروا وبذلوا النفس والمال في خدمة رسول الله ﷺ، وإصلاح مهمات أصحابه لما تم المقصود البتة. "[(١)]

" **والقسم الثالث** من أقسام مؤمني زمان الرسول عليه السلام: وهم المؤمنون الذين ماوافقوا الرسول في الهجرة، وبقوا في مكة.. فهؤلاء بسبب إيمانهم لهم فضل وكرامة وبسبب ترك الهجرة لهم حالة نازلة،فوجب أن يكون حكمهم حكما متوسطا بين الإجلال والإذلال وذلك هو أن الولاية المثبتة للقسم الأول تكون منفية عن هذا القسم،إلا أنهم يكونون بحيث لو استنصروا المؤمنين واستعانوا بهم نصروهم وأعانوهم...

واعلم أنه تعالي لما ذكر هذا القسم الثالث،عاد إلي ذكر القسم الأول والثاني مرة أخرى.. وهذا ليس بتكرار، وذلك لأنه تعالي ذكرهم أولا ليبين حكمهم وهو ولاية بعضهم بعضا،ثم إنه تعالي ذكرهم ههنا لبيان تعظيم شأنهم وعلو درجتهم.. والحاصل أنه تعالي شرح حالهم في الدنيا وفي الآخرة. أما في الدنيا فقد وصفهم بقوله: ﴿ **أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا**﴾، وأما في الآخرة فالمقصود إما دفع العقاب، وإما جلب الثواب. أما دفع العقاب فهو المراد بقوله ﴿**لَهُمْ مَغْفِرَةٌ**،﴾وأما جلب الثواب فهو المراد بقوله: ﴿ **وَرِزْقٌ كَرِيمٌ**﴾

---

(١) الرازى، مفاتيح الغيب ج١٥ ص ١٦٥-١٦٦.

والقسم الرابع من مؤمني زمان محمد ﷺ: هم الذين لم يوافقوا الرسول في الهجرة،إلا أهم بعد ذلك هاجروا إليه، وهو المراد من قوله: ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ،﴾...إن كفار قريش كانوا في غاية العداوة لليهود،فلما ظهرت دعوة محمد ﷺ تناصروا وتعاونوا علي إيذائه ومحاربته... ولما اشتركوا في عداوة محمد ﷺ صارت هذه الجهة موجبة لانضمام بعضهم إلي بعض وقرب بعضهم من بعض وذلك يدل علي أهم ما أقدموا علي تلك العداوة لأجل الدين، لأن كل واحد منهم كان في نهاية الإنكار لدين صاحبه،بل كان ذلك من أدل الدلائل علي أن تلك العداوة لمحض الحسد والبغي والعناد.

ثم إنه تعالي لما بين هذه الأحكام قال: ﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ،﴾ والمعني: إن لم تفعلوا ما أمرتكم به في هذه التفاصيل المذكورة المتقدمة تحصل فتنة في الأرض ومفسدة عظيمة. وبيان هذه الفتنة والفساد من وجوه:

١- أن المسلمين لو اختلطوا بالكفار في زمان ضعف المسلمين وقلة عددهم، وزمان قوة الكفار وكثرة عددهم،فربما صارت تلك المخالطة سببا لالتحاق المسلم بالكفار.

٢- أن المسلمين لو كانوا متفرقين لم يظهر منهم جمع عظيم،فيصير ذلك سببا لجراءة الكفار عليهم.

٣- أنه إذا كان جمع المسلمين كل يوم في الزيادة في العدد والعدة،صار ذلك سببا لمزيد رغبتهم فيما هم فيه ورغبة المخالف في الالتحاق بهم."[١]

قوله تعالي: ﴿ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(٧٥)،﴾.

الولاية بين المسلمين عند نشأة المجتمع المسلم كانت ولاية توارث وتكافل في الديات وولاية تحالف ونصرة،قامت مقام علاقات الدم والنسب. فلما وجدت الدولة ورسخت بعد موقعة بدر بقيت ولاية التحالف والنصرة ورد الله الميراث والتكافل في الديات إلي قرابة الدم والنسب.

"وذلك أن النبي ﷺ آخي بين المهاجرين والأنصار، وكانت بين الأنصار أخوة النسب، وكانت أيضا بين بعض المهاجرين. فكان المهاجريّ إذا مات، و لم يكن له بالمدينة مهاجري،

---

(١) الرازي، مفاتيح الغيب ج١٥ ص ١٦٧-١٦٨.

ورثه أخوه الأنصارى، وإن كان له ولي مسلم لم يهاجر،فكان المسلم الذى لم يهاجر لاولاية بينه وبين قريبه المهاجرى فلايرثه... ووجب بهذه الآية الأخيرة أن يرث الرجل قريبه، وإن لم يكن مهاجرا معه،بعد أن كان أولا يرث المهاجرى الأنصارى... أثبت الله ذلك في كتابه وهو القرآن."[1]

يقول تعالي: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(٧٢)وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ(٧٣) وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ(٧٤)وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(٧٥)﴾

المناسبة

بين تعالي في سورة الأعراف صفة من صفات المؤمنين في قولة تعالي:

﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ولا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ وبين تعالي ذلك في سورة الأنفال في قولة تعالي:

﴿ ولا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وهُمْ لا يَسْمَعُونَ﴾. فهؤلاء إنما أتي عليهم من اتباع أهوائهم والوقوف مع أغراضهم وشهواقم. وذلك ما أشار إليه تعالي في سورة الأعراف:

﴿ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى﴾، وكذلك ما وصف به تعالي من انسلخ من آياته بأنه: ﴿ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ واتَّبَعَ هَوَاهُ﴾. فالهوى سبب الضلال وتنكب الصراط المستقيم. وفي سورة الأنفال أمر المؤمنين بحسم باب الأهواء، والتسليم فيما لهم به تعلق وإن لم يكن هوى مجردا لكنه مظنة تيسير لاتباع الهوى فافتتحت السورة بالأمر: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾.

ولما ثبت بالسور الماضية وجوب اتباع أمر الإله والاجتماع عليه، لما ثبت من تفرده واقتداره،كان مقصود هذه السورة اتباع الداعي إليه بغاية الإذعان والتسليم والرضا، والتبرؤ

(١) ابن عطية، المحرر الوجيز ج٦ ص ٣٨٨، ٣٩٥.

من كل حول وقوة إلي من أنعم بذلك، ولو شاء سلبه. وأدل ما فيها علي هذا قصة الأنفـال التي اختلفوا في أمرها، وتنازعوا قسمها،فمنعهم الله منها وكف عنهم حظوظ الأنفس وألزمهم الإخبات والتواضع، وأعطاها نبيه ﷺ؛ لأنه الذى هزمهم بما رمي من الحصيات التي خرق الله فيها العادة بأن بثها في أعين جميعهم، وبما أرسل من جنوده. فكأن الأمر له وحده،يمنحه مـن يشاء. ثم لما صار له ﷺ،رده فيهم منة منه عليهم وإحسانا إليهم، واسمها الجهاد كـذلك لأن الكفار دائما أضعاف المسلمين، وما جاهد قوم من أهل الإسلام قط إلا أكثر منهم، وتجـب مصابرة الضعف. فلو كان النظر إلي غير قوته سبحانه ما أطيق ذلك، ولهذه المقاصـد سـنت قراءتها في الجهاد لتنشيط المؤمنين للجهاد، وإن كثرت من الأعادى الجموع والأعداد، وتوالت إليهم زمر الإمداد من سائر العباد "[1]

(١) البقاعي، نظم الدرر ج٣ ص ١٨٨ - ١٩١ .



البراء
كما تبينه
سورة براءة

البراء
كما تبينه سورة براءة

مقدمة

إن الإسلام ليس مجرد مبادئ مطلقة تحرك الإنسان في أى طريق يريد،إنه بعقيدتـــه يـــبين حقيقة الكون والحياة وغايتها، وبشريعته يحدد المنهج الحركي للإنسان والأمة لتحقيق الرسالة التي من أجلها خلقت السماوات والأرض. وهو بذلك دستور للحياة وتفسير للتاريخ وتحليل للسياسة وتخطيط للمستقبل، ومنه تتولد مشاعر المودة والعداء والولاء والبراء والحرب والسلام.

فلذلك من حق قارئ القرآن أن يستشعر مواقع آى القرآن من نفسه في ذات قلبــه، وفي أحوال نفسه وأعمال بدنه، وفي سره مع ربه وفي علانيته مع خلقه،فإنه بذلك يجد القرآن كله منطبقا عليه خاصا به،حتي أن جميعه لم يتزل إلا إليه.. فيستمع القرآن بلاغا من الله تعالي إليـــه بلا واسطة بينه وبينه،فعند ذلك يوشك أن يكون ممن يقشعر له جلده ابتداء،ثم تلين له جلـــده وقلبه انتهاء، وربما يجد من الله سبحانه وتعالي نفخ رحمة يفتح له باباً إلي التخلق بالقرآن أسوة بالنبي ﷺ.[1]

سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ فقالت:**كان خلقه القرآن**.[2]

وهذه السورة هي آخر سورة نزلت في القرآن الكريم عن البراء رضي الله عنه،أنه قـــال: " آخر سورة نزلت براءة "[3].

ولقد نزلت سورة براءة والمسلمون كثرة،غرّهم عددهم في موقعة حنين، كما أن الأعداء بدأ يتسع نطاقهم من المشركين وأهل الكتاب.

وظهرت مع تعاظم قوة المسلمين فئة أخرى داخلية تبيت العداوة ولاتقدر أن تظهرها وهم المنافقون،خصوصا عند ساعة العسرة الممثلة في الاشتباك مع قوة الروم في موقعة تبوك.

---

(١) البقاعي، نظم الدرر ج ٣ ص ٢٥٦.

(٢) مسلم حديث ٧٤٦.

(٣) أخرجه البخارى رقم ٤٦٠٥ من حديث البراء بن عازب.

فكان لابد من حماية الجماعة المسلمة من تسيب العلاقات مع هذه الفئات،خصوصا إذا كانت هناك صلة قرابة أو مصلحة.

وقد تضمنت السورة تصنيف الناس،فالمسلمون منهم السابقون وأهل بدر وأصحاب بيعة الرضوان، وتمييز من قاتل وأنفق قبل الفتح ومن قاتل وأنفق من بعد الفتح. ونوهت بالمؤمنين من الأعراب المنفقين قربي إلي الله وصلوات الرسول.

كما بينت صفات المنافقين وسلوكياتهم في داخل المجتمع المسلم، وصفات الأعراب الذين يعتبرون ماينفقون مغرما ويتربصون بالمؤمنين الدوائر. كما قدمت وصفا لاعتقادات أهل الكتاب وسلوكياتهم. وبذلك حددت أوضاعهم وكيفية معاملتهم.

وهكذا عنيت هذه السورة بتوضيح الصفات النفسية، وسلوكيات هذه الفئات وطريقة التعامل معهم في السلم والحرب، لتمد المسلمين بزاد من الدراية في تفسير التاريخ وتحليل السياسة، وهم يواجهون أعداءهم.

"فما صد أكثر هذه الأمة عن فهم القرآن ظنهم أن الذى فيه من قصص الأولين وأخبار المثابين والمعاقبين من أهل الأديان أجمعين أن ذلك إنما مقصوده الأخبار والقصص فقط،كلا، وليس كذلك. إنما مقصوده الاعتبار والتنبيه لمشاهدة متكررة في هذه الأمة من نظائر جميع أولئك الأعداد وتلك الأحوال والآثار،حتي يسمع السامع جميع القرآن،من أوله إلي خاتمته،منطبقا علي هذه الأمة وأئمتها،هداها وضلالها. فحينئذ ينفتح له باب الفهم، ويضئ له نور العلم، ويتجه له حال الخشية، ويرى في أصناف هذه الأمة ما سمع من أحوال القرون الماضية ...فيترقي سمعه إلي أن يجد جميع كلية القرآن المنطبق علي كلية الأمة منطبقا علي ذاته في أحوال نفسه وتقلباته وتصرفات أفعاله وازدحام خواطره،حتي يسمع القرآن منطبقا،فينتفع بسماع جميعه، ويعتبر بأى آية سمعها منه،فيطلب موقعها في نفسه فيجدها بوجه ما رغبة كانت أو رهبة تقريبا كانت أو تبعيدا إلي أرفع الغايات أو إلي أنزل الدركات...

واختلف الصحابة في أن سورة الأنفال وسورة التوبة سورة واحدة أم سورتان ؟ " فقال بعضهم: هما سورة واحدة لأن كلتيهما نزلت في القتال، ومجموعهما هذه السورة السابعة من الطوال، وهي سبع، ومابعدها المئون. وهذا قول ظاهر، لأنهما معا مائتان وست آيات. فهما بمنزلة سورة واحدة. ومنهم من قال هما سورتان،فلما ظهر الاختلاف بين الصحابة في هذا

الباب تركوا بينهما فرجة تنبيها علي قول من يقول هما سورتان. وماكتبوا بسم الله الـــرحمن الرحيم بينهما تنبيها علي قول من يقول هما سورة واحدة. "[1]

"قال عثمان بن عفان رضي الله عنه: أشبهت معانيها معاني الأنفـــال، وكانتـــا تـــدعيان القرينتين في زمن النبي ﷺ،فلذلك قرنت بينهما، ولم أكتب:**بسم الله الرحمن الرحيم**. ووضعتها في السبع الطوال.

وقال علي بن أبي طالب لابن عباس رضي الله عنهما: **بسم الله الرحمن الـــرحيم**،أمـــان وبشارة، وبراءة نزلت بالسيف ونبذ العهود،فلذلك لم تبدأ بالأمان."[2]

و" في هذا دليل علي أن تأليف القرآن كان منزلا من عند الله، وأن تأليفه من تنزيله،بيّنـــه النبي ﷺ لأصحابه، ويميّزه لكتابه، ويرتبه علي أبوابه،إلا هذه السورة فلم يذكر لهم فيها شـــيئا ليتبين الخلق أن الله يفعل مايشاء ويحكم مايريد، ولايسأل عن ذلك كله، ولايعتـــرض عليـــه، ولايحاط بعلمه إلا بما أبرز منه إلي الخلق وأوضحه البيان."[3]

ووضع هذه السورة ليس بتوقيف عن الرسول ﷺ للصحابة رضي الله تعالي عنهم،كما هو المرجح،بل باجتهاد عثمان رضي الله عنه.

" ويقع بيان مقصد عثمان رضي الله عنه في ذلك بأمور:

١- أنه جعل الأنفال قبل براءة مع قصرها، لكونها مشتملة علي البسملة،فقدمها لتكـــون كقطعة منها ومفتتحها، وتتكون براءة لخلوها منها كتتمتها وبقيتها. ولهذا قال جماعـــة مـــن السلف: إن الأنفال وبراءة سورة واحدة لاسورتان.

٢- أنه وضع براءة هنا لمناسبة الطوال، وأنه ليس في القرآن بعد الست السابقة ســـورة أطول منها، وذلك كاف في المناسبة.

٣- أنه خلل بالسورتين أثناء السبع الطوال المعلوم ترتيبها في العصر الأول للإشارة إلي أن ذلك أمر صادر لاعن توقيف، وإلي أن الرسول ﷺ قبض قبل أن يبين محلها..

٤- أنه لو أخرها وقدّم يونس وأتى بعد براءة بهود كما في مصحف أبي بن كعب، لمراعاة مناسبة السبع الطوال، وإيلاء بعضها بعضا لفات مع ما أشرنا إليه أمر آخر آكد في المناسبة،فإن الأولي بسورة يونس أن تولي بالسور الخمسة التي بعدها لما اشتركت فيه من الاشتمال علـــي القصص، ومن الافتتاح بـــ (الر) وبذكر الكتاب، ومن كونها مكيات، ومن تناســـب،ماعدا

---

(١) الرازي، مفاتيح الغيب ج١٥ ص ١٧٣.

(٢) ابن عطية، المحرر الوجيز ج ٦ ص ٣٩٦.

(٣) ابن العربي، أحكام القرآن ج٢ ص ٩٠٣.

الحجر،في المقدر، ومن التسمية باسم نبي، والرعد اسم ملك، وهو مناسب لأسماء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

فهذه ستة أوجه في مناسبة الاتصال بين يونس وما بعدها، وهي آكد من ذلك الوجه الواحد في تقديم يونس بعد الأعراف. ولبعض هذه الأمور قدمت سورة الحجر علي النحل مع كونها أقصر منها ولو أخرت براءة عن هذه السور الستة لبعدت المناسبة جدا لطولها بعد عدة سور أقصر منها بخلاف وضع سورة النحل بعد الحجر فإنها ليست كبراءة في الطول.

ويشهد لمراعاة الفواتح في مناسبة الوضع ما ذكرناه من تقدم الحجر علي النحل لمناسبة ذوات (الر) قبلها، وما تقدم آل عمران علي النساء وإن كانت أقصر منها لمناسبتها البقرة في الافتتاح بـ (الم) وتوالي الطواسين والحواميم، وتوالي العنكبوت والروم ولقمان والسجدة لافتتاح كل بـ (الم). ولهذا قدمت السجدة علي الأحزاب التي هي أطول منها."[1]

الأساس العقيدى

بينت سورة الأنفال وهي تقدم موضوعها في أركان الولاء للمؤمنين، وأوصاف الإيمان الحق، وما يترتب عليه من صياغة للمشاعر والعلاقات. يقول تعالي:

﴿ وإن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ولَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٣)﴾

وقولة تعالي: **﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وهَاجَرُوا وجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ والَّذِينَ آوَوا ونَصَرُوا أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ والَّذِينَ آمَنُوا ولَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن ولايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ واللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٧٢)﴾**

واستكملت سورة التوبة وهي تقدم موضوعها في البراء من المشركين والمنافقين،استكمال التعريف بهذا الإيمان الحق وما يترتب عليه من مشاعر وعلاقات في جانب البراء،يقول تعالي:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ ومَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٣)﴾

فمن شروط الإيمان الحق الذى ذكرته السورة:

---

(١) السيوطي، تناسق الدرر في تناسب السور، ص ٥٥-٥٨ دار الكتاب العربي ١٩٨٣م.

١- حب الله ورسوله:

يقول تعالي: **﴿ قُلْ إن كَانَ آبَاؤُكُمْ وأَبْنَاؤُكُمْ وإخْوَانُكُمْ وأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا ومَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّـه ورَسُـوله وجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ واللَّهُ لا يَهْدِي القَوْمَ الفَاسِقِينَ (٢٤)﴾**

إن الله سبحانه وتعالي:" لما أمر المؤمنين بالتبرى عن المشركين وبالغ في إيجابه،قالوا كيف تمكن هذه المقاطعة التامة بين الرجل وبين أبيه وأمه وأخيه ؟ فذكر الله تعالي: أن الانقطاع عن الآباء والأولاد والإخوان واجب بسبب الكفر...

واعلم أنه تعالي ذكر الأمور الداعية إلي مخالطة الكفار، وهي أمور أربعة:

أ- مخالطة الأقارب، وذكر منه أربعة أصناف علي التفصيل: وهم الآباء والأبناء والإخوان والأزواج. ثم ذكر البقية بلفظ واحد يتناول الكل، وهي لفظ العشيرة.

ب- الميل إلي إمساك الأموال المكتسبة.

ج- الرغبة في تحصيل الأموال بالتجارة.

د- الرغبة في المساكن.

ولاشك أن هذا الترتيب ترتيب حسن،فإن أعظم الأسباب الداعية إلي المخالطة القرابة،ثم إنه يتوصل بتلك المخالطة إلي إبقاء الأموال الحاصلة،ثم إنه يتوصل بالمخالطة إلي اكتساب الأموال التي هي غير حاصلة، وفي آخر المراتب الرغبة في البناء في الأوطان والدور التي بنيت لأجل السكني. فذكر تعالي هذه الأشياء علي هذا الترتيب الواجب، وبين بالآخرة أن رعاية الدين خير من رعاية جملة هذه الأمور."[١]

و" فيه نهي للمؤمنين عن موالاة الكفار ونصرتهم والانتصار بهم وتفويض أمورهم إليهم وإيجاب التبرؤ منهم وترك تعظيمهم وإكرامهم... إلا أنه قد أمر مع ذلك بالإحسان إلي الأب الكافر وصحبته بالمعروف.. وإنما أمر المؤمنين بذلك ليتميزوا من المنافقين،إذ كان المنافقون يتولون الكفار ويظهرون إكرامهم وتعظيمهم إذا لقوهم ويظهرون لهم الولاية والحياطة،فجعل الله تعالي ماأمر به المؤمن في هذه الآية عاما يتميز به المؤمن من المنافق. وأخبر أن من لم يفعل ذلك فهو ظالم لنفسه مستحق للعقوبة من ربه."[٢]

" قال المفسرون: هذه الآية في بيان حال من ترك الهجرة، وآثر البقاء مع الأهل والذلّ."[٣]

---

(١) الرازى، مفاتيح الغيب ج١٦ ص ١٥-١٦.

(٢) الجصاص، أحكام القرآن ج٣ ص ٨٧.

(٣) ابن العربي، أحكام القرآن ج٢ ص ٩٠.

وفي الحديث الصحيح: **إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه: فقعد له بطريق الإسلام فقال: تسلم وتذر دينك ودين آبائك وآباء آبائك ؟ فعصاه فأسلم.**

ثم قعد له بطريق الهجرة،فقال: تهاجر وتدع أرضك وسماءك، وإنما مثل المهاجر كمثل الفرس في الطول. فعصاه فهاجر.

ثم قعد له بطريق الجهاد فقال: تجاهد،فهو جهد النفس والمال،فتقاتل فتقتل،فتنكح المرأة ويقسم المال؟ فعصاه فجاهد.

فمن فعل ذلك كان حقا علي الله أن يدخله الجنة. ومن قتل كان حقا علي الله أن يدخله الجنة، وإن غرق كان حقا علي الله أن يدخل الجنة، وإن وقصته دابته كان حقا علي الله أن يدخله الجنة.(١)

وتستكمل سورة التوبة ما بدأته سورة الأنفال من شروط الإيمان الحق،فمن ذلك:

٢- الحرص علي الجهاد:

يقول تعالي: **﴿ لا يَسْتَئْذِنُكَ الَذينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ والْيَوْمِ الآخِرِ أن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وأَنفُسِهِمْ واللَّهُ عَلِيمٌ بالْمُتَّقِينَ (٤٤)﴾**

والذين يؤمنون بالله ويعتقدون بيوم الجزاء لا ينتظرون أن يؤذن لهم في أداء فريضة الجهاد، ولا يتلكأون في تلبية داعي النفرة في سبيل الله بالأموال والأرواح،بل يسارعون إليها خفافا وثقالا كما أمرهم الله،طاعة لأمره، ويقينا بلقائه، وثقة بجزائه، وابتغاء لرضاه. وإنهم ليتطوعون تطوعا فلا يحتاجون إلي من يستحثهم فضلا عن الإذن لهم. إنما يستأذن أولئك الذين خلت قلوبهم من اليقين فهم يتلكأون ويتلمسون المعاذير، لعل عائقا من العوائق يحول بينهم وبين النهوض بتكاليف العقيدة التي يتظاهرون بها، وهم يرتابون فيها ويترددون...

والقلوب الحائرة تبث الخور والضعف في الصفوف، والنفوس الخائفة خطر علي الجيوش ولو خرج أولئك المنافقون مازادوا المسلمين قوة بخروجهم،بل لزادوهم اضطرابا وفوضي، ولأسرعوا بينهم بالوقيعة والفتنة والتفرقة والتخذيل، وفي المسلمين من يسمع لهم في ذلك الحين. ولكن الله الذى يرعي دعوته ويكلأ رجالها المخلصين،كفي المؤمنين الفتنة فترك المنافقين المتخاذلين قاعدين."(٢)

---

(١) رواه النسائي وأحمد وابن حبان، الألباني، صحيح الجامع الصغير، ج١ ص ٣٣٩،٣٤٠.

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن ج٦ ص ١١٦٢-١١٦٣.

٣- متطلبات ولاية المؤمنين:

قوله تعالي: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(٧١)وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(٧٢)﴾

" إن هذه الصفات الأربع في المؤمنين: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، لتقابل من صفات المنافقين: الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف ونسيان الله وقبض الأيدى. وإن رحمة الله للمؤمنين لتقابل لعنته للمنافقين والكفار. وإن تلك الصفات هي التي وعد الله المؤمنين عليها بالنصر والتمكين في الأرض."[١]

" قال تعالي في صفة المنافقين: ﴿ الْمُنَافِقُونَ والْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ﴾، وهنا قال في صفة المؤمنين: ﴿ والْمُؤْمِنُونَ والْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾،فلم ذكر في المنافقين لفظ من وفي المؤمنين لفظ أولياء ؟ الجواب: قوله في صفة المنافقين: ﴿ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ﴾، يدل علي أن نفاق الأتباع كالأمر المتفرع علي نفاق الأسلاف. والأمر في نفسه كذلك، لأن نفاق الأتباع وكفرهم حصل بسبب التقليد لأولئك الأكابر، وبسبب مقتضي الهوى والطبيعة والعادة. أما الموافقة الحاصلة بين المؤمنين فإنما حصلت، لا بسبب الميل والعادة،بل بسبب المشاركة في الاستدلال والتوفيق والهداية. فلهذا السبب قال تعالي في المنافقين: ﴿ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ﴾، وقال في المؤمنين: ﴿ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾...واعلم أنه تعالي لما وصف المؤمنين بكون بعضهم أولياء بعض،ذكر بعده مايجرى مجرى التفسير والشرح له فقال: يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله. فذكر هذه الأمور الخمسة التي بها يتميز المؤمن من المنافق،فالمنافق علي ماوصفه الله تعالي في الآية المتقدمة: يأمر بالمنكر، وينهي عن المعروف. والمؤمن بالضد منه. والمنافق لا يقوم إلي الصلاة إلا مع نوع من الكسل والمؤمن بالضد منه. والمنافق يبخل بالزكاة وسائر الواجبات.. والمؤمنون يؤتون الزكاة. والمنافق إذا أمره الله ورسوله بالمسارعة إلي الجهاد فإنه يتخلف بنفسه ويبطئ غيره،كما وصفه الله بذلك، والمؤمنون بالضد منهم... ثم لما ذكر صفات المؤمنين بين أنه كما وعد المنافقين نار جهنم، فقد وعد المؤمنين الرحمة المستقبلة، وهي ثواب الآخرة. فلذلك قال:

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن ج٣ ص ١٦٧٦.

﴿أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾.. واعلم أنه تعالي لما ذكر الوعد في الآية الأولي علي سبيل الإجمال،ذكره في هذه الآية علي سبيل التفصيل، وذلك لأنه تعالي وعد بالرحمة. ثم بين في هذه الآية أن تلك الرحمة: ﴿ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(٧٢)﴾
والعدن معناه: لزوم المكان وإلفه."(١)

٤- متطلبات البيع الرابح:

قوله تعالي: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(١١١)التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ(١١٢)﴾

المجاهد الذى يستحق جزاء الله الحسن لا بد أن تتوفر له مقومات تؤهله لهذا العطاء. من هذه المقومات ما يتصل بصلته بربه،سواء كان ذلك داخليا أو خارجيا، ومنها ما يتصل بعلاقاته مع الناس.

والمقومات الداخلية التي تتصل بعمل القلوب هي:

١- أول هذه المقومات التوبة الخالصة لله من كل ذنب والاستغفار من كل معصية. فالتوبة أساس العمل الصالح.

٢- العبودية الكاملة لله وإفراده سبحانه بالربوبية،فأقبلوا علي العبادة فأخلصوها لله.

١- حمده سبحانه وتعالي علي ما أنعم من نعم الدنيا حمدا تنطق به الألسنه، وتنعقد عليه القلوب، وتتبعه آثاره.

أما المقومات الخارجية في صورة الشعائر فهي:

١- السياحة ومن معانيها الصيام والتفكر في آلائه.

٢- الركوع والسجود في الصلاة خضوعا وتتريها وشكرا لله.

والمقومات في صورة المعاملات التي تتصل بعلاقاته بالناس فهي:

١- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

---

(١) الرازى، مفاتيح الغيب ج١٦ ص ١٠٤-١٠٦.

" والمراد فيما تقدم من الأوصاف الإتيان بما أمكن منها. فأتي بها اتباعا دون عطف لذلك. وأشار إلي أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والوقوف عند الحدود لا يقنع منه إلا بالتمام، لأن المقصر في شئ من ذلك إما راض بهدم الدين وإما هادم بنفسه،فيجب التجرد التام فيـــه، لأن النهي أصعب أقسام العبادة، لأنه متعلق بالغير، وهو مثير للغضب،موجب للحمية، وظهور الخصومة،فربما كان عنه ضرب وقتل،فلذلك عطفها و لم يتبعها فقال: **والنَّــاهُونَ**،أى بغايــة الجد،**عَنِ الْمُنكَرِ**،أى البدعة. ولما كان فاعل الخير لا ينفعه فعله إلا باستمراره عليه إلي المـــوت أتبعه قوله: **والْحَافِظُونَ**، أى بغاية الحزم، ل**حُدُودِ اللّهِ**، أى الملك الأعظم التي حدها في هـــذا الشرع القيم فلم يتجاوزا شيئا منها ... فختم بما بدأ مع قيد الدوام بالرعي والقوة.

والحاصل أن الوصف الأول للتجرد عن ربقة مألوف خاص وهو شرك المعصية بشركه أو غيره. والثاني للتجرد عن قيود العادات إلي قضاء العبادات، والثالث لبلوغ الغاية في تهـــذيب الظاهر. والرابع للتوسع إلي التجرد عن قول الباطل. والخامس والسادس للجمع بين كمـــال الباطن والظاهر. والسابع للسير إلي إفاضة ذلك علي الغير، والثامن للدوام علي تلك الحـــدود بترك جميع القيود. فمقصود الآية العروج من الحضيض الجسماني إلي الشرف الروحاني..

ولما كثرت في هذه السورة الأوامر بالبراءة من أحياء المشركين، وجاء الأمر أيضا بـــالبراءة من أموات المنافقين بالنهي عن الدعاء لهم،جاءت هذه الآية مشيرة إلي البراءة من كل مشرك. فوقع التصريح بعدها بما أشارت إليه ...

ولما ثبت بهذه الآية في تقدم الجار أن المبايعة وقعت علي تخصيص الجنة بالمؤمنين، وأنه تعالي أوفي من عاهد،ثبت أنه لا يجوز أن يدخل غيرهم الجنة وأن غيرهم أصـــحاب النـــار.. فـــإن الاستغفار معناه محو الذنوب حتي ينجو صاحبها من النار ويدخل الجنة وما ينبغي لهم أن يكون لهم إليهم التفات،فإن ذلك ربما جر إلي ملاينة تفتر عن القتال الواقع عليه المبايعة فما ينبغي إلا محض المقاطعة والمخاشنة والمنازعة. وتقييد النهي بالتبين يدل علي جواز الـــدعاء للحي،فـــإن القصد بالاستغفار الإقبال به إلي الإيمان الموجب للغفران. ولما أنكر أن يكون لهم ذلك، وكان الخليل عليه السلام المأمور بالاقتداء به واللزوم بملته قد استغفر لأبيه،بين أنه كان أيـــضا قبـــل العلم بما في نفس الأمر من استحقاقه التأبيد في النار..

فالاستغفار للمشركين أمر عظيم، لأن فيه نوع ولاية لهم.. وأظهر تعالي عدم المؤاخذه قبل بيان أحكام الشريعة مما هو جدير أن يحذروه ويتجنبوه خوفا من غائلته."[1]

زار النبي ﷺ قبر أمه فبكي وأبكي من حوله وقال:**استأذنت ربي في أن أستغفر لها فلم يأذن لي، واستأذنته أن أزور قبرها فأذن لي. فزوروا القبور فإنها تذكر الموت..**

وكما أن الولاء للمؤمنين تصحبه الرأفة والرحمة،فإن البراء من الكافرين تصحبه القوة والغلظة.

٥- معية الصادقين

يقول تعالي: **﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ(١١٩)﴾**

" الصادقون: الذين استوت ظواهرهم وبواطنهم.. وهي الغاية التي إليها المنتهي في هذه الصفة، وبها يرتفع النفاق في العقيدة، والمخالفة في الفعل،صاحبها يقال له صدق."[2]

" والمعني: لازم الصدق ولا تعدل عنه،إذ ليس في الكذب رخصة.. وهذه صفة أصحاب النبي ﷺ: المهاجرين والأنصار.. فهم الذين صدقوا.. فدل علي قيام الحجة علينا بإجماعهم، وأنه غير جائز لنا مخالفتهم لأمر الله إيانا باتباعهم."[3]

٦-التوبة

وسميت السورة باسم التوبة لأهمية التوبة بالنسبة للإيمان.

قال العلماء: التوبة واجبة في كل زمن،فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالي لا تتعلق بحق آدمي،فلها ثلاثة شروط:

١- أن يقلع عن المعصية.

٢- أن يندم علي فعلها.

٣- أن يعزم ألا يعود إليها أبدا.

فإن فقد أحد الثلاثة، لم تصح توبته.

وإن كانت المعصية تتعلق بآدمي فشروطها أربعة: هذه الثلاثة، وأن يبرأ من حق صاحبها،فإن كانت مالا أو نحوه رده إليه، وإن كانت حد قذف ونحوه مكنه منه،أو طلب عفوه، وإن كانت غيبة استحله منها.

---

(١) البقاعي، نظم الدرر ج٣ ص ٢٩١-٢٩٥.

(٢) ابن العربي، أحكام القرآن ج٢ ص ١٠٣٧

(٣) الجصاص، أحكام القرآن ج٣ ص ١٦٠.

ويجب أن يتوب من جميع الذنوب،فإن تاب من بعضها صحت توبته عند أهل الحق من ذلك الذنب وبقي عليه الباقي. وقد تظاهرت آيات الكتاب والسنة وإجماع الأئمة علي وجوب التوبة.[1]

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال،سمعت رسول الله ﷺ يقول:

والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة.[2]

وعن أبي موسي عبد الله بن قيس الأشعرى رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:

إن الله تعالي يبسط يده بالليل ليتوب مسئ النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسئ الليل،حتي تطلع الشمس من مغربها.[3]

وقد علمنا أن التوبة من صفات المؤمنين الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، وأنعم الله بها علي نبيه محمدا ﷺ وصحبه،

فقال تعالي: ﴿ **لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ والْمُهَاجِرِينَ والأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١١٧)** ﴾

ويفتح سبحانه وتعالي باب التوبة للعاصين،

يقول تعالي: ﴿ **وآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٠٢) خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وتُزَكِّيهِم بِهَا وصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ واللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٠٣) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ويَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٠٤)** ﴾

ويقول تعالي: ﴿ **وعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨)** ﴾ بل يفتح سبحانه باب التوبة للمنافقين.

يقول تعالي: ﴿ **يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا ولَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الكُفْرِ وكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ومَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ ورَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً**

---

(١) النووى، رياض الصاحلين ص ١٠مطبعة الكتبي دمشق .

(٢) البخارى ج١١ ص ٨٥.

(٣) رواه مسلم حديث رقم ٢٧٦٠.

لَّهُمْ وإن يَتوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيَا والآخِرَةِ ومَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن ولِيٍّ ولا نَصِيرٍ (٧٤)﴾

وفي السورة دعوة لتوبة المشركين:

يقول تعالي: ﴿ فإذا انسَلَخَ الأَشهُرُ الحُرُمُ فَاقْتُلُوا المُشرِكِينَ حَيْثُ وجَدتُّمُوهُمْ وخُذُوهُمْ واحْصُرُوهُمْ واقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإن تَابُوا وأَقَامُوا الصَّلاةَ وآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥)﴾

﴿ فَإن تَابُوا وأَقَامُوا الصَّلاةَ وآتَوُا الزَّكَاةَ فَإخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ونُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١١)﴾

عبرة التاريخ

عبرة التاريخ في سورتي الأنفال والتوبة تؤخذ من وقائع عصر النبوة،بعد أن استوفي في السور السابقة عبرة التاريخ من أهل الكتاب والأمم السابقة. ونلاحظ هنا أن عبرة التاريخ تؤخذ من أواخر حياة النبي ﷺ بعكس سورة الأنفال التي أخذت من بداية الأحداث بعد هجرة المسلمين إلي المدينة. وبينما كان المسلمون قلة نصرهم الله علي أعدائهم لتوفر شروط الإيمان فيهم، وسورة التوبة تبين مدى المشاكل التي سببها الطلقاء في غزوة حنين وهم الحديثي عهد بالإيمان، وما سببه المنافقون من مشكلات في غزوة تبوك بعد أن اتسعت رقعة الإسلام وزاد الأتباع. ويلاحظ هنا أن هذه الغزوات كانت أبدا ردا علي مبادءة الكفار بالعدوان.

غزوة حنين

حنين موضع بين مكة والطائف نسبت الغزوة إليه. فلما سمعت هوازن بفتح مكة تجمعوا وأتوا لقتال النبي ﷺ.، وجمع ملكها الجموع من هوازن وغيرها لقتال المسلمين. [١]

واختصار هذه القصة أن رسول الله ﷺ لما فتح مكة وكان في عشرة آلاف من أصحابه وانضاف إليه ألفان من الطلقاء،فصار في اثني عشر ألف،سمع بذلك كفار العرب فشق عليهم،فجمعت له هوازن وألفافها، وعليهم مالك بن عوف النصرى، وثقيف وعليهم عبد بن عمرو، وانضاف إليهم أخلاط من الناس حتي كانوا ثلاثين ألفا. فخرج إليهم رسول الله ﷺ

---

(١) ابن القيم، زاد المعاد، ج ٣ ص ٤٦٥ مكتبة المنار الإسلامية ٢٠٠٤.

حتي اجتمعوا بحنين. فلما تصافّ الناس حمل المشركون من جوانب الوادى فانهزم المسلمون. قال قتادة: ويقال: إن الطلقاء من أهل مكة فروا وقصدوا إلقاء الهزيمة في المسلمين. "[1]

" عن كثير بن عباس بن عبد المطلب قال: قال عباس: شهدت مع رسول الله ﷺ يوم حنين فلزمت أنا وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب رسول الله ﷺ فلم نفارقه. ورسول الله ﷺ علي بغلة له بيضاء أهداها له فروة بن نفاثة الحذامي. فلما التقي المسلمون والكفار ولي المسلمين مدبرين،فطفق رسول الله ﷺ يركض بغلته قبل الكفار. قال عباس: وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ أكفّها إرادة أن لا تسرع، وأبو سفيان آخذ بركاب رسول الله ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: **أى عباس،ناد أصحاب السمرة.** فقال عباس (وكان رجلا صيّتا) فقلت بأعلي صوتي: أين أصحاب السمرة. قال: فوالله لكأن عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر علي أولادها فقالوا: يالبيك يالبيك. قال: فاقتتلوا والكفار. والدعوة في الأنصار يقولون: يامعشر الأنصار،يامعشر الأنصار. قال: ثم قصرت الدعوة علي بني الحارث بن الخزرج فقالوا: يابني الحارث من الخزرج،يابني الحارث بن الخزرج. فنظر رسول الله ﷺ علي بغلته كالمتطاول عليها إلي قتالهم،فقال رسول الله ﷺ: **الآن حمِي الوطيس.** قال: ثم أخذ رسول الله ﷺ حصيّات فرمي بهن وجوه الكفار،ثم قال: **انهزموا ورب محمد.** قال: فذهبت أنظر فإذا القتال علي هيئته فيما أرى. قال: فوالله ماهو إلا أن رماهم بحصياته فما زلت أرى حدهم كليلا وأمرهم مدبرا." [2]

وأعطي رسول الله ﷺ قريش من غنائم المعركة، ليؤلف قلوبهم. فوجد الأنصار في أنفسهم،فجمعهم رسول الله ﷺ وخطب فيهم:

(يامعشر الأنصار مقالة بلغتني عنكم، وجدة وجدتموها في أنفسكم،ألم آتكم ضلالا فهداكم الله بي ؟ وعالة فأغناكم الله بي ؟ وأعداء فألّف الله بين قلوبكم ؟ قالوا: الله ورسوله أمنّ وأفضل. ثم قال: ألا تجيبوني يامعشر الأنصار ؟ قالوا: بماذا نجيبك يارسول الله، لله ولرسوله المن والفضل. **قال: أما والله لو شئتم، لقلتم،فلصدقتم ولصدقتم: أتيتنا مكذّبا فصدقناك، ومخذولا فنصرناك، وطريدا فآويناك، وعائلا فآسيناك،أوجدتم علي يامعشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا، ووكلتكم إلي إسلامكم. ألا ترضون يامعشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاء والبعير، وترجعون برسول الله إلي رحالكم،فوالذى نفس محمد بيده لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به. ولولا الهجرة، لكنت**

---

(١) ابن عطية، المحرر الوجيز، ج ٦ ص ٤٤٨-٤٤٩.

(٢) صحيح مسلم ج٢ ص ٩٢-٩٣.

امرءا من الأنصار، ولوسلك الناس شعبا ووديا، وسلكت الأنصار شعبا وواديا لسلكت شعب الأنصار وواديها،الأنصار شعار، والناس دثار،اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار.) فبكي القوم حتي اخضلوا لحاهم. وقالوا: رضينا برسول الله ﷺ قسما حظا."[١]

" وقدم وفد هوازن علي رسول الله ﷺ... فسألوه أن يمن عليهم بالسبي والأموال. فقال: **إن معي من ترون، وإن أحب الحديث إلي أصدقه،فأبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم ؟**

قالوا: ما كنا نعدل بالأحساب شيئا. فقال: **إذا صليت الغداة فقوموا فقولوا: إنا نستشفع برسول الله ﷺ إلي المؤمنين، ونستشفع بالمؤمنين إلي رسول الله ﷺ ،أن يردوا علينا سبينا.** فلما صلي الغداة، قاموا فقالوا ذلك. فقال رسول الله ﷺ: **أمّا ماكان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم، وسأسأل لكم الناس.** فقال المهاجرون والأنصار: ماكان لنا فهو لرسول الله.. ورد باقي الناس عليهم نساءهم وأبناءهم."[٢]

غزوة تبوك

بلغ رسول الله ﷺ أن الروم جمعت جموعا كثيرة بالشام، وأن هرقل رزق أصحابه لسنة، وأعد عدته وقدمت مقدمته إلي البلقاء.

وكان ذلك وقت الحر الشديد، وموعد جني ثمار أشجارهم، والناس تحب جني الثمار والتمتع بالثمار. [٣]

ولقد بلغت العسرة في غزوة تبوك مبلغا عظيما،فقد كان التمرة تقسم بين رجلين، والماء يؤخذ من كروش الإبل المذبوحة، وقد كان يزيغ فريق وينصرف من الشدة، ومن ثم حفتهم توبة الله ورحمته لتمسكهم وثباتهم. وكانت محنة الثلاثة المؤمنين الصادقين الذين تخلفوا شديدة،حتي ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وقاطعهم الناس مدة طويلة فذاقوا كربا عظيما،حتي نزلت التوبة عليهم من سابع سماء في وحي تلاه رسول الله ﷺ.

---

(١) ابن القيم، زاد المعاد ج ٣ ص ٤٧٤ والحديث عند البخارى ٣٨/٨ ومسلم (١٠٦١) تحقيق شعيب وعبد القادر الأرناؤوط.

(٢) نفس المصدر ص ٤٧٥-٤٧٦ والحديث في البخارى ٢٥/٨،٢٤.

(٣) ابن القيم، زاد المعاد، ج ٣ ص ٥٧٢،٤٦٥ مكتبة المنار الإسلامية ٢٠٠٤م.

قوله تعالي: ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ(٨١)فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ(٨٢)فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ(٨٣)وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ(٨٤)﴾

"هذه آية تتضمن وصف حالهم علي جهة التوبيخ لهم، وفي ضمنها وعيد. وقوله:**الْمُخَلَّفُونَ**، لفظ يقتضي تحقيرهم، وأنهم الذين أبعدهم الله من رضاه. وهذا أمكن في هذا من أن يقال: المتخلفون. ولم يفرح إلا منافق،فخرج من ذلك الثلاثة وأصحاب الأعذار... وكانت غزوة تبوك في وقت شدة الحر وطيب الثمار والظلال.. قيل لهم: فإذا كنتم تجزعون من حر القيظ فنار جهنم التي هي أشد،أحرى أن تجزعوا منها لو فهمتم... وهم لما هم عليه من الخطر مع الله وسوء الحال بحيث ينبغي أن يكون ضحكهم قليلا وبكاؤهم من أجل ذلك كثيرا... وأمر الله عز وجل لنبيه ﷺ بأن يقول لهم: **لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ**،هو عقوبة لهم، وإظهار لدناءة مترلتهم وسوء حالهم. وهذا هو المقصود في قصة ثعلبة بن حاطب التي تقدمت في الامتناع من أخذ صدقته، ولاخزى أعظم من أن يكون إنسان قد رفضه الشرع ورده كالجمل الأجرب... ويشبه أن تكون هذه الطائفة قد حتم عليها بالموافاة علي النفاق، وعيّنوا للنبي ﷺ.

موضوع السورة

"قال حذيفة وغيره، وتسمي الفاضحة،قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وتسمي الحافرة لأنها حفرت عن قلوب المنافقين،قال ابن عباس رضي الله عنهما: مازال يترل (ومنهم، ومنهم) حتي ظن أنه لايبقي أحد. وقال حذيفة: هي سورة العذاب، وقال ابن عمر رضي الله عنهما: كنا ندعوها المُقَشْقِشة،قال الحارث بن يزيد: كانت تدعي المبعثرة، ويقال لها المثيرة ويقال لها البحوث." [١]

و" لمّا قدم النبي ﷺ المدينة،صار الكفار معه ثلاثة أقسام:

* قسم صالحهم ووادعهم علي ألا يحاربوه، ولايظاهروا عليه، ولايوالوا عليه عدوه، وهم علي كفرهم آمنون علي دمائهم وأموالهم.

---

(١) ابن عطيه، المحرر الوجيز، ج٦ ص٣٩٦.

* وقسم حاربوه ونصبوا له العداوة.

* وقسم تاركوه فلم يصالحوه و لم يحاربوه،بل انتظروا مايؤول إليه أمره، وأمر أعدائه.

ثم من هؤلاء من كان يحب ظهوره وانتصاره في الباطن.

ومنهم من كان يحب ظهور عدوه عليه وانتصارهم.

ومنهم من دخل في الظاهر، وهو مع عدوه في الباطن، ليأمن الفريقين، وهؤلاء هم المنافقون.

فعامل كل طائفة من هذه الطوائف بما أمره به ربه تبارك وتعالي."[1]

" **مقصود السورة** معاداة من أعرض عما دعت إليه السورة الماضية من اتباع الداعي إلي الله في توحيده واتباع ما يرضيه، وموالاة من أقبل عليه، وأدل ما فيها علي الإبلاغ في هذا المقصد قصة المخلفين،فإنهم لاعترافهم بالتخلف عن الداعي بغير عذر في غزوة تبوك ... هجروا وأعرض عنهم بكل اعتبار حتي الكلام،فذلك معني تسميتها بالتوبة، وهو يدل علي البراءة لأن البراءة منهم،بهجرانهم حتي في رد السلام،كان سبب التوبة.. وتسميتها ببراءة واضح أيضا فيما ذكر من مقصودها "[2].

تواصل سورة براءة مسيرة سورة الأنفال،فبينما فصلت سورة الأنفال في بيان صفات المؤمنين من جهة الولاء، وأجملت أسلوب التعامل من الكافرين من ناحية البراء،تفصل سورة براءة في بيان أنواع الكفار وسبيل التعامل معهم من ناحية البراء.

ومن هنا بينما تبين سورة الأنفال مظاهر الولاء تبين هنا سورة براء مظاهر البراء. وهي تقسم المعسكر المواجه للجماعة المؤمنة إلي: المشركين،أهل الكتاب،المنافقين.

البراء من المشركين:

واجهت الجماعة المؤمنة في المدينة مواجهات من مشركي الجزيرة العربية،فوضح تبييت الغدر والتربص بالمسلمين رغم قيام العهد والميثاق بينهم وبين المسلمين..

أسباب سياسية للبراء من المشركين:

الوفاء بالعهد، والنبذ علي سواء،قمة سامقة مارسها الإسلام في مواجهة أعدائه من المشركين وأهل الكتاب. وهي قمة لا يطاولها أى نظام معاصر،الذى يتميز حكامه ودوله

---

(١) ابن قيم الجوزية، زاد المعاد، تحقيق شعيب وعبد القادر الأرناؤوط، موسسة الرسالة ١٩٩٤ص١٢٦.

(٢) البقاعي، نظم الدرر ج٣ ص ٢٥٥.

بالميكيافيلية السياسية التي تبرر فيها الغاية الوسيلة، والتي لاتعــرف في قاموســها إلا الغــدر والخيانة، ولاتراعي عهداً ولا ميثاقاً.

ولنبذ عهد المشركين للمشركين أسبابا ذكرها ربنا تبارك وتعالي في كتابه:

١- ظهور علامات الغدر، وعدم مراعاتهم لعهد ولا ميثاق إذا ظفروا بالمسلمين، وكــان ذلك عادة وخلقا لهم، وقد عرضنا وقائعه. والدلالة علي ذلك كثيرة من التاريخ الصحيح. علي سبيل المثال:

قدم قوم علي رسول الله ﷺ بعد أحد من عضل والقارة فقالوا: يارسول الله إن فينا إسلاما فابعث معنا نفرا من أصحابك يفقهوننا في الدين ويقرؤوننــا القــرآن ويعلموننــا شــرائع الإسلام،فبعث معهم عشرة. وأمر عليهم عاصم بن ثابت فخرج معهــم، حــتي إذا كــانوا بالرجيع، ماء لهذيل،غدروا بهم فاستصرخوا عليهم هــذيلا،فلما أتــوهم أخــذوا أســيافهم ليقاتلوهم،فقالوا: إنا والله لانريد قتلكم، ولكنا نريد أن نصيب بكم شيئا من أهل مكة، ولكم عهد الله وميثاقه أن لا نقتل منكم أحدا،فلم يقبل البعض وقاتلوا حتي قتلوا.. وانطلقوا بخبيــب وزيد بن الدثنة حتي باعوهما بمكة فقتلوهما [1].

وقصة العرنيين الذين قدموا علي رسول الله ﷺ فأظهروا الإسلام ثم خرجوا إلي لقاء الــنبي ﷺ فقتلوا الراعي واستاقوا اللقاح بعد ما رأوا من الآيات،فبعث النبي ﷺ في آثارهم فقتلهم.[2]

وكما فعل عامر بن الطفيل بأهل بئر معونة،مع أنهم في جوار عمه، قال لرسول الله ﷺ: لو بعثت رجالا من أصحابك إلي أهل نجد رجوت أن يستجيبوا لك،فقال رســول الله ﷺ: **إني أخشي عليهم أهل نجد.** فقال أبو براء: أنا لهم جار. فبعث رسول الله ﷺ المنذر بن عمرو في سبعين رجلا من أصحابه من خيار المسلمين،فلما نزلوا بئر معونة،بعثوا حرام بن ملحان بكتاب رسول الله ﷺ إلي عامر بن الطفيل فلم ينظر في كتابه، وعدا عليه فقتله،ثم استصرخ عليهم بني عامر فأبوا، وقالوا: لن نخفر أبا براء،فاستصرخ عليهم قبائل من بني سليم فقتلوهم،فلم يفلــت منهم إلا ثلاثة.[3]

وقصة خزاعة الذين كان بينهم وبين بني بكر عداوة في الجاهلية، وكانت خزاعة قد دخلت في عهد النبي ﷺ بالحديبية لما كان فكان لهم فيه من المحبة من مسلمهم وكافرهم. ودخلت بنو

---

(١) البخارى حديث ٤٠٨٦.

(٢) البخارى حديث ٤١٩٣.

(٣) البخارى حديث ٤٠٩٠ .

بكر في عهد قريش. فمرت علي ذلك مدة. واعتدى بنو بكر علي خزاعة، وأعانتهم قريش في عدوالهم رغم عهدهم مع النبي ﷺ.

٢- اختلاف ما يضمرونه في قلوبهم عما يظهرونه من أقوالهم.

٣- يبيعون وفاءهم ودينهم بالثمن القليل من لعاعة الدنيا. وهو التمتع بما هم فيه مدة حياتهم مع مايصيرون إليه من سفول الكلمة وإدبار الأمر، ومن قاده هواه إلي تجاهل الآيات والإعراض عن الآخرة إلي هذا العرض الزائل اليسير،كان غير مأمون علي شئ، لأنه رهينة داعي الهوى وأمر الشيطان.

٤- أرادوا إخراج الرسول من مكة ظلما وعتوا،كما أرادوا إخراجه في عمرة القضاء،كما أراد المنافق ابن أبي إخراجه من المدينة.

٥- كانوا هم البادئون بالعدوان، ويقود إلي ذلك دائما الرؤساء من أئمة الكفر حرصا علي جاههم. وقد كان ذلك واضحا في الحديبية،بإصرار الكفار علي القتال رغم أن المسلمين أتوا معتمرين، وما كان لهم أن يصدوا عن المسجد الحرام.

ومن هنا كان موقف المسلمين من هؤلاء الذين ظهر منهم الغدر إعلامهم بنبذ العهد حتي لا يأخذوا المسلمين علي غرة، وحتي يكونوا علي علم كامل بنبذ هذا العهد فلا يباغتوا بإعلان الحرب. وأعطوا مع سائر المشركين الذين لا تربطهم بالمسلمين عهود مهلة أربعة شهور يأمنون فيها أمنا لا يتعرض لهم أحد بسوء،بل يذهبون فيها حيث شاءوا، أو حتي يعدوا أسلحتهم وحصونهم،حيث الإسلام لايغدر ولا يبدأ بالعدوان. يتدبروا أمرهم فيها،فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فهم إخوة في الدين لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم. وذلك مع الوفاء بالعهد و لم يظهر منهم نية للغدر فلهم الوفاء بالعهد إلي المدة التي اتفق عليها.[١]

والخلاصة أمر بالوفاء لمن احترم العهد، وأمر بالقتال لمن غدر وبدأ بالعدوان

أسباب عقيدية:

ويتلخص السبب العقيدى بتكليف الله تعالي للجماعة المؤمنة بصيانة البيت من الدنس والشرك. منع المشركين من الطواف بالبيت وهم يعلنون شركهم، ويتعرون من ثيابهم.

---

(١) البقاعي، نظم الدرر ج٣ ص ٢٧٤-٢٧٨.

وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ أرسل أبا بكر رضي الله عنه أميرا علي الحج بعد رجوعه من تبوك،ثم أردفه بعلي رضي الله عنه فأمره أن يؤذن ببراءة. قال أبو هريرة: فأذن معنا علي يوم النحر في أهل منى ببراءة وألا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان. [1]

البراء من أهل الكتاب:

يقيم الإسلام نظامه علي حرية العقيدة فلا إكراه في الدين، ويراعي الإسلام الفرق بينهم وبين الوثنيين،فهم عندهم بقايا كتاب حرفوا فيه ونسوا حظا مما ذكروا به. ومن ثم يجيز التعامل معهم، وحل طعامهم، والزواج من المحصنات منهم.

ولكنه بين الدين الحق، ويعرف الانحراف عنه في العقيدة والشريعة. ومن ثم كانت هناك أسباب سياسية وأسباب عقيدية يبرأ منها المسلم ويبرأ ممن يؤمن بها وإلا لأحب أن يعصي الله في الأرض.

الأسباب العقيدية:

١- أنهم انحرفوا عن الدين الحق في معرفة حقيقة الألوهية وحقيقة اليوم الآخر.

٢- أنهم ادعوا لله الولد،سواء من بعض اليهود (قيل أربعة وقيل واحدا، وأسند إلي الكل لغة كما هي عادة العرب في الخطاب)[2]، وكذلك من النصارى ممن يقولون بألوهية عيسى عليه السلام.

٣- أنهم يشركون بالله في عالم التشريع فيحلوا ويحرموا بغير ما أنزل الله عن طريق الأحبار والرهبان.

الأسباب السياسية:

لم يبدأ الإسلام أهل الكتاب أبدا بالعدوان. ولكنهم منذ قيام الإسلام وهم يناوؤنه ويتحرشون به ويحرضون عليه. سواء كان ذلك من يهود المدينة،أو من الروم النصارى في أقصي الشمال من الجزيرة العربية. واستمر هذا العدوان علي مدار التاريخ،مرورا بالحرب

---

(١) البخاري حديث ٤٦٥٦.

(٢) البقاعي: نظم الدرر ج٣ ص ٣٠١.

الصليبية،حتي ذلك العدوان الغربي الغاشم علي الإسلام منذ نهاية القرن التاسع عشر الميلادى، وأخيرا تواطؤهم مع الصهيونيين الذين لا يتوبون عن الغدر والفتن، ووضع لغم في فلسطين يهددون به المسلمين..

وتحدد السورة هذه الأسباب فيما يلي:

١- محاولتهم إطفاء نور الله بأفواههم ويأبي الله إلا أن يتم نوره رغم أنفهم.

٢- منازلة أهل الحق وهم يسعون إلي إظهار الحق والهدى.

٣- أكل مال الناس بالباطل،سواء كان بالتضليل عن طريق الأحبار والرهبان،أو بالاستعمار عن طريق قراصنة الغرب في العصر الحديث. وهم بذلك يجمعون الثروات ويحرمون منها أهلها ويكترونها في بلادهم.

" أى يأخذونها بالرشي وأنواع التصيد،بإظهار الزهد والمبالغة في التدين، ويستجلبونها بالنذور ونحوها،فيكترونها ولاينفقونها في سبيل الله،بإقبال قلوب العباد إليهم. ومن هنا يخفون آيات الله الدالة عليه عن الناس خوفا علي انقطاع دنياهم بزوال رئاستهم لو أقبل أولئك علي الحق.

روى البخارى في التفسير عن زيد بن وهب قال: مررت علي أبي ذر رضي الله عنه بالربذة قلت: ماأنزلك بهذه الأرض ؟ قال: كنا بالشام فقرأت، الآية:﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾،قال معاوية: ماهذه فينا،ماهذه إلا في أهل الكتاب. قلت: إنها لفينا وفيهم.(١)

والجزية من جزى يجزى إذ قضي ماعليه.(٢) وهي اسم مشتق من الجزاء،يدفعه المواطنون من أهل الكتاب عن يد أى عن غني وقدرة، وهم صاغرون أى طائعون لنظام الدولة.(٣)

وتؤخذ الجزية من أهل الكتاب بالنص، ومن المجوس حيث أخذها رسول الله ﷺ من مجوس هجر.(٤)

".. والصحيح قبولها من كل أمة وفي كل حال عند الدعاء إليها والإجابة بها."(٥)

---

(١) البقاعي، نظم الدرر ج٣ ص ٣٠٥، ٣٠٦.

(٢) الرازى، مفاتيح الغيب ج١٦ ص ٢٥.

(٣) الماوردى، الأحكام السلطانية، ص ١٤٢-١٤٣ دار الفكر.

(٤) البخارى ج٤ ص ١١٧ مطبعة الشعب .

(٥) ابن العربي، أحكام القرآن ج٢ ص ٩٢٢-٩٢٣.

فمن باب عدم الإكراه في الدين أنه لم يفرض عليهم في واجباتهم المالية اسم الزكاة، لأنها عبادة عند المسلمين، وفرض عليهم بديلا عنها جزاء رعايتهم اجتماعيا مساواة بالمسلمين، وأعطاها مسمي الجزية.

ولما كانت الزكاة هي مورد الرعاية الاجتماعية للمسلمين،كان مقابلها حتي تشمل مظلة الرعاية الجميع الجزية.

والجزية هي نفس الزكاة نسبا ونصابا وشروطا.

سئل ابن عباس عما في أموال أهل الذمة فقال: العفو،يعني: الفضل. (1)

ويدل علي ذلك قول عمر لحذيفة وعثمان بن حنيف: لعلكما حملتما أهل الأرض مالايطيقون. فقالا: بل تركنا لهما فضلا. وهذا يدل علي أن الاعتبار بمقدار الطاقة، وذلك يوجب اعتبار حالي الإعسار واليسار."(2)

وسبب مصطلح أهل الذمة أن في ذمة المسلمين الدفاع عنهم، ولما كانت الأمة المسلمة تدافع عن عقيدتها في الدرجة الأولي، وإلزام غير المسلمين بهذا العمل من باب الإكراه في الدين،خصوصا إذا كان العدو من نفس دينهم، فقد أعفاهم الإسلام من ذلك،إن أرادوا. وأبقي عليهم أنفسهم،نظير أن يقدموا من أموالهم مقابل الدفاع عن الوطن، وعيشهم في أمن من أى اعتداء. وهذه الضريبة لا يترك تقديرها للحكام، وإنما حددت بمضاعفة المفروض عليهم من الزكاة لمصرفين: الرعاية الاجتماعية والحماية من العدوان.

ولم تعرف الإنسانية في تاريخها الطويل أمة تقيم حياتها علي المبادئ وتحقق للعالمين الحرية والأمان منزهة عن روح العصبية والإقليمية،مبرأة عن نوازع الأنانية والاستغلال،مثل الأمة المسلمة.

والمؤمنون مطالبون بمحاربة الظلم وإنقاذ المستضعفين من طغيان المستكبرين. وهي مهمة سامية ليتحقق للعباد الحرية والعدل.

وعلي هذه القواعد تكفل الأمة الأمان والحرية لرعاياها من أهل الكتاب، وتسميهم أهل الذمة، وتمنع عنهم أى ظلم وتدفع عنهم كل عدوان،بشرط ولائهم وعدم خيانتهم للعهد والميثاق. (3)

---

(1) يحي بن آدم القرشي، الخراج، ص ٧٤.

(2) الجصاص، أحكام القرآن ج٣ ص ٩٦-٩٧.

(3) راجع تفصيل ذلك في كتابنا" فقه الاقتصاد العام ص ٢٩٧ دار القلم ٢٠٠٤.

٤-النسئ

يقول رسول الله ﷺ: **إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض،السنة اثنا عشر شهرا،منها أربعة حرم: ثلاث متواليات: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان.**[١]

يبين الله تعالي لعباده أن الله خلق السماوات والأرض، وزينها بالشمس والقمر، ليعلم الناس عدد السنين والحساب. وقد بنيت العبادات علي هذا الحساب،من الصلوات إلي الزكوات إلي الحج إلي الصيام.

وقد كان صيام النصارى يجرى علي الشهور القمرية فيأتي مرة في الصيف ومرة في الشتاء ومرة في الخريف ومرة في الربيع،فلما اشتدت حرارة صيف نقلوا الصوم إلي الربيع وزادوا في العدد وتركوا ما تعبدوا به.

ونفس الحال حصل لمشركي الجزيرة العربية في الحج،فكان الحج يتنقل بين الفصول. وكان ذلك يشق عليهم في الأسفار ويتعارض مع مواسم التجارة. فتركوا ذلك واعتبروا السنة الشمسية.

فعدة الشهور عند الله إثنا عشر شهرا منذ أن خلق الله السماوات والأرض، منها أربعة حرم وفي حجة الوداع عادت العبادات والشهور إلي طبيعتها كما كانت قبل النسئ أى التأخير، ومنها شهر ذى الحجة، وكانوا لايصيبونه إلا كل ست وعشرين سنة مرة، وهو من ضلال أهل الشرك وتحريفهم لشريعة الله بالهوى رغبة في لعاعة الدنيا. فأبطل الإسلام النسيئ لأنه فعل أهل الشرك.

ساق الله تعالي هذا المثال بيانا لاتفاق طبيعة المشركين في الاجتراء علي حرمات الله، وحلهم للحرام وتحريمهم للحلال. ومواجهتهم كل من يفضح انحرافهم بالعداوة والطغيان.

" فالله سبحانه لما عاب أهل الكتاب باتخاذ الرؤساء أربابا،اشتدت الحاجة إلي بيان أنهم في البعد عن ذلك علي غاية لا تخفي علي متأمل،فوصفه بالأكل المستلزم للجسمية المستلزمة للحاجة، وبأن مأكولهم أموال غيرهم باطلا، وبأنهم يغشونهم لصدهم عن السبيل التي لا يخفي حسنها علي من له أدني نظرة، ولما كان ذلك شديد الإثارة لتشوف النفوس إلي السؤال عن العرب: هل فعلوا فعلهم واتبعوا سنتهم ؟ أجاب بأن عملهم في تحليل النسأة لهم بعض الأشهر الحرم وتحريم بعض أشهر الحل، والزيادة في عدة أشهر السنة كعملهم سواء."[٢]

---

(١) أخرجه البخارى حديث ٥٥٥٠.

(٢) البقاعي، نظم الدرر ج٣ ص ٣١٩.

ومن هنا كانت دعوة الله للمؤمنين أن يقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلهم المشركون كافة، ووعد الله المؤمنين بالنصرة إذا ما اتقوا ربهم وأطاعوه. وكان العتاب لهؤلاء الـذين دعـوا إلى القتال شغلتهم لعاعة الحياة الدنيا، وكان ذلك في غزوة تبوك حيث الحر شديد والروم كـثير، وقد طابت الثمار والظلال. ومن ثم كان الوعيد شديدا بالعذاب، وإنذارهم بأن الله يأتي بقوم غيرهم يحقق بهم الغاية،دون أى تأثير لإزاحتهم. والمثال قريب حيث نصره الله بعد أن أخرجه الذين كفروا من مكة ولجأ إلى الغار هربا منهم. و لم يفقد ثقته بالله بل تيقن بنصره وأنزل الله السكينة علي قلبه وأزاح الحزن خوفا علي الدعوة عن صاحبه.

" فالله كان معهما بالعون والنصرة، وهو كاف لكل مهم،قوى علي دفع كل ملم،فالذى تولي نصره بالحراسة في ذلك الزمان كان قادرا علي أن يأمر الجنود التي أيده بهـا أن تهلـك الكفار في كل موطن من غير أن يكون لكم في ذلك أمر أو يحصل لكم به أجر. وكما أنـه كان موجودا في ذلك الزمان بأسمائه الحسني وصفاته العلي،هو علي ذلك في هذا الزمان وكل زمان،فتبين كالشمس أن النفع في ذلك إنما هو خاص بكم، وأنه سبحانه ما رتب هذا كلـه علي هذا المنوال إلا لفوزكم، وفي هذه الآية من التويه بمقدار الصديق وتقدمـه وسـابقته في الإسلام وعلي منصبه وفخامة أمره ما لا يعلمه إلا الذى أعطاه إياه..

والصديق رضي الله عنه كان في صعودهما إلي الغار يدرك الرصد فيتقدم النبي ﷺ ليفتديـه بنفسه ثم يذكر الطلب فيتأخر ثم يذكر ما عن اليمين والشمال فينتقل إليهما، ويقول للنبي ﷺ: إن قتلت أنا فأنا رجل واحد، وإن قتلت أنت هلكت الأمة. " (١)

النفير العام:

إن المعتدين علي سلطان الله في الأرض لن يعدلوا عن غيهم بالموعظـة الحـسنة، وإنمـا بالمواجهة والمنازلة، ومن ثم كان دعوة الله عامة للمسلمين بالنفير أغنياء كـانوا أم فقراء،قلـة كانوا أم كثرة،ضعافا كانوا أم أقوياء.

ومن الناس من يتثاقل عن الجهاد عند الاستنفار في غزوة تبوك، وكان سبب التثاقل ما كان في ذلك الوقت من العسرة في المال والشدة بالحر، وما كان من طيب الظلال في أرض الجنان، وقت الأخذ في استواء الثمار،كما هو مشهور في السر، اقتضي المقام هنا تقديم المال والـنفس بخلاف ما مضي،فإن الكلام كان في المفاضلة بين الجهاد في سبيل الله وخدمة البيت ومن يحجه

(١) البقاعي، نظم الدرر ج ٣ ص٣٢٠-٣٢١.

في هذه السورة التي صادف وقت نزولها بعد مواطن الجهاد وطول مفارقة الأمـــوال والأولاد، وقدم المال لأن النظر إليه من وجهين: قلته، ومحبة الإقامة في الحدائق،إيثارا للتمتع بها وخوفا من ضياعها،مع أن بها قوام الأنفس،فصار النظر إليها هو الحامل علي الشح بالأنفس فقدم تعـــالي الأموال علي الأنفس ... وهذا الأمر وإن كان عاما،فإنما ينتفع به ذوو الأذهان الصافية والمعالم الوافية،فإن العلم، ولا يعد علما إلا النافع،يحث علي العمل وعلي إحـــسانه بـــإخلاص النيـــة وتصحيح المقاصد وتقوية العزم. وذلك قوله تعالي:﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ.﴾"[1]

ورفع ربنا سبحانه وتعالي النفير للفقه والعلم،كالنفير للجهاد،في سبيل الله سواء بسواء،يحقق نفس الغاية ويحقق نفس الجزاء.

يقول تعالي: ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَـــةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ(١٢٢)﴾

البراء من المنافقين:

من أكبر دواعي النفاق حب الدنيا وكراهية الموت. ولهذا كان من علامات المنافقين الجبن والبخل،يترتب عليهما المسارعة إلي المكاسب الدنيوية والتهرب من التكاليف الأخروية،فالأولي شهوات لاتكلف شيئا والثانية تضحيات تطلب بذلا للنفس والمال. ويستعينون علي إخفاء هذا الضعف بالحلف الكاذب والاعتذارات المزيفة.

وينكشف هذا الضعف حين الدعوة إلي الجهاد فهو يتطلب بذل للنفس وإنفاق للمـــال. والذى يؤمن بالله واليوم الآخر يسارع إلي الجهاد لعلمه بخير الجزاء في الآخرة،أما المنافق فإنـــه يسارع للاعتذار ويكثر من الحلف علي صدقه لأنه لا يؤمن بالله واليوم الآخر، وتنطوى نفسه علي الارتياب في دين الله، ومن ثم كان التردد في مهاوى هذه الريب. ومن هنا كان عتاب الله لرسوله ﷺ حين أذن لهم،فكان الأولي ألا يقبل اعتذارهم حتي يظهر للناس الـــصادقين مـــن الكاذبين فهم أصلا لم يستعدوا للقتال و لم يجهزوا له فكيف يكونوا صادقين.

وهذا من غضب الله عليهم،فثبطهم عن النفير في سبيل الله، وزين لهم القعود مع النـــساء والعجزة،كراهة منه تعالي أن ينالوا شرف نصرة دينه.

---

(١) البقاعي، نظم الدرر ج٢ ص ٣٢٢.

وهم بذلك مذبذبين لا يعدهم الناس من المؤمنين ولا يصرحون لهم بأنهم من الكـــافرين. ويترتب علي هذا مشاكل للصف المسلم إن لم يفهم حقيقة نفوسهم ومسار أعمالهم. ومن هنا بين الله للمؤمنين هذه الطبيعة المنحرفة بخباياها وسلوكياتها.

ومصلحة المسلمين هي في تخلف المنافقين. فهم بريبهم وترددهم، وعجزهم عن اللحـــاق بأفق التضحية والبذل،يثيرون الجدل في داخل الصف المسلم دفاعا عن ضعفهم وغيظا من قوة المتقين. وهذا يؤدى إلي الفرقة والاضطراب. فينشق الصف المسلم إلي شيع وأحزاب، وتـــوهن قوة المسلمين بالصراع بينهم،خصوصا هناك من يثق بهم لعدم اتضاح كفرهم فيسمع لهم ويتبني أراجيفهم.

والمنافق بطبيعته الملتوية، وتخلفه عن الجهاد بالنفس والمال،يغطي موقفه بأن يتلمس الخطـــأ للمسلمين في الخطة أو التوقيت أو غير ذلك. وهنا لأن الأمر مضي علي غـــير هواه،يترصـــد بالمسلمين فإن أصاب المسلمين النصر أصابه الغم، وإن قدر الله الابتلاء بالمصيبة فرح وظن أنه علي صواب، وأنه أهل حكمة وبعد نظر، وامتلأت جوانحهم بالشماتة والفرح. وبمجرد إثـــارة الجدال في الصف المسلم بعد الهزيمة، ومنطقة المثبطين بين الناس، يؤدى إلي التلاوم وإلقاء الخطأ علي البعض. وهذا من أعظم الفتن التي تصيب المسلمين حين لا يرضون بحكمة الله من وراء ما أصابهم بعد أن بذلوا استطاعتهم في تدبر أمرهم وجهاد عدوهم.

والمنافقون يقدمون علي الأيمان الكاذبة لستر حال نفاقهم، والحقيقة أنهم قوم يحرصون علي حياتهم ولا يعدلون بذلك شيئا،مما يجعلهم جبناء يعصف بهم الخوف، ويتمنون من أعماقهم ما يستر جبنهم وخورهم حتي لو كان حصنا يلجأون إليه أو مغارة في جبل أو نفـــق في الأرض يتوارون فيه،فيرتدوا علي أعقابهم كالدابة الجامحة.

ويقدم القرآن فى سورة براءة هذه النفسية المريضة فى تشخيصات لها أربع محاور:

١- الطعن في ذمة القيادة،يقول تعالي: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ..﴾

٢- الاستهزاء بالمؤمنين،يقول تعالي: ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ..﴾

٣- نقض العهد والميثاق،يقول تعالي:﴿ وِمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَـــا مِـــن فَـــضْلِه لَنَصَّدَّقَنَّ ولَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِـــهِ وتَوَلَّـــوْا وهُـــمْ مُّعْرِضُونَ..﴾

٤- إثارة الفتن.

وسنوجز هذه المحاور حسب ترتيب السورة:

١- الطعن في ذمة القيادة:

لايتوقف المنافقون عن الطعن في القيادة المسلمة، ويشيعون هذه المقالة في الجماهير، وذلك لدناءة نفوسهم لشدة طمعهم وشرههم للمال، ولذلك لايرضون بالعدل في القسمة ويظنـون القسط جورا. أما المؤمنون فإنهم لعفتهم وقناعتهم يرضون بالقسمة ثقة في قيادتهم،فهم لايطلبون من الإيمان والطاعة أخذ الأموال والفوز بالمناصب في الدنيا وإنما رغبة في رضاء الله وسعيا إلي الجنة.

والزكاة وهي الفريضة المالية الأولي لم يترك الله تعالي توزيعها لأحد وقسمها بنفسه في القرآن الكريم. يقول رسول الله ﷺ: **أنا قاسم أضع حيث أمرت.**[1]

وقد منع رسول الله ﷺ أهله من بني هاشم وبني عبد المطلب من أخذ الزكاة، وفرض لهم في بيت مصالح المسلمين. وبهذا أغلق الباب علي دعاوى استغلال النفوذ، و لم يدع سبيلا إلي اتهام أحد بأنه يعطي أهله.

٢- الاستهزاء بالمؤمنين

لايجد المنافقون مدخلا إلي القيادة المسلمة بأساليبهم الملتوية من مداهنتهم ورثائهم ومواقفهم المتلونة، والتي يتسللون بها عادة إلي مراكز القوى بإشباع غرورهم والمسارعة إلي أهوائهم، لتحقيق مصالحهم. فلا يجدون من قيادة الأمة لاستقامتها إلا صدودا واستبعادا.

ومن ثم تمتلئ قلوبهم بالحقد، ونفوسهم بالغيظ،فينفثون سمومهم في شكل إشاعات تطعن في القيادة بين جماهير الأمة المسلمة، ويغلفون هذه السموم بدعوى المصلحة العامة والحرص علي العدالة.وكانت التهمة التي وجهت للنبي ﷺ أنه يسمع كل ما يقال دون أن يزنه ويتفحصه، وهذا يدل علي فساد عقولهم،فالنبي يؤمن بالله الذى يرعاه، ويؤمن بالمؤمنين الذين اختبرهم في أشد الظروف وأقساها في القول والعمل، وهو يجرى الأمور علي الظاهر و لايبالغ في التفتيش عن الباطن رحمة بالناس وسترا لعوراتهم. وترى المنافقين يفعلون ذلك وفي أعماقهم خوف شديد أن ينكشف هذا الموقف، والله سبحانه يتولي كشف ما تنطوى عليه صدورهم فيفضحهم ويحمي الصف المسلم من شرورهم. وفي هذه الحالة يتلون موقفهم بسرعة ليحولوا الجد إلي هزل، والطعن إلي لعب برئ.

---

(١) الألباني، صحيح سنن الترمذي ج١ ص ١٠١.

وهم يتمحلون اعتذارا أسوأ حيث يعترفون بخوضهم في أركان الدين وأعراض المسلمين،فذلك الكفر بعد الإيمان.

ولما ثبتت موالاة المؤمنين ومقاطعتهم للمنافقين والكافرين، وكان ما سبق من الترغيب والترهيب كافيا في الإنابة، وكان من لم يرجع بذلك عظيم الطغيان غريقا في الكفران،أتبع ذلك الأمر بجهادهم بما يليق بعنادهم، ولما كان ﷺ مطبوعا علي الرفق موصي به نبه عليه ربنا تبارك وتعالي بالغلظة عليهم، لا بمثل اللين الذى عاملهم به حين استأذنوه بالأعذار الكاذبة عن دفع العدوان. وبين له تبارك وتعالي أن وسيلتهم الأيمان الفاجرة لينكروا ما فعلوه وما قالوه،اعتمادا علي خلق المسلمين العظيم في الثقة واللين،فسد الله عليهم هذا الطريق بأن نبه إلي أنهم كفروا وقالوا كلمة الكفر وهموا بالغدر نقمة علي المسلمين، وكان أولي بهم أن يقروا بنعمة الله عليهم، وأغناهم تعالي ببركة نبيه ﷺ،فيتوبوا إلي الله ويستغفروه. وما جزاء استمرارهم علي نقمتهم وعدوانهم ونفاقهم إلا العذاب الأليم في الدنيا والآخرة،دون أن ينصرهم أحد.

وسيرة رسول الله ﷺ في المنافقين،أن يقبل منهم علانيتهم ويكل سرهم إلي الله، وأن يجاهدهم بالعلم والحجة، وأمر أن يعرض عنهم ويغلظ عليهم،فهي مجاهدة تختلف عن مجاهدة الكفار،التي تقوم علي السيف،أما مجاهدة المنافقين فتكون بالحجة تارة وبالغلظة والانتهار أخرى.[١]

لكن الرسول والذين آمنوا معه طراز آخر،يلبون حين الدعوة إلي بذل المال والنفس. وبذلك أعزهم الله بجهادهم فكانت لهم خيرات الدنيا والآخرة،فقد سادوا الدنيا وأنعم الله عليهم برغد العيش، وفي الآخرة لهم رضوان الله الكريم وجنات النعيم،فهم المفلحون.

يقول تعالي: ﴿ **وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(٦١)يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ(٦٢)أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ(٦٣)يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ(٦٤)وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ**

---

(١) الرازى، مفاتيح الغيب ج١٦ ص ١٠٨.

أَبِاللَّهِ وَءَايَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ(٦٥)لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ(٦٦)﴾

٣–نقض العهد والميثاق

وهذه الصفة لصيقة بحب الدنيا،فحب الدنيا يؤدى إلي البخل والحرص،فيتخلفون إذا دعوا للجهاد حفاظا علي أنفسهم، ويشحون إذا دعوا إلي بذل المال حرصا علي ثرواهم، ومـــن ثم يدفع لنقض العهد والميثاق بالبذل والإنفاق إذا أغناهم الله ببركة رسوله. ولما كانت هذه الصفة مقيتة تشين صاحبها،فإنه يحقد علي من تحرر من هذه الشهوة فأنفق حتي ولو كان فقـــيرا في حاجة إلي ما ينفق فيسخر منه ويلمزه، وأمواله وأولاده بذلك لعنة عليه فهي ســـبب فتنـــة لا رحمة، ومحنة لا منحة،فلا فقه لهم يعرفون به ما في الجهاد من عز ولا ما في البذل من كرامة.

ولما كان ﷺ شديد الحرص علي رشدهم ونفعهم، وكان ابتداء علي التخيير بين الاستغفار وعدمه واستغفر ﷺ لرأس النفاق ابن أبي وصلي عليه وقام علي قبره وصرح بأنه لو يعلم أنه لو زاد علي السبعين قبل، لزاد. واستعظم عمر رضي الله عنه ذلك منه ﷺ وشرع يمسك بثوبـــه ويقول: أتصلي عليه وقد نهاك الله عن ذلك. والنبي ﷺ لأن النهي غير صريح وفقا لطبيعتـــه في الرفق بالخليقة ومن جميل الطريقة الساعية للائتلاف. ونزل النهي الصريح. وفي موافقة الله تعالي لعمر رضي الله عنه منقبة شريفة له، وقد وافقه الله تعالي مع هذا في أشياء كثيرة. [(١)]

ولذلك نهي الله أن يستغفر لهم، ونهي أن يصلي عليهم وأن يقام علي قبورهم،كما أمر الله تعالي بعدم الإذن لهم بالخروج،فمكانهم مع الخوالف من النساء.

ولما انكشف موقفهم بادروا إلي طبيعتهم الممسوخة المليئة بالرجس في الحلـــف الكـــاذب والتبرؤ من أعمالهم، يعتذرون للمسلمين ليعرضوا عنهم، والمسلمون يعرضون عنهم ولكن بعد أن يعرفوهم أنه لا يخيل عليهم التوائهم بعد أن فضح الله خبيئتهم.

يقول تعالي: **﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ ءَاتَانَا مِنْ فَـــضْلِهِ لَنَـــصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُـــونَنَّ مِـــنَ الصَّالِحِينَ(٧٥)فَلَمَّا ءَاتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ(٧٦)فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًـــا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ(٧٧)أَلَمْ يَعْلَمُـــوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ(٧٨)﴾**

---

(١) الحديث بالكامل رواه البخارى رقم ٤٦٧٢،٤٦٧٠ومسلم حديث ٢٤٠٠، ٢٧٧٤.

٤- إثارة الفتن:

وقد أثار المنافقون الفتنة من قبل غزوة تبوك،في يوم أحد بكسر قلوب المجاهدين وحفزهم علي الهروب حتي كاد بعضه أن يفشل.. وكما كان موقفهم مع يهود بني النضير وبني قينقاع لتقوية عدوكم وإضعاف أمركم. وفي غزوة الخندق بما وقع منهم من تكذيب ووصف وعد الرسول بأنه غرور حين بشرهم بملك الدنيا.. والإرجاف بالمؤمنين حين نقض بنو قريظة عهدهم. ويحرضون المؤمنين قائلين لامقام لكم فارجعوا، ويدعون أن بيوتهم عورة، وما يريدون إلا فرارا. رغم عهدهم وميثاقهم بالثبات في القتال ينتهزون الثغرات ويهولون الأحداث ليضعفوا من تماسك الصف المسلم.

"نرى ذلك في الإضرار بمعني المضارة لمسجد قباء، وكفرا بالله ورسوله وتفريقا بين المؤمنين، لأنهم كانوا يصلون في مسجد قباء جميعا،فأرادوا تفريق جماعتهم، والإرصاد: الانتظار به مجئ أبي عامر، وهو الذى حارب الله ورسوله من قبل بناء مسجد الضرار." [1]

"أقبل رسول الله ﷺ من تبوك حتي نزل بذى أوان، وبينها وبين المدينة ساعة، وكان أصحاب مسجد الضرار أتوه وهو يتجهز إلي تبوك،فقالوا: يارسول الله إنا قد بنينا مسجدا لذى العلة والحاجة، والليلة المطيرة الشاتية، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه. فقال: **إني علي جناح سفر، وحال شغل، ولو قدمنا إن شاء الله لأتيناكم فصلينا لكم فيه**. فلما نزل بذى أوان جاءه خبر المسجد من السماء،فدعا ملاك بن الدخشم أخا بني سلمة بن عوف، ومعن بن عدى العدلاني،فقال: **انطلقا إلي هذا المسجد الظالم أهله،فاهدماه، وحرقاه.** "[2]

" فنهي رسول الله ﷺ أن يقوم فيه.. ورجح الصلاة في مسجد التقوى بأمرين:

١- أنه بني علي التقوى.. ٢- أن فيه رجال يحبون أن يتطهروا..

ولا يستوى من أسس بنيان دينه علي قاعدة قوية محكمة، وهي الحق الذى هو تقوى الله ورضوانه خير،مع من أسس علي قاعدة هي أضعف القواعد وأقلها بقاء، وهو الباطل.

والنفاق الذى مثله مثل شفا جرف هار من أودية جهنم.. لكونه علي طرف جهنم،كان إذا انهار ينهار في قعر جهنم. ولا نرى في العالم مثلا أكثر مطابقة لأمر المنافقين من هذا المثال.

وحاصل الكلام أن أحد البناءين قصد بانيه ببنيانه تقوى الله ورضوانه، والبناء الثاني قصد ببنائه المعصية والكفر،فكان البناء الأول شريفا واجب الإبقاء، وكان الثاني خسيسا واجب الهدم..

---

(١) أبو الفرج الجوزى، زاد المسير ج ٣ ص ٣٧٧.

(٢) ابن القيم، زاد المعاد ج ٣ ص ٥١٩.

فلما أمر رسول الله ﷺ بتخريبه.. بقوا شاكين مرتابين.. وهذه الريبة باقية في قلوبهم أبدا ويموتون علي هذا النفاق.[1]

يقول تعالي: ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ(١٠٧)لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ(١٠٨) أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(١٠٩)﴾

البراء من المنافقين من الأعراب:

بعد أن بين الله تعالي أوصاف الناس في الحضر، وأظهر المنافقين منهم،بين تعالي أوصاف الناس في البادية، وخص المنافقين منهم بالتوضيح. وذلك لاختلاف الطباع،فالمعروف أن أهل البادية فيهم من الجفوة ما يجعل نفاقهم أشد وأعظم. بسبب بعدهم عن الحاضرة التي هي موضع العلم والأحكام.

وبين القرآن الكريم صفات المنافقين من الأعراب،فهم شديدو الكفر والنفاق،ذلك لبداوتهم النافرة، وعدم تعودهم علي النظام والطاعة،فكان من العسير تعليمهم فقه الدعوة والالتزام.. ومن ثم لا ينفقون إلا وهم كارهون، ويعتبرونه مغرما لا قربي. كما أنهم لذلك يتربصون بالمؤمنين الدوائر. فقد كانوا يتصورون لغباوتهم أن غزوة تبوك بلا عودة لما يعرفون من قوة الروم وكثرتهم.

يقول تعالي: ﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(٩٧)وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(٩٨)﴾

---

(١) الرازي، مفاتيح الغيب ج١٦ ص ١٥٥-١٥٧.

أصناف الناس من ناحية الموقف من الجهاد:

ولما استوفي ربنا تبارك وتعالي الأقسام الأربعة: قسمي الحضر وقسمي البدو،ثم خلط بين قسمين منهم تشريفا للسابق وترغيبا للاحق،خلط بين الجميع علي وجه آخر. ثم ذكر منهم فرقا منهم من نجز الحكم بجزائه بإصرار [1] أو متاب، ومنهم من أخر أمره إلي يوم الحساب.[2]

وهنا يقسم ربنا سبحانه وتعالي الناس وفق موقفهم من الجهاد إلي مؤمنين ومنافقين:

١- السابقون إلي الإسلام من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان سواء من أسلم بعد الحديبية أو من حمل الإسلام في القرن الثاني.، وهم قاعدة الإسلام الصلبة.

٢- الأعراب يؤمنون بالله واليوم الآخر،فلا يتخلفون ويتخذون ما ينفق قربي لله ورسوله.

٣- المؤمنون الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا، وهم قوم مؤمنون تخلفوا في غزوة تبوك بغير عذر وأقروا بذلك ولهم أعمال صالحة، و لم يتخلفوا عن رسول الله ﷺ من قبل تبوك، ثم ندموا وتابوا وكفروا عن ذنبهم بالصدقات واستغفر لهم رسول الله.وقد سمع الله دعاءهم وعلم تعالي صدقهم،فأجابهم وأثابهم.

٤- قوم مرجون لأمر الله،اعترفوا بذنبهم و لم يعتذروا عن تخلفهم، وقيل هم الثلاثة الذين تخلفوا،أرجئ أمرهم حتي تعطف ربنا تبارك وتعالي بالتوبة عليهم.

٥- مردى المنافقين من الأعراب ومن أهل المدينة، وهم صنف غير ظاهر لا يعلمهم إلا الله تعالي. تمردوا في حرفة النفاق وبلغوا إلي حيث لا تعلم نفاقهم لتمرسهم علي النفاق.

يقول تعالي: ﴿ **وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ(٩٩) وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(١٠٠) وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ(١٠١)وَءَاخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ(١٠٢)** ﴾

---

(١) البقاعي، نظم الدرر ج ٣ ص ٣٨٠.

(٢) البقاعي، نظم الدرر ج٣ ص ٣٨٠.

وتبين لنا السورة في نهايتها مقومات النفاق،فهم يتساءلون حين نزول آية من القرآن عن مدى استفادهم منها، ويستهزئون بالمسلمين سائلين عن هذه الاستفادة. وهي تزيد المؤمنين إيمانا،أما المنافقين فلا تزيدهم إلا انحرافا واعوجاجا،حتي يموتوا علي فسقهم وينالوا عقوبتهم.

وإذا أنزلت سورة فيها فضيحتهم،راجعوا بعضهم البعض يتساءلون عمن كشف أسرارهم، ولو اهتدوا لكان خيرا لهم ولكنهم ينصرفون معرضين في غباء وجحود.

وتختم السورة بتذكيرهم أن الرسول ﷺ منكم في الأصل الواحد والرحم كالجامع. وهو كالطبيب المشفق علي المريض والأب الرحيم علي ولده،يعز عليه معاناتكم،حريص علي خيركم،تشع نفسه بالرأفة والرحمة لكل المؤمنين.

يقول تعالي: **﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ(١٢٨)فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ(١٢٩)﴾**

المناسبة

ناسب آخر الأنفال المبين للولاء للمؤمنين لأول التوبة الداعي إلي البراءة من المشركين.. تماما كما ناسب آخر الأعراف لأول الأنفال.

وصدر سورة براءة تفصيل لإجمال قوله تعالي في الأنفال:**﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾**. وآيات الأمر بالقتال متصلة بقوله في الأنفال:**﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾**. وأيضا آيات فضح المنافقين في سورة الأنفال:**﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾**،فصلت في سورة براءة.

عن ابن عباس: كان المسلمون لايعلمون انقضاء السورة حتي يترل:**بسم الله الرحمن الرحيم**،فلما نزل علم أن السورة قد انقضت. فلما اشتبه أمر براءة تركوا كتابة البسملة في أولها وفصلوها عن الأنفال قليلا.. أما بيان تشابه قصتيهما تفصيلا: فلما في كل منهما من نبذ العهد إلي من خيف نقضه، وأن المسجد الحرام لا يصلح لولايته إلا المتقون، وأن المشركين نجس لا صلاحية فيهم لقربانه، وأن قلة حزب الله لا تضرهم إذا لزموا دعائم النصر الخمس وكثرقم لا تغنيهم إذا حصل في ثباقم لبس، والحث علي الجهاد في غير موضع، وضمان الغني كما أشار إليه في الأنفال.. وذكر أحكام الصدقات التي هي من وادى الغنائم، وعد أصناف كل. والأمر بالإنفاق.. والتناصر بالإنفاق وغيره كما فعلوا في مال التجارة الذى أرصدوه حتي

استعانوا به في غزوة أحد.. وبيان أحوال المنافقين المشار إليه في الأنفال. والأمر الجامع للكل أنهما معا في بيان حال النبي ﷺ في أول أمره وأثنائه ومنتهاه.

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير في كتابه: اتصالها بالأنفال أوضح من أن يتكلف بتوجيهه،حتى أن شدة المشابحة والالتئام،مع أن الشارع عليه السلام لم يكن بين انفصالهما،أوجب أن لايفصل بينهما.. وذلك أن الأنفال تضمنت الأمر بالقتال.. وبين أحكام الفرار من الزحف وحكم النسبة المطلوب فيها بالثبوت ولحوق التأثيم للفار، وأنها على حكم الضعف، وحكم الأسارى وحكم ولاية المؤمنين، وما يدخل تحت هذه الولاية ومن يخرج عنها،ثم ذكر في السورة الأخرى حكم من عهد إليه من المشركين، والبراءة منهم إذا لم يوفوا، وحكم من استجار منهم إلى ما يتعلق بهذا. وكله باب واحد، وأحكام متواردة على قصة واحدة، وهي تحرير حكم المخالف،فالتحمت السورتان أعظم التحام،ثم عاد الكلام إلى حكم المنافقين وهتك أستارهم. [1]

---

(١)البقاعي، نظم الدرر ج ٣ ص ٣٥٩-٣٦٠.

بين سورة الأنفال وسورة التوبة

سورة الأنفال والتوبة تقدمان موضوعاً واحداً من زوايا مختلفة. ويلاحظ ذلك في التقابل الهندسي المعجز بين موضوعي كلا السورتين:

صفات المجاهدين: نجد في سورة الأنفال،تهتم بتربية الصف المؤمن على القيم التي تؤهله للجهاد في مواجهة هجمة الأعداء. ومن ثم تبدأ السورة بصفات المؤمنين في معرفة الله والتوكل عليه والإيمان بكتبه ورسله. فهذه القاعدة هي التي يؤسس عليها خلق البذل للنفس والمال في سبيل الله، والثبات في القتال وعدم الفرار عند المواجهة. تلقي درساً آخر في تربية المؤمن على طاعة الله ورسوله، والاستجابة لأوامره ونواهيه، وتقواه في السر والعلن. فهذه قاعدة الألفة بينهم التي تجنبهم النزاع والفشل. وهؤلاء وصفهم تعالى أنهم هم المؤمنون حقاً في أول السورة.

وفي آخر السورة،يربي القرآن المؤمنين على خلق الولاء للمؤمنين، ويحدد درجات هذا الولاء،ابتداء من الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، والذين أمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، والذين أمنوا و لم يهاجروا. وهؤلاء الذين يوالون المؤمنين وصفهم تعالى في آخر السورة بأنهم هم المؤمنون حقاً

مقومات النصر: هذه التربية شرط ضروري لتحقيق النصر. فما توفرت مقوماتها تحقق نصر الله. فليس هم الأداة الوحيدة للنصر،فجند الله كثير.

درس من التاريخ: وكان ذلك مناسباً لقصة غزوة بدر، ونصرة القلة المؤمنة على الكثرة الكافرة، وتنزيل الملائكة، ونزول المطر، وغشيان النعاس.

يشير القرآن بسرعة إلى صفات الكافرين، والتنبيه أنهم بعضهم أولياء بعض، وإذا لم يواجهوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير، ويحذر المؤمنين من خيانة الأمانة وفتنة المال والولد، والخروج بطر ورئاء الناس.

صفات الكافرين المعاندين: بينما سورة التوبة تبين بالتفصيل صفات الكافرين،حيث تمتلئ قلوبهم بالحقد والغل، ويعقدون العزم على إبادة المسلمين، ويستعملون في ذلك كل أساليب الخداع والخيانة،فلا يرتبطون بعهد ولا يحترمون ميثاق. وتبدأ السورة في تحديد هذه الصفات

بالمشركين،ثم تحدد هذه الصفات عند أهل الكتاب،ثم تبين صفات المنافقين الذين يعيشون فى داخل الصف المسلم،سواء كانوا من أهل المدينة أو من حولهم من الأعراب.

ومن ثم تأخذ السورة فى تربية المؤمنين على خلق البراء من هؤلاء جميعاً، حماية للصف المؤمن من خيانتهم، وصيانة لأسرار الأمة وقدراتها من أن تصل إليهم. مذكراً أن المنافقين بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم،نسوا الله فأنساهم أنفسهم،فأولئك هم الفاسقون.

أسباب الهزيمة: وتحدد السورة أسباب الهزيمة ممثلاً فى الغرور بالقوة ونسيان أن الله هو الناصر والمعين، وإلهاء المال والأولاد عن اللحاق بركب المجاهدين.

وبينما ختمت سورة الأنفال بالركون إلي الله تعالي حيث هو وحده الذى يقدر كل شيء، وينصر المؤمنين ويدافع عنهم.

﴿وإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ(٦٢)﴾
﴿ ياأَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ(٦٤)﴾

ختمت سورة التوبة بأعذب الوصف للرسول الكريم في حرصه ورأفته ورحمته بالمؤمنين، وأعظم التوكل، وأحسن الثناء علي رب العرش العظيم،في مواجهة المتعنتين.

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ(١٢٨)فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ(١٢٩)﴾

منهج التربية الاجتماعية
للأمة المسلمة
كما يبينه
الثلث الثاني من القرآن
العظيم

منهج التربية الاجتماعية للأمة المسلمة
كما يبينه
الثلث الثاني من القرآن العظيم

مقدمة

بعد أن انتهينا من تدبر السبع الطوال،في الثلث الأول من القرآن نبدأ في تدبر الثلث الثاني.

يقول رسول الله ﷺ:

أعطيت مكان التوراة السبع وأعطيت مكان الزبور المئين وأعطيت مكان الإنجيل المثاني وفضلت بالمفصل. رواه أحمد والطبراني بنحوه. وفي رواية أخرى:

(أعطاني ربي السبع الطوال مكان التوراة والمئين مكان الإنجيل وفضلت بالمفصل)..[1]

وقال ﷺ:

إن الله أعطاني السبع مكان التوراة وأعطاني الراءات إلي الطواسين مكان الإنجيل وأعطاني مابين الطواسين إلي الحواميم مكان الزبور وفضلني بالحواميم والمفصل. ماقرأهم نبي من قبلي[2].

" والعلوم الدينية إما نظرية وإما عملية:

أما النظرية فهي معرفة الإله تعالي ومعرفة الملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر، وهذا الكتاب مشتمل علي شرائف هذه العلوم ولطائفها.

وأما العملية فهي إما،تكون عبارة عن تهذيب الأعمال الظاهرة وهو الفقه،أو عن تهذيب الأحوال الباطنة وهي علم التصفية ورياضة النفس.

ولانجد كتابا في العالم يساوى هذا الكتاب في هذه المطالب. فثبت أن هذا الكتاب مشتمل علي أشرف المطالب الروحانية، وأعلي المباحث الإلهية،فكان كتابا محكما غير قابل للنقض والهدم...

---

(١) الهيثمي، مجمع الزوائد ج٧ ص ١٦١، رواه الطبراني وفيه ليث بن أبي سلمة وقد ضعفه جماعة ويعتبر بحديثه وبقيمة رجاله رجال الصحيح.

(٢) ضعيف الجامع الصغير الألباني ج.١.

وجعلت آياته فصولا،حلالا وحراما، وأمثالا وترغيبا، وترهيبا ومواعظ، وأمرا ونهيا، لكل معنى فيها فصل قد أفرد به،غير مختلط بغيره،حتى تستكمل فوائد كل واحد منـــها، ويحـــصل الوقوف علي كل باب واحد منها علي الوجه الأكمل.."[1]

وفي السبع الطوال تبينت لنا المقومات الأساسية للأمة، وكانت الأحكام الشرعية تـــشغل مساحة كبيرة فيها.

وفي المئين نجد منظومة أخلاقية اجتماعية،يربي الله تعالي بها المجتمع المسلم علي القيم، ويصيغ علاقاته علي أساس من المثل والأخلاق. وتستخدم القصة كأداة من أدوات التربيـــة في هـــذا الثلث من القرآن الكريم، وتطول فيها لأخذ العبرة عنها في الثلثين الآخرين.

وذلك لأن الإنسان إذا ابتلي بمحنة وبلية،فإذا رأى له فيه مشاركا خف ذلك علي قلبه... فإذا سمع الرسول ﷺ هذه القصص، وعلم حال جميع الأنبياء صلوات الله عليهم مع أتبـــاعهم هكذا،سهل عليه تحمل الأذى من قومه، وأمكنه الصبر عليه...

ويعوزنا هنا في البدء قبل الدخول في تفصيل ذلك أن نقـــارن بـــين مبـــادئ الأخـــلاق الاجتماعية في الفكر الوضعي ومبادئها في الإسلام.

منطلقات منهج علم الاجتماع المعاصر (إزاحة الدين)

من المعروف أن الفكر الغربي بعد أزمته مع الكاثوليكية في العصر الوسيط وإزاحته الغيب كمصدر لتنظيم حياته،قام نظامه الحياتي، كما يحدثنا أحد الغربيين،علي محاور ثلاثة:

١- الاعتقاد بأن التقدم البشرى يمكن أن يقاس بمقاييس علمانية دنيويـــة. وأن المقـــاييس الخلقية العلمانية،التي لا تتجاوز المصلحة البشرية الزمنية،تكفي لتفسير تاريخ البـــشر وتنظـــيم شئوهم.

٢- الاعتقاد بإمكانية الوصول إلي الحقيقة الموضوعية في دراسة التاريخ والمجتمع البشرى عن طريق العقل، وأنه يمكن أن يصل العقل إلي مستوى الحياد فلا يميل مع هواه ونزعاته.

٣- الاعتقاد بأن التقدم الاجتماعي يمكن أن يتم بواسطة وسائل تشريعية أو قـــضائية أو إدارية بشرية.. لا عن طريق الاعتقاد الروحي أو الدعوة الأخلاقية لتطهير القلوب أو تـــدخل القوى الغيبية ..."[2]

---

(١) الرازى، مفاتيح الغيب ج٨ ص ٤٦٩ -٤٧١ .

(٢) تشارل فرانكل، أزمة الإنسان الحديث ص ٥٤ مكتبة الحياة، موســة فرانكلين ١٩٥٩م.

وهذه النظرة إلي الأخلاق تترك قوانين الإنسان الخلقية دون أى مقياس خارجي يمكـــن أن تقاس به.

فالطبيعة البشرية،بما فيها من شذوذ فردى وأهواء متقلبة واتجاه طاغ نحو توكيد ذاتها،رفعت إلي منزلة قاض يصدر حكمه في قضايا هو فيها فريق. فالإنسانية التي تتركز حول الإنسان لا تعدو كونها إحياء لنظرية قديمة عفي عليها الزمن، وهي نظرة السوفسطائي برتاغورس،القائلـــة بأن الإنسان هو مقياس كل شئ، ونتائج ذلك تشمل جميع ألوان النكبات في العصر الحديث.

فالمذهب القائل بأن الإنسان مقياس لكل شئ ينشأ عنه،علي سبيل المثال أن الاختلافـــات الخلقية إنما هي قضية ذوق، وهو اعتقاد أصبح وبائيا في المجتمع الحديث.. ثم إذا لم يكن الكون تصميم خلقي أسمي من المصالح البشرية،فإنه ينتج عن ذلك أن الإنسان وحده، وعن طريق ذاته فقط،يعد طريق خلاصه.

وبذلك تسلم الثقافة الليبرالية نفسها لنوع من المذاهب العقلية معرض للـــشطط. إنهـــا لا تحسب حسابا للقوى التي تفوق العقل، وتستطيع وحدها أن تسمو بالناس فوق ذواتهم. وليس باستطاعتها أن تيسر للناس عونا مصدره قوى أكبر من قوتهم، ولا تنبئهم كيف يمكن لما فوق التعقل أن ينسكب في ذواتهم،فيوحي إليهم ويشع النور في حياتهم ؟ وعلي هذا النحو يتـــرك الناس عاجزين عن مكافحة القوة غير المتعقلة في نفوسهم،ذلك لأن العقل البشرى ضعيف غير دافئ، ودوما تتغلب عليه النوازع غير العاقلة، وما لم يتح للنـــاس نـــور ودفء أقـــوى مـــن العقل،يصارعون بهما قوة ما هو دون العقل،فإن العقل نفسه مقضي عليه بالخذلان."[1]

ومن هنا يعاني منهج التربية الاجتماعية الوضعي من عوارض تخرجه عـــن العلمية،نتيجـــة التصدع الكبير الذى حدث في المنطلقات الفكرية الغربية بعد إزاحة القواعد الدينية وتعطيـــل فاعليتها.

وعلم الاجتماع ليس في حقيقته إلا صياغة دينية لمعتوه فرنسي، وملحد يهودى، وشرذمة من الماركسيين واللادينيين،أرادوا له أن يكون دينا جديدا، وأرادوا لأنفسهم أن يكونوا أنبياء ورسل هذا الدين الجديد، ورغم ذلك فإنه لم يخرج عن كونه مجرد كلام عـــامي، ورطانـــة غامضة،أما النزعة العلمية التي يتمسك بها،فقد كانت نزعة مزيفة باعتراف كبـــار المـــؤرخين الألمان..

---

(١) تشارل فرانكل، أزمة الإنسان الحديث ص ٦٣ مكتبة الحياة، موسسة فرانكلين ١٩٥٩م .

فالأساس التخلي عن أحكام ما فوق الطبيعة المتعلقة بالخلق والجنة والنار، ويجتمع النـــاس علي قواعد الأخلاق الاجتماعية وليس علي أساس الدين والمعتقـــدات. الإنـــسان في علـــم الاجتماع هو ناتج الواقع يحدد له مصيره وينشئه ويحركه كيف يشاء، ولهذا فإن عليه أن يخضع لقوى المجتمع ومعاييره. والإنسان في علم الاجتماع أيضا هو خالق الواقع كما أنه ناتج لـــه في نفس الوقت. المجتمع يصنع الإنسان، والإنسان بدوره يصنع المجتمع..

والبناء الحالي لعلم الاجتماع يرجع بصورة أو بأخرى إلي الأفكـــار الـــتي صـــاغها رواد مبكرون مثل باريتو الإيطالي ودوركايم الفرنسي وماكس فيبر الألمـــاني و الأول كـــاثوليكي والثاني يهودى والثالث بروتستانتي..

وقد فرضت مشكلة العلاقة بين العلم والدين نفسها علي الرواد الكبـــار الثلاثـــة. قـــال دوركايم: إن العلم يستطيع أن يفهم الدين، وأن يفسر قيام معتقدات دينية جديدة، . وقـــال ساخرا: لا تحفل بالدين، لأن الرواسب لا تتغير، وسوف تنشأ معتقدات جديدة دائما.

أما فيبر فقد كان يرى أن التناقض قائم بين مجتمع يقوم علي العقلانية وبـــين الحاجـــة إلي الاعتقاد والإيمان. يقول فيبر: إن الطبيعة كما يفسرها العلم وكما تعالجها التكنولوجيا، لـــيس فيها متسع لسحر الدين وأساطيره القديمة. يجب أن ينسحب الإيمان ليعـــيش في عزلـــة مـــع الضمير..

أما باريتو فقد كان مصرا علي أن القضايا التي يمكن التوصل إليها عـــن طريـــق المنـــهج التجريبي هي وحدها العملية، وكل القضايا الأخرى وخاصة الأخلاقية والميتافيزيقية، ليس لها أى قيمة علمية..

وقد وجه العلماء الثلاثة النظر إلي علم الاجتماع كمفهوم لعلم الفعل الجمعـــي، ورأوا أن الإنسان كمخلوق اجتماعي وديني هو خالق القيم والنظم، وأن الدين لايمكن أن يكون أساس النظام الاجتماعي مرة أخرى.

هذا بالنسبة للرواد الكبار. أما العلماء المعاصرون فقد ساروا في نفس منهج هؤلاء الرواد.. فلا يخلو كتاب في علم الاجتماع في بلادنا من الإشارة إلي بارسونز والكتابة عنه، وهو الذى يرفض الدين بعنف. يقول روبرتسون في مقالته عنه: إن حديثنا عن الدين يعني العودة لموضوع رفض بارسونز الإيمان به بثبات، وأنه بالرغم من عدم إيمانه بالدين فقد كتب فيه ما لم يكتـــب أى عالم اجتماعي آخر..

وعلماء الشرق ينقلون هذه الأفكار، ويعرفون بأن دورهم هو دور النادل الـــذى يقـــدم الطعام دون أن تكون له أية مسؤولية عن طهوه. فهم لم يشاركوا في صياغة هذه النظريـــات

التي تبنوها ويرددونها بشكل آلي، ويبررون أخذهم لهذه النظريات بأن الحضارة الإنـــسانية لا تتوقف عن المسير، ونحن نعطي لها ونأخذ منها.[1]

" يقول ماك جي،أستاذ الاجتماع بجامعة سنترال واشنطن:

إن العلم الاجتماعي الحديث يسرق إنسانيتنا من خلال تزييفه للقيم والـــدوافع الإنـــسانية واستبدالها بمنظورات يسميها علمية.. إنني غير مرتاح لاتجاه العلوم الاجتماعية عامة، وعلـــم الاجتماع خاصة،إن وجودنا كعلماء اجتماعيين يتوقف علي تزييفنا للقيم ولدوافع والأنظمـــة الاجتماعية، ولكن إلي متى؟ "[2]

الأخلاق بين النسبية والثبات

وكان من النتائج الخطيرة المترتبة علي سيادة المنهج الوضعي أنه عمل علي إحلال النـــسبية محل المطلق،فلم يعد علم الاجتماع يبحث في الصيغ والأشكال والصور المطلقة للنظم، واعتبر هذا البحث من سمات المنهج اللاهوتي الذى يؤمن بوجود أشكال وأقـــوال محـــددة للـــنظم الاجتماعية،بينما اعتقد علماء الاجتماع أن الواقع الاجتماعي يخضع لتغير دائم، وأن الحقـــائق الاجتماعية تبعا لذلك حقائق نسبية غير ثابتة وغير قادرة،تتحدد حسب تجدد أحوال المجتمعات وأعراف الناس وتقاليدهم، ومن ثم تأتي في نظرهم ضرورة النظرة النسبية إلي النظم الاجتماعية والتحرر من النظرة المطلقة التي تحدد ثوابت للأخلاق.

أمام هذا التحول الجديد لم يعد من الممكن أن نتحدث عن وجود نموذج مثالي يجـــب أن نتطلع إليه ونعمل علي صياغة سلوكنا الاجتماعي وفق أهدافه ومقرراته. فـــالنظرة النـــسبية تقتضي منا أن نثبت لكل مجتمع مثله وقيمه الخاصة، وليس هناك مثال مستقل خارج الظروف الزمانية والمكانية لكل مجتمع، وبالتالي فليست هناك صورة واحدة لمفهوم الخير والشر والحسن والقبح،فالقيم الأخلاقية والدينية كلها قيم نسبية ومتطورة، وتأخذ شرعيتها فقط من الوســـط

---

(١) د. احمد إبراهيم خضر، علماء الاجتماع، وموقفهم من الإسلام ص ٧-٢٠المنتدى الإسلام لندن ١٩٩٣م.

(٢) Chsrles Magchee, Spiritual Values and Sociology , The American Sociological R. ١٩٥٤, pp ٥٧-٧٦

المصدر السابق ص ٢٩٣

البيئي والاجتماعي،الذى توجد فيه. وكل مجتمع يضع لنفسه مثالا حول الإنسان، وما ينبغي أن يكون عليه،سواء من وجهة النظر العقلية أو المادية أو الأخلاقية.(1)

صحيح أن خط العلم التجريبي دائما صاعد، وأن البيئة المادية متغيرة ومتطورة،إلا أن الملاحظ أن الإنسان بتكوينه الحيوى من غرائز وأشواق لم يتغير علي مدى الزمان. وما العلم التجريبي والبيئة المادية والاجتماعية إلا معمل لتجربته في الحياة وابتلاء في نوعية عمله. ومن ثم فإن التكوين النفسي للإنسان، الذى يتميز بعدم تغيره، لا يتحرك حول محور صاعد دائما كالعلم التجريبي، وإنما يتحرك حول محور ثابت بين منطقتين يسلك أحدهما: منطقة الفجور إن أذعن لغرائزه واتبع هواه وشيطانه، ومنطقة التقوى إن استجاب للحق واستقام علي هداه.

فنفس الإنسان عرضة للهبوط والارتقاء والزلل والاستقامة. وتعتمد النفس علي شئ آخر غير كم ودرجة الظروف المادية، والحكم علي الإنسان إنما يكون بنوعية تعامله مع الحياة لا بالدرجة التي تغيرت بها. والاستقامة الأخلاقية هي التي تدفع الإنسان إلي أن يسلك سبيل الخير لاسبيل الشر، وسبيل الهدى لاسبيل الضلال، وسبيل الحق لا سبيل الباطل، وسبيل العدل لا سبيل الظلم، وسبيل الأمانة لا سبيل الخيانة، وهذه هي مفردات العمل الصالح في كتاب الله وسنة رسوله.

ومن هنا نجد في القرآن الكريم ثباتا في العقائد القاطعة كالتوحيد وإرسال الرسل وإنزال الكتب وختم النبوات بمحمد ﷺ والبعث بعد الموت والجزاء علي الأعمال في الدار الآخرة. ونراه أيضا في الأحكام العملية التشريعية ذات الطبيعة الثابتة ينظمها بأوامر ثابتة غير متغيرة كالميراث والحدود. وفي القيم الاجتماعية التي لا تتغير كالعفة والإحسان والعدل.

القيم الإسلامية

إن الأخلاق ماهي إلا منهج حياة تتصل بالماضي والمستقبل، وترتبط بحركة الكون كله، والإنسان محدود العلم والطاقة، لا يستطيع أن يحدد منهجا ثابتا للأخلاق يلائم الناس جميعا في زمان معين وفي كل زمان،علي مدى العصور والأيام. والإسلام وحده هو الذى يقدر أن يضع حدا لهذا التخبط. فالإسلام وضع قواعد ثابتة لا تتغير، لأنها من عند الله الحكيم الذى يهدى إلي ما يسعد البشر، والعليم بما يحيط بالإنسان من زمان ومكان.

---

(1) محمد محمد امزيان، منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية، ١٢٣، ١٢٤-٣٥٣ المعهد العالمي للفكر الإسلامي ١٩٩١م.

فالله وحده هو القادر علي ذلك. ومن ثم لا بد أن تتحدد الأخلاق بسنة الله التي أمر بها الإنسان،في وسط لا إفراط فيه ولا تفريط ولا غلو ولاتقصير. يقول ابن قيم الجوزية:

" للأخلاق حد متي جاوزته صارت عدوانا، ومتي قصرت عنه كانت نقصا ومهانة،فللغضب حد هو الشجاعة المحمودة، والأنفة من الرذائل والنقائص، وهذا كمال إذا جاوز حده تعدى صاحبه وجار، وإن نقص عنه جبن ولن يأنف من الرذائل. وللحرص حد هو الكفاية في أمور الدنيا وحصول البلاغ منها،فمتي نقصت عن ذلك كان مهانة وإضاعة، ومتي زاد عليه كان شرها ورغبة فيما لا تحمد الرغبة فيه. وللحسد حد وهو المنافسة في طلب الكمال والأنفة أن يتقدم عليه نظيره،متي تعدت ذلك صار بغيا وظلما،يتمني معه زوال النعمة عن المحسود، ويحرص علي إيذائه، ومتي نقص عن ذلك كان دناءة وضعف همة وصغر نفس."[1]

ومن ثم كان القرآن كتاب هداية أصلا، وخطابه موجه لهذه النفس البشرية، وقيم القرآن ثابتة لا تتغير، وهي موجهة للنفس البشرية الثابتة التي لاتتغير.

والأخلاق الفاضلة عنصر رئيس في بقاء الأمم ونهوضها، وهي تؤثر علي مسيرة المجتمعات سلبا وإيجابا، فالأخلاق الفاضلة تشيع في المجتمعات الرحمة والترابط، والأخلاق السيئة تحيل المجتمعات إلي صراع وفساد.

وهي لهذا متممة للشريعة،تفلح بها النفس البشرية، وتتماسك بها المجتمعات الإنسانية. ويتحقق بها فاعلية الأحكام، ومن ثم كانت سنة كونية شرعية،تراها في رسالات الرسل علي مدى التاريخ الإنساني تمثل مكانا هاما في دعوتهم وسياستهم.

والتقوى هي معين الأخلاق الفاضلة تمدها فترى غضة طرية في حياة المؤمنين، والتقوى تتحقق بمعرفة الله تعالي، واليقين باليوم الاخر.

والمنهج الإسلامي عامر بمكارم الأخلاق. يقول رسول الله ﷺ:

(إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق.)[2]

فهو ﷺ،كان خلقه القرآن، لأن الله تعالي اصطفاه ورباه علي الخلق العظيم، ليكون نبراسا تقتبس منه الإنسانية وتتأسي بهذه الأسوة الحسنة.

يقول رسول الله ﷺ:

---

(١) ابن القيم، مدارج السالكين، ج٢ ص ١٢٤.

(٢) الألباني، صحيح الجامع الصغير ج١ ص ٤٦٤.

اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن.[١]

ويقول ﷺ :

أقربكم مني مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا، وإن من أبغضكم إلي وأبعدكم مني يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون.[٢]

أسلوب القرآن في التربية

وللقرآن أسلوبه في عرض القيم الأخلاقية. فهو يقدمها بطريق مباشر عن طريق الأمر والنهي، والحض والمنع والإنذار والتبشير،أو يقدمها بطريق غير مباشر عن طريق الأمثال وأحداث التاريخ،أو عن طريق الارتباط بين السنن الكونية والسنن الاجتماعية.

ويذكر القرآن أمثلة من الظواهر الاجتماعية كظاهرة التقليد والترف والظلم والاستبداد في الحكم والإجرام وعبادة الأوثان والكواكب وتقديس الحيوان وعبادة الأزواج من الملائكة والجن ووأد البنات واحتقار المرأة وتطفيف الكيل والميزان واستغلال المستغلين الذين يأكلون أموال الناس بالباطل، وظهور الطبقية وامتيازاتها في المجتمع كطبقة رجال الدين من الأحبار والرهبان.. والحوادث الاقتصادية كتطفيف الكيل والميزان.. والانحرافات الخلقية كقوم لوط.. والنظم السياسية كحكم الشورى في مملكة بلقيس.. وحكم فرعون الاستبدادى وعلوه في الأرض وإفساده..

وكما يشير القرآن الكريم إلي ارتباط حوادث الطبيعة بعضها ببعض ارتباطا مطردا منتظما،إذ يدل علي تتابع حادثين،سابقة ولاحقة،تتابعا مطردا باستمرار كنزول المطر ونمو النبات،يشير كذلك إلي ارتباط الحوادث الاجتماعية مثل هذا الارتباط المطرد..فيتكرر في القرآن مثلا حصول الهلاك بعد ظهور الظلم..وارتباط الترف بظاهرة الفسق والتصدى للحق.وارتباط الطاعة بالنصر والهزيمة بالعصيان.هذا الارتباط يدل علي القوانين الاجتماعية أو سنن الله في المجتمع والإنسان، إذ ليس القانون الاجتماعي إلا الترابط المطرد بطريقة ما بين ظاهرتين..ويذكر القرآن أن لله سننا في الأمم والجماعات ويدعو إلي السير إليها والتفكر فيها...[٣]

---

(١) الألباني، الجامع الصغير ج١ ص ٨١.

(٢) الألباني سلسلة الأحاديث الصحيحة ج ٢ ص ٤١٤.

(٣) محمد المبارك، نحو صياغة إسلامية لعلم الاجتماع ص ٣٠-٣٣ المسلم المعاصر عدد ١٢ ديسمبر ١٩٧٧م.

ويربط القرآن دائما بين رحلة الدنيا وهدف الآخرة، ويشير القرآن إلي أن البشر إذا اقتصروا في تطلعهم وهدفهم إلي الحياة الدنيا وحدها فإن النتيجة هي الصراع بين الكتل البشرية حول المال والإفساد في الأرض، ولكن إذا ابتغيت الآخرة حين أخذ النصيب من الدنيا كان ذلك الاحسان الإصلاح في الأ رض كما في قصة قارون.

وينبه القرآن إلي أن المجتمع الإنساني في حالة حركة دائبة، ولتغيره عوامل وأسباب.. ويستعمل القرآن عن تبدل الأحوال لفظ القرن والقرون.. والذنوب آفات وأمراض اجتماعية جعلها الله سببا وعاملا في هلاكهم.. فكم أهلك الله من قرية بطرت معيشتها. والإيمان والتقوى يؤدى إلي الرخاء والبركة. وكم تمكنت قرون بطاعتها الله وقيامها بالخلافة عنه. ومن ثم يتحدد القانون الإلهي:﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾.

الموضوع المشترك لسور الر:

"نلاحظ علي هذه السور التي تبدأ بالحروف **الر** أنها جاءت متتابعة، وأنه تأتي بعد الفواتح عبارة "**تلك آيا ت الكتاب**"أو كلمة "**كتاب**" وهكذا بالتبادل،مع تغير فيما يأتي بعد ذلك. فتكون: **تلك آيات الكتاب الحكيم** في يونس، و **كتاب أحكمت آياته** في هود، **وتلك آيات الكتاب المبين** في يوسف **وكتاب أنزلناه إليك**. في إبراهيم، **وتلك آيات الكتاب وقرآن مبين** في الحجر. ويشير هذا إلي نوع من الارتباط بين السور."[1]

وسور هذه المجموعة اغلبها مكية و القرآن المكي يتميز بتأصيله للعقيدة في نفوس الناس، وهنا يتحدث بالتفصيل ولايشير إلي الشريعة إلا علي سبيل الإجمال.

ومن ثم كانت الموضوعات الرئيسة في القرآن المكي هي:-

١- حقيقة الألوهية، وإثبات التوحيد ونفي الشرك.

٢- بيان أحوال اليوم الآخر. ٣- دور الرسالة وصفاتها

٤- حقائق الوحي وإعجازه. ٥- تربية المجتمع المسلم علي قيم هذه القواعد الإيمانية.

وشجرة الر تشمل ذلك كله إلا أننا نلاحظ التركيز هنا علي حقيقة الرسالة والوحي.

ويجمع هذه الشجرة جامع مشترك هو مواجهة الظالمين وأتباعهم للمرسلين والمؤمنين بهم.

" يشهد لمراعاة الفواتح.. تقدم الحجر علي النحل لمناسبة ذوات (الراء) قبلها، وتقدم آل عمران علي النساء وإن كانت أقصر منها لمناسبتها البقرة في الافتتاح بـ (الم) وتوالي

---

(١) أحمد رضوان، مسائل في تأويل الأحاديث ص ١١.

الطواسين،الحواميم، وتوالي العنكبوت والروم ولقمان والسجدة لافتتاح كل بـــ (الم). ولهـــذا قدمت السجدة علي الأحزاب التي هي أطول منها."[١]

و المواجهة بين الرسل والظالمين تشغل السرد القرآني في شجرة الر. وبينما كانت مواجهة الظالمين في السبع الطوال تقوم علي أوامر تشريعية،تحدد الحرب والسلام، والهدنة والأمان،فإن التربية علي المقاومة من داخل النفس تشغل سور الر،فتغذى النفس بقيم العزة والصبر والثبات وتفويض الأمر لله تعالي.

والله تعالي يبين في هذه الشجرة مكر هؤلاء الظالمين بالمؤمنين، ولاتتابع هنا إلا ماورد فيـــه لفظ الظلم ظاهرا أما ماوجد ضمنا، وماذكر من أوصافه استكبارا وعنادا وجبروتا وإجرامـــا وطغيانا،فهذا لايخفي علي من يتلو القرآن.

---

(١) السيوطي، تناسق الدرر في تناسب السور ص ٥٧ دار الكتاب العربي١٩٨٣ .

التوكل علي الله

كما تبينه

سورة يونس

التوكل علي الله
كما تبينه سورة يونس

مقدمة

تتردد بين جنبات السورة أدلة تثبت أن الوحي حق، وأن الله تعالي برحمته أرسل به الرسل لهداية العالمين إلي دار السلا م.

وفي هذا الوحي الشفاء من آفات الدنيا، وتصل الإنسان بخالقه ورسالته في الأرض. فتربي النفس المؤمنة علي الولاية الكاملة لله تعالي والتفويض غير المشروط لــه والتوكــل الكامــل عليه.،عقيدة وعملا،باطنا وظاهرا. وعلي هذا فطر الله الإنسان ومن أجله خلق الكون والحياة.

وتقدم عبرة التاريخ من سير المرسلين في مواجهة ظلم الكافرين في حربهم لهــذه العقيــدة، فتحكي قصة نوح مع قومه وتوكله علي الله في مواجهتهم، وقصة موسي مع قومه ودعوته لهم بالتوكل علي الله في مواجهة جبرو ت فرعون.

وفي ختام السورة أمر الله تعالي بمفاصلة المشركين وإظهار التباين بين الإيمــان والــشرك، وأوصي أولياء الله بما يلي:

١- الاستقامة علي أمر الله.
٢- التوكل علي الله.
٣- الرضا بالقضاء.
٤- اتباع الوحي.
٥- الصبر حتي يحكم الله.

الأساس العقيدى

إرسال الله لرسله رحمة منه بعباده. فالإنسان السوى الفطرة الصحيح العقــل،حين يتأمــل الكون حوله يؤمن يقينا بخالقه، وحين يتأمل النظام والحكمة فيه يؤمن بأنه خلق بالحق، لالعبا ولاعبثا،فيعرف الآخرة. وهذه قاعدة ضرورية لكل إيمان حق وعمل صالح، وبــدونها يكــون التقليد الغير واع أو العناد والصدود.

ولكن للعقل حدوده التي يعرفها الإنسان ويعلم أنـــه لايمكنـــه تجاوزها،فمعرفـــة ذات الله والتعمق في معرفة تفاصيل المبدأ والمعاد، لايمكنه في حدود قدراته الإدراكية أن يحيط بها. ومن رحمة الله به أن أرسل إليه الرسل يبينون له هذه الحقائق، ويبلغوه برسالته ويهدونـــه منهاجـــه الذى يوصله إلي السلام والسلامة والحسني في الدنيا والآخرة. وأيد كل نبي فوق دليل الكون والعقل بالآية والمعجزة لكيلا يكون للناس علي الله حجة بعد الرسل. ومن هنا كان أمام كل بشر اليوم آيتان يقودانه إلي الإيمان بالله واليوم الآخر: آية الكون المشهود وآية القرآن المكتوب. ومن ثم كان ذلك التفصيل المستمر في سور القرآن لآية الوجود وآية الكتاب، لتشرق علـــي النفوس السوية وتهدى العقول الذكية.

" فبعثة الأنبياء إلي الناس من الضروريات التي لابد لهم منها، وذلك أن جل الناس يقـــصر عن معرفة منافعهم ومضارهم الأخروية جزئياتها وكلياتها، وبعضهم وإن كان لهم ســـبيل إلي معرفة كليات ذلك علي سبيل الجملة،فليس لهم سبيل إلي معرفة جزئياتها، ولايمكن أن يعرفـــوا كيف يجب، ولافي أى وقت يجب، وكم يجب.

فلما كان كذلك مَنَّ الله تعالي علي كافة عباده،خاصهم وعامهم،برسل بعثهم فيهم مـــن أنفسهم،يتلون عليهم آياته ويزكوهم ويعلموهم الكتاب والحكمة، لكي إذا تمـــسكوا بـــذلك صلح معادهم ومعاشهم، وسهل عليهم إدراكهم، ولهذا أزاح الله تعالي علتهم ببعثة الأنبياء..

ولكل نبي آيتان:-**إحداهما**: عقلية يعرفها أولو البصائر من الصديقين والشهداء والصالحين ومن يجرى مجراهم. **والثانية**: حسية يدركها أولو الأبصار من العامة.

فالأولي: مالهم من الأصول الزكية، وصورهم المرضية، وعلومهم الباهرة، ودلائلهم المتقدمة عليهم والمستصحبة، وأنوارهم الساطعة التي لاتخفي علي أولي البصائر..

الثانية: هي المعجزة التي تدركها الحواس من الأنبياء، وذلك يطلبه أحد رجلين،إما نـــاقص عن معرفة الفرق بين الكلام الإلهي وبين الكلام البشرى... فيحتـــاج إلي مايدركـــه بحـــسه، لقصوره عن إدراك ذلك. وإما لناقص، وهو مع نقصه معاند،فيقصد بما يطلبه العناد.

فالله عز وجل أرسل إلي خلقه رسولان:

-**أحدهما** من الباطن وهو العقل.

والثاني: من الظاهر وهو الرسول.

ولاسبيل لأحد إلي الانتفاع بالرسول الظاهر مالم يتقدمه الانتفاع بالباطن،فالباطن يعـــرف صحة دعوى الظاهر، ولولاه لما كانت تلزم الحجة بقوله، ولهذا أحال الله مـــن يـــشكك في وحدانيته وصحة نبوة أنبيائه علي العقل،فأمره بأن يفزع إليه في معرفة صحتها. فالعقل قائـــد

والدين مدد، ولو لم يكن العقل لم يكن الدين باقيا، ولو لم يكـن الـدين لأصـبح العقـل حائرا....."(1)

يبدأ الله تعالي السورة بتبيان حقيقة الرسالة ومهمتها، وتبيان شبهة الكافرين في الـوحي، ويرد عليهم بأدلة التوحيد وأدلة المعاد:-

أ - أن القوم تعجبوا من تخصيص الله تعالي محمدا عليه الصلاة والسلام بالنبوة.

ب- أنهم كانوا يتبجحون باستعجال العذاب الذى أوعدهم به رسول الله ﷺ.

ومن حكمة الله تعالي أن أرسل الرسل منذرين الكافرين لبغيهم ومكـرهم بآيـات الله، وركونهم إلي الدنيا، وولائهم لغير الله،بأن مصيرهم إلي النار بما كانوا يكـسبون. ومبـشرين للمؤمنين بولايتهم لله، والتزامهم صالح الأعمال،بنعيم الآخرة في دار السلام حامدين الله علي عطائه ورضوانه.

ج - "و الطريق إلي إثبات نبوة الأنبياء عليهم السلام أمران:

(1)....ظهور المعجزة علي يده، وكل من كان كذلك فهو رسول من عنـد الله حقـا وصدقا.

وهذا الطريق مما ذكره الله تعالي في هذه السورة وقرره علي أحسن الوجوه...

(2) أما الطريق الثاني فهو أن نعلم بعقولنا أن الاعتقاد الحق والعمل الصالح ماهو ؟ فكـل من جاء ودعا الخلق إليه، وحملهم عليه، وكانت لنفسه قوة قوية في نقل الناس من الكفـر إلي الإيمان، ومن الاعتقاد الباطل إلي الاعتقاد الحق، ومن الأعمال الداعية إلي الدنيا،إلي الأعمـال الداعية إلي الآخرة،فهو النبي الحق الصادق المصدق.

ونفوس الخلق قد استولي عليها أنواع النقص والجهل وحب الدنيا، ونحن نعلم بعقولنـا أن سعادة الإنسان لاتحصل إلا بالاعتقاد الحق والعمل الصالح، وحاصله يرجع إلي حرف واحـد، وهو أن كل ما قوّى نفرتك عن الدنيا ورغبتك في الآخرة فهو العمل الصالح، وكل ماكـان الضد من ذلك فهو العمل الباطل والمعصية.

وإذا كان الأمر كذلك كانوا محتاجين إلي إنسان كامل،قوى النفس،مشرق الروح،علـوى الطبيعة، ويكون بحيث يقوى علي نقل هؤلاء الناقصين من مقام النقصان إلي مقام الكمـال، وذلك هو النبي.

---

(1) الأصفهاني، الذريعة إلي مكارم الشريعة ص ٢٠٥-٢٠٩.

فالحاصل أن الناس أقسام ثلاثة: الناقصون، والكاملون الذين لايقـدرون علـي تكميـل الناقصين، والقسم الثالث هو الكامل الذى يقدر علي تكميل الناقصين،فالقسم الأول هو عامة الخلق، والقسم الثاني هم الأولياء، والقسم الثالث هم الأنبياء."[1]

يقول تعالي: ﴿ الر تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ(١)أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَـى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ(٢)﴾

ويبين الله تعالي شبهات الكافرين عن الوحي، وهو القنطرة بين الرسالة والكتاب. من هذه الشبهات:

(أ) أنهم شرطوا لاستجابتهم من الرسول أن يأتي بغير هذا القرآن أو أن يبدله.

فقد كان الكفاريواجهون حملة القرآن علي عقائدهم المهلهلة، وجاهليتهم المتناقـضة،بأن يكذبوا رسول الله ﷺ في نبوته، والوحي إليه من ربه، ويزعمون أنه ساحر. وأن يطلبوا منه أن يأتيهم بخارقة تدل علي أن أوحي إليه...

وما أشبه الليلة بالبا ِحة،فإن محاولات الصهيونيين والصليبيين لتغيير المناهج حتي لا تكشف انحرافاهم، وحتي لا تتيقظ الأمة علي مؤامراهم،قائم إلي اليوم بمكر شيطاني.

ويرد عليهم بحجة دامغة، حيث الرسول كما يعرفونه لم يتلق علما ولادرسا طيلة عمـره معهم،فكيف يتسني له أن يأتي بهذا العلم وهذه الحكمة في تفصيل وصدق لاريب فيه ؟

(ب) أنهم طلبوا لإثبات الرسالة خارقة كونية تشهد بالرسالة.، فتبين السورة أن معجـزة الإسلام الخالدة في كل زمان هي كتابه المجيد. ويتحداهم أن يأتوا بسورة من مثله إن كـانوا صادقين.

يقول تعالي: ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَات قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْت بِقُـرْءَانٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَـيَّ إِنِّـي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ(١٥) قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ(١٦)فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ(١٧)﴾

(١) الرازى، مفاتيح الغيب ج١٦ ص ٣٨٦.

ويتحدى الخلق مجتمعين أن يأتوا بسورة من مثله،فالمعجزة القرآنية لاتخفي علي عاقل. إنه معجزة فيما أنبأ به من الغيب وتحقق. ومعجزة في العلوم الدنيوية في إشاراته العلمية التي صدقها العلم الحديث بعد أربعة عشرة قرنا من البحث والدرس. ومعجزة الأسلوب العلمي الذى يحض علي حرية البحث وفرضية التدبر والبعد عن الخرافة والتقليد. وهو معجزة في علومه الدينية حيث يقدم للناس في تكامل ودقة حقائق الغيب التي لايطيق إدراكها الناس بمداخل معارفهم المحدودة. وهو معجزة في مناهجه وتشريعه حيث قدم للبشرية نظاما للحياة واقعيا في مثاليته ومثاليا في واقعيته،تشهد بمعجزته مشاكل المدنية المعاصرة التي تترنح بين الإفراط والتفريط.

إن تكذيب الكافرين لهذه المعجزة تعبير عن الجهل والعجز، وهو علامة علي أنهم قد عطلوا أدوات المعرفة التي حباهم الله بها من سمع وبصر، وعلي من يحترم العلم والمعرفة إلا أن يتبرأ من هذا التبجح والعناد والجهل والعقوق.

والنتيجة المحتمة لهذا هي العذاب،سواء كان ذلك العذاب في الدنيا أو في الآحرة. ميعاده يحدده الله تعالي وحده، وذلك لظلم الكافرين وتعطيلهم مداركهم وتغبيهم عن غاية وجودهم،فهو الجزاء القسط الذى يستحقونه.

يقول تعالي: ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ(٣٦)وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْءَانُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ(٣٧)أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ(٣٨)بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ(٣٩)﴾

قال رسول الله ﷺ:

(مامن نبي من الأنبياء إلا أعطي مامثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذى أوتيت وحيا أوحاه الله إلي،فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة.)[1]

يقول تعالي: ﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ(٥٣)وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ(٥٤)أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ

---

(١) رواه البخارى ج٦ ص ٢٢٤ .

﴿حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ(٥٥)هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(٥٦) يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ(٥٧)قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ(٥٨)﴾

وهكذا أكد القرآن أنه حق في أكثر من عشرين موضعا في السورة، ليبين أن أى شك في ذلك إنما هو بسبب نقص في الإدراك العقلي أو زيغ نحو هوي النفس.

يقول تعالي: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ(٩٤)وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ(٩٥)إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ(٩٦)وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ(٩٧)﴾

موضوع السورة

تهتم السورة ابتداء بتعليم المؤمنين حقائق الغيب وحكمة الله فيه، وبالأخص فيما يصيب الإنسان من الضر والخير ويرتكز الدرس هنا علي تفهيم المسلم بحقيقة الدنيا.

فالإنسان قليل الصبر عند نزول البلاء،قليل الشكر عند وجدان النعماء والآلاء،فإذا مسه الضر أقبل علي التضرع والد عاء مضطجعا أو قائما أو قاعدا،مجتهدا في الدعاء طالبا من الله تعالي إزالة تلك المحنة، وتبديلها بالنعمة والمنحة،فإذا كشف تعالي عنه ذلك بالعافية أعرض عن الشكر، ولم يتذكر ذلك الضر ولم يعرف قدر الإنعام، وصار بمنزلة من لم يدع الله تعالي لكشف ضره، وذلك يدل علي ضعف طبيعة الإنسان وشدة استيلاء الغفلة والشهوة عليه.

إنما ذكر الله تعالي ذلك تنبيها علي أن هذه الطريقة مذمومة،بل الواجب علي الإنسان العاقل أن يكون صابرا عند نزول البلاء شاكرا عند الفوز بالنعماء، ومن شأنه أن يكون كثير الدعاء والتضرع في أوقات الراحة والرفاهية،حتي يكون مجاب الدعوة في وقت المحنة.

قال رسول الله ﷺ:

(من سره أن يستجيب الله له عند الشدائد والكرب فليكثر الدعاء في الرخاء.)[1]

ولقد أمر الله تعالي رسوله ﷺ **أن يفهمهم أنه لايقدر علي جلب نفع ولادفع ضرر وماشاء الله من ذلك كان.**

---

(١) رواه الترمذي، صحيح الجامع الصغير ج٢ ص ١٠٧٨.

" وفي ذلك أعظم واعظ وأبلغ زاجر لمن صار ديدنه... الاستغاثة برسول الله ﷺ عند نزول النوازل التي لايقدر علي دفعها إلا الله سبحانه. وكذلك من صار يطلب من الرسول صلي الله عليه وآله وسلم مالايقدر علي تحصيله إلا الله سبحانه. فإن هذا مقام رب العالمين الذى خلق الأنبياء والصالحين وجميع المخلوقين ورزقهم وأحياهم ويميتهم. فكيف يطلب من نبي من الأنبياء أو ملك من الملائكة أو صالح من الصالحين ماهو عاجز عنه غير قادر عليه ويترك الطلب لرب الأرباب القادر علي كل شئ الخالق الرازق المعطي المانع؟ وحسبك بما في ذلك موعظة،فإن هذا سيد ولد آدم وخاتم الرسل يأمره الله بأن يقول لعباده: لاأملك لنفسي ضرا ولانفعا.

يقول تعالي: **﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ(٤٩)﴾**

يقول تعالي: **﴿ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ(١٠٦)وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(١٠٧)﴾**

إن الله سبحانه وتعالي هو النافع الضار،فإن أنزل ضرا لم يستطع أحد أن يكشفه كائنا من كان، وإن أراد خيرا لم يستطع أحد أن يدفعه عنه ويحول بينه كائنا من كان... فذلك فضل الله يتفضل به علي من يشاء من عباده... وخصص الإرادة بجانب الخير والمس بجانب الشر.[1]

قال رسول الله ﷺ:**(عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن،إن أصابته سراء شكر وكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له).**[2]

" ورجح تعالي جانب الخير علي جانب الشر في ثلاثة أوجه:

١- أنه تعالي لما ذكر إمساس الضر بين أنه لاكاشف له إلا هو، وذلك يدل علي أنه تعالي يزيل المضار، لأن الاستثناء من النفي إثبات. ولما ذكر الخير لم يقل بأنه يدفعه بل قال إنه لاراد لفضله، وذلك يدل علي أن الخير مطلوب بالذات، وأن الشر مطلوب بالعرض،كما قال النبي ﷺ في الحديث القدسي:**(سبقت رحمتي غضبي).**

٢- أنه تعالي قال في صفة الخير: يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ، وذلك يدل علي أن جانب الخير والرحمة أقوى وأغلب.

---

(١) الشوكاني، فتح القدير ج ٢ ص ٤٧٧-٤٧٨.

(٢) رواه مسلم، صحيح الجامع الصغير ج٢ ص ٧٣٧.

٣- أنه تعالي قال: **وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**، وهذا أيضا يدل علي قوة جانب الرحمة.

وحاصل الكلام في هذه الآية أنه سبحانه وتعالي بين أنه منفرد بالخلق والإيجاد والتكوين والإبداع، وأنه لاموجد سواه ولامعبود إلا إياه،ثم نبه علي أن الخير مراد بالذات والشر مراد بالعرض."(١)

ثم ترشدهم إلي أن بلوغ الرشد لا يتحقق إلا بالتوكل علي الله.

الولاية لله:

يبين الله تعالي مواصفات أولياء الله. فشرط الولاية الإيمان والتقوى، وهو بالإيمان اليقيني بالله وحده وبالثواب والعقاب في الآخرة،ثم العمل الصالح باتباع أوامر الله والانتهاء عما نهي عنه في كتابه العزيز علي لسان رسوله الأمين. والذى فيه الموعظة والشفاء والهدى والرحمة. ومن هذا شأنه لاخوف عليهم ولاهم يحزنون ولهم البشرى يقينا في الدنيا والاخرة،هذا هو الرشد والفلاح والفوز العظيم.

يقول تعالي: ﴿ **أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ(٦٢)الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ(٦٣)لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(٦٤) وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(٦٥)** ﴾

" فقوله تعالي: **آمَنُوا** إشارة إلي كمال حال القوة النظرية وقوله تعالي: **وَكَانُوا يَتَّقُونَ**،إشارة إلي كمال حال القوة العملية.

ومعني آخر، وهو أن يحمل الإيمان علي مجموع الاعتقاد والعمل،ثم نصف الولي بأنه كان متقيا في الكل.

أما التقوى في موقف العلم فلأن جلال الله أعلي من أن يحيط به عقل البشر،فالتصديق إذا وصف الله سبحانه بصفة من صفات الجلال،فهو يقدس الله عن أن يكون كماله وجلاله مقتصرا علي ذلك المقدار الذى عرفه ووصفه به، وإذا عبد الله تعالي فهو يقدس الله تعالي عن أن تكون الخدمة اللائقة بكبريائه متقدرة بذلك المقدار. فثبت أنه أبدا يكون في مقام الخوف والتقوى..."(٢)

---

(١) الرازى، مفاتيح الغيب ج ١٦ ص٤٦٠-٤٦١.

(٢) الرازى، مفاتيح الغيب ج١٦ ص ٤٠٠.

قال رسول الله ﷺ في الحديث القدسي: **(من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشئ أحب إلي مما افترضت عليه، ومايزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتي أحبه،فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شئ أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن،يكره الموت وأنا أكره مساءته.)**[1]

وقال ﷺ حين سأله أبو الدرداء عن آية: **لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا،: ماسألني عنها أحد غيرك منذ أنزلت،هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له."**[2]

وعلي طرفي الولاية إفراط وتفريط زنيمين مذمومين،طرف الشرك بالله في عالم الشهادة بالتحريم والتحليل في أرزاق الله مالم ينزل به سلطانا،مذكرا بأن الذى له الحق في ذلك هو الذى له مافي السماوات والأرض، والذى لايغيب عن علمه شئ في السماوات والأرض صغر أم كبر , ومن يحيي ويميت وإليه المصير، وبين كيف يقابل العبيد فضل الله عليهم بالافتراء الكاذب عليه.

يقول تعالي: **﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ(٥٩)وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ(٦٠)﴾**

وفي الطرف الآخر يندد تعالي بالشرك به في عالم الغيب ونسبة الشركاء زورا إليه وادعاء الولد دون برهان له، وكل من يفترى هذا الافتراء لايفلح ويلقي سوء المصير، وإن نال المتعة التافهة في دنياه، لأن نهايته إلي العذاب الشديد،مقدما هذه العظة بحقيقة ملكه الشامل لمن في السماوات ومن في الأرض، وفي محضن آياته في جعل الليل سكنا والنهار معاشا، لعل في هذا الدليل ماتنفتح به العقول المغلقة والنفوس المطموسة.

يقول تعالي: **﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ(٦٨)قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ(٦٩)مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ(٧٠)﴾**

---

(١) البخارى، ج٨ ص ١٣٠.

(٢) صحيح سنن الترمذى ج٢ ص ٦١.

" واعلم أنه تعالي لما بين بالدليل القاهر أن إثبات الولد لله تعالي قول باطل،ثم بين أنه ليس لهذا القائل دليل علي صحة قوله،فقد ظهر أن ذلك المذهب افتراء علي الله ونسبة لما لايليق به إليه. فبين أن من هذا حاله لايفلح البتة...

التوكل علي الله:

تأخذ السورة بعد ذلك في تجلية خصيصة هامة من خصائص الولاية لله، وهي التوكل عليه. والتوكل هو اعتماد القلب علي الله، وحسن الظن به، والاستسلام لقضائه، والرضا بقدره،بعد اتخاذ الأسباب وبذل الطاقة. فمن توكل علي الله قبل الفعل، ومن قام بالفعل صوابا، ومن رضي بما قضي الله بعد الفعل،فهو من أولياء الله. وذلك عكس الكافرين الذين إذا مسهم الخير طغوا وإذا مسهم الشر يئسوا، ولايقدرون الله حق قدره فيستعجلون عذابه ويستهينون بوعيده.

يقول رسول الله ﷺ:

لو أنكم تتوكلون علي الله حق توكله، لرزقكم كما يرزق الطير،تغدو خمصا وتروح بطانا.[1]

وقال ﷺ:

من قال — يعني إذا خرج من بيته — **بسم الله توكلت علي الله، لا حول ولا قوة إلا بالله،يقال له كفيت ووقيت، وتنحي عنه الشيطان.**[2]

وكان رسول الله ﷺ يدعو قائلا:

"اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت،اللهم إني أعوذ بعزتك، لا إله إلا أنت،أن تضلني،أنت الحي الذى لايموت، والجن والإنس يموتون".[3]

التوكل عمل القلب، وليس قول اللسان أو عمل الجوارح.. وهو حالة مركبة من مجموعة أمور لايتم التوكل إلا بها وهي:

١- معرفة بالرب وصفاته،من قدرته، وكفايته وقيوميته وانتهاء الأمور إلي علمه وصدورها عن مشيئته وقدرته.

---

(١) الألباني، صحيح سنن الترمذى ج٢ ص ٢٧٤.

(٢) الألباني، صحيح سنن الترمذى ج٣ ص ١٥١.

(٣) البخارى ج١٣ حديث ٧٤٤٢ ومسلم ج١ حديث ١٩٩.

٢- إثبات الأسباب والمسببات،فمن نفاها فتوكله مدخول.. ونفاة الأسباب لا يستقيم لهم توكل البتة، لأن التوكل من أقوى الأسباب في حصول المتوكل فيه..

٣- رسوخ القلب في مقام توحيد التوكل،فحقيقة التوكل توحيد القلب،فما دامت فيه علائق الشرك فتوكله معلول مدخول..

٤- اعتماد القلب علي الله وسكونه إليه،بحيث لا يبقي في اضطراب من تشويش الأسباب، والسكون إليها..

٥- حسن الظن بالله عز وجل.

٦- استسلام القلب لله وترك منازعات نفسه وإرادتها معه تعالي..

٧- التفويض وهو روح التوكل ولبه وحقيقته، وهو إلقاء أموره كلها إلي الله، وإنزالها به طلبا واختيارا، لا كرها واضطرارا..

وكثير ما يشتبه في هذا الباب المحمود الكامل بالمذموم الناقص. فيشتبه التفويض بالإضاعة،فيضيع العبد حظه،ظنا منه أن ذلك تفويض وتوكل، وإنما هو تضييع لاتفويض،فالتضييع في حق الله، والتفويض في حقك.

ومنه اشتباه الثقة بالله بالغرور والعجز، والفرق بينهما: أن الواثق بالله قد فعل ما أمره الله به ووثق بالله في طلوع ثمرته، وتنميتها وتزكيتها،كغارس الشجرة، وباذر الأرض، والمغتر العاجز: قد فرط فيما أمر به، وزعم واثق بالله، والثقة إنما تصح بعد بذل المجهود..

والتوكل من أعم المقامات تعلقا بالأسماء الحسني. فإن له تعلقا خاصا بعامة أسماء الأفعال وأسماء الصفات. فلو تعلق باسم الغفار والعفو الرءوف والرحيم، وتعلق باسم الفتاح والوهاب والرزاق، والمعطي والمحسن، وتعلق باسم المعز والمذل والحافظ والرافع والمانع من جهة توكله عليه في إذلال أعداء دينه وخفضهم ومنعهم أسباب النصر. وتعلق بأسماء القدرة والإرادة، وله تعلق عام بجميع الأسماء الحسني، ولهذا فسره من فسره من الأئمة بأنه المعرفة بالله. وإنما أراد أنه بحسب معرفة العبد يصح له مقام التوكل، وكلما كان بالله أعرف كان في توكله عليه أقوى.[1]

(١) ابن القيم، مدارج السالكين ج٢ ص ١١٠-١٢١.

عبرة التاريخ

يحكي الله تعالي لنا قصة نوح عليه السلام حين يصل إلي الذروة في التوكل. فقد واجه عتاة قومه متحديا أن يجمعوا كل قوقم، وأن يستعينوا بما يزعمون من شركائهم، وأن يجهروا دون تردد بشرهم، وأن لاينتظروا في قمديدهم. وكانت سنة الله في غرقهم، ونجاة المؤمنين وخلافتهم لما في الأرض جميعا. وهكذا فعل الله بالقرون من بعدهم حين كذبوا رسلهم.

يقول تعالي: ﴿ **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ(٧١) فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ(٧٢)فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ(٧٣)ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ(٧٤)** ﴾

" لما أصر قوم نوح عليه السلام علي الكفر والجحد،عجل الله هلاكهم بالغرق فذكر الله تعالي قصتهم لتصير تلك القصة عبرة لهؤلاء الكفار، وداعية إلي مفارقة الجحد بالتوحيد والنبوة...

ولبث نوح عليه السلام فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما، لكنهم كانوا قد ألفوا تلك المذاهب الفاسدة والطرائق الباطلة.. ومن ألف طريقة في الدين فإنه يثقل عليه أن يدعي إلي خلافها، ويذكر له ركاكتها،فإن اقترن بذلك طول مدة الدعاء كان أثقل وأشد كراهية،فإن اقترن به إيراد الدلائل القاهرة علي فساد ذلك المذهب كانت النفرة أشد...

فقال لهم نوح عليه السلام:

* أجمعوا كل ماتقدرون عليه من الأسباب.

*** ثم لم يقتصر علي ذلك بل أمرهم أن يضموا إلي أنفسهم شركاءهم الذين كانوا يزعمون أن حالهم يقوى بمكانتهم وبالتقرب منهم.**

*** ثم لم يقتصر علي ذلك بل أراد أن يبلغوا فيه كل غاية في المكاشفة والمجاهرة.**

*** ثم لم يقتصر علي ذلك بل دعاهم أن يوجهوا كل ما يزعموه من شرور إليه.**

*** ثم ضم إلي ذلك خامسا أن عجلوا ذلك بأشد ما تقدرون عليه من غير إنظار...**

ومعلوم أن مثل هذا الكلام يدل أنه عليه السلام كان قد بلغ الغاية في التوكل علـــي الله، وأنه كان قاطعا بأن كيدهم لايصل إليه، ومكرهم لاينفذ فيه. "[1]

" ثم بين لهم أن كل ما أتي به إليهم من الإعذار والإنذار وتبليغ الشريعة عن الله، ليس هو لطمع دنيوى، ولالغرض خسيس... فما ثوابي في النصح والتذكير إلا عليه سبحانه،فهو يثيبني آمنتم أو توليتم.... فقد أمرت أن أكون من المنقادين لحكم الله،الذين يجعلون أعمالهم خالصة لله سبحانه، لايأخذون عليها أجرا، ولايطمعون في عاجل..

واستمروا علي تكذيب نوح عليه السلام وأصروا علي ذلك... فأنجاه الله ومن معه علـــي الفلك وجعلهم خلفاء يسكنون الأرض التي كانت للكافرين... وأغرق تعالي الكفار المعاندين لنوح بالطوفان....

ثم بعث الله من بعد نوح رسلا كهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب،فجاءوا بـــالمعجزات وبما أرسلهم الله به من الشرائع التي شرعها الله لقوم كل نبي.. فما آمنوا بل اســـتمروا علـــي الكفر وأصروا عليه... واستمروا علي تكذيبهم السابق علي بعث الرسول إليهم.... وهكـــذا يطبع الله علي قلوب المتجاوزين للحد."[2]

ويظهر التوكل واضحا علي موسي عليه السلام حين واجه فرعون دون أن يتلبث، ونصح به قومه حين توعدهم فرعون بالعذاب. فأعلنوا توكلهم علي الله، وتوجهوا إليه بالـــدعاء ألا يجعلهم فتنة للقوم الظالمين وأن ينجيهم من القوم الكافرين،ثم جعلوا بيوتهم قبلة يقيمون فيهـــا الصلاة ويشتغلون بالدعاء.

يقول تعالي: ﴿ **ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْـــتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ(٧٥)فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ(٧٦)قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ(٧٧)قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا وَتَكُـــونَ لَكُمَـــا الْكِبْرِيَـــاءُ فِـــي الْـــأَرْضِ وَمَـــا نَحْـــنُ لَكُمَـــا بِمُؤْمِنِينَ(٧٨)وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ(٧٩) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ(٨٠)فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ(٨١)وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ(٨٢)فَمَا ءَامَنَ**

(١) الرازى، مفاتيح الغيب ج١٦ ص ٤١٦-٤١٧.

(٢) الشوكاني، فتح القدير ج ٢ ص٤٦٣.

لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ(٨٣)﴾

وقد عللوا عدم قبولهم دعوة موسي بأمرين:

١- التمسك بالتقليد للآباء.

٢-الحرص علي الرياسة الدنيوية لأنهم إذا أجابوا النبي وصدقوه صارت مقاليد أمر أمته إليه ولم يبق للملك رئاسة تامة. لأن التدبير للناس بالدين يرفع تدبير الملوك لهم بالسياسات والعادات."[1]

" ويخبر تعالي أنه لم يؤمن بموسي عليه السلام مع ما جاء به من الآيات البينات والحجج القاطعات والبراهين الساطعات،إلا قليل من قوم فرعون من الذرية، وهم الشباب،علي وجل وخوف منه ومن ملإيه أن يردوهم إلي ماكانوا عليه من الكفر، لأن فرعون، لعنه الله،كان جبارا عنيدا مسرفا في التمرد والعتو. وكانت له سطوة ومهابة تخاف رعيته منه خوفا شديدا... منهم امرأة فرعون ومؤمن آل فرعون وخازن فرعون وامرة خازنه والسحرة أيضا فإنهم معدودون في قوم فرعون... والمعروف أن بني إسرائيل كلهم آمنوا بموسي عليه السلام واستبشروا به، وقد كانوا يعرفون وصفته والبشارة به من كتبهم المتقدمة. وأن الله تعالي سينقذهم به من أسر فرعون، ويظهرهم عليه. ولهذا لما بلغ هذا فرعون حذر كل الحذر،فلم يجد عنه شيئا.."[2]

قوله تعالي: ﴿ وَقَالَ مُوسَى يَاقَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ(٨٤)فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ(٨٥)وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ(٨٦)وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ(٨٧)﴾

" إن الإسلام عبارة عن الاستسلام، وهو إشارة إلي الانقياد للتكاليف الصادرة عن الله تعالي وإظهار الخضوع وترك التمرد. وأما الإيمان فهو عبارة عن صيرورة القلب عارفا بأن واجب الوجود لذاته واحد، وأن ماسواه محدث مخلوق تحت تدبيره وقهره وتصرفه.

---

(١) الشوكاني، فتح القدير ج ٢ ص ٤٦٥.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ج٢ ص ٦٦٢.

ابن عطية، المحرر الوجيز ج٧ ص ١٩٩

وإذا حصلت هاتان الحالتان فعند ذلك يفوض العبد جميع أموره إلي الله تعالي، ويحصل في القلب نور التوكل علي الله،فهذه الآية من لطائف الأسرار، والتوكل علي الله عبارة عن تفويض الأمور بالكلية إلي الله تعالي والاعتماد في كل الأحوال علي الله تعالي.

واعلم أن من توكل علي الله في كل المهمات كفاه الله تعالي كل الملمات..."[1]

ثم لما فعل بنو إسرائيل ذلك اشتغلوا بالدعاء،فطلبوا من الله تعالي شيئين:-

١- ألا تجعلنا موضع عذاب لهم،ببركة إيمانهم بالله.

٢- النجاة من القوم الكافرين برحمة الله.

والتبوء: اتخذا المباءة أى المترل كالتوطن: اتخاذ الوطن.

" وهذه التجربة التي يعرضها الله علي العصبة المؤمنة ليكون لها فيها أسوة، ليست خاصة ببني إسرائيل،فهي تجربة إيمانية خالصة. وقد يجد المؤمنون أنفسهم ذات يوم طاردين في المجتمع الجاهلي، وقد عمت الفتنة وتجبر الطاغوت، وفسد الناس، وأنتنت البيئة، وكذلك كان الحال علي عهد فرعون في هذه الفترة، وهنا يرشدهم الله إلي أمور:

* اعتزال الجاهلية بنتنها وفسادها وشرها،ماأمكن في ذلك، وتجمع العصبة المؤمنة الخيرة النظيفة علي نفسها، لتطهرها وتزكيها. وتدربها وتنظمها. حتي يأتي وعد الله لها.

* اعتزال معابد الجاهلية واتخاذ بيوت العصبة المسلمة مساجد،تحسّ فيها بالانعزال عن المجتمع الجاهلي، وتزاول فيها عبادتها لربها علي نهج صحيح، وتزاول بالعبادة ذاتها نوعا من التنظيم في جو العبادة الطهور..

الاستقامة

قوله تعالي: ﴿ **وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ(٨٨)قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ(٨٩)** ﴾

وقوله تعالي: **فَاسْتَقِيمَا**، ،يعني فاستقيما علي الدعوة والرسالة، والزيادة في إلزام الحجة،فقد لبث نوح ألف سنة إلا قليلا،فلا تستعجلا... ولاتتبعان سبيل الجاهلين الذين يظنون أنه متي كان الدعاء مجابا كان المقصود حاصلا في الحال، فربما أجاب الله تعالي دعاء إنسان في

---

(١) الرازى، مفاتيح الغيب ج١٦ ص ٤٢٥.

مطلوبه،إلا أنه لم يوصله إليه في وقته المقدر، والاستعجال لايصدر إلا من الجهال، وهذا كما قال لنوح عليه السلام: ﴿ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾،[هود:٤٦]

والله تعالي أمر رسولة بالاستقامة في الدين والثبات فيه، وعدم التزلزل عنه بحال من الأحوال، وخص الوجه لأنه أشرف الأعضاء،أو أمره باستقبال القبلة في الصلاة وعدم التحول عنها، وحنيفا حال من الدين أو من الوجه،أى مائلا عن كل دين من الأديان إلي دين الإسلام.

ثم أمر الله تعالي بالإيمان ونهي عن الشرك وعن دعوة غير الله علي أى حال من الأحوال مالاينفعك ولايضرك بشئ من النفع والضر إن دعوته، .. وهو لايفعله عاقل... والعدول عن دعاء القادر إلي دعاء غير القادر ظلم للنفس..والمقصود من هذا الخطاب التعريض بغيره ﷺ.

يقول تعالي: ﴿ قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ(١٠٤)وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ(١٠٥)﴾

المناسبة

ولقد بينت سورتي الأنفال والتوبة حقائق الولاء والبراء الشرعية في علاقة الجماعة المسلمة بغيرها من الجماعات في حالتي السلم والحرب، وفي حالتي الهدنة والنبذ،في مسار منهج السبع الطوال الذى يؤسس قواعد الأمة المسلمة.

وهنا يربي القرآن الكريم الأمة المسلمة علي هذه القيم،فيرسخ حقيقة الولاء لله في القلوب،فتنهض الطليعة المؤمنة علي معرفة ربها وهي تواجه الفراعين الظالمين

" وسورة يونس أولي المئين.. ولما تضمنت سورة براءة قوله تعالي:﴿ إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ وقوله: ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾،إلي آخر سورة براءة،إلي ما تخلل أثناء هذه السورة الكريمة مما شهد لرسول الله ﷺ بتخصيصه بمزايا السبق والقرب والاختصاص والملاطفة في الخطاب، ووصفه بالرأفة والرحمة،هذا ما انطوت هي والأنفال عليه من قهره أعداءه وتأييده ونصره عليهم وظهور دينه وعلو دعوته وإعلاء كلمته، إلي غير هذا من نعم الله سبحانه عليه،كان ذلك كله مظنة لتعجب المرتاب وتوقف الشاك، ومثيرا لتحرك ساكن الحسد من العدو العظيم ما منحه عليه السلام،قال تعالي:﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ﴾، إلي قوله:﴿ لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾، ثم قال:﴿ إِنَّ اللَّهُ رَبَّكُمْ﴾،فبين انفراده تعالي بالربوبية والخلق والاختراع والتدبير،فكيف تعترض أفعاله أو يطلع البشر علي وجه

الحكمة في كل ما يفعله ويبديه، وإذا كان الكل ملكه وخلقه فيفعل في ملكه ما يشاء ويحكم في خلقه بما يريد:﴿ **ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ**﴾،كذلك قوله:﴿ **مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ**﴾، وكل هذا بيّن الالتحام وجليل الالتئام بين السورتين."[1]

وقد ختمت سورة براءة بذكر الرسول ﷺ،في قوله تعالي:﴿ **لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨)**﴾ وبدأت سورة يونس بقوله تعالي:﴿ **الَر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (١)أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ**﴾.وفي أواخر سورة التوبة توضيح لما يقوله المنافقون عند نزول سورة من القرآن،يقول تعالي: ﴿**وإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِه إِيمَاناً فَأَمَّا الَذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وأَمَّا الَذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ ومَاتُوا وهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥)**﴾. وفي أوائل هذه السورة بيان لما يقوله الكفار في القرآن،يقول تعالي:﴿ **وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَات قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُون لِقَاءَنَا ائْت بِقُرْءَان غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ(١٥)**﴾

وفي سورة التوبة ذم للمنافقين بعدم التوبة والتذكر إذا أصابهم البلاء في قوله سبحانه: ﴿**أَوَلا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لا يَتُوبُونَ ولا هُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦)**﴾وفي هذه السورة ذم لمن يصيبه البلاء فيرعوى ثم يعود،يقول تعالي:﴿ **ولَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١)**﴾ وأيضا في الأولي براءة الرسول ﷺ من المشركين مع الأمر بقتالهم علي أتم وجه، وفي هذه براءته ﷺ من عملهم لكن من دون أمر بقتال بل أمر فيها عليه الصلاة والسلام أن يظهر البراءة فيها علي وجه يشعر بالإعراض وتخلية السبيل..."[2]

---

(١) البقاعي، نظم الدرر ج ص ٤١١-٤١٣.

(٢) الألوسي، روح المعاني ج ٦ ص ٥٥.

الاستقامة

(لا ذل ولا طغيان)

كما تبينه

سورة هود

الاستقامة
(لا ذل ولا طغيان)
كما تبينه سورة هود

مقدمة

تبدأ السورة ببيان أن آيات القرآن الكريم أحكمت من لدن حكيم، وفصلت من لدن خبير، عالم بكيفيات الأمور."[1]

ثم عرضت موضوعها العلوى وهو: ﴿ **أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ** ﴾، مشتمل علي المنع عن عبادة غير الله، وعلي الترغيب في عبادة الله تعالي.

والاستغفار طلب من الله لإزالة مالا ينبغي، والتوبة سعي من الإنسان في إزالة مالا ينبغي. فقدم الاستغفار ليدل علي أن المرء يجب أن لا يطلب الشئ إلا من مولاه،فإنه هو الذى يقدر علي تحصيله،ثم بعد الاستغفار ذكر التوبة لأنها عمل يأتي به الإنسان ويتوسل به إلي دفع المكروه ، والاستعانة بفضل الله تعالي مقدمة علي الاستعانة بسعي النفس.

ومن المعلوم أن المطالب محصورة في نوعين ، لأنه إما أن يكون حصولها في الدنيا أو في الآخرة،أما المنافع الدنيوية،فهي المراد من قوله تعالي: ﴿ **يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى** ﴾، وهذا يدل علي أن المقبل علي عبادة الله والمشتغل بها يبقي في الدنيا منتظم الحال مرفه البال، ﴿ **وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ** ﴾،المراد منه السعادات الأخروية."[2]

" وفي التعبير عن العمل بالفضل إشارة إلي أن الله لم يوقع التكليف إلا بما في الوسع مع أنه من معالي الأخلاق، لأن الفضل في الأصل ما فضل عن الإنسان من كريم الشمائل، وما كان كذلك فهو في الذروة من الإحكام، لأنه منع الفعل من الفساد والحكيم من الحكمة وهي العلم بما يجمع عليه مما يمنع الفعل من الفساد والنقض، وبها يميز الحسن من القبيح والفاسد من الصحيح، وقد أشارت الآية إلي أن الاستغفار والتوبة سبب السعة.. وأن الإعراض سبب

---

(١) الرازى، مفاتيح الغيب ج٨ ص ٤٦٥-٤٦٧.

(٢) الرازى، مفاتيح الغيب ج٨ ص ٤٦٩ - ٤٧١.

الضيق.. ﴿ وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾،إشارة إلي ثواب الآخرة،فالتوبة سبب طيب العيش في الدنيا والآخرة. "[1]

واستخفاء الكفار أمر عجيب،فالله تعالي عالم بجميع المعلومات،فثبت أن رزق كل حيوان إنما يصل إليه من الله تعالي، فلو لم يكن عالما بجميع المعلومات لما حصلت هذه المهمات...

ولما أثبت تعالي بالدليل المتقدم كونه عالما بالمعلومات،أثبت بخلق السماوات والأرض كونه تعالي قادرا علي كل المقدورات.

وفي الحقيقة فكل واحد من هذين الدليلين يدل علي كمال علم الله وعلي كمال قدرته..

واعلم أنه تعالي لما بين أنه خلق هذا العالم لأجل ابتلاء المكلفين وامتحانهم،فهذا يوجب القطع بحصول الحشر والنشر، لأن الابتلاء والامتحان يوجب تخصيص المحسن بالرحمة والثواب، وتخصيص المسئ بالعقاب، وذلك لا يتم إلا مع الاعتراف بالمعاد والقيامة."[2]

يقول تعالي ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ ءَايَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ(١)أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ(٢)وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ(٣)إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٤) أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ(٥)وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ(٦)وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ)﴾

الأساس العقيدى

ظل الكفار علي انحرافهم في طلب الخوارق، وأكد القرآن أن معجزة هذه الرسالة هي القرآن،متحديا لهم أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات.

" الافتراء أخص من الكذب، ولا يستعمل إلا فيما بهت به المرء وكابر وجاء بأمر عظيم منكر.

---

(١) البقاعي، نظم الدرر ج٣ ص ٥٠٠.

(٢) الرازى، مفاتيح الغيب ج٨ ص٤٧٣-٤٧٨.

ووقع التحدى في هذه الآية بعشر لأنه قيدها بالافتراء،فوسع عليهم في القدر لتقوم الحجة غاية القيام،إذ قد عجزهم في غير هذه الآية بسورة من مثله دون تقييد،فهذه مماثلة تامة في غيوب القرآن ومعانيه ونظمه ووعده ووعيده، وعجزوا في هذه الآية بأن قيل لهم:عارضوا القدر منه بعشرة في التقدير والغرض واحد. واجعلوه مفترى، لا يبقي لكم إلا نظمه،فهذه غاية التوسعة، وليس المعني عارضوا عشر سور بعشر، لأن هذه إنما كانت تجئ معارضة سورة بسورة مفتراة ولا يبالي عن تقديم نزول هذه علي هذه. ويؤيد هذا النظر أن التكليف في آية البقرة إنما هو بسبب الريب، ولايزيل الريب إلا العلم بأنهم لا يقدرون علي المماثلة التامة. وفي هذه الآية إنما التكليف بسبب قولهم: افتراه، فكلفوا نحو ما قالوا."[1]

يقول تعالي: ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ(١٢)أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ(١٣)فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ(١٤)﴾

"الله عز وجل لما أمر نبيه ﷺ والمؤمنين بأن يزدادوا علما ويقينا بأن القرآن منزل بعلم الله سبحانه، وبأن لا قدرة لغيره سبحانه علي شئ أصلا، وهيجهم علي الثبات علي الإسلام والرسوخ فيه عند ظهور عجز الكفرة وما يدعون من دون الله تعالي عن المعارضة، وتبين أنهم ليسوا علي شئ أصلا اقتضي الحال أن يتعرض لبعض شؤونهم الموهمة لكونهم علي شئ في الجملة من نيلهم الحظوظ العاجلة واستوائهم علي المطالب الدنيوية، وبيان أن ذلك بمعزل عن الدلالة عليه."[2]

يقول تعالي: ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ(١٥)أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(١٦)﴾

" اجتمع في تقرير صحة هذا الدين أمور ثلاثة:

١- دلالة البينات العقلية علي صحته.

٢- شهادة القرآن بصحته.

---

(١) ابن عطية المحرر الوجيز ج٧ ص ٢٥٠-٢٥١.

(٢) الألوسي، روح المعاني ج٦ ص ٢٢٧.

٣- شهادة التوراة بصحته...

ولايستوى من كان علي بينة من ربه ومن يريد الحياة الدنيا وزينتها وليس له في الآخرة إلا النار...

والذى وصفه الله تعالي بأنه علي بينة من ربه هو محمد ﷺ. والبينة هو القرآن. والمراد بقوله تعالي: **وَيَتْلُوهُ**، هو التلاوة بمعني القراءة. والشاهد جبريل عليه السلام، والمعني: أن جبريل عليه السلام يقرأ القرآن علي محمد ﷺ...

واعلم أنه تعالي وصف كتاب موسي عليه السلام بكونه إماما ورحمة، ومعني كونه إماما أنه كان مقتدى العالمين وإماما لهم،يرجعون إليه في معرفة الدين والشرائع. وأما كونه رحمة فلأنه يهدى إلي الحق في الدنيا والدين، وذلك سبب لحصول الرحمة والثواب...

ثم قال تعالي: **أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ**، والمعني: أن الذين وصفهم الله بأنهم علي بينة من ربهم في صحة هذا الدين يؤمنون.

واعلم أن المطالب علي قسمين:

منها مايعلم صحتها بالبديهة.

ومنها مايحتاج في تحصيل العلم بها إلي طلب واجتهاد. وهذا القسم الثاني علي قسمين:

لأن طريق تحصيل المعارف إما الحجة والبرهان المستنبط بالعقل،

وإما الاستفادة من الوحي والإلهام.

فهذان الطريقان هما الطريقان اللذان يمكن الرجوع إليهما في تعريف المجهولات،فإذا اجتمعا واعتضد كل واحد منهما بالآخر بلغا الغاية في القوة والوثوق.

ثم إن من أنبياء الله تعالي كثرة،فإذا توافقت كلمات الأنبياء علي صحته، وكان البرهان اليقيني قائما علي صحته،فهذه المرتبة قد بلغت في القوة إلي حيث لايمكن الزيادة...

والمراد بمن يكفر من الأحزاب أصناف الكفار،فيدخل فيهم اليهود والنصارى والمجوس..فالنار موعده...

ولما ظهر الحق ظهورا في الغاية،فكن أنت متابعا له ولا تبال بالجهال سواء آمنوا أو لم يؤمنوا.."[1]

(١) الرازى، مفاتيح الغيب ج٨ ص ٤٩٣-٤٩٧.

يقول تعالي﴿ **أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ(١٧)**﴾

عبرة التاريخ

كما قامت سورة الأنعام بشرح الأساس النظرى وتلتها سورة الأعراف بعرض التجارب العملية في التاريخ الإنساني،بجد أن سورة يونس تحتوى علي جانب من القصص مجمل،إشارة إلي قصة نوح، وإشارة إلي الرسل من بعده، وشئ من التفصيل في قصة موسي، وإشارة مجملة إلي قصة يونس.

ففي سورة "هود استعراض لحركة العقيدة الإسلامية في التاريخ البشرى كله،من لدن نوح عليه السلام إلي عهد محمد عليه الصلاة والسلام. وتقرير أنها قامت علي حقائق أساسية واحدة: هي الدينونة لله وحده بلا شريك، والعبودية له وحده بلا منازع، والتلقي في هذه الدينونة والعبودية عن رسل الله وحدهم علي مدار التاريخ. مع الاعتقاد بأن الحياة الدنيا إنما هي دار ابتلاء لا دار جزاء، وأن الجزاء إنما يكون في الآخرة، وأن حرية الاختيار التي أعطاها الله للإنسان ليختار الهدى أو الضلال،هي مناط هذا الابتلاء....

وقد بدأت السورة ببيان الحكمة من خلق السماوات والأرض ليبلو الناس أيهم أحسن عملا.

ومنهج الحياة لا يستقيم إلا إذا قام علي قاعدة:**ألا تعبدوا إلا الله**. وهذه الحقيقة هي دعوة الرسل جميعا علي مدار السورة.

ووعد من الله للمؤمنين بالمتاع الحسن في الدنيا وإيتاء كل ذى فضل فضله في الآخرة، وعمرت قصص الأنبياء بعد ذلك بذكر هذا الكرم الإلهي،داعيا الله تعالي عباده أن يقيموا حضارتهم علي الاستغفار والتوبة لا علي البطر والطغيان،فالاستغفار يؤدى إلي البركة والذنوب تؤدى إلي العذاب. يقول تعالي:

﴿ **وأَن اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ويُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (٣)**﴾

﴿**قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الجَاهِلِينَ (٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ**

وإلاَّ تَغْفِرْ لِي وتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الخَاسِرِينَ (٤٧) قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا وبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٨)﴾

ودعوة هود إلي قومه: ﴿ **وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْراراً ويَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ ولا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (٥٢)﴾**

﴿**وإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ واسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ (٦١)﴾**

وحرص الرسل دائما علي أن يعرضوا دعوهم حسبة لوجه الله، لا من أجل مال أو أجر من الناس. وأن يتبرأوا من كل حول وقوة إلا لاحول و لا قوة إلا بالله،فليس للنسب أو الرهط أى تأثير في عرض حقائق الدعوة.

وتحكي لنا السورة شرك الأكابر بالله وطغيانهم علي العباد وتقديم طاعة الأكابر والآباء علي طاعة الله، وتقديمهم الركون علي الرهط، ولا يعنيهم الركون إلي الله. يقول تعالي:

﴿**قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُواً قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٦٢)﴾**

﴿ **قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ...﴾**

﴿**فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ﴾**

وتقديم الرهط والقوم والملأ علي الاستماع إلي الحق والفئ إلي العدل.

﴿**وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ(٢٧)﴾**

﴿**قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ وإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً ولَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ (٩١) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ واتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِياً إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٩٢)﴾**

﴿**ولَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٩٦) إِلَى فِرْعَوْنَ ومَلَئِه فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (٩٧) يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وبِئْسَ الوِرْدُ المَوْرُودُ (٩٨)﴾**

نرى معني الركون إلي الله والتحرر من تبعية الظالمين في قصة نوح عليه السلام. فقد اهمه الأكابر أنه لم يتبعه إلا الضعفاء والفقراء والعامة. وهذا جهل بغاية الوجود، ومعايير تقويم البشر علي أساس من رسالتهم التي من أجلها خلقهم الله. ثم نرى جهل ابن نوح عليه السلام

حين تصور أنه سيعتصم بالجبل ليحميه من الماء، ولا عاصم من أمر الله إلا من رحم. ثم يعظ الله تعالي نوح حين تشفع لابنه ألا يكون من الجاهلين، فاستغفر الله وطلب رحمته حتي لا يكون من الخاسرين.

ونراه في قوم لوط وقد بغي قومه حتي ارتكبوا الفاحشة التي يأباها الطاهرون، وتشذ عن سنن الله في خلقه،حتي استغاث لوط يطلب الحماية والقوة والركن الشديد. فكانت الإجابة من العلي القدير نجاة للمؤمنين وهلاك للباغين.

وهود يدعو قومه إلي توحيد الله، ويذكرهم بما أفاء الله عليهم من استعمار الأرض ليستغفروه ويتوبوا إليه. فما كان جواب قومه إلا طغيان علي الحق واستكبار عن الهدى، وماكان من هود إلا أن توكل علي الله الذى يأخذ بناصية العباد. والنتيجة نجاة المؤمنين وهلاك الكافرين.

وصالح يدعو قومه إلي توحيد الله، ويذكرهم بما أفاء عليهم ويعدهم بالخيرات وزيادة القوة والتمكين،فما كان منهم إلا الطغيان وما كان من صالح ومن آمن معه إلا الركون إلي الله،فكان عاقبة الكافرين الدمار ونجي الله المؤمنين برحمته.

وشعيب يدعو قومه إلي توحيد الله، وذكرهم بما أفاء الله عليهم من خيره. وحذرهم من الطغيان ونصحهم بالعدل في إعطاء الحقوق والتحذير من بخس الناس أشياءهم،فما كان جواب قومه إلا الطغيان، وقالوا في صلف أنه ليس فيهم بعزيز، ولولا ركونه إلي رهطه لرجموه. ففاصلهم فيما يعملون، وكانت سنة الله الماضية في عذاب الكافرين ونجاة المؤمنين.

وتختم السورة بطغيان فرعون، وإهلاك قومه لاتباعهم أمره غير الرشيد، وركوهم إلي طغيانه الزائل،فكانت عليهم اللعنة في الدنيا والآخرة.

وفي نهاية كل قصة بيان عن المصير المفزع للمعاندين،يقول تعالي:

﴿ وَقِيلَ يَاأَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ(٤٤)﴾

﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْداً لِّثَمُودَ (٦٨)﴾

﴿ وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ(٦٠)﴾

﴿ قَالُوا يَالُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ(٨١)

فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ(٨٢)مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيد(٨٣)﴾

﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلاَ بُعْداً لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ (٩٥)﴾

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ(١٠٠)وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ(١٠١)وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ(١٠٢)﴾

والله تعالي لا يهلك أهل القرى بمجرد كونهم مشركين إذا كانوا مصلحين في المعاملات فيما بينهم... ولهذا قال الفقهاء: إن حقوق الله تعالي مبناها علي المسامحة والمساهلة، وحقوق العباد مبناها علي الضيق والحرج... وهذا تأويل أهل السنة، والدليل عليه أن قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب إنما نزل عليهم عذاب الاستئصال لما حكي الله تعالي عنهم من إيذاء الناس وظلم الخلق.

والآية تدل علي أن الاختلاف في الدين لا يحصل لمن خصه الله برحمته. وتلك الرحمة ليست عبارة عن إعطاء القدرة والعقل، وإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وإزاحة العذر،فإن كل ذلك حاصل في حق الكفار،فلم يبق إلا أن يقال: تلك الرحمة هو أنه سبحانه خلق فيه تلك الهداية والمعرفة."[1]

ولو شاء الله لجعل الناس أمة واحدة مؤمنة لا يقع منهم كفر ولا تنزل بهم مثلة، ولكنه عز وجل لم يشأ ذلك،فهم لا يزالون مختلفين في الأديان والآراء والملل., وجاءت الإشارة إلي الاختلاف والرحمة،فرجع ضمير خلقهم للصنفين. فذلك عائد علي الرحمة التي تضمنها قوله: إِلَّا مَنْ رَحِمَ، وإلي الاختلاف الذى في قوله: وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ.[2]"[3]

يقول تعالي: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ(١١٧)وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ(١١٨)إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ(١١٩)﴾

---

(١) الرازى، مفاتيح الغيب ج٨ ص ٦٣٣-٦٣٥.

(٢) ابن عطية، المحرر الوجيز ج٧ ص ٤٢٤-٤٢٥.

(٣) الرازى، مفاتيح الغيب ج٨ ص ٦٤٢-٦٤٣.

موضوع السورة

ترسي السورة قيمة تربوية تحقق للأمة عزها، وللبشر حريته. فهي تأمر بالاستقامة علي أمر الله.

ففي مطلع السورة يصف تعالي حال الظالمين الذين افتروا علي الله الكذب فيقول:﴿ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (١٩)

وفي وسط السورة يقول تعالي علي لسان هود عليه السلام: ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٦)﴾

وفي آخر السورة يأمر الله تعالي المؤمنين بقوله:﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْاْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٢) وَلاَ تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ (١١٣)﴾

في صحيح مسلم عن سفيان بن عبد الله عنه قال: قلت: يارسول الله،قل لي في الإسلام قولا، لا أسأل عنه أحدا غيرك. قال: (قل آمنت بالله ثم استقم) [(١)]...

ومعني الطغيان أن يجاوز المقدار. قال ابن عباس يريد: تواضعوا لله تعالي ولا تتكبروا علي أحد، وقيل: ولا تطغوا في القرآن فتحلوا حرامه وتحرموا حلاله...

قال المحققون: الركون المنهي عنه هو الرضا بما عليه الظلمة من الظلم وتحسين تلك الطريقة وتزيينها عندهم وعند غيرهم ومشاركتهم في شئ من تلك الأبواب.. وعاقبة الذى يفعل ذلك النار.. ولايجد له وليا ولا نصيرا يخلصه من عذاب الله."[(٢)]

فالاستقامة هي لزوم المنهج المستقيم، وهو المتوسط بين الإفراط والتفريط، وهي كلمة جامعة لكل ما يتعلق بالعلم والعمل وسائر الأخلاق،فتشمل العقائد والأعمال المشتركة بينه ﷺ وبين سائر المؤمنين، والأمور الخاصة به عليه الصلاة والسلام من تبليغ الأحكام والقيام بوظائف النبوة وتحمل أعباء الرسالة وغير ذلك. وقد قالوا: إن التوسط بين الإفراط والتفريط بحيث لا يحصل ميل إلي أحد الجانبين قيد عرض شعرة مما لا يحصل إلا بالافتقار إلي الله تعالي ونفي الحول والقوة بالكلية.... "[(٣)]

والاستقامة في سورة هود تقوم علي دعامتين وذلك في مواجهة الظالمين:

---

(١) رواه مسلم، صحيح الجامع الصغير ج٢ ص ٨١٠.

(٢) الرازى، مفاتيح الغيب ج٨ ص ٦٢٩-٦٣٠.

(٣) الرازى، مفاتيح الغيب ج٨ ص ٦٢٩-٦٣٠.

١- نبذ الذل.

٢- نبذ الطغيان.

فعلي الحكام التنزه عن الطغيان علي العباد، وعلى المحكـومين ألا يركنـوا إلي الظـالمين فيصيبهم الذل والعذاب.فالاستقامة وسط بين الذل والطغيان.

وما أحسن ماكتبه بعض الناصحين للزهرى حين خالط السلاطين وهو: عافانا الله تعـالي وإياك،أبا بكر،من الفتن. فقد أصبحت بحال ينبغي لمن عرفك أن يدعو لك الله تعالي ويرحمك. أصبحت شيخا كبيرا وأثقلتك نعم الله تعالي،بما فهمك من كتابه وعلمك من سنة نبيك صلي الله تعالي عليه وسلم، وليس كذلك أخذ الله تعالي الميثاق علي العلماء... واعلم أن أيسر مـا ارتكبت وأخف ما احتملت أنك آنست وحشة الظالم وسهلت سبيل الغي بدنوك ممن لم يؤد حقا، ولم يترك باطلا،حين أدناك. اتخذوك قطبا تدور عليك رحي باطلهم، وجسرا يعـبرون عليك إلي بلائهم، وسلما يصعدون فيك إلي ضلالهم. يدخلون الشك بـك علـي العلمـاء، ويقتادون بك قلوب الجهلاء،فما أيسر ما عمروا لك في جنب ما خربوا عليك، وما أكثر مـا أخذوا منك فيما أفسدوا عليك من دينك،فما يؤمنك من الله... فإنك تعامل من لا يجهـل، ويحفظ عليك من لا يغفل،فأدى دينك فقد دخله سقم، وهيئ زادك فقد حضر السفر البعيد، وما يخفي علي الله من شئ في الأرض ولا في السماء والسلام..."[1]

ويأمر الله المؤمنين أن يستعينوا علي مقاومة الطاغين:-

١- المداومة علي الصلاة،حيث الحسنات يذهبن السيئات.

٢- والصبر علي أمر الله وعلي ظلم الطغاة،فإن الله لا يضيع أجر المحسنين.

٣- مفاصلة الكافرين في الأعمال، وإنذارهم بسوء المصير.

٤- تذكر مصائر المعاندين والاتعاظ بمصائرهم،مما يثبت أفئدتهم.

٥- القيام بواجبات العبودية لله، والتوكل عليه.

فلما أمر سبحانه بالإستقامة أردفه بالأمر بالصلاة، وذلك يدل علي أن أعظم العبادات بعد الإيمان بالله هو الصلاة.

" جاء رجل النبي ﷺ فقال: إني عالجت امرأة في أقصي المدينة، وإني أصبت منها مادون أن أمسها، وأنا هذا،فاقض في ما شئت. فقال له عمر: لقد سترك الله، لو سترت علي نفسك،فلم يرد عليه رسول الله ﷺ شيئا،فانطلق الرجل فأتبعه رسول الله ﷺ رجلا فدعاه،فتلا عليه:(**وَأَقِمِ**

(١) الألوسي، روح المعاني ج٧ ص ٣٤٧-٣٤٨.

الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ)، فقال رجل من القوم: هذه له خاصة ؟ قال: **بل للناس كافة.)**[١]

" وليس في النهار من الصلوات إلا الظهر والعصر، وباقيها في الليل،فزلف الليل ثلاث: في ابتدائه، وهي المغرب، وفي اعتدال فحمته، وهي المساء، وعند انتهائه وهي الصبح. وأما طرفا النهار فهما الدلوك والزوال وهو طرفه الأول، والدلوك الغروب،هو طرفه الثاني."[٢]

فلما كان العلم حاصلا بما سبق من الحكم من أن الآدمي محل العجز والتقصير،أتبع ذلك بأعلي مكفر لما يوجبه العجز ويقضي به الفتور والوهن من الصغائر، وأعمه وأجلبه للاستقامة. وذلك يدل علي أنها بعد الإيمان أفضل العبادات.. والطاعات كلها،الصلاة وغيرها،المبنية علي أساس الإيمان يذهبن السيئات،أى الصغائر، وأما الكبائر التي يعبر عنها بالفواحش ونحوه فقد تقدم في قصة شعيب عليه السلام عند قوله: **ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ**،أنه لايكفرها إلا التوبة، لما فيها من الإشعار بالتهاون بالدين، واجتنابها لا يكفر إلا إذا كان عن نية صالحة،كما أفهمه صيغة الافتعال من قوله: **إن تَجْتَنِبُوا**..

ولما تم هذا علي هذا الوجه الأعلي، والترتيب الأولي،قال تعالي مادحا له ليعرف مقداره فيلزم: **ذلك**،أى ذكر عظيم **لِلذَّاكِرِينَ**، أى لمن فيه أهلية الذكر والانتباه به بحضور القلب وصفاء الفكر ونفوذ الفهم.

ولما كان الصبر لله علي المكاره أعلي الطاعة،أتبع ذلك قوله: **وَاصْبِرْ**، أى ليكن منك صبر علي الطاعات وعن المعاصي، ولا تترك إنذارهم بما أمرت به،مهما كان ولا تخفهم،فإن العاقبة لك إذا فعلت، ولما كان مقام الصبر صعبا، والاستقامة علي المحمود منه خاصة خطرا، وكانت النفس لما لها من الجوع في كثير من الأحوال كالمنكر، أكد قوله: **فَإِنَّ** الصبر هو الإحسان كل الإحسان، وإن **الله** أى المحيط بصفات الكمال **لَا يُضِيعُ** أى بوجه من الوجوه **أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ** أى العريقين في وصف الإحسان،بحيث إنهم يعبدون الله كأنهم يرونه. فلذلك يهون عليهم الصبر، وذلك لأن الطاعة كلفة فلا تكون إلا بالصبر، وما عداها فهو هوى النفس، لا صبر فيه،فالدين كله صبر،كما قال رسول الله ﷺ:**حفت الجنة بالمكاره والنار بالشهوات.**[٣]

---

(١) الألباني، صحيح سنن الترمذى ج٣ ص ٦٢.

(٢) ابن العربي، أحكام القرآن ج٣ ص ١٠٦٨.

(٣) البخارى حديث ٥٢٦ البقاعي، نظم الدرر ج ٣ص٥٨٦ -٥٨٧.

وفي ختام السورة يأمر الله تعالى المؤمنين بالنهي عن الفساد في الأرض فيقـول تعـالى: ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ(١١٦)﴾

" بين الله تعالى أن الأمم المتقدمين حل بهم عذاب الإستئصال لسببين:-

١- أنه ماكان فيهم قوم ينهون عن الفساد في الأرض...وقوله تعالى: أُولُو بَقِيَّةٍ، أولو فضل وخير، وسمي الفضل والجود بقية لأن الرجل يستبقي مما يخرجه أجوده وأفضله..

٢- الترف، والترفة: النعمة، والمترف الذى أبطرته النعمة وسعة المعيشة. وأراد بالذين ظلموا تاركي النهي عن المنكرات،أى لم يهتموا بما هو ركن عظيم من أركان الدين وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واتبعوا طلب الشهوات واللذائد، واشتغلوا بتحصيل الرياسات...."[1]

ويأمرهم بمفاصلة الكافرين، وإنذارهم بالعذاب،فيقول تعالى: ﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ(١٢١)وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ(١٢٢)﴾

" يقول تعالى آمرا رسوله أن يقول للذين لا يؤمنون بما جاء به من ربه على وجه التهديد،اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ، أى على طريقتكم ومنهجكم،إِنَّا عَامِلُونَ، أى على طريقتنا ومنهجنا. وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ، أى فستعلمون من تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون. وقد أنجز الله لرسوله وعده ونصره وأيده وجعل كلمته هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، والله عزيز حكيم.

ويعظهم بحسن العبادة والتوكل عليه،فهو سبحانه عليم بما يعملون. يقول تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ(١٢٣)﴾

يخبر تعالى أنه عالم غيب السموات والأرض، وأنه إليه المرجع والمآب، وسيؤتي كل عامل عمله يوم الحساب،فله الخلق والأمر،فأمر تعالى بعبادته والتوكل،فإنه كاف من توكل عليه وأناب إليه.[2]

---

(١) الرازى، مفاتيح الغيب ج٨ ص ٦٣٣-٦٣٥.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ج٢ ص ٧٢٠.

" لما ختمت السورة التي قبلها بالحث علي اتباع الكتاب ولزومه والصبر علي ما يتعقب ذلك من مرائر الصبر المؤدية إلي مفاوز الخير اعتمادا علي المتصف بالجلال والكبرياء والكمال. ابتدئت هذه بوصفه بما يرغب فيه،فقال بعد الإشارة إلي إعادة القرع بالتحدى.. **كتَابٌ**، أى عظيم جامع لكل خير،ثم وصفه بقوله: **أُحْكِمَتْ**، بناه للمفعول بيانا لأن إحكامه أمر قد فرغ منه علي أيسر وجه عنه سبحانه وأتقن إتقانا لا مزيد عليه،**آيَاتُهُ**، أى أتقنت إتقانا لا نقص معه.. **ثُمَّ فُصِّلَتْ**: أى جعلت لها،مع كونها مفصلة إلي حلال وحرام وقصص وأمثال،فواصل ونهايات،تكون بها مفارقة لما بعدها وما قبلها،يفهم منه علوم جمة ومعارف مهمة وإشارات إلي أحوال عالية، وموارد عذبة صافية، ومقامات من كل علة شافية،كما تفصل القلائد بالفوائد."[1]

"وفي سورة يونس كان الكفار يستعجلون نزول العذاب،فذكر تعالي قصة نوح في بيان أن قومه كانوا يكذبونه بسبب أن العذاب ما كان يظهر،ثم في العاقبة ظهر...

وفي هذه السورة ذكر هذه القصة لأجل أن الكفار كانوا يبالغون في الإيحاش،فذكر الله تعالي هذه القصة لبيان أن إقدام الكفار علي الإيذاء والإيحاش كان حاصلا في زمان نوح، إلا أنه عليه السلام لما صبر نال الفتح والظفر...

ولما كان وجه الانتفاع بهذه القصة في كل سورة من وجه آخر لم يكن تكريرها خاليا من الفائدة.. فالقصة الواحدة ينتفع بها في عديد من الوجوه."[2]

ومن ثم فصلت سورة هود في قصص المرسلين،فيما عدا قصة موسي مع فرعون،فقد أوجزتها،حيث فصلتها في سورة يونس.

"ووجه اتصالها بسورة يونس عليه السلام أنه ذكر في سورة يونس قصة نوح عليه السلام مختصرة جدا مجملة،فشرحت في هذه السورة وبسطت فيها ما لم تبسط في غيرها من السور ولا سورة الأعراف علي طولها ولا سورة نوح التي أفردت لقصته،فكانت هذه السورة شرحا لما أجمل في تلك السورة، وبسطا له. ثم إن مطلعها شديد الارتباط بمطلع تلك. فإن قوله تعالي هنا: ﴿**الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ**﴾،نظير قوله تعالي هناك:﴿ **تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الحكيم**﴾.

---

(١) البقاعي، نظم الدرر، ج٣ ص ٤٩٨-٤٩٩.

(٢) الرازى، مفاتيح الغيب ج٨ ص ٥٤٨.

بل إن مطلع هذه وختام تلك فيه شدة ارتباط أيضا،حيث ختمت بنفي الشرك واتباع الوحي، وافتتحت هذه ببيان الوحي والتحذير من الشرك."[1]

(١) الألوسي، روح المعاني ج٦ ص ١٨٩.

بين سورتي يونس وهود

بعد أن انتهينا بحمد الله من السبع الطوال التي هي بديل التوراة كما بين رسول الله ﷺ. نشرع بفضل الله ورحمته في المائين التي هي بديل الإنجيل، والتوراة في أصلها تشريع ونظام، والإنجيل تربية وتهذيب للنفوس.

بينما اهتمت سورة الأنفال والتوبة بالولاء للمؤمنين والبراء من الكافرين من الناحية السياسية،نجد أن سورتي يونس وهود تهتم بالولاء لله وعدم الركون للظالمين من الناحية العقيدية.

ومن ثم شرع الله تعالي للأمة المسلمة أحكام الولاء والبراء مع الكافرين في سورتي الأنفال والتوبة، وفي سورة يونس وهود يربي المؤمنين سلوكيا ونفسيا علي الولاية لله وعدم الركون للظالمين.

ويصاحب التربية علي الولاية لله في سورة يونس تعميق معني التوكل علي الله،الذى نراه يتردد كثيرا بين جنبات السورة، ويصاحبها الدعوة للاستقامة علي أمر الله. بينما يصاحب التربية علي عدم الركون للظالمين تعميق معني عدم الركون للظالمين،الذى يتردد كثيرا بين جنبات السورة، ويصاحبها أيضا الدعوة إلي التوكل علي الله.

فمن جانب الولاء نجد في سورة يونس:

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ(٦٢)﴾

﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ(٦٨)﴾

في سورة هود:

عن نوح:**﴿ وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ(٢٩)﴾**

وعن هود:**﴿ يَاقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ(٥١)﴾**

وعن صالح:**﴿ قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَءَاتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ(٦٣)﴾**

وعن شعيب:**﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ(٨٨)﴾**

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ(١٢٣)﴾

من ناحية البراء نجد في سورة يونس:

﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ(٤١)﴾

﴿قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ(١٠٤)﴾

في سورة هود:

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ(٨٠)﴾

﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ(١١٣)﴾

﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ(١٢١)وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾

في كلا الحالتين يواجه المؤمنين الطغاة والمستكبرين،ففي سورة يونس:

﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ(٢٣)﴾

﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ(٩٠)﴾

﴿فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ(١١)﴾

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ(٧٨)﴾

﴿وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(٦٥)﴾

﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ(٨٣)﴾

في سورة هود، قالت قوم هود لنبيهم:

﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ(٢٧)﴾

وقال قوم شعيب لنبيهم: ﴿ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ(٩١)﴾

وفي وصف الكافرين: ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ(١١٦)﴾

﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ(٥٩)﴾

في سورة يونس دعوة للاستقامة:

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ(٨٩)﴾

﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ(١٠٥)﴾

في سورة هود:

﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(٥٦)﴾

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

النهي عن الفساد نجده في سورة يونس:

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ(٤٠)﴾.

وفي سورة هود:

﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ(٨٥)﴾

في سورة يونس دعوة للاستعانة علي ذلك بالصبر وبالصلاة:

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ(١٠٩)﴾

﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ(٨٧)﴾

في سورة هود:

﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ(١١)﴾

﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ(١١٥)﴾

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ(٤٩)﴾

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ(١١٤)﴾

لما كان الولاء لله تتضح صورته العظمي في التوكل،نجد في سورة يونس شـــرح لحقيقـــة التوكل:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ(٧١)﴾

﴿وَقَالَ مُوسَى يَاقَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ(٨٤) فَقَـــالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ(٨٥)وَنَجِّنَـــا بِرَحْمَتِـــكَ مِـــنَ الْقَـــوْمِ الْكَافِرِينَ(٨٦)﴾

﴿قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ(١٠٨)﴾

في سورة هود:عن هود عليه السلام:

﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّـــي عَلَـــى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(٥٦)﴾

وعن شعيب عليه السلام:﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ(٨٨)﴾

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّـــكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ(١٢٣)﴾

وتبين كلا السورتين أن الناس أصلا أمة واحدة ولكن اختلفوا، والناجون هـــم المؤمنـــون مهما كان عددهم، والهالكون هم الكافرون سنة ماضية. ففي سورة يونس:

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَـــذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ(٩٨)وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ(٩٩)﴾

في سورة هود:

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ(١١٦) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (١١٧) وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُـــونَ مُخْتَلِفِينَ(١١٨)إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ(١١٩)﴾

تأويل الأحاديث
كما تبينه
سورة يوسف
(عليه السلام)

تأويل الأحاديث
كما تبينه سورة يوسف (عليه السلام)

مقدمة

تلمس هذه السورة نوعا آخر من الظلم،فقد كان الظلم في سورة يونس وهود ظلم الطغاة الكافرين للمستضعفين من المؤمنين،أما هنا فالظلم يظهر في الأسرة بين الإخوة، وفي المجتمع من البطانة الحاكمة.

ويظهر الظلم في الأسرة بين الإخوة غير الأشقاء، وحسد بعضهم لبعض بدعوى تفضيل الأب لأحدهم. فتتفاعل في داخل النفس مشاعر الغيرة، ويتولد عنها عناصر السخط،التي قد تصل إلي الجريمة. وهذا هو الواقع الذى نشأ فيه يوسف عليه السلام في حضن أسرته بالشام. حيث يحدثنا القرآن الكريم عن إخوته غير الأشقاء فى قوله تعالى:

﴿ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ(٨) اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ(٩)﴾

ويفحش الظلم من الأسرة إلي المجتمع،حين تطلب امرأة العزيز من يوسف أن يرتكب الفحشاء. وفي ذلك ظلم أيما ظلم لأوامر الله تعالي التي تنهي عن الزنا وتمقته. وظلم من العزيز بإغضائه عن عرضه وإبقائه للاختلاط رغم إصرار زوجته،ثم أخيرا بإلقاء يوسف في السجن رغم براءته وحفاظه علي عرضه. وهنا يظهر دور خطير للمرأة حيث الأزواج الكبار في شغل عن زوجاتهم، ويشيع كيد النساء. وحيث يسود المجتمع لون من التسيب الأخلاقي والتساهل الجنسي، والاختلاط المكشوف.

وتتجاوز السلطة عن العدل لتحمي مكاسبها غير الشرعية ومخازيها غير الشريفة،فيطغي الملأ من مراكز القوة بالسلطان، وهنا يفتح باب السجن لتكميم الأفواه وتقييد الحريات وستر العورات. وهذا ما كان عليه حال المجتمع الذى تربي فيه يوسف عليه السلام وبلغ أشده.

وهنا تتفشي في الأسرة والمجتمع الدسائس والمؤامرات، ويسرى بين الناس المكايد والمكر. وهذا الكيد رأيناه ليوسف: من إخوته حسدا، ومن امرأة العزيز فجورا، ومن الملأ من أكابر الدولة طغيانا.

من زاد التوكل علي الله يستعين المؤمن بالصبر علي الابتلاء. والصبر هنا لــه مواصــفات خاصة،فهو في سورة يوسف صبر جميل. يقول تعالي:

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ(١٨)﴾

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ(٨٣)﴾

يقول رسول الله ﷺ:

عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن،إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له.[١]

ما أعطي أحد عطاء خيرا له وأوسع من الصبر.[٢]

والصبر قد يكون جميلا وقد يكون غير جميل،فالصبر الجميل هو التسليم لله تعالي والرضا بما قضي، واليقين بأن ذلك لحكمة أرادها تعالي، وأن يستعين بالله علي التحمــل،فلا شــكوى ولاضجر، وإنما دعاء لله تعالي أن يكشف البلاء.

" والصبر من الإيمان بمترلة الرأس من الجسد، ولا إيمان لمن لاصبر له،كما أنه لا جسد لمن لا رأس له. والصبر علي ثلاثة أنواع: صبر بالله، وصبر لله، وصبر مع الله.

فالأول: الاستعانة به، ورؤيته أنه هو المصبّر، وأن صبر العبد بربه لا بنفسه.

والثاني: الصبر لله، وهو أن يكون الباعث له علي الصبر محبة الله، وإرادة وجهه، والتقرب إليه لا لإظهار قوة النفس، والاستحمد إلي الخلق.

والثالث: الصبر مع الله، وهو دوران العبد مع مراد الله الــديني منــه، ومــع أحكامــه الدينية،صابرا نفسه معها،سارا بسرها،مقيما بإقامتها،يتوجه معها أين توجهت ركائبها، ويترل معها أين استقلت مضاربها."[٣]

" واعلم أن العبد لا يستغني عن الصبر في كل حال من الأحوال، وذلك أن جميع ما يلقي العبد في الدنيا علي ضربين:

١- ما يوافق هواه من الصحة والسلامة والمال والجاه وكثرة العشيرة والأتباع، وجميــع ملاذ الدنيا،فالعبد محتاج إلي الصبر في جميع هذه الأمور. فلا يكن إليها، ولاينهمك في التلــذذ

---

(١) مسلم ج٤ ص ٦٤.

(٢) البخارى ج٢ حديث ٣٧٩٢.

(٣) ابن القيم، مدارج السالكين ج٢ ص ١٥١-١٥٢.

بها، ويراعي حق الله تعالي في ماله بالإنفاق، وفي بدنه بالمعونة الحق ... فالرجل كل الرجل من يصبر علي العافية..

٢- ما يخالف هواه، وهو علي ثلاثة أقسام:

أ- الطاعات،فيحتاج العبد إلي الصبر عليها، لأن النفس بطبعها تنفر عن العبودية.. ثم من العبادات ما يكره بسبب الكسب كالصلاة، ومنها ما يكره بسبب البخل كالزكاة، ومنها ما يكره بسببهما جميعا كالحج والجهاد.

ب- الصبر علي المعاصي..

ج- ما لايدخل تحت الاختيار كالمصائب.. وقريب منه الصبر علي أذى الناس."[١]

قال مجاهد: فصبر جميل،أي من غير جزع، وقال الثورى: من الصبر أن لاتحدث بوجهك ولا بمصيبتك ولاتزكي نفسك.

" والشكوى إلي الله عز وجل لا تنافي الصبر،فإن يعقوب عليه السلام وعد بالصبر الجميل، والنبي إذا وعد لايخلف،ثم قال:.. وإنما ينافي الصبر شكوى الله، لا الشكوى إلي الله."[٢]

والصبر علي قضاء الله واجب،فأما الصبر علي ظلم الظالمين، ومكر الماكرين،فغير واجب. بل الواجب إزالته لاسيما في الضرر العائد إلي الغير."[٣]

وكان مقام الرجاء في سورة يوسف عليه السلام ظاهرا في نفس يعقوب عليه السلام حين قال لأولاده في القرآن الكريم:

﴿ يَابَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ(٨٧)﴾

بينما كان اليأس غالبا علي طبع إخوة يوسف. يقول تعالي ؟**﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِياً قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقاً مِّنَ اللَّهِ ومن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وهُوَ خَيْرُ الحَاكمينَ (٨٠)﴾**

ويبين تعالي في ختام السورة قانونه الذى لا يتغير: **﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ ولا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ القَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١١٠)﴾**

وتردد في سورة يوسف:

﴿ والله غالب علي أمره ولكن أكثر الناس لايعلمون﴾

---

(١) ابن قدامة، مختصر منهاج القاصدين ص ٢٩٦-٢٩٧.

(٢) ابن القيم، مدارج السالكين ج٢ ص ١٥٥.

(٣) الرازى، مفاتيح الغيب ج ٩ ص ٩.

﴿ ذلك من فضل الله علينا وعلي الناس ولكن أكثر الناس لايشكرون﴾
﴿ وإنه لذو علم لما علمناه ولكن أكثر الناس لايعلمون﴾

اذا اعتمد الإنسان علي الكثرة في المال أو الولد أو النفر فقد اعتمد علي غير الله. ويلاحظ أن أكثر الناس إما واحد من كثرة أو قائد لكثرة. ولو وضع الناس والدنيا كلها في كفة وكان الله مع عبد له واحد في كفة لرجحت كفته.

ترى ذلك علي مدار القصة،فالأخوة الذين أجمعوا ومكروا لإبعاد أخيهم،كان قوتهم من بين يديه أوفي لهم الكيل وتصدق عليهم وكان لهم خير المنزلين. ودخلوا في طاعته ساجدين وقد أتاه الله الملك والسلطان.

وقد كان من أواخر دعاء يوسف عليه السلام:**أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلما وألحقني بالصالحين** * سيرا علي ملة إبراهيم الذى وصي: **يابني إن الله اصطفي لكم الدين فلاتموتن إلا وأنتم مسلمون** * وكان دعاؤه: **رب هب لي حكما وألحقني بالصالحين** *

لقد جاء الفعل يئس وتراكيبه ثلاث عشرة مرة في القرآن،منهاأربعة في سورة يوسف وحدها، ومن الأربعة اثنتان لم تردا في غير سورة يوسف وهما الفعل استيأس.

واليأس هو الظن بأن شيئا نافعا لن يحدث أو لن يصل الإنسان إليه، وهو يأس من روح الله أو يأس من رحمة الله.

أما الاستيئاس فهو شكل آخر تماما. فمع عدم اليأس من روح الله أو من رحمة الله،فإننا قد نواجه بحقيقة لامجال لتغييرها أو ليس في الوسع تغييرها الآن. فعندئذ نسلم الأمر الله.

عبرة التاريخ

وتقدم هنا سورة يوسف العبرة في قصة حقيقية واقعية،تتحدث عن مسيرة الإسلام عبر التاريخ حديث صدق،تبين تصديق الرسل والكتب لبعضها في موضوعها ووسائلها وغاياتها. وفي تمييز الخير من الشر والحلال من الحرام والهدى من الضلال،في منارات يهتدى بها العباد فتعمهم رحمة الله. وهنا ليس المقصود من سرد القصة إثبات وقائع تاريخية تكتب تفصيلاتها، ولاحقائق جغرافية عن بلد يعقوب ومنزل يوسف عليهما السلام، وليس مجرد البحث عن الحبكة الفنية والدراسة الأدبية لها كقصة،فهذه أمور ظنية ومتشعبة وتختلف فيه الآراء ولاتقصد السورة أساسا إليها،إنما المقصود بالتفسير هنا أخذ الحكمة من أحداثها بالتعرف علي قدر الله،

وأخذ العبرة من نتائجها، والاهتداء بحقائقها في طاعة الله. وهذا هو الذى يميز قصص القرآن عن غيره من القصص في كل الكتب.

" وأفردت هذه السورة على حدها و لم تنسق على قصص الرسل مع أنهم في سورة واحدة لمفارقة مضمونها تلك القصص. ألا ترى أن تلك قصص إرسال من تقدم ذكرهم عليهم الصلاة والسلام وكيفية تلقى قومهم لهم وإهلاك مكذبيهم،أما هذه القصة لحاصلها فرج بعد شدة وتعريف بحسن عاقبة الصبر،فأنه تعالى امتحن يعقوب عليه الصلاة والسلام بفقد ابنيه وبصره وشتات بنيه، وامتحن يوسف عليه الصلاة والسلام بالجب والبيع وامرأة العزيز، وفقد الأب والأخوة والسجن،ثم امتحن جميعهم بشمول الضر وقلة ذات اليد.. ثم تداركهم بالفهم وجمع الشمل ورد بصر أبيهم وائتلاف قلوبهم ورفع ما نزغ به الشيطان وخلاص يوسف عليه الصلاة والسلام من كيد من كاده، واكتنافه بالعصمة وبراءته عند الملك والنبوة، وكل ذلك مما أعقبه جميل الصبر وجلالة اليقين فى حسن تلقى الأقدار بالتفويض والتسليم على توالى الامتحان وطول المدة،ثم انجر فى هذه القصة الجليلة من العجائب والعبر،فقد انفردت هذه القصة بنفسها و لم تناسب ما ذكر من قصص نوح وهرد وصالح ولوط وشعيب وموسى عليهم الصلاة والسلام وما جرى فى أممهم،فلهذا فصلت عنهم، وقد أشار فى سورة برأسها إلى عاقبة من صبر ورضى وسلم ليتنبه المؤمنون على ما فى طي ذلك.

وكما بدأت السورة بالرؤيا،فقد ختمت بتأويلها. وقد جاء في البداية بعد ذكر القرآن آية: **﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ.﴾**

وفي نهاية السورة يقول تعالي: **﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(١١١)﴾**

إنه نفس حديث الصحيح من الكتب السالفة التي أنزلت علي المرسلين،فيه تفصيل لكل مايحتاجه البشر من الهداية للسير علي الصراط المستقيم، من بيان عن المبدأ والمعاد، وذكر للحلال والحرام، والمستحب والمكروه، ومعرفة الرب سبحانه وتعالي بآلائه وأسمائه، ووصف الآخرة في نعيمها وعذابها. وبذلك يخرج من آمن به من الضلال إلي الهدى، وينجيهم من العذاب ويحيطهم برحمته وعنايته.

ومن المعلوم أن المقصود من القصص ليس التسلية،فهو أحسن القصص حيث المقصود منه العبرة والهداية، ومن هنا تفتتح السورة بقوله تعالي: **﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾**، وتختم بقوله تعالي: **﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ**

مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(١١١)﴾

"والاعتبار والعبرة: الحالة التي يتوصل بها الإنسان من معرفة المشاهد إلي ماليس بمشاهد. والمراد منه التأمل والتفكير. ووجه الاعتبار بهذه القصة أن الذى قدر علي إخراج يوسف من الجب بعد إلقائه فيه، واخراجه من السجن وتمليكه مصر بعد العبودية، وجمع شمله بأبيه وإخوته بعد المدة الطويلة، واليأس من الاجتماع،قادر علي إعزاز محمد ﷺ وإعلاء كلمته، وإظهار دينه. وإن الإخبار بهذه القصة إخبار عن الغيوب وحاصلها الفرج بعد الشدة وتعريف بحسن عاقبة الصبر،فإنه تعالي امتحن يعقوب عليه السلام بفقد ابنيه وبصره، وشتات بنيه، وامتحن يوسف عليه السلام بالجب والبيع وامرأة العزيز وفقد الأب والأخوة والسجن، وامتحن الكل بالشدة والضر،ثم تداركهم الله بالفهم، وجمع شملهم ورد بصر أبيهم وائتلاف قلوبهم، ورفع مانزغ به الشيطان، وخلاص يوسف عليه السلام،ثم استخلاص العزيز إياه.

ويدل ذلك علي أمور:

أ- أن القصص القرآن أحسن القصص...وكيف لايكون أحسن القصص وقصة زليخا مع يوسف عليه السلام توجه كل نفس إلي كل طهر وقدس. بما ضرب الله سبحانه من المثل في جهاد الصديق مع نفسه. وفي مقاومته لبنات جنسها..

وهذه السورة نفسها تصوره سجينا في الحق بعد أن ألقي في غيابة السجن. وانتهي به صبره وطهارته إلي رسالة سامية وملك عريض. عفا فيه عن كل من أراده بسوء. وأحسن فيه إلي كل مسئ حاسد حقود. وكان شعاره مع الجميع..:**لاتثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم.**

ب-هذا القصص كغيره من القصص القرآني عبرة لأولي الألباب. واستصلاح لذوى النفوس الكريمة دون النفوس الغادرة اللئيمة. وجدير به أن يكون عبرة لأولي الألباب وقد قلب أوضاع العرب، وأحدث فيهم ثورة علي كل الرعونات، وعدولا عن الحماقات والانحرافات.

ح- ليس حديثا مفترى... لأنه حق لايتطرق إليه الريب. فليس تخيلات ولاخرافات.

د- هذا الحديث تصديق الذى بين يديه من كتب الله السماويةالتي لم تصل إليها يد البشر بالتحريف والتعديل. والتي لاتختلف بعضها عن بعض فيما تورده من هداية إلا بما تختلف به في بعض الأحكام لاختلاف الظروف والملابسات مسايرة لمصالح الناس...."[1]

(١) السيد عبد الحافظ عبد ربه، بحوث في قصص القرآن ص ١٦١-١٦٣ دار الكتاب اللبناني .

هـ- وأيضا تفصيل كل مايحتاج إليه العباد من بيان أمر الله ونهيه وحلاله وحرامه وطاعته ومعصيته.

و- وهدى ورحمة: رشاد من جهل سبيل الحق ورحمة لمن آمن به وعمل به». لقوم يصدقون بالقرآن وبما فيه من وعد ووعيد وأمر ونهي.

والعبر المستخلصة من قصة يوسف عليه السلا م يمكن إيجازها فيما يلي:

١-عاقبة الحسد الخذلان:

ملأ الحسد قلوب إخوة يوسف، فقالوا لابد من تبعيد يوسف عن أبيه، وذلك لايحصل إلا بأحد طريقين: القتل،أو التغريب إلي أرض يحصل اليأس من اجتماعه مع أبيه، ولاوجه في الشر يبلغه الحاسد أعظم من ذلك.

ثم ذكروا العلة: أن يوسف شغله عنا وصرف وجهه إليه فإذا أفقده أقبل علينا بالميل والمحبة... ثم إنهم علموا أن ذلك الذى عزموا عليه من الكبائر فقالوا: إذا فعلنا ذلك تبنا إلي الله ونصير من القوم الصالحين....

وفي النهاية لما مكن الله ليوسف بتقواه وصبره، وأحوج إليه إخوته، حكي القرآن خذلانهم في قوله تعالي: **﴿ قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ (٩١)﴾**

قال بعض الحكماء: إياكم والحسد،فإن الحسد أول ذنب عصي الله تعالي به في السماء، وأول ذنب عصي الله تعالي به في الأرض. فأول ذنب عصي الله تعالي به في السماء كان من إبليس حسد آدم فأبي أن يسجد فلعنه الله تعالي. وأما الذى عصي الله تعالي به في الأرض،فهو قابيل بن آدم حين قتل أخاه هابيل حسدا لما تقبل قربان آخيه و لم يتقبل منه...

وعن رسول الله ﷺ:

(لاحسد إلا في اثنتين: رجل علمه الله القرآن،فهو يتلوه آناء الليل وآناء النهار،فسمعه جار له فقال: ليتني أوتيت مثل ماأوتي فلان،فعملت مثل مايعمل، ورجل آتاه الله مالا،فهو يهلكه في الحق،فقال رجل: ليتني أوتيت مثل ماأوتي فلان،فعملت مثل مايعمل.)[1]

(١) الألباني، صحيح الجامع الصغير ج٢ ص ١٢٤٦.

٢-العفة:

السورة حين قصت علينا المحنة التي مر بها الشاب الورع يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز،تعطي الدرس لكل شاب ليستعف عن محارم الله حين يرى موقف يوسف عليه السلام رغم ضعفه، واستعاذته رغم عدم إحصانه بالله تعالي مما تدعوه المرأة إليه من فاحشة، وهو عبد مملوك لايملك أن يواجه هذه القوة دون أذى، ومراقبته لله تعالي في تلك الخلوة التي فرضت عليه فرضا. و لم يكن يوسف عليه السلام هدفا لإغراء امرأة العزيز وحدها بل صار هدفا لإغراء نسوة المدينة حين ذاعت القصة،حتي جأر يوسف بالدعاء إلي الله خوفا من أن يصب إليهن،حتي ولو كان دخول السجن سببا لصرف هذا الخطر عنه.

يقول تعالي: **﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤)﴾**

٣-الصالح العام:

من العبر المستخلصة من السورة أن يوسف عليه السلام قدم المصلحة العامة علي مصلحته الخاصة، وترفع عن جروح الظلم والغبن التي حلت به رعاية لمصلحة الأمة. فأجاب الرسول مباشرة وأعطاه دون تردد حل الأزمة التي أوشكت أن تحيق بالأمة.

أما عندما دعاه الملك إلي معيته تكريما له،هنا طلب تبرئته من التهمة البشعة التي ألصقت به أولا وقبل أى تكريم، وهي عزة نفس المؤمن، وحرصه علي نقاء ذكراه قبل الجاه والمال،يقول تعالي: **﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥٠) قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢)﴾**

٤- الأمانة والتمكين:

لايسنطيع العامل أن يقوم بعمله ما لم يعط صلاحيات للقيام به. وأولي هذه الصلاحيات إعطائه القدرة علي اتخاذ القرار،ثم استئمانه علي مايقوم به من مهام. وأى اهتزاز لصفة من

ذلك تعوق استخدام العامل لإمكانياته، وتحكم علي النتائج بالقصور والفشل. وهذه الصلاحيات يجمعها قول الله تعالي علي لسان الملك ليوسف عليه السلام﴿ **إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤)**﴾. هذا بالنسبة لرب العمل،أما بالنسبة للعامل فلابد أن يتحلي بصفات تؤهله لعمله لخصها الحق تبارك وتعالي في قول يوسف عليه السلام: ﴿**قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ(٥٥)**﴾. بمعني أن يكون العامل قادرا علي تخزين الأشياء والمعلومات واستدعائها، وترتيبها،ثم يكون له من القدرة علي التعرف عليها وتحليلها والتنبؤ بها.

" ولابد في كونه مكينا من القدرة والعلم. أما القدرة فلأن بها يحصل المكنة. وأما العلم فلأن كونه متمكنا من أفعال الخير لايحصل إلا به،إذ لو لم يكن عالما بما ينبغي وبما لاينبغي لايمكنة تخصيص ماينبغي بالفعل، وتخصيص مالاينبغي بالترك،فثبت أن كونه مكينا لايحصل إلا بالقدرة والعلم.

أما كونه أمينا فهو عبارة عن كونه حكيما لايفعل لداعي الشهوة،بل إنه يفعله لداعي الحكمة.

فثبت أن كونه مكينا أمينا يقال علي كونه قادرا، وعلي كونه عالما بمواقع الخير والشر والصلاح والفساد، وعلي كونه بحيث يفعل لداعي الحكمة لالداعية الشهوة وكل من كان كذلك فإنه لايصدر منه فعل الشر والسفه...

ويكون العامل حفيظا بجميع الوجوه التي منها يمكن تحصيل الدخل والمال، وعليم بالجهات التي تصلح لأن يصرف المال إليها. وحفيظ بجميع مصالح الناس،عليم بجهات حاجاته. "[(١)]

ومن هنا كان واجب ولي الأمر أن يستوثق من علم وخبرة من يقلده أمرا من الأمور أو يحمله مسؤولية من المسئوليات وأن يراعي الله في اختيار موظفيه، وأن يضع الأمانة والعلم والخبرة والصدق وحسن السيرة والسلوك وبراءة الذمة من كل مايشين الإنسان. عليه أن يضع كل ذلك نصب عينيه حين اختيار المرشحين للعمل قبل تعيينهم،فيستعين بأهل العلم والخبرة والعدل لابأهل اللوع والنفاق وخراب الذمة.

يقول تعالي: ﴿**وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ(٥٤)قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ(٥٥) وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا**

(١) الرازى، مفاتيح الغيب ج٨ ص ٨٤،٨٧.

لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ(٥٦)وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ(٥٧)﴾

٥- العفو والمغفرة:

من عبر السورة أن يتخلق المؤمن بالعفو وأن يرتفع عن الحقد وتصفية الحسابات حين يحدثنا القرآن عنه بعد مواجهة إخوته بما فعلوه فيقول.﴿ **قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ(٩٢)﴾**

موضوع السورة

وكما علم سبحانه وتعالي آدم الأسماء كلها، وعلم داود صنعة لبوس، وعلم سليمان منطق الطير، وآتي واحدا من ملئه علم الكتاب،علم يوسف من تأويل الأحاديث. وقد وردت عبارة تأويل الأحاديث.

يقول القرطبي: تأويل الأحاديث: أى أحاديث الأمم والكتب ودلائل التوحيد،فهو إشارة إلي النبوة. (١)

ويقول الرازى:" تأويل الأحاديث: علي وجوه:-

١- المراد منه تعبير الرؤيا،سماه تأويلا لأنه يئول أمره إلي مارآه في المنام،يعني تأويل أحاديث الناس فيما يرونه في منامهم.. قالوا: إنه عليه السلام كان في علم التعبير غاية.

٢- تأويل الأحاديث في كتب الله تعالي والأخبار المروية عن الأنبياء المتقدمين،كما أن الواحد من علماء زماننا يشتغل بتفسير القرآن وتأويله، وتأويل الأحاديث المروية عن رسول الله ﷺ.

٣- الأحاديث جمع حديث، والحديث هو الحادث، وتأويلها مآلها، ومآل الحوادث إلي قدرة الله تعالي وتكوينه وحكمته (٢).

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ج٤ ص٣٣٥٨.

(٢) الرازي، مفاتيح الغيب ج ٨ ص ٦٥٣.

١- علم الكتاب

ورث يوسف عليه السلام من آبائه يعقوب وإسحق وإبراهيم علم تأويل الكتاب، وقد وصله دون شك صحف إبراهيم. يقول تعالي علي لسان يعقوب عليه السلام: ﴿ **وكَذَلكَ يَجْتَبيكَ رَبُّكَ ويُعَلِّمُكَ من تَأْوِيلِ الأَحَاديث ويُتمُّ نعْمَتَهُ عَلَيْكَ وعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إبْرَاهِيمَ وإسْحَاقَ إنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦)** ﴾

فمن معاني تأويل الأحاديث: معرفة معاني كتب الله وسنن الأنبياء، وماغمض واشتبه علي الناس من أغراضها ومقاصدها،يفسرها لهم ويشرحها ويدلهم علي مواضع أحكامها. والدليل علي ذلك أن الله يتم نعمته بها، والنعمة هي نعمة النبوة، ومن موجباتها العلم بتأويل الكتب والسنن الإلهية.

يتضح هذا من انتهاز يوسف عليه السلام الفرصة في السجن للدعوة إلي الله. يقول تعالي علي لسان يوسف عليه السلام: ﴿ **قَالَ لا يَأْتيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانه إلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بتَأْويله قَبْلَ أَن يَأْتيكُمَا ذَلكُمَا ممَّا عَلَّمَني رَبِّي إنِّي تَرَكْتُ ملَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمنُونَ باللَّه وهُم بالآخرَة هُم كَافرُونَ (٣٧) واتَّبَعْتُ ملَّةَ آبَائي إبْرَاهيمَ وإسْحَاقَ ويَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ باللَّه من شَيْءٍ ذَلكَ من فَضْلِ اللَّه عَلَيْنَا وعَلَى النَّاسِ ولَكنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (٣٨) يَا صَاحبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الوَاحدُ القَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ من دُونه إلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بهَا من سُلْطَان إن الحُكْمُ إلاَّ للَّه أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إلاَّ إيَّاهُ ذَلكَ الدِّينُ القَيِّمُ ولَكنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ (٤٠)** ﴾

٢- تأويل الأحاديث

إن من نعم الله تعالي علي الإنسان هو ما أوهبه من قدرة علي التفكير،يستطيع بها أن يكتشف كثيرا من أسرار الكون والحياة. فعن طريق ربط الأسباب بالمسببات والنتائج بالمقدمات يعرف القوانين ويستنتج الأحداث. وهذه القدرة تمكنه إلي حد كبير من حل كثير من المشاكل والتحكم في كثير من الظواهر وعلاج كثير من السلبيات ووضع الخطط للمستقبليات.

وهذه القدرات العقلية تعتمد علي العناصر التالية:

١- هبة فطرية تهيئه للقدرة علي تأويل الأحاديث.

٢- قدرة كسبية تصقل هذه الفطرة وتستثمرها.

٣- توفيق من الله يفتح للعقل أسرار الكون والحياة.

وعلم تأويل الأحاديث أوسع بكثير من تفسير الأحلام. فإذا كانت الأحلام رؤى،فإن الأحاديث في اليقظة واقع. والواقع ينبؤك بأكثر من الرؤى بكثير. والإنباء لغة هو ما لا يعرفه الإنسان من أمر يخفي عنه. وتحصل المعرفة عن طريق علم الغيب، وهو من خاصة علوم الله، ولامجال لأحد فيه، أو من علم التأويل وهو ماتدور عنه آيات سورة يوسف.

والفكرة فيه أن أمور الكون تدار وفق نظام دقيق ومسارات مرسومة،فإن أحطت نفسك بما يدور في مسألة معينة بشكل كاف،فربما تتمكن من أن تتقدم في هذه المسألة خطوة إلي الأمام فتقول عما سوف يدور.

وهو علم نستخدمه كثيرا في حياتنا،إلا أننا لم نتفق بعد علي تعريفه وعلي مضمونه وعلي سبل اكتسابه. فنحن نتكلم عن التنبؤات الجوية، والتنبؤات الاقتصادية، والسياسية والاجتماعية، وذلك عن طريق الإحاطة الشاملة للمتغيرات عبر سلسلة زمنية. ثم نقول عند كل فعل إننا نتنبأ بأن يكون رد الفعل هو كذا وكذا. ويكمن النجاح في ترتيب الأحداث السابقة بحيث نحصي مابين الفعل ورد الفعل من ارتباط، وفي الحساب الدقيق لجميع المتغيرات، وفي الرؤية النافذة، وذلك كله لأخذ الفعل خطوة إلي الأمام.

وبمجرد المقارنة،فإننا نستطيع أن نقول بإحكام بالغ متي يبزغ القمر، ومن أى اتجاه، وكيف يكون منزله، وكيف يكون مساره، ومتي يكون أفوله. ونحن نستطيع أن نقول ذلك لأن للقمر مسارا ثابتا، وأننا تتبعناه آلاف وآلاف المرات حتي تيقنا من ذلك المسار تماما،بحيث إننا نستطيع أن نحكي عن حاضره وعن مستقبله،بدون أن يكون لذلك دخل بعلم الغيب."[1]

كان ذلك واضحا في حل الأزمة الاقتصادية في مصر، علي يد يوسف عليه السلام،حيث سيعتمد يوسف عليه السلام علي علمين: تعبير الرؤية و تأويل الأحاديث.

يقول تعالي: **﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (٤٦) قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ (٤٨) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (٤٩)﴾**

" والتخطيط الجيد هو ذلك التخطيط الذى يهدف لصالح الدولة في الوقت الذى تنعكس آثاره الطيبة علي المجتمع كله دون استثناء، والتخطيط المعتمد كل الاعتماد علي المعلومات

---

(١) أحمد حسن رضوان، مسائل في تأويل الأحاديث ص ١١٠.

والبيانات الصادقة عن الإمكانات المتاحة للتنبؤ المستقبلي،مرحلي أو غير مرحلي،طويل الأمد أو قصير. كما أن نجاح الخطة متوقف علي وضوح الهدف ومعرفة الصعوبات والمشاكل. فوضوح الهدف يسهل الوصول إليه ومعرفة المشكلة تشكل نصف حلها...

وعليه فإن هذه السورة تنبئ عن المشكلة ألا وهي سنوات القحط، وتقدم الإمكانات المتاحة في سنوات النماء والخير، وتنوه إلي الوسيلة وهي الجد والادخار، وترشد إلي الهدف وهو تخطي الأزمة الاقتصادية. أما مصادر هذه المعلومات والبيانات فأصدق المصادر،كيف لا، وقد صدرت عن العليم الخبير،عالم الغيب والشهادة.. حين ألهم ملك مصر مناما في رؤياه،رمزا وتلميحا، لاتصريحا، ليكون منهج الله الذى ألهم به يوسف عليه السلام، وليتم نعمته كما أتمها علي أبويه من قبل."(1)

وتجلت عبقريته عليه السلام في معالجة المشكلة الاقتصادية التي أصابت مصر. فمن جهة قاده علمه وتدبيره أن يخطط للاستثمار الدائب في سني الرخاء، وأن ينظم الادخار الضرورى من سني الرخاء لسني الشدة والأزمة، وأن يراقب الاستهلاك الرشيد في السبع السنين العجاف. وهذه السياسات الاقتصادية،هي الأهداف الرئيسية لأى خطة لمواجهة الأزمات والكساد في أى دولة متقدمة.

٣- تأويل الرؤيا

لقد شغلت الرؤيا موقعا هاما في السورة في أولها ووسطها وآخرها، وكانت هي مفتاح التغيرات الكبيرة في حياة يوسف عليه السلام.

أيد الله يوسف عليه السلام بمعجزة تأويل الرؤيا،بدأت بها السورة وانتهت بها. فإن يوسف عليه السلام أعبر الناس للرؤى، وكان ذلك هو معجزة يوسف عليه السلام التي يتحدى بها المعاندين في مواجهة عصره الذى يهتم بهذا النوع من التفكير.

كان ذلك في رؤياه أولا لأحد عشر كوكبا والشمس والقمر له ساجدين.

يقول تعالي: ﴿ **إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً والشَّمْسَ والْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (٤) قَالَ يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٥) وكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ويُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ**

(1) د. نواف الحليس، المنهج الاقتصادى في التخطيط لنبي الله يوسف عليه السلام ص ١٨-١٩ طبعة ثانية ١٩٩٠الرياض.

الأَحَاديث ويُتمُّ نعْمَتَهُ عَلَيْكَ وعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إبْرَاهِيمَ وإسْحَاقَ إنَّ رَبَّكَ عَليمٌ حَكيمٌ (٦)﴾

وفي وسط السورة تأويل رؤيا صاحبي السجن الذى سقي أحدهما ربه خمرا والآخر الذى أكلت الطير من خبز يحمله علي رأسه.

يقول تعالي: **﴿ ودَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فتَيَان قال أَحَدُهُمَا إنِّي أَرَاني أَعْصرُ خَمْراً وقَالَ الآخَرُ إنِّي أَرَاني أَحْملُ فَوْقَ رأْسي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ منْهُ نَبِّئْنَا بتَأْويله إنَّا نَرَاكَ منَ الْمُحْسنينَ (٣٦) قَالَ لا يَأْتيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانه إلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بتَأْويله قَبْلَ أَن يَأْتيَكُمَا ذَلكُمَا ممَّا عَلَّمَني رَبِّي إنِّي تَرَكْتُ ملَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمنُونَ باللَّه وهُم بالآخرَةِ هُمْ كَافرُونَ (٣٧)﴾**

وفي آخر السورة في تأويل رؤيا فرعون الذى رأى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف.

يقول تعالي: **﴿وقَالَ المَلكُ إنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَات سمَان يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عجَافٌ وسَبْعَ سُنْبُلات خُضْرٍ وأُخَرَ يَابسَات يَا أَيُّهَا المَلأُ أَفْتُوني في رُءْيَايَ إن كُنتُمْ للرُّءْيَا تَعْبُرُونَ (٤٣) قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلام ومَا نَحْنُ بتَأْويلِ الأَحْلامِ بعَالمينَ (٤٤) وقَالَ الَّذي نَجَا منْهُمَا وادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّة أَنَا أُنَبِّئُكُم بتَأْويله فَأَرْسلُون (٤٥)﴾**

والرؤيا نجدها في القرآن في مواضع أخرى غير سورة يوسف،منها مارآه سيدنا إبراهيم عليه السلام من أنه يذبح ولده وفداه الله بكبش سمين. ومنها رؤيا رسول الله ﷺ في بدر ومعها بشارة النصر. ومنها رؤياه ﷺ في سورة الفتح بدخول المسجد الحرام آمنين ومقصرين لا يخافون.

هذا وإن واقعنا الذى نعيش به يشهد بحقيقة الرؤيا،حيث نرى ويرى غيرنا،مايقع مضمونه كما هو أو كما يماثله. بحيث لايبقي أى مجال لإنكار ذلك. وقد أنكر فرويد ومدرسته في التحليل النفسي الحقيقة الغيبية للرؤى، وفسروها تفسيرا نفسيا أو جنسيا علي أساس أنها من الرغبات المكبوته أو الأمور المتخيلة التي ينفس بها الشخص عن رغباته المكنونة. وهذا إن صح عن أحلام عن الماضي أو الحاضر فإن العلماء يرفضونه عن الرؤيا التي تنبئ عن الغيب في قلب المستقبل.

ومايرى الإنسان في نومه ولايعتد به هو:-

١- أمور تشغل الإنسان في اليقظة ماض وحاضر، فتملأ أقطار نفسه، وتراوده في منامه.

٢- مايصيب الإنسان من كوابيس لتخمة الأكل أو شدة مرض.

عن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ: **الرؤيا ثلاث: فبشرى مـــن الله، وحـــديث الـــنفس، وتخويف من الشيطان. فإذا رأى أحدكم رؤيا تعجبه فلـــيقص،إن شـــاء. وإن رأى شـــيئا يكرهه،فلا يقصه علي أحد. وليقم يصلي.**[1]

وفائدة الرؤيا أنها من المبشرات التي تشجع علي الإقدام علي عمل مباح أو تركه، وتبشره بخير ونعمة في المستقبل،تحصل له إن كانت من عند الله. فالرؤيا المبشرة باقيـــة كجـــزء مـــن خصائص النبوة، والرؤيا المنذرة تنذر المرء بشر فيستعد له بالصبر الجميل.

والرؤيا التي تنبئ عن حدوث أمر عن المستقبل تعتبر معجزة حتى في هذا العصر. ولايستطيع العلم التجريبي أن يفسرها، ويقف أمامها مندهشا شأنها شأن مايلاقيه من ظواهر أخرى غيبية.

والروح قوة داركة للأمور،بوسائل أعلي من وسائل الحس والعقل، ولكن يحجبـــها عنـــه الانشغال بالواقع الحسي فلا تدرك إلا في حدود ضيقة ومحدودة. فإذا نام الإنسان يقل تعلـــق الروح بالبدن وترجع إلي طبيعتها الأصلية جزئيا،فتدرك مالاتدركه في اليقظة. ومـــاتراه قـــد يتحقق طبق الأصل كما رؤى في المنام، وقد يكون رمزيا يرجع في تأويله للصالحين.

يقول كارليل:" إن البصر المغناطيسي وتراسل الأفكار معلومات أولية للملاحظة العلميـــة، وفي استطاعة من وهبت لهم هذه القوة أن يستشفوا أفكار الأشخاص الآخرين السرية من غير أن يستخدموا أعضاءهم الحسية،كما أنهم يحسون بالأحداث السحيقة سواء من الناحية الفراغية أو من الناحية الزمنية. وهذه الصفة الاستثنائية لاتنمو إلا في عدد قليل من بني الإنسان. إلا أن هناك كثيرين يملكون هذه الصفة بحالة بدائية، وهم يستخدمونها من غير بذل أى جهد وبطريقة تلقائية... ويبدو البصر المغناطيسي مسألة عادية لمن يملكونه، وهو يجلب لهم معلومات أكثـــر توكيدا من المعلومات التي يحصل الإنسان عليها بواسطة أعضاء الحـــس.. فـــصاحب البعـــد المغناطيسي يقرأ أفكار الآخرين بسهولة لاتضارعها إلا سهولة قراءته لأسارير وجوههم.

ولكن كلمتي رؤية وشعور لاتعبران عن الظاهرة التي تحدث في شـــعوره. إنـــه يلاحـــظ، ولايفكر... وهكذا فإن معرفة العالم الخارجي قد تصل إلي الإنسان عن طريق مصادر أخـــرى غير أعضاء الحس... وهذه الحقائق التي تنتمي إلي علم ماوراء النفس الجديد،يجب أن تقبل علي علاتها.إنها تكون جزءا من الحقيقة وتعبر عن جانب نادر يكاد يكون غـــير معـــروف مـــن أنفسنا."[2]

يقول ستانلي كريبز أستاذ باحث في مركز مايمونيدز الطبي ببروكلين في الولايات المتحدة:

---

(١) الألباني، صحيح سنن ابن ماجة ج٢ ص ٣٣٩.

(٢) د. ألكسيس كارليل، الإنسان، ذلك المجهول ص ١٠٢-١٠٤.

"لم يكن في الإمكان دراسة ظاهرة،مثل الإدراك المسبق ورؤية الأشياء غير المنظورة واتصال الأفراد عن بعد علميا ومعمليا،قبل تطوير العلم المسمي بالسيكوترونيك، وهو علـــم دراســة التفاعلات العابرة للواقع المعتاد مثل الزمن والمسافة واللغة، وهو شمل أيضا ماكـــان يـــسمي بالباراسيكولوجي.

ومن خلال الدراسة ظهر أن الظواهر السيكوترونيكية - التفاعلات عـــن غـــير الطـــرق العادية- يمكن إحداثها في الأغلب من خلال التجارب التي تسعي إلي تكامل الصفات المختلفة في الإنسان مثل القدرة علي الشعور العاطفي والتلقائية، والقدرة علي توقع الأشياء....

في مسرحية يوليوس قيصر لوليام شكسبير ترى كالبورينا،زوجة القيصر،أحلاما بهـــا إدراك مسبق بمقتل زوجها... ونحن نعلم من رواية شكسبير،كما نعلم مما نقل إلينا من التـــاريخ أن قيصر لم يحفل بتحذير كالبورينا، وأنه اغتيل في مجلس الحكم بعد بضع ساعات من تحذيرها.

ولنذكر كمثال مشابه من الزمن القريب،أن إبراهام لنكولن لم يأخذ الاحتياطات الكافيـــة عندما ذهب إلي مسرح فورد،حيث اغتيل ضربا بالرصاص، رغم أنه قد رأى في منامـــه رؤى محملة بالنذر،أنه مضروب بالرصاص وموضوع في تابوت.

ولما تطور التحليل النفسي تحول إلي النظر إلي مثل هذه الأحلام مـــن مجـــرد الروايـــة إلي الدراسة علي المستوى الإكلينيكي...

وفي سنة ١٩٦٢ تأسس معمل دراسة الأحلام في مركز مايمونيـــدس الطـــبي بـــبروكلين بنيويورك للقيام بأبحاث عن التأثيرات المختلفة للأنماط الطبيعية أثناء الإدراك المتغير، ومنها النوم، وبدأت تجارب كلاسيكية منـــها القيـــاس برســـام المـــخ الكهربـــائي ومراقبـــة الـــتغيرات السيكوفسيولوجية من عام ١٩٦٤."(١)

ورؤيا الأنبياء وحي يجب عليهم العمل حسب مقتضاها، ولذلك عزم سيدنا إبراهيم عليـــه السلام علي ذبح سيدنا إسماعيل عليه السلام، لولا أن فداه الله بذبح عظيم.

أما رؤيا غير الأنبياء فلا تكون حجة شرعية ويجوز العمل بها حتي لو رأى أحد رسول الله ﷺ، ولايطيع إلا الوحي كتابا وسنة. ولو حكم بالمنامات لفتح باب لخروج كثير من الفـــسقة عن الشرع،إذ يمكن لكل واحد أن يترك واجبا أو يرتكب محرما، راجعا الأمر إلي رؤيا. فالرؤيا الصالحة لاتعدو إلا أن تكون بشرى من الله.

---

(١) ستانلي كريز، مجلة العلم والمجتمع، طبعة عربية من مجلة Impact 'تصدر عن مجلة اليونسكو يونيـــة - أغـــسطس ســـنة ١٩٧٥ مقال: إحداث تأثيرات تفاعلية في الإنسان المتغير ص ٨٢،٨٥

والرؤيا وتأويلها ثابت بالكتاب والسنة،فمن أنكرها،بعد ما اطلع علي ذلك،فقد كفر.
يقول رسول الله ﷺ:

(الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح جزء من ست وأربعين جزء من النبوة.)

(إذا قرب الزمان لم تكد رؤيا المؤمن تكذب. وأصدقهم رؤيا أصدقهم حديثا....)

(أيها الناس،إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة،يراها المسلم،أو ترى له).

(إذا رأى أحدكم رؤيا يكرهها،فليتحول وليتفل عن يساره ثلاثا، وليسأل الله من خيرها، وليتعوذ من شرها.)(إذا حلم أحدكم فلا يخبر الناس بتلاعب الشيطان به في المنام.)[1]

عن سالم عن أبيه: أن النبي صلي اله عليه وسلم استشار الناس لما يهمهم إلي الصلاة،فذكروا البوق،فكرهه من أجل اليهود،ثم ذكروا الناقوس،فكرهه من أجل النصارى،فأرى النداء تلك الليلة رجل من الأنصار يقال له: عبد الله بن زيد، وعمر بن الخطاب. فطرق الأنصارى رسول الله ﷺ ليلا،فأمر رسول الله ﷺ بلالا به،فأذن.[2]

(١) الألباني، صحيح سنن ابن ماجة، ج٢ ص ٣٣٨-٣٤٢.
والأحاديث السابقة عن الرؤيا من نفس المصدر ونفس الصفحات
(٢) نفس المصدر ج١ ص ١١٨.

حتي يغيروا ما بأنفسهم

من سورة الرعد

حتي يغيروا ما بأنفسهم
من سورة الرعد

مقدمة

في سورة يوسف كان الحديث مستفيضا عن الصبر بالله،صبر يعقوب ويوسف،حيث كانت المحن والمصائب تتوالي، وكان الصبر علي هذه المصائب والمحن صبرا جميلا.

وفي سورة الرعد حديث عن الصبر لله، وتستكمل سورة الرعد بقية أبواب الصبر التي ذكرت في سورة يوسف وهي الصبر علي الطاعات والصبر علي المعاصي، وذلك في حضن خلق الصبر ابتغاء وجه الله.

وقد شغلت عبرة التاريخ مساحة كبيرة في سورة يوسف،حيث القصة تكاد تشمل السورة كلها. وهنا في سورة الأعراف،تحل عبرة الكون محل عبرة التاريخ،كما هو أسلوب القرآن في الترويج والعرض.

عبرة الكون

وجه مناسبتها لما قبلها أنه سبحانه قال فيما تقدم: **﴿وكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ والأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥)﴾**،فأجمل سبحانه الآيات السماوية والأرضية ثم فصل جل شأنه ذلك هنا أتم تفصيل، وأيضا أنه تعالي قد أتي هنا مما يدل علي توحيده عز وجل مايصلح

قوله تعالي: **﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ(٧)﴾**

وتبدأ السورة باستعراض آيات القدرة، وعجائب الكون الدالة علي قدرة الخالق وحكمته وتدبيره، ومن دلائل هذه الحكمة وهذا التدبير قوله تعالي: **﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ(٢)﴾**

والسماوات أيا كان مدلولها وأيا كان مايدركه الناس من لفظها في شتى العصور،معروضة علي الأنظار،هائلة ولاشك حين يخلو الناس إلي تأملها لحظة، وهي هكذا لاتستند إلي شئ،مرفوعة بغير عمد مكشوفة ترونها....

ويسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمي.. ويمسك بالأفلاك الهائلة والأجرام السابحة في الفضاء،فيجريها لأجل لاتتعداه... الأمر كله علي هذا النحو من التدبير لاشك عظيم جليل التقدير.

وقوله تعالي: **﴿وهُوَ الَذي مَدَّ الأَرْضَ وجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وأَنْهَاراً ومن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتفَكَّرُونَ (٣)﴾**

إن مد الأرض وبسطها أمام النظر، وانفساحها علي مداه... وبها الرواسي الثوابت من الجبال، وتجرى فيها الأنهار...وجعل فيها من كل الثمرات ذكر وأنثي،حتي التي ليس لها من جنسها ذكورا،تحمل في ذاتها الزوج الآخر.. وهذا مالم تعرفه البشرية إلا حديثا.

والليل والنهار يتعاقبان في انتظام،يقدم الليل ويدبر النهار، ويشرق الفجر وينقشع الليل.. لاتتخلف الدورة ولاتضطرب،دلالة علي القدرة المبدعة لمن خرج عن الإلف، وتأمل آلاء الله.

" إن طبقة السيالا أو طبقة القشرة الأرضية التي نعيش عليها،هي التي تشكل القارات، وتحتضن المحيطات، وترتفع جبالا في مكان، وتنخفض وديانا في مكان آخر، وتشكل السهول الخضراء والصحارى المقفرة. وتلي هذه الطبقة مباشرة ضمن ترتيب طبقات الأرض،طبقة السيما، وهي أصلب من طبقة السيال، ولكنها تحت ثقل طبقة السيال الهائل يصبح لها قوام عجيني،ما دام الثقل فوقها، وهذا القوام العجيني يسهل انزلاق القارات عليها،كما يسهل اندفاع البراكين منها...

فقارة أمريكا تنزلق حاليا نحو الشرق بسرعة ملحوظة للقياسات العلمية،كما شأن جميع القارات،إذ كانت متصلة ثم انفصلت وتباعدت. وأثناء هذا الانسياح المجهول الأسباب للقارات،تعاني مقدمة القارة ضغطا من السيما يجعد وجهها فتحدث الجبال بقممها البارزة في الهواء وجذورها الغائرة في السيما. ومن المعتقد أن القسم البارز من الجبل يقابله جذر أطول منه بأربع مرات ونصف ذاهب في السيما.

وهذه الجذور الغائرة تشكل وتدا يمنع القارة من التمادى في الانزلاق. فالقارة الأمريكية تنزلق بسرعة تزيد عن المتر في السنة، ولكن القوة التي تدفعها للانزلاق كان من الممكن أن تدفعها بسرعة تبلغ كيلو مترات كثيرة لولا وجودالأوتاد الجبلية في السيما.

ولو حدث هذا لأدى إلي عدم استقرار الأرض،بل لأدى إلي اندثار الحضارة من فوقهـــا، لعدم إمكانية الاستقرار عليها باختلال توازنها، إذن فهذه الجبال تعتبر من أهم عناصر تـــوازن الأرض وثباتها."[1]

كل هذا التدبير والحكمة في الكون يؤدى إلي نتيجة مؤكدة أن وراء ذلك غاية، وأن يكون هناك بعث لحساب الناس، وأن من مقضيات تلك القدرة أن تكون مستطيعة بعـــث النـــاس ورجوعهم إلي الخالق الذى بدأهم وبدأ الكون كله قبلهم، وسخره لهم ليبلوهم فيما آتاهم...

فالعجب من تكذيب هؤلاء المشركين بالمعاد،مع ما يشاهدونه من آيـــات الله ســـبحانه ودلائله في خلقه. وقد علم كل عالم وعاقل أن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس، وإن من بدأ الخلق فالإعادة عليه أسهل. ولهذا كان الكفر بالآخرة كفر بالله، ونتيجته أن يحيط الباطل والفساد بأعناق الناس كالأغلال بما نسوا يوم الحساب.

وهم لايكفيهم هذه الآيات الكونية، والآيات القرآنية،فيطلبون خوارق علي سبيل الهروب من هذا الحق، ولو نزلت عليهم هذه الخوارق ما آمنوا، والله يعلم سرهم وعلانيتهم كما يعلم كل مافي الكون ظاهرا وباطنا، ولن يؤمنوا إلا أذا أرادوا ذلك وسعوا إليه من داخلهم.

موضوع السورة

ينحصر موضوع السورة بين آيتين،يقول تعالي: ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْـــهِ ءَايَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ(٧)﴾

وقوله تعالي: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَـــنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ(٢٧)﴾

ومن ثم تأخذ السورة في بيان الحكمة من عدم إنزال هذه الآيات،ممثلة في رسالة الإنـــسان في الكون والحياة.

إن الكون والحياة يتميزان كما أراد الله بالتنوع والاختلاف، وهما في حالة حركة دائمـــة لاتهدأ، والحال أيضا في الإنسان يتميز عن غيره من الناس، وهو أيضا في حالة حركة إمـــا إلي شباب وإما إلي هرم، وكذلك المجتمعات متباينة، وهي في حركة إما لتقدم أو إلي تخلف. وهذه الحركة التي في الكون والحياة، والإنسان ومجتمعاته لاتعمل كيفما اتفق، وإلا لتحول الوجـــود

---

(١) د. محمد حسن هيتو، المعجزة القرآنية ص ٢٢٨-٢٣١.

إلي فوضي تؤدى إلي دماره وفنائه. وإنما يحكم الجميع سنة الله التي لاتتبدل ولاتتغير،فكل شئ يدور حول محور، ويتحرك إلي غاية. والإنسان محكوم بهذه السنة في حياته،محكوم بسنة التنفس ليحيا وسنة الطعام ليبقي وسنة الزواج ليمتد، ولايستطيع أن يعارض هذه السنن. هذه السنن هي قوانين الله التي يخضع لها كل شئ وحي طوعا أو كرها.

فالسجود لله حقيقة واقعة،في الكون والحياة،طوعا أو كرها، وإذا كان للإنسان شق يستطيع به ألا يسجد،فهناك شق كبير منه لايستطيع إلا أن يسجد طوعا أوكرها.

والسجود عبارة عن الانقياد والخضوع وعدم الامتناع. وكل من في السماوات والأرض ساجد لله بهذا المعني...

والمراد من سجود الظلال ميلانها من جانب إلي جانب،فهي محكومة بحركة الشمس لاتحيد عنها، وطولها بسبب انحطاط الشمس وقصرها بسبب ارتفاع الشمس،فهي منقادة مستسلمة في طولها وقصرها وميلها من جانب إلي جانب، وإنما خصص الغدو والآصال بالذكر، لأن الظلال إنما تعظم وتكثر في هذين الوقتين.[١]

قوله تعالي: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ(١٥)﴾

ولكن ترك للإنسان شق يختار فيه بين الإيمان والكفر وبين الهدى والضلال وبين الفجور والتقوى،حكمة من الله تعالي،من أجلها خلقت السماوات والأرض. فمن أخضع هذا الشق لسنن الله عاش مع كون مأنوس منسجم، ومن خالف هذه السنن كان نشازا يلعنه كل شئ وحي ممن يسجد لله تعالي، ويصير عبدا مهينا لكل شهوة ولكل جبار.

يقول تعالي: ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ(١٨)أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ(١٩)﴾

وعقيدة لاإله إلا الله التي تفسر للمؤمن الوجود، وتحدد له رسالته التاريخية،ماتكاد تستقر في الضمير حتي تحرك صاحبها لتحقيق واقع محدد المعالم،مطلوب إنشاؤه،بحافز لايهدأ حتي يقام. وهذا هو مضمون شهادة الحق،فهو يغير نفسه فيطابق بين واقع حياته وبين مايعتقد، ويطابق

---

(١) الرازى، مفاتيح الغيب ج٩ ص ٢٢١.

بينها وبين مجتمعه المسلم حتي يكون مطابقا لما أراده الله، ويجاهد بها الناس جميعا حتي يتحرروا من كل قيود تمنع اختيارهم الحر لما يعتقدون.

وحتي يحقق هذا لابد من بذل جهد في دفع الباطل،في معركة تحقق السيادة للمؤمنين وتزيح عن صدور العباد جبروت المستكبرين. فقد اقتضت حكمة الله أن الإنسان لايمكن أن يحقق غاية وجوده إلا ببذل الجهد،ذلك لأن هذا الجهد هو المحضن الذى ينمو فيه الإيمان، وتختبر فيه النفوس،كذلك يقذف الله بالحق علي الباطل،فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ماينفع الناس فيمكث في الأرض.

يقول تعالي: ﴿ **لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ(١١)** ﴾

"المعقبات: المراد به الملائكة الحفظة، وإنما صح وصفهم بالمعقبات إما لأجل أن ملائكة الليل تعقب ملائكة النهار وبالعكس. وإما لأجل أنهم يتعقبون أعمال العباد ويتبعونها بالحفظ والكتب، وكل من عمل عملا ثم عاد إليه فقد عقب... والمستخفي بالليل والسارب بالنهار قد أحاط به هؤلاء المعفبات فيعدون عليه أعماله وأقواله بتمامها، ولايشذ من تلك الأعمال والأقوال من حفظهم شئ أصلا...يحفظونه بأمر الله وإعانته......."(١)

ومن علامات تحقق التغيير أن يصل العبد ما أمر الله به أن يوصل، وذلك من مقتضي الوفاء بالعهد وإبرام الميثاق. وذلك يتحقق بالإتيان بجميع المأمورات والاحتراز عن كل المنهيات..التي تتضمن الرعاية لحقوق الله والشفقة علي عباده. فليس ذلك فيما بينه وبين الله تعالي فقط، وإنما أيضا مابينه وبين العباد...حيث يلزم رعاية جميع الحقوق الواجبة للعباد... وعلي رأسها صلة الرحم وصلة أخوة الإيمان،فالأولي قرابة الدم والأخرى قرابة الروح. يقول رسول الله ﷺ: **الراحمون يرحمهم الرحمن تبارك وتعالي،ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء.**(٢)

وقد انبثق خلق التواصل من منابع الإيمان بالله واليوم والآخر، وأحيط بما يصونه من صلاة وإنفاق في سبيل الله، وخشية وخوف من الله، وحلم وصبر ووفاء.

"فالله تعالي لايغير ماهم فيه من النعم بإنزال الانتقام إلا بأن يكون منهم المعاصي والفساد.... والمراد منه أن كل قوم بالغوا في الفساد وغيروا طريقته في إظهار عبودية الله

---

(١) الرازى، مفاتيح الغيب ح٩ص٢٠٨-٢١٠.

(٢) رواه أبو داود والترمذى، الألباني، صحيح الجامع الصغير ج١ ص ٦٦١.

تعالي،فإن الله يكثر عليهم الغم ويترل عليهم أنواعا من العذاب... وليس لهم من دون الله من يتولاهم ويمنع قضاء اللهيقول رسول الله ﷺ:

(إن الناس إذا رأوا الظالم،فلم يأخذوا علي يديه،أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه)(1)

" اعلم أنه تعالي لما شبه المؤمن والكافر والإيمان والكفر بالأعمي والبصير والظلمات والنور،ضرب للإيمان والكفر مثلا آخر... فالماء يستقر في الأودية المنخفضة عن الجبال والتلال بمقدار سعة تلك الأودية وصغرها، وإذا زاد علي قدر الأودية ينبسط علي الأرض، ويطفو الزبد الذى يحتمله الماء عليه،ثم يتبدد في الأطراف ويبطل..

فكذا ههنا أنزل من سماء الكبرياء والجلالة والإحسان ماء وهو القرآن، والأودية قلوب العباد. وشبه القلوب بالأودية، لأن القلوب تستقر فيها أنوار علوم القرآن،كما أن الأودية تستقر فيها المياه النازلة من السماء. وكما أن كل واحد فإنما يحصل فيه من مياه الأمطار ما يليق بسعته أوضيقه،فكذا ههنا كل قلب إنما يحصل فيه من أنوار علوم القرآن مايليق بذلك القلب من طهارته وخبثه وقوة فهمه وقصور فهمه. وكما أن الماء يعلوه زبد... كذلك ههنا بيانات القرآن تختلط بها شكوك وشبهات،ثم إنها بالآخرة تزول وتضيع ويبقي العلم والدين والحكمة والمكاشفة في العاقبة..

ولما ضرب تعالي المثل بالزبد الحاصل من الماء،أتبعه بضرب المثل بالزبد الحاصل من النار... الذى يوقد عليه لابتغاء الأمتعة الحديدية والنحاس والرصاص.. يتخذ منها الأواني والأشياء التي ينتفع بها... كذلك يضرب الله الأمثال للحق والباطل..

إن الزبد قد يعلو علي وجه الماء ويربو وينتفخ،إلا أنه بالآخرة يضمحل ويبقي الجوهر الصافي من الماء... فكذلك الشبهات والخيالات،قد تقوى وتعظم،إلا أنها بالآخرة تبطل وتضمحل وتزول، ويبقي الحق ظاهرا لايشوبه شئ من الشبهات...

والذين أجابوا الرسول إلي ما دعاهم إليه من التوحيد والعدل والنبوة وبعث الرسل والتزام الشرائع الواردة علي لسان رسوله فلهم الحسني... وهي المنفعة الخالية من شوائب المضرة...

وأما أحوال الأشقياء... لو أن لهم مافي الأرض جميعا لجعلوه فداء أنفسهم من العذاب. ولهم سوء الحساب،ذلك لأن كفرهم أحبط أعمالهم، ومأواهم جهنم بما كانوا غافلين عن الله عاكفين علي لذات الدنيا... وكانت جهنم لهم مأوى، وبئس المهاد."(2)

---

(1) رواه أبو داود والترمذى، الألباني، صحيح الجامع الصغير ج1 ص 398.

(2) الرازى، مفاتيح الغيب ج17 ص225-230.

يقول تعالي: ﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ(١٦)أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ(١٧)﴾

الأساس العقيدى

مراتب الصبر أربعة:

١-مرتبة الكمال، وهي مرتبة أولي العزم، وهي الصبر لله وبالله،فيكون في صبره مبتغيا وجه الله،صابرا له متبرئا من حوله وقوته،فهذا أقوى المراتب وأرفعها وأفضلها.

٢- أن لا يكون فيه لا هذا ولا هذا،فهو أخس المراتب، وأردأ الخلق، وهو جدير بكل خذلان، وبكل حرمان.

٣- مرتبة من فيه صبر بالله وهو مستعين متوكل علي حوله وقوته،متبرئ من حوله هو وقوته، ولكن صبره ليس لله،إذ ليس صبره فيما هو مراد الله الديني منه،فهذا ينال مطلوبه، ويظفر به، ولكن لا عاقبة له، وربما كانت عاقبته شر العواقب.

٤- من فيه صبر لله لكنه ضعيف النصيب من الصبر به، والتوكل عليه، والثقة به، والاعتماد عليه. فهذا له عاقبة حميدة. ولكنه ضعيف عاجز،مخذول في كثير من مطالبه.. فنصيبه من الله أقوى من نصيبه بالله،صابر لله وبالله،حال المؤمن القوى، والمؤمن القوى خير وأحب إلي الله من المؤمن الضعيف.

فصابر لله وبالله عزيز حميد، ومن ليس لله ولا بالله مذموم مخذول، ومن هو بالله لا لله قادر مذموم، ومن هو لله لا بالله عاجز محمود.[1]

يقول تعالي: ﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ(١٩) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ(٢٠)وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ(٢١)وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ

(١) ابن قدامة، مدارج السالكين ج٢ ص ١٦٣-١٦٤.

رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ(٢٢)جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ(٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ(٢٤)﴾

قيل العهد: سائر ماوصي الله تعالي به عباده. والميثاق: إقرار وقبول.

" هذه الآية من أولها إلي آخرها جملة واحدة،شرط وجزاء، وشرطها مشتمل علي قيود، وجزاؤها يشتمل أيضا علي قيود.

١- **﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ(٢٠)﴾**، جعل تحته كل ماقام الدليل عليه... ويدخل فيه الإتيان بجميع المأمورات والانتهاء عن كل المنهيات، ويدخل فيه الوفاء بالعقود في المعاملات، ويدخل فيه أداء الأمانات...

يقول ﷺ:

(لاإيمان لمن لاأمانة له، ولادين لمن لاعهد له.)[1]

٢-**﴿وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ(٢٠)﴾**، لما وجب وجود الوفاء بالعهد لزم أن يمتنع عدمه،فهذان المفهومان متغايران إلا أنهما متلازمان...

٣-**﴿ والَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾**،الوفاء بالعهد وترك نقض الميثاق اشتمل علي وجوب الإتيان بجميع المأمورات والاحتراز عن كل المنهيات..فليس ذلك فيما بينه وبين الله تعالي فقط، وإنما أيضا مابينه وبين العباد...حيث يلزم رعاية جميع الحقوق الواجبة للعباد... وعلي رأسها صلة الرحم وصلة القرابة الثابتة بسبب أخوة الإيمان.. ويدخل في هذه الصلة إمدادهم بإيصال الخيرات ودفع الآفات بقدر الإمكان وعيادة المريض وشهود الجنائز وإفشاء السلام علي الناس والتبسم في وجوههم وكف الأذى عنهم، ويدخل فيه كل حيوان حتي الهرة..

وحاصل الكلام: أن قوله تعالي**﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ(٢٠)﴾**، إشارة إلي التعظيم لأمر الله.

وقوله تعالي: **﴿ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾**، إشارة إلي الشفقة علي خلق الله.

---

(١) رواه أحمد، الألباني، صحيح الجامع الصغير ج٢ ص ١٢٠.

٤-وإن أتى بكل ماقدر عليه في تعظيم أمر الله، وفي الشفقة على خلق الله إلا أنه لابد وأن تكون الخشية من الله والخوف منه مستوليان على قلبه."[1]

٥-"والخشية أشد الخوف، لأنها مأخوذة من قولهم: شجرة خشية أى يابسة، ولذا خصت بالرب في هذه الآية. وفرق بينهما أيضا بأن الخشية تكون من عظم المخشي وإن كان الخاشي قويا، والخوف من ضعف الخائف وإن كان المخوف أمرا يسيرا..

٦- **وَالَّذِينَ صَبَرُوا**:على كل ما تكرهه النفس من المصائب المالية والبدنية ومايخالفه هوى النفس كالانتقام ونحوه ويدخل فيها ذكر التكاليف. **ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ** :طلبا لرضاه تعالى من غير أن ينظروا إلى جانب الخلق رياء أو سمعة ولا إلى جانب أنفسهم زينة وعجبا...

٧-والمراد **بِالصَّلَاةَ**: قيل الصلاة المفروضة، وقيل مطلقا وهو أولى، ومعنى إقامتها إتمام أركانها وهيئاتها.

٨- **وَأَنْفَقُوا**: بعض ما أعطيناهم، وهو الذى وجب عليهم إنفاقه كالزكاة، وما ينفق على العيال.. والذى ندب. **سِرًّا**: حيث يحسن السر،كما في إنفاق من لايعرف بالمال إذا خشي التهمة في الإظهار، أو من عرف به لكن لو أظهره ربما داخله الرياء والخيلاء، وكما في الإعطاء لمن تمنعه المروءة من الأخذ ظاهرة. **وَعَلَانِيَةً**: حيث تحسن العلانية كما إذا كان الأمر على خلاف ماذكر.. ٩- **وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ**:أى يدفعون الشر بالخير، ويجازون الإساءة بالإحسان... قال الحسن: إذا حرموا أعطوا، وإذا ظلموا عفوا، وإذا قطعوا وصلوا."[2]

المناسبة

" ووجه مناسبتها لما قبلها أنه سبحانه قال فيما تقدم: ﴿ **وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥)**﴾،فأجمل سبحانه الآيات السماوية والأرضية ثم فصل جل شأنه ذلك هنا أتم تفصيل، وأيضا أنه تعالى قد أتى هنا مما يدل على توحيده عز وجل مايصلح شرحا لما حكاه عن يوسف عليه السلام من قوله:﴿ **أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ.(٣٩)**﴾، وأيضا في كل من السورتين مافيه تسلية له ﷺ،هذا مع اشتراك آخر السورة وأول هذه فيما فيه وصف القرآن كما لايخفى."[3]

(١) الرازى، مفاتيح الغيب ج ١٧ص ٢٣١-٢٣٣.

(٢) الألوسي: روح المعاني ج٧ ص ١٣٤-١٣٥.

(٣) الألوسي، روح المعاني ج٧ ص ٨٠.

بين سورتي يوسف والرعد

قي سورة يوسف عليه السلام أخذ يعقوب عليه السلام ميثاق الرحم علي أبنائه،حين طلبوا أخاهم ليراه العزيز. يقول تعالي:

﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ(٦٦)﴾

وقد أوفوا بعهدهم و لم ينقضوا ميثاقهم لولا مكر العزيز ليأخذ أخاه. وسعوا في إطلاق سراحه حتي بأن يفتدوا أنفسهم به. يقول تعالي:

﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ(٧٩)فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ(٨٠)﴾

وفي سورة الرعد كان الوفاء بالعهد وعدم نقض الميثاق يرتبط عضويا بالأمر بصلة ماأمر الله به أن يوصل، وعلي رأسه صلة الرحم. يقول تعالي:

﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ(١٩) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ(٢٠)وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ الْحِسَابِ(٢١)﴾

وكان خلق يعقوب في تعامله مع رحمة تتسم بالصبر الجميل،في قوله تعالي علي لسانه:

﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ(١٨)﴾

وكانت هذه صفة المؤمنين الذين يصلون رحمهم ويصبرون عليهم في قوله تعالي:

﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ(٢٢)﴾

وكان يعقوب عليه السلام يسلم أمره لله ولايكف لسانه عن ذكره. يقول تعالي علي لسانه:

﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ(٨٦)﴾

وفي سورة الحجر يصف تعالي المؤمنون:

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ(٢٨)ا﴾

ولهذا بعد أن طهرت قلوبهم من الغل لم ينقضوا الميثاق،كان إنعام الله عليهم في قوله تعالي علي لسان يوسف عليه السلام:

﴿وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾

وفي سورة الرعد كان إنعام الله علي من هذه صفته بالجنة والرضوان،يقول تعالي:

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ(٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ(٢٤)﴾

القول الثابت
كما تبينه
سورة إبراهيم

القول الثابت

كما تبينه سورة إبراهيم

مقدمة

اهتمت السور من يونس عليه السلام حتى سورة الحجر بتربية المجتمع المسلم على منظومة من القيم الإيمانية والأخلاق الاجتماعية التي تعينهم علي مواجهة الظالمين.

وقد رأينا في سورة الأنفال وبراءة الحدود الشرعية في العلاقات بين المسلمين وغيرهم، ووضع قواعد تشريعات الولاء والبراء،ثم يتلطف ربنا سبحانه وتعالى في الإنتقال من التشريع إلى التربية في نفس الموضوع،فيبدأ في سورة يونس بالتربية على التوكل عليه الذى يميز أولياء الله، ونهت سورة هود عليه السلام عن الركون إلى الظالمين والاستقامة على أمر الله.

ولما كان هذا يتضمن خصائص قلبية وسلوكية في مواجهة الظالمين،تبعتهما سورة يوسف عليه السلام بالتربية على الصبر الجميل، وتلتها سورة الرعد بالتربية على أن يكون الصبر ابتغاء وجه الله.

وتهتم سورة إبراهيم عليه السلام بالتربية على الثبات على الحق، وتؤكد هذا سورة الحجر بالتربية على الصمود على هذا الطريق حتى لقاء الله تعالى، وهو اليقين الذى لا شك فيه.

وبالثبات والصمود،يرسخ الحق فلا يتزحزح الإنسان عن الإيمان مهما اشتعلت الفتنة، ولا عن الحق مهما اشتد العذاب،فتستقر نفسه على أرض الإسلام، وتمتد جذوره بعمق في دنيا الإيمان. ومن ثم عشنا في سورة إبراهيم على فضيلة الثبات على الحق.

الأساس العقيدى

تهتم هذه السورة بالتربية علي خلق الشكر لله تعالي علي نعمة الهداية والإيمان.

وبينما كانت الصلاة مصحوبة بالصبر في سورة الرعد في قوله تعالي:﴿ **وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِراً وَعَلانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ** ﴾ ، صحبت الصلاة الشكر في سورة إبراهيم، في قوله تعالي:

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧)﴾."

وجمعت سورة إبراهيم الصبر والشكر معا في قوله تعالي:﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٥)﴾.

يقول رسول الله ﷺ:**عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن،إن إصابته سراء شكر وكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له."[1]**

" والإيمان نصفان: نصف شكر، ونصف صبر. وقد أمر الله بالشكر ونهي عن ضده. وأثني علي أهله. ووصف به خواص خلقه، وجعله غاية خلقه وأمره، ووعد أهله بأحسن جزائه، وجعله سببا للمزيد من فضله، وحارسا وحافظا لنعمته. وأخبر أن أهله هم المنتفعون بآياته، واشتق لهم اسما من أسمائه،فإنه سبحانه هو الشكور،... وهو غاية الرب من عبده، وأهله هم القليل من عباده...

وكذلك حقيقته في العبودية: وهو ظهور أثر نعمة الله علي لسان عبده،ثناء واعترافا. وعلي قلبه: شهودا ومحبة. وعلي جوارحه: انقيادا وطاعة.

فهذه الخمس: هي أساس الشكر، وبناؤه عليها،فمتي عدم منها واحدة،اختل من قواعد الشكر قاعدة...

والشكر معه المزيد أبدا، لقوله تعالي:﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾،فمتي لم تر حالك في مزيد،فاستقبل الشكر...

فالشكر اسم لمعرفة النعمة، لأنها السبيل إلي معرفة المنعم. ولهذا سمي الله تعالي الإسلام والإيمان في القرآن: شكرا... "[2]

"والشكر أصله من عين شكرى أى ممتلئة،فالشكر هو الامتلاء من ذكر المنعم عليه، ومن هذا الوجه قيل هو أبلغ من الحمد، لأن الحمد لايقتضي الامتلاء، ومن وجه الحمد ذكر الشئ بصفاته المحمودة، والشكر ذكره بصفاته وبنعمه. فالشكر علي ثلاثة أضرب:

١- شكر بالقلب: وهو تصور النعمة.

٢- وشكر باللسان: وهو الثناء علي المنعم.

٣- وشكر بسائر الجوارح: وهو مكافأته بقدر استحقاقه.

---

(١)رواه مسلم وأحمد، صحيح الجامع الصغير ج ٢ ص ٧٣٧.

(٢) ابن القيم، مدارج السالكين ج٢ ص ٢٣٢-٢٣٦.

وهو أيضا باعتبار الشاكر والمشكور علي ثلاثة أضرب:

١-شكر الإنسان لمن فوقه، وهو بالخدمة والثناء والدعاء.

٢- وشكره لنظيره: وهو بالمكافأة.

٣- وشكره لمن هو دونه: وهو بالثواب."[١]

"إن شكر النعمة دليل علي استقامة المقاييس في النفس البشرية،فالخير يشكر لأن الشكر هو جزاؤه الطبيعي في الفطرة المستقيمة. هذه واحدة، والأخرى أن النفس التي تشكر الله علي نعمته،تراقبه في التصرف بهذه النعمة،بلا بطر وبلا استعلاء علي الخلق، وبلا استخدام للنعمة في الأذى والشر والدنس والفساد.

وهذه وتلك مما يزكي النفس، ويدفعها للعمل الصالح، وللتصرف الصالح في النعمة بما ينميها ويبارك فيها، ويرضي الناس عنها وعن صاحبها،فيكونون له عونا، ويصلح روابط المجتمع فتنمو فيه الثروات في أمان،إلي أخر الأسباب الطبيعية الظاهرة لنا في الحياة، وإن كان وعد الله بذاته يكفي لاطمئنان المؤمن،أدرك الأسباب أم لم يدركها،فهو حق واقع لأنه وعد الله.

والكفر بنعمة الله قد يكون بعدم شكرها،أو بإنكار أن الله واهبها، ونسبتها إلي العلم والخبرة، والكد الشخصي والسعي،كأن هذه الطاقات ليست نعمة من نعم الله، وقد يكون بسوء استخدامها،بالبطر والكبر علي الناس، واستغلالها للشهوات والفساد، وكله كفر بنعمة الله.

والعذاب الشديد قد يتضمن محق النعمة،عينا بذهابها أو سحق آثارها في الشعور،فكم من نعمة تكون بذاتها نقمة يشقي بها صاحبها ويحسد الخالين، وقد يكون عذابا مؤجلا إلي أجله في الدنيا أو في الآخرة كما يشاء الله، ولكنه واقع لأن الكفر بنعمة الله لايمضي بلا جزاء.

ذلك الشكر لاتعود علي الله عائدته، وهذا الكفر لايرجع علي الله أثره،فالله غني بذاته،محمود بذاته، لابحمد الناس وشكرهم علي عطاياه. "[٢]

---

(١) الأصفهاني، الذريعة إلي مكارم الشريعة ص ٢٧٩.

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن ج٤ ص ٢٠٨٨-٢٠٨٩.

موضوع السورة

وموضوع السورة يدور حول الكلمة الطيبة،ذات الأصل الثابت. في مقابل الكلمة الخبيثة التي اجتث أصلها. والله يثبت المؤمنين بالقول الثابت في الدنيا والآخرة،أما الظالمون فيضلون بتبديلهم الحق.

وينبثق من الكلمة الطيبة شكر النعمة، ويترتب علي الكلمة الخبيثة الكفر بآلاء الله ونعمه.

يقول تعالي:﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ(٢٤)تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ(٢٥)وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ(٢٦) يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ(٢٧)**﴾

يقول رسول الله ﷺ:

مثل المؤمن مثل النخلة، لاتأكل إلا طيبا، ولا تضع إلا طيبا.(١)

يقول ابن عباس: الكلمة الطيبة: لا إله إلا الله، والشجرة الطيبة المؤمن، والمعني أصل الكلمة في قلب المؤمن، وهو الإيمان،شبهه بالنخلة في المنبت، وشبه ارتفاع عمله في السماء بارتفاع فروع النخلة وثواب الله له بالثمر.

" والقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة كلمة الإخلاص والنجاة من النار:**لاإله إلا الله**، والإقرار بالنبوة، وهذه الآية تعم العالم من لدن آدم عليه السلام إلي يوم القيامة."(٢)

والكلمة الخبيثة كلمة الكفر وقيل الكافر، والشجرة الخبيثة شجرة الحنظل.. ويثبت الله المؤمنين في الدارين جزاء علي القول الثابت.. ويضل الله الظالمين بكفرهم فلا يلقنهم كلمة الحق.(٣)

" واعلم أنه تعالي ذكر شجرة موصوفة بصفات أربعة ثم شبه الكلمة الطيبة بها:

١- كونها طيبة،طيبة في منظرها ورائحتها وشكلها...

٢- أصلها ثابت: أى راسخ باق آمن الانقلاع والانقطاع والزوال والفناء، وذلك لأن الشئ الطيب إذا كان في معرض الانقراض والانقضاء فهو وإن كان يحصل الفرح بسبب

---

(١) الألباني، صحيح الجامع الصغير ج٢ ص ١-١٧.

(٢) ابن عطية، المحرر الوجيز ج٨ ص ٢٣٩.

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ج٥ ص ٣٥٩٢.

وجدانه،إلا أنه يعظم الحزن بسبب الخوف من زواله وانقضائه. أما إذا علم من حاله أنه باق دائم لايزول ولاينقضي،فإنه يعظم الفرح بوجدانه ويكمل السرور بسبب الفوز به.

٣- وهذا الوصف يدل علي كمال حال تلك الشجرة من وجهين:

أ- أن ارتفاع الأغصان وقوتها في التصاعد يدل علي ثبات الأصل ورسوخ العروق.

ب- أنها متي كانت متصاعدة مرتفعة كانت بعيدة عن عفونات الأرض وقاذورات الأبنية،فكانت ثمراتها نقية ظاهرة طيبة عن جميع الشوائب.

٤- أن الشجرة المذكورة كانت موصوفة بأن ثمراتها تكون حاضرة دائمة في كل الأوقات. ولاتكون مثل الأشجار التي يكون ثمارها حاضرا في بعض الأوقات دون بعض...

وذكر تعالي شجرة موصوفة بصفات ثلاثة ثم شبه الكلمة الخبيثة بها:

١- أنها تكون خبيثة،بحسب الرائحة وبحسب الطعم وبحسب الصورة والنظر، وبحسب اشتمالها علي المضار الكثيرة...

٢- استؤصلت من فوق الأرض... فليس لها أصل ولاعرق..

٣- ليس لها استقرار،شبه ذلك بالقول الذى لم يعضد بحجة فهو داحض غير ثابت..

فكونها موصوفة بالمضار،فإليه الإشارة بقوله تعالي: خَبِيثَةٍ، وأما كونها خالية من كل المنافع فإليه الإشارة بقوله تعالي: ﴿ **اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ** ﴾."[1]

" إن الكلمة الطيبة،كلمة الحق،كالشجرة الطيبة،ثابتة سامقة مثمرة. ثابتة لاتزعزعها الأعاصير، ولاتعصف بها رياح الباطل، ولاتقوى عليها معاول الطغيان، وإن خيل للبعض أنها معرضة للخطر الماحق في بعض الأحيان،سامقة متعالية،تطل علي الشر والظلم والطغيان من عل، وإن خيل إلي البعض أحيانا أن الشر يزحمها في الفضاء،مثمرة لاينقطع ثمرها، لأن بذورها تنبت في النفوس المتكاثرة آنا بعد آن.

وإن الكلمة الخبيثة،كلمة الباطل،كالشجرة الخبيثة،قد تهيج وتتعالي وتتشابك، ويخيل إلي بعض الناس أنها أضخم من الشجرة الطيبة وأقوى. ولكنها تظل نافشة هشة، وتظل جذورها في التربة قريبة حتي لكأنها علي وجه الأرض. وماهي إلا فترة ثم تجتث من فوق الأرض،فلاقرار لها ولا بقاء.

ليس هذا وذلك مجرد مثل يضرب، ولامجرد عزاء للطيبين وتشجيع،إنه هو الواقع في الحياة، ولو أبطأ تحققه في بعض الأحيان."[2]

---

(١) الرازى، مفاتيح الغيب ج١٧ ص ٣٣٠-٣٣٦.

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن ج٤ ص ٢٠٩٨-٢٠٩٩.

وبين الثبات علي كلمة الحق من المؤمنين والإضلال بالكلمة الخبيثة من المستكبرين،يقف المستضعفون من البشر. ويصور القرآن حالهم في قوله تعالي: ﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ (٢١)﴾

" برزت الخلائق كلها،برها وفاجرها لله الواحد القهار،أى اجتمعوا له في براز من الأرض، وهو المكان الذى ليس فيه شئ يستر أحدا،فقال الضعفاء: وهم الأتباع لقادتهم وسادتهم وكبرائهم ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾عن عبادة الله وحده لاشريك له، وعن موافقة الرسل،قالوا لهم ﴿: إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾، أى مهما أمرتمونا ائتمرنا وفعلنا، ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ ؟ أى هل تدفعون عنا شيئا من عذاب الله كما كنتم تعدوننا وتمنوننا،فقالت القادة لهم: ﴿ لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ﴾، ولكن حق علينا قول ربنا، وسبق فينا وفيكم قدر الله، وحقت كلمة العذاب علي الكافرين، ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾،أى ليس لنا خلاص مما نحن فيه إن صبرنا عليه أو جزعنا منه."[1]

﴿أَوَ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾،ألم تؤخروا في الدنيا وألم تكونوا حلفتم إذ ذاك بألسنتكم بطرا وأشرا وسفها ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ مما أنتم عليه من التمتع بالحظوظ الدنيوية،أو بألسنة الحال ودلالة الأفعال حيث بنيتم مشيدا وأملتم بعيدا ولم تحدثوا أنفسكم بالانتقال إلي هذه الأحوال والأهوال...

﴿وسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ (٤٥)﴾، قررتم في مساكنهم مطمئنين سائرين سيرهم في الظلم بالكفر والمعاصي غير محدثين أنفسكم بما لقوا بسبب ما اجترحوا من الموبقات، وفي إيقاع الظلم علي أنفسهم بعد إطلاقه فيما سلف إيذان بأن غائلة الظلم آيلة إلي صاحبه...وضربنا لكم الأمثال لتعتبروا وتقيسوا أعمالكم علي أعمالهم ومالكم علي مالهم...."[2]

" والضعفاء هم الضعفاء،هم الذين تنازلوا عن أخص خصائص الإنسان الكريم علي الله حين تنازلوا عن حريتهم الشخصية في التفكير والاعتقاد والاتجاه، وجعلوا أنفسهم تبعا للمستكبرين والطغاة، ودانوا لغير الله من عبيده واختاروها علي الدينونة لله. والضعف ليس عذرا،بل هو الجريمة،فما يريد الله لأحد أن يكون ضعيفا، وهو يدعو الناس كلهم إلي حماه

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ج٢ ص ٨١٧-٨١٨.

(٢) الألوسي، روح المعاني ج ٧ ص ٢٣٠-٢٣٤.

يعتزون به والعزة لله. ومايريد الله لأحد أن يترل طائعا عن نصيبه في الحرية،التي هـي ميـزة ومناط تكريمه،أو أن يترل كارها. والقوة المادية،كائنة ماكانت، لاتملك أن تستعبد إنسانا يريد الحرية، ويستمسك بكرامته الآدمية. فقصارى ما تملكه تلك القوة أن تملـك الجسد،تؤذيه وتعذبه وتكبله وتحبسه. أما الضمير،أما الـروح، أمـا العقل،فلايملـك أحـد حبـسها ولا استذلالها،إلا أن يسلمها صاحبها للحبس والإذلال.

من ذا الذى يملك أن يجعل أولئك الضعفاء تبعا للمستكبرين في العقيدة، وفي التفكير، وفي السلوك،من ذا الذى يملك أن يجعل أولئك الضعفاء يدينون لغير الله، والله هو خالقهم ورازقهم وكافلهم دون سواه ؟ لاأحد. لاأحد إلا أنفسهم الضعيفة،فهم ضعفاء لا لأنهم أقل قوة مادية من الطغاة، ولا لأنهم أقل جاها أو مالا أو منصبا أو مقاما،كلا،إن هذه كلها أعراض خارجية لاتعد بذاتها ضعفا يلحق صفة الضعف بالضعفاء. إنما هم ضعفاء لأن الضعف في أرواحهم وفي قلوبهم وفي نخوتهم وفي اعتزازهم بأخص خصائص الإنسان.

إن المستضعفين كثرة، والطواغيت قلة،فمن ذا الذى يخضع الكثرة للقلة ؟ ومـاذا الـذى يخضعها ؟ إنما يخضعها ضعف الروح، وسقوط الهمة، وقلة النخوة، والتنازل الـداخلي عـن الكرامة التي وهبها الله لبني الإنسان.

إن الطغاة لايملكون أن يستذلوا الجماهير إلا برغبة هذه الجماهير،فهي دائما قـادرة علـي الوقوف لهم لو أرادت. فالإرادة هي التي تنقص هذه القطعان."[1]

﴿وقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وإن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الجِبَالُ (٤٦)﴾.

إن الله محيط بهم وبمكرهم، وان كان مكرهم من القوة والتـأثير حـتي ليـؤدى إلي زوال الجبال،أثقل شئ وأصلب شئ، وأبعد شئ عن تصور التحرك والزوال. فإن مكرهم هذا ليس مجهولا، وليس خافيا، وليس غريبا،عن متناول القدرة. بل إنه لحاضر عند الله يفعل به كيفمـا يشاء.

فما لهذا المكر من أثر، وما يعوق تحقيق وعد الله لرسله بالنصر وأخذ الماكرين أخذ عزيـز مقتدر.

والله لا يدع الظالم يفلت، ولا يدع الماكر ينجو. يعني ذلك تعذيبهم جزاء ظلمهم وجزاء مكرهم تحقيقا لعدل الله في الجزاء.

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن ج٤ ص ٢٠٩٦.

وسيكون ذلك لا محالة يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات. ولا ندرى نحن كيف يتم هذا، ولا طبيعة الأرض الجديدة وطبيعة السموات ولا مكانها. فهذا المكر مهما اشتد فهو ضئيل عاجز حسير."[1]

يقول تعالي: ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ(٤٤) وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ(٤٥)وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ(٤٦)فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ(٤٧)يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ(٤٨)﴾

عبرة التاريخ

تميزت سورة إبراهيم في عرضها لتاريخ الرسالات بتبيان أن كل رسول يرسل بلسان قومه ليبين لهم، يقول تعالي: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(٤)﴾

" وفي السور الماضية يجئ كل رسول فيقول كلمته لقومه ويمضي،ثم يجئ رسول ورسول،كلهم يقولون الكلمة ذاتها، ويلقون الرد ذاته، ويصيب المكذبين ما يصيبهم في الدنيا، وينظر بعضهم ويمهل إلي أجل في الأرض أو إلي أجل في يوم الحساب... فأما سورة إبراهيم،أبي الأنبياء،فتجمع الأنبياء كلهم في صف وتجمع الجاهلين كلهم في صف، وتجرى المعركة بينهم في الأرض،ثم لاتنتهي هنا بل تتابع خطواتها كذلك يوم الحساب... فههنا تتجمع الأجيال من لدن نوح وتتجمع الرسل، ويتلاشي الزمان والمكان، وتبرز الحقيقة الكبرى،حقيقة الرسالة وهي واحدة، واعتراضات الجاهلين عليها وهي واحدة، وحقيقة نصر الله للمؤمنين وهي واحدة. وحقيقة استخلاف الله للصالحين وهي واحدة، وحقيقة الخيبة والخذلان للمتجبرين وهي واحدة، وحقيقة العذاب الذى ينتظرهم هناك وهي واحدة.."[2]

يقول تعالي: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن ج ١٢ص ٢١١٢.

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن ج٨ ص ٢٠٧٩.

أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ(٩)قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ(١٠)﴾

وتقص علينا السورة توفيق الله تعالي لإبراهيم عليه السلام في الثبات علي القول الثابت.. يقول تعالي علي لسانه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ ءَامِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ(٣٥)رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ(٣٦)﴾

كما كان توفيق الله تعالي له للشكر علي نعمة الإيمان. يقول تعالي علي لسانه: ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ(٣٧)رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ(٣٨)الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ(٣٩)﴾

" يذكر تعالي في هذا المقام مشركي العرب بأن البلد الحرام،مكة،إنما وضعت أول ما وضعت علي عبادة الله وحده لاشريك له، وأن إبراهيم،الذى كانت بسببه آهلة،تبرأ ممن عبد غير الله، وأنه دعا لمكة بالأمن.. وقد استجاب الله له... وعرف البيت هنا لأنه دعا به بعد بنائها... ومعلوم أن إسماعيل أكبر من إسحاق بثلاث عشرة سنة،فأما حين ذهب بإسماعيل وأمه وهو رضيع إلي مكان مكة فإنه دعا أيضا فقال﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمناً.﴾"[1]

قوله: ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾، ظهره بالكفر لمعادلة قوله: ﴿ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾، وإذا كان ذلك كذلك فقوله: ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾،معناه: بتوبتك علي الكفرة حتي يؤمنوا، لأنه أراد أن الله يغفر لكافر. ولكن حمله علي هذه العبارة ماكان يأخذ نفسه به من القول الجميل والنطق الحسن وجميل الأدب ﷺ،قال قتادة: اسمعوا قول الخليل، والله ماكانوا طعانين ولالعانين، وكذلك قال نبي الله عيسي عليه السلام: ﴿ وإن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾."[2]

" ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ﴾، خصها من جملة الدين لفضلها فيه، ومكانها منه، وهي عهد الله عند العباد...وتضمنت هذه الآية أن الصلاة بمكة أفضل من الصلاة بغيرها... ﴿ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ج٢ ص ٨٣٦.

(٢) ابن عطية، المحرر الوجيز ج٨ ص ٢٥١.

مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾:والأفئدة: جمع فؤاد وهي القلوب....والمعني: واجعل وفودا من الناس تهوى إليهم. أى: تنتزع... قال ابن عباس ومجاهد: لو قال أفئدة الناس لازدحمت عليه فارس والروم والترك والهند واليهود والنصارى والمجوس، ولكن قال: من الناس فهم المسلمون... **﴿وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾**: فاستجاب الله دعاءه وأنبت لهم بالطائف سائر الأشجار، وبما يجلب إليهم من الأمصار."[1]

"**﴿ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾**، تلك النعمة بإقامة الصلاة وأداء سائر مراسم العبودية، واستدل به علي أن تحصيل منافع الدنيا إنما هي ليستعان بها علي أداء العبادات وإقامة الطاعات، ولايخفي مافي دعاءه عليه السلام من مراعاة حسن الأدب، والمحافظة علي قوانين الضراعة، وعرض الحاجة، واستنزال الرحمة واستجلاب الرأفة، ولذا من عليه بحسن القبول وإعطاء المسؤول. ولابدع في ذلك من خليل الرحمن عليه السلام."[2]

" أسكن الله أهل مكة حرمه وجعلهم قوام بيته وأكرمهم بمحمد ﷺ فكفروا نعمة الله تعالي بدل ما ألزمهم من الشكر العظيم...وأنزلوا قومهم بدعوتهم إياهم لما هم فيه من الضلال.. الهلاك.، وهي جهنم يقاسون حرها... ويحلون بها علي وجه الدوام والاستمرار.. جزاء كفرانهم بذاته سبحانه باتخاذ الأنداد ثم إضلالهم لقومه... فتمتعوا بما أنتم عليه من الشهوات التي من جملتها تبديل نعمة الله كفرا واستتباع الناس في الضلال.. فإن مصيركم إن دمتم علي ذلك إلي النار. "[3]

المناسبة

ارتباط سورة إبراهيم " بالسورة التي قبلها واضح جدا، لأنه قد ذكر في تلك السورة من مدح الكتاب وبيان أنه مغن عما اقترحوه ماذكر. وافتتحت هذه بوصف الكتاب، والإيماء إلي أنه مغن عن ذلك أيضا. وإذا أريد بـ: **﴿ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الكِتَابِ﴾** في سورة الرعد الله تعالي ناسب مطلع هذه ختام تلك أشد مناسبة. وأيضا قد ذكر في تلك إنزال القرآن حكما عربيا، و لم يصرح فيها بحكمة ذلك، وصرح بها هنا. وأيضا تضمنت تلك الأخبار من قبله تعالي بأنه**﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾** تعالي، وتضمن هذه الإخبار به من جهة

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ج٥ ص٢٦٠٠-٢٦٠٢.

(٢) الألوسي، مفاتيح الغيب ج٧ ص ٢٢٧.

(٣) الألوسي، روح المعاني ج٧ ص ٢-٦.

الرسل عليهم السلام، وأنهم قالوا:﴿**وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ**﴾. وأيـــضا ذكر هناك أمره عليه الصلاة والسلام بأن:﴿ **عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ**﴾، وحكي هنا عن إخوانه المرسلين عليهم السلام توكلهم عليه سبحانه وأمرهم بالتوكل عليه جل شأنه واشتملت تلك علي تمثيل للحق والباطل. وأيضا ذكر في الأولي من رفع السماء ومد الأرض وتسخير الشمس والقمر،إلي غير ذلك ما ذكر، وذكر هنا نحو ذلك إلا أنه سبحانه اعتبر ماذكر أولا آيات، وما ذكر ثانيا نعما، وصرح في كل بأشياء لم يصرح بها في الآخر.

الصدع بالأمر
كما تبينه
سورة الحجر

الصدع بالأمر
كما تبينه سورة الحجر

مقدمة

هذه آخر سور المجموعة. والمجموعة عموما اهتمت بتربية الجماعة المسلمة علي الثبات في مواجهة الظالمين. فأمدتهم سورة يونس بزاد التوكل، وهدتهم سورة هود إلي الاستقامة، وعلمتهم سورة يوسف الصبر الجميل، وربتهم سورة الرعد علي الصبر ابتغاء وجه الله، وغرست فيهم سورة إبراهيم القول الثابت. وهنا في هذه السورة،سورة الحجر، وقد تزودت الجماعة بمقومات الثبات،يأمرها ربنا تبارك وتعالي بالصدع بالأمر والإنذار المبين،دون مساومة أو تهاون،كما يفعل المفرقون بين أوامر القرآن لإرضاء الكافرين. وما أصعبه علي المستكبرين، وما أشد ردود أفعالهم علي المؤمنين.

الأساس العقيدى

يقول تعالي في أول السورة مبينا نعمة القرآن ومحذرا من إلهاء الدنيا: **﴿الر تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْءَانٍ مُبِينٍ(١)رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ(٢) ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ(٣)﴾**

خلق الله تعالي الإنسان من قبضة من طين ونفخة من روحه،فتحدد حاجاته بإشباع الجسد بالأكل والشرب،الذى تلاه الاستمتاع بهما والسعي إلي الاستحواز علي مقدراتهما. وله حاجات أخرى ليشبع روحه بمعرفة الله والتقرب إليه وطاعته فيما أمر. **فإذا زين له الشيطان الدنيا فأنساه الآخرة يصبح كل همه في المتاع الدنيوى، وتتقطع أنفاسه في آمال قصيرة للحصول علي أقصي مايستطيع منه. ولأنه لم يشبع روحه فيشقي في داخله،فيعوض ذلك بمزيد من المتعة، ويعلق قلبه بسراب من الآمال. فمثل طالب الدنيا،مثل شارب ماء البحر،كلما ازداد شربا،ازداد عطشا حتي يقتله.**

يقول رسول الله ﷺ:

(ماذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المـــرء علـــي المـــال والـــشرف لدينه.)"[1]

يقول رسول الله ﷺ:

(يهرم ابن آدم ويشب فيه اثنتان: الحرص علي المال والحرص علي العمر.)[2]

خط رسول الله ﷺ خطوطا ثم بينها فقال:

(هذا الإنسان، وهذا أجله محيط به، وهذا الذى هو خارج أمله، وهذه الخطوط الصغار الأعراض،فإن أخطأ هذا نهشه هذا، وإن أخطأ هذا نهشه هذا.) [3]

عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: إنما أخشي عليكم اثنتين: طول الأمـــل واتبـــاع الهوى،فإن طول الأمل ينسي الآخرة واتباع الهوى يصد عن الحق."[4]

ونعمة الله علي المؤمنين بتزول القرآن هدى ورحمة لا تعدلها نعمة. والنظر إليها يملأ النفس ويسمو بها عن التطلع إلي لعاعة الحياة الدنيا، وما يصحبها من غفلة وجشع وعدوان.

وهنا نرى في آخر السورة يقول تعالي: **﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَات وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّـا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ(٨٥)إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ(٨٦)وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ(٨٧) لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِـهِ أَزْوَاجًـا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ(٨٨)وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ(٨٩)﴾**

ولقد علمنا أن الشيطان يجد فريسته في النفس الإنسانية إذا ملأت الدنيا قلب الإنـسان، ونسي الآخرة،فيسهل تسلل الحسد والكبر إليها و اشتعال الغضب فيها، وقد أعطانـا ربنـا الأسوة في هذه السورة حين نصحنا بغض الطرف عن زينة الحياة الدنيا. وقدم لنا النموذج في الأنبياء والمرسلين حين لقوا الاستهزاء من الكافرين فقابلوهم بالصفح الجميل.

ولكي يتحقق النصر علي عدو الله إبليس،يربي القرآن النفس المؤمنة في مدرستين،مدرسـة الرجاء،في قوله تعالي علي لسان إبراهيم: **﴿قَـالَ وَمَـنْ يَقْـنَطُ مِـنْ رَحْمَـةِ رَبِّـهِ إِلَّـا الضَّالُّونَ(٥٦)﴾**ومدرسة الخوف،التي نعرفها في قوله تعالي: **﴿ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَـوْمُ الْخَاسِرُونَ (٩٩)﴾**

---

(١) الألباني، صحيح الجامع الصغير ج٢ ص٩٨٣.

(٢) الألباني، صحيح الجامع الصغير ج١ ص ١٣٥٨ رواه البخارى ومسلم .

(٣) الألباني، صحيح الجامع الصغير ج١ ص ١١٧٢رواه البخارى والترمذى .

(٤) الألوسي، روح المعاني ج٧ ص ٢٥٧.

وذلك يجمعه ربنا تبارك وتعالي في رسالته إلي البشرية:﴿ **نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(٤٩)وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ(٥٠)**﴾

يقول رسول الله ﷺ:**لو يعلم المؤمن ماعند الله من العقوبة،ماطمع في الجنة أحد. ولو يعلم الكافر ماعند الله من الرحمة ماقنط من الجنة أحد.**[١]

" المعني: أخبرهم يامحمد أني أنا الكثير المغفرة لذنوبهم،الكثير الرحمة لهم،كما حكمت به علي نفسي... ثم إنه سبحانه لما أمر رسوله بأن يخبر عباده بهذه البشارة العظيمة،أمره بأن يذكر لهم شيئا مما يتضمن التخويف والتحذير حتي يجتمع الرجاء والخوف، ويتقابل التبشير والتحذير، ليكونوا راجين خائفين... وعندى أن جمع الله لعباده بين هذين الأمرين من التبشير والتحذير صاروا في حالة وسطا بين اليأس والرجاء، وخير الأمور أوساطها، وهي القيام علي قدمي الرجاء والخوف، وبين حالتي الأنس والهيبة.... وأخبرهم بما جرى علي إبراهيم من الأمر الذى اجتمع فيه له الرجاء والخوف، والتبشير الذى خالطه نوع من الوجل ليعتبروا بذلك ويعلموا أنها سنة الله سبحانه في عباده. وأيضا لما اشتملت القصة علي إنجاء المؤمنين وإهلاك الظالمين كان في ذلك تقريرا لكونه الغفور الرحيم وأن عذابه هو العذاب الأليم."[٢]

عبر ة التاريخ

لقد ذكرت قصة غواية إبليس في مكانين سابقين،أحدهما في سورة البقرة والأخرى في سورة الأعراف. وهنا نرجع إلي ما سبق أن بيناه في المقدمة من الحكمة من القصص القرآني. فليس المقصود منه تفاصيل السرد التاريخي فهذا لا تطيقه الأشجار إن جعلت أقلاما، والبحار إن كانت مدادا، وإنما المقصود العبرة من وراء هذه القصة.

نجد هذه القصة في سورة البقرة تبين طريق الأمة الوسط التي جعلها الله شاهدة علي الناس، وبيانه تعالي لآدم عليه السلام بعد أن غفر الله له وأهبطه إلي الأرض. وفي سورة الأعراف اهتم القرآن الكريم في عرض السورة ببيان قيم الدعاة في الحفاظ علي الفضيلة وستر العورات.

وفي هذه السورة يبين لنا القرآن الكريم علي ماسنرى أساليب الإغواء والتزيين التي يتسلل بها الشيطان إلي بني آدم ليضلهم عن سواء السبيل. وذلك في قوله تعالي علي لسانه: ﴿ **قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(٣٩)إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ**

---

(١) الألباني، صحيح الجامع الصغير ج ٢ ص٩٤٣.

(٢) الألباني، فتح القدير ج٣ ص ١٣٤.

الْمُخْلَصِينَ(٤٠)قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ(٤١)إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ(٤٢)وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ(٤٣)﴾

وخلق الله تعالي آدم وذريته بأمره وحكمته، وكتب عليهم الموت والحياة للقيام بخلافتهم، وتتابعت الأمم المتقدمة وتتوالي المتأخرة مختبرة في موقفها بالنسبة لرسالات الله. وتنتهي الحياة ويرث الله الأرض ومن عليها. ثم يحشر الناس للسؤال والجزاء.

ولقد خلق الله تعالي الملائكة من نور مهيأة علي طاعة الله، وخلق الجان من نار السموم، وخلق الإنسان من صلصال من حمإ مسنون وفضله بأن نفخ فيه من روحه. أى أنه يمكن أن يهبط إلي الطين فيعصي ويمكن أن يسمو إلي الروح فيطيع الله. وأمر الملائكة بالسجود له فسجدوا، وعصي إبليس فأبي أن يسجد كبرا بأنه خلق من نار وآدم من صلصال من حمإ مسنون،فقد أكل الحسد قلبه لما فضل به آدم عليه. فاستحق اللعنة والرجم إلي يوم يبعثون.

وهنا أعلن إبليس الحرب، وكان وسيلته إلي ذلك تزيين الدنيا،فجند جنده لإغواء البشر وإضلالهم،حتي يصبح الحق في عقولهم باطلا والصواب خطأ،فيتمرغون في الطين ويعصون رب العالمين.

وتفصل السورة حقيقة الرجاء والخوف في نماذج من التاريخ الإنساني وتاريخ الرسالات الإلهية. حيث يظهر مقام الرجاء حين بشرت الملائكة إبراهيم بالولد،فلما تعجب قالت له الملائكة:**﴿ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ(٥٥) قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ(٥٦)﴾**

ويظهر مقام التخويف في إنذار لوط وشعيب وصالح لقومهم،فقد مسخت نفوس قوم لوط فجعلهم إبليس يستمتعون بالخبيث من الفاحشة، ومسخت نفوس أصحاب الأيكة فظلموا رغم ماأنعم الله به عليهم من الثمار والزروع، ومسخت نفوس أصحاب الحجر فأمنوا مكر الله حين نحتوا من الجبال بيوتا، وبخسوا الناس أشياءهم وسعوا في الأرض مفسدين. فكانت العاقبة نزول الملائكة بعذاب الاستئصال الذى اجتثهم جميعا من علي ظهر الأرض.

فالعجب كل العجب من استعجال قريش لنزول الملائكة واستهزائهم بعذاب الله. وهنا تتجه السورة إلي تسلية رسول الله،فهذه سنن حدثت في الأمم السابقة،حيث كذبوا وأنكروا، واستهزأوا وتطاولوا،فلم يفلتوا من عذاب الله حين جاء أجلهم.

وأمر الله تعالي رسوله الكريم أن يعلن الحق عاليا، وأن ينذر المعاندين، وبشره أن أعظم نعم الدنيا هو القرآن الكريم الذى أنزله الله تعالي علي رسوله الأمين هدى ورحمة، وليس هناك مقام

شرف أو عطاء عظيم أكبر من هذا الشرف وهذا العطاء. وقد تعهد الله بحفظ كتابه ونصرة رسوله،فوعظه ألا يضيق صدره بما يقولون وألا يحزن علي ما يفعلون.

موضوع السورة

إن الأمر الإلهي بالصدع بالأمر يتبعه ردود أفعال عنيفة من قبل المستكبرين. ومن هنا يطمئن الله تعالي المؤمنين علي حفظه لكتابهم وكفايته لهم، وذلك كما حفظ الله السماء والأرض، وكما تكفل لهم بالرزق. فهو وحده المتصرف في الكون، وقد تكفل سبحانه بالرزق، وهو وحده الذى يحيي و يميت، وإليه الحشر والمصير. فالعبد المؤمن لا يرجو سواه ولا يخاف غيره.

يقول تعالي: ﴿**وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦) وحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ (١٧) إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ (١٨) والأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ (١٩) وجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ومَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (٢٠) وإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ ومَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢١) وأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ ومَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (٢٢) وإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي ونُمِيتُ ونَحْنُ الوَارِثُونَ (٢٣) ولَقَدْ عَلِمْنَا المُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ ولَقَدْ عَلِمْنَا المُسْتَأْخِرِينَ (٢٤) وإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٢٥)**﴾

وحسبنا نظرة إلي السماء ومافيها من نجوم وكواكب، وما يفصل بينها من آماد، ومايجرى فيها من نظام، وما يسرى فيها من سنن، وما يزينها من أشكال وأنوار.

" والمعني: حفظنا السماء من الشياطين أن تسمع شيئا من الوحي وغيره إلا من استرق السمع فإنها تتبعه الشهب فتقتله أو تخبله...فلا تصل أخبار السماء إلي غير الأنبياء. ولذلك انقطعت الكهانة."[1]

" في دقة علمية معجزة يكشف القرآن عن كنه الشهب، وهو مالم يدركه البشر إلا حديثا، وأنها تنتج عن حركة الأجسام المادية بسرعة خلال الغلاف الجوى للأرض..

كما أشار إلي الحقيقة الفلكية المذهلة وهي: أمتلاء الفضاء بالشهب إنه يقدر أن جو الأرض يدخله يوميا آلاف الملايين من الدقائق بسرعة قد تصل إلي ٢٧ كليو مترا في الثانية لشهب وزنها ١ ملليجرام، ولايمكن رؤيتها إلا بالتلسكوب، وسرعان مايتحول معظمها إلي

---

(١) الشوكاني، فتح القدير ج٣ ص ١٢٥-١٢٦.

بخار بالاحتكاك بالهواء. ومنها مايرى بالعين المجردة،كما يقدر مايسقط علـــي الأرض بعـــد احتراقه بمقدار ٢٥٠٠ كيلو جرام يوميا..

وقد كشف العلم الحديث قرائن مؤكدة علي أنه كان ثمة كوكب بين المريخ والمشترى،قد انفجر في زمان بعيد، وتفتت أشلاء لتسبح في الفضاء، وتصيب كواكب المجموعة الشمـــسية، ويعتقد أن هذه الأشلاء وغيرها مازالت مصدر الشهب. "(١)

و" من الثابت أن للجبال دورا بالغا في تثبيت القشرة الأرضية، وكبح مابداخلـــها مـــن مصهورات وأبخرة، وفي موازنة تأثير الوديان وقيعان المحيطات، ولولاهـــا لتعرضـــت الكـــرة الأرضية إلي اضطرابات لايعلم إلا الله مداها أو منتهاها.

ومن ناحية أخرى فإن دوران الأرض حول نفسها ثم دورانها حول الشمس في فلك مائل علي محور الأرض بكل ماتحمله الأرض من أثقال ومصهورات ومناطق اضطراب،هذا الدوران أيضا كان كفيلا ببث الاضطراب في هذا الكوكب لولا دور الجبال ككتل موزعة هنا وهناك علي امتداد القشرة الأرضية."(٢)

" و جميع الممكنات مقدورة له ومملوكة،يخرجها من العدم إلي الوجود كيفما شاء،إلا أنـــه تعالي وإن كانت مقدوراته غير متناهية إلا أن الذى يدخل منها إلي الوجود يجب أن يكـــون متناهيا، لأن دخول مالانهاية له في الوجود محال.

ومتي كان الخارج منها إلي الوجود متناهيا كان لامحالة مختصا في الحدوث بوقت مقدر،مع جواز حصوله قبل ذلك الوقت أو بعده بدلا عنه، وكان مختصا بحيز معين،مع جواز حـــصوله في سائر الأحياز بدلا من ذلك الحيز، وكان مختصا بصفات معينة،مع أنه كان يجوز في العقول حصول سائر الصفات بدلا من تلك الصفات، وإذا كان كذلك كان اختصاص تلك الأشياء المتناهية بذلك الوقت المعين والحيز المعين والصفات المعينة بدلا مع أضدادها لابد وأن يكـــون بتخصيص مخصص وقدير مقدر."(٣)

" وخواص المادة، علي أصغر نطاق وعلي الكون كله،تبدو ملائمة للحياة ملاءمـــة فـــذة، ولاتوجد هناك شواهد كثيرة علي ذلك فحسب،بل إن حدوث أدني زيـــادة أو نقـــصان في الكمية الثابتة يجعل من الحياة في كل حالة أمر مستحيلا."(٤)

---

(١) د. نبيل عبد السلام هارون، البرهان علي صدق تنزيل القرآن ص ٤٩-٥٠.

(٢) د. نبيل عبد السلام هارون، البرهان علي صدق تنزيل القرآن ٥٨-٥٩ دار النشر للجامعات ١٩٩٦م.

(٣) الرازى، مفاتيح الغيب، ج ١٨ ص ٤٠٨.

(٤) روبرت أغروس، جوردن ستانسيو، العلم في منظوره الجديد ص ٦٨ عالم المعرفة ١٣٤ في فبراير ١٩٨٩.

وقد تكفل سبحانه بحفظ الذكر. يقول تعالي: ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)**﴾قوله: **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**،رد علي المستخفين في قولهم: **يَا أَيُّهَا الَذي نُزِّلَ عَلَيْه الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ.... وإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**،عائد علي القرآن، والمعني: لحافظون من أن يبدل أو يغير كما جرى في سائر الكتب المترلة.

" و لم يحفظ تعالي كتابا من الكتب كذلك،بل استحفظها جل وعلا الربانيين والأحبار،فوقع فيها ماوقع. وتولي حفظ القرآن بنفسه سبحانه،فلم يزل محفوظا أولا وآخرا... ومن ذلك توفيق الصحابة رضي الله تعالي عنهم لجمعه."(١)

" وبقاء هذا الكتاب مصونا عن جميع جهات التحريف،مع أن دواعي الملحدة واليهود والنصارى متوفرة علي إبطاله وإفساده،من أعظم المعجزات. "(٢)

وتكفل سبحانه وتعالي بحماية عباده من إغواء الشيطان. يقول تعالي: ﴿ **قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (٤١) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الغَاوِينَ (٤٢)**﴾

وتكفل سبحانه بحماية رسوله من المستهزئين. يقول تعالي: ﴿**إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥)**﴾

ومن هنا يأمر سبحانه وتعالي رسوله بالجهر بالأمر كما أنزل الله تعالي،غير خائف ولا وجل،فالله معه،ناصره و كافيه.

يقول تعالي: ﴿ **كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ(٩٠)الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْءَانَ عِضِينَ(٩١)فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(٩٢)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ(٩٣)فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ(٩٤)إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ(٩٥)الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ(٩٦) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ(٩٧)فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ(٩٨)وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ(٩٩)**﴾

" قال ابن عباس: المقتسمون هم أهل الكتاب،الذين فرقوا دينهم وجعلوا كتاب الله أعضاء،آمنوا ببعض وكفروا ببعض." (٣)

---

(١) الألوسي، روح المعاني ج٧ ص ٢٦٣.

(٢) الرازى، مفاتيح الغيب ج ١٨ ص ٣٩٠.

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ج٥ ص ٣٦٨٠.

يحذر ربنا تعالي المسلمين أن يأخذوا ببعض الكتاب ويتركوا البعض، لأى سبب من الأسباب، ومنها مداراة المستكبرين،بل عليهم أن يأخذوا الكتاب بقوة، وليبلغوه كما أنزل علي محمد ﷺ، وأن يجهروا به بأعلي صوت معرضين عن المشركين.

"أى بلغ رسالة الله جميع الخلق لتقوم الحجة عليهم،فقد أمرك الله بذلك. والصدع: الشق، وتصدع القوم أى تفرقوا... أى أظهر دينك.. وفرق جمعهم وكلمتهم بأن تدعوهم إلي التوحيد،فإنهم يتفرقون بأن يجيب البعض...

وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ، أى عن الاهتمام باستهزائهم وعن المبالاة بقولهم،فقد برأك الله عما يقولون."[1]

" **الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ**،أى اتخذوا إلاها يعبدونه معه تعالي.. وفي وصفهم بذلك تسلية لرسول الله ﷺ وتهوين للخطب عليه ﷺ بالإشارة إلي أنهم لم يقتصروا علي الاستهزاء به بل اجترءوا علي العظيمة التي هي الإشراك به سبحانه. **فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ**،ما يأتون ويذرون وفيه من الوعيد مالايخفي.

وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ،من كلمات الشرك والاستهزاء... **فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ**،فافزع إلي ربك فيما نابك من ضيق الصدر بالتسبيح ملتبسا بحمده... وكن من المصلين،ففيه التعبير عن الكل بالجزء..

وفي أمره ﷺ بما ذكر إرشاد له إلي مايكشف به الغم الذى يجده."[2]

والداعية حين يصدع بالأمر لا بد أن يتصف بخلتان: الحلم والتواضع: **فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ – واخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ**.

" والصفح الجميل: هو ماخلا من عتاب... وكان عليه الصلاة والسلام قادر علي الانتقام منهم،فكأنه قيل: أعرض عنهم وتحمل أذيتهم ولاتعجل بالانتقام منهم وعاملهم معاملة الصفوح الحليم، وحاصل ذلك أمره ﷺ بمخالفتهم بخلق رضي وحلم وتأن بأن ينذرهم ويدعوهم إلي الله تعالي قبل القتال ثم يقاتلهم.... فربك يبلغك إلي غاية الكمال لك ولهم ولسائر الأشياء علي الإطلاق.. عليم بأحوالك وأحوالهم وبكل شئ فلايخفي عليه جل شأنه شئ مما جرى بينك وبينهم،فحقيق أن تكل الأمور إليه ليحكم بينكم."[3]

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ج٥ ص ٣٦٧٨.

(٢) الألوسي، روح المعاني ج ٧ ص ٢٣٨-٣٢٩.

(٣) الألوسي، روح المعاني ج٧ ص ٣٢٠-٣٢١.

و" اعلم أن الغضب شعلة من النار، وأن الإنسان يترع فيه عند الغضب عرق إلي الشيطان اللعين،حيث قال: **خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ**. فإن شأن الطين السكون والوقار، وشأن النار التلظي والاشتعال...

ومتي قويت نار الغضب والتهبت،أعمت صاحبها، وأصمته عن كل موعظة. لأن الغضب يرتفع إلي الدماغ فيغطي علي معادن الفكر، وربما تعدى إلي الحس،فتظلم عينه حتي لايرى بعينه...

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلا قال للنبي ﷺ: أوصني. قال:
(**لاتغضب**،فردد مرارا،قال: **لاتغضب**.)[1]

وينبغي أن يكظم المؤمن غيظه، لذلك يعظم عند الله تعالي... يقول رسول الله ﷺ:(**إنما العلم بالتعلم، وإنما الحلم بالتحلم، ومن يتحر الخير يعطه، ومن يتق الشر يوقه.**"[2]

قوله تعالي: ﴿ **وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ(٩٩)** ﴾

" اليقين: الموت،أمره بعبادته إذ قصر عباده في خدمته، وأن ذلك يجب عليه،فإن قيل: فما فائدة قوله: **حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ**، وكان قوله: **وَاعْبُدْ رَبَّكَ**، مطلقا ثم عبده مرة واحدة كان مطيعا، وإذا قال: **حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ**،كان معناه لاتفارق هذا حتي تموت... واليقين أبلغ من قوله: أبدا، لاحتمال لفظ الأبد للحظة الواحدة ولجميع الأبد."[3]

---

(١) رواه البخارى، صحيح الجامع الصغير ج٢ ص ١٢٣٠.

(٢) الألباني، صحيح الجامع الصغير ج١ ص ٤٦١.

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ج٥ ص ٣٨٦٠.

بين سورتي إبراهيم وسورة الحجر

" قال الإمام أبو جعفر بن الزبير في برهانه: لما تقدم من وعيد الكفار ما تضمنه الآي المختتم بها سورة إبراهيم من لدن قوله سبحانه: ﴿ ولا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غافلاً عمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فيه الأَبْصَارُ (٤٢)﴾ إلى خاتمتها،أعقب ذلك بقوله: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَذينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ (٢)﴾ أى عند مشاهدة تلك الأحوال الجلائل، ثم قال تعالى تأكيدا لذلك الوعيد فى سورة الحجر: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا ويَتَمَتَّعُوا ويُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٣)﴾ ثم أعقب تعالى هذا ببيان ما جعله سنة فى عباده من ارتباط الثواب والعقاب معجلة ومؤجلة بأوقات وأحيان لا انفكاك لها عنها، ولا تقدم ولا تأخر، إذ استعجال البطش في الغالب إنما يكون ممن يخاف الفوت، والعالم بجملتهم لله تعالى وفي قبضته، لا يفوته أحد منهم ولا يعجزه. وقال تعالى في سورة الحجر: ﴿ ومَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إلاَّ ولَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ (٤)﴾ وكأن هذا يزيد إيضاحا قوله عز وجل في سورة إبراهيم: ﴿ إنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ (٤٢)﴾ وقوله: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ والسَّمَوَاتُ﴾ وتأمل نزول قوله في سورة الحجر: ﴿ رُبَمَا يَوَدُّ الَذينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ (٢)﴾[1]

وفي سورة إبراهيم نجد مقام الرجاء والخوف في قوله تعالي:

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ(٦)﴾

وهو نفس المقام في سورة الحجر في قوله تعالي:

﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(٤٩)وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ(٥٠)﴾

---

(١) البقاعي، نظم الدرر ج ٤ ص ٢٠٤-٢٠٥.

الفهرس

الموضوع	الصفحة

خير أمة كما تخرجها سورة آل عمران

حقوق الإنسان وواجباته كما تقررها سورة النساء

حقوق الأمة وواجباتها من سورة المائدة

سنن الحضارات كما تبينها سورة الأنعام

الموضوع	الصفحة

حتي يغيروا ما بأنفسهم من سورة الرعد

القول الثابت كما تبينه سورة إبراهيم

الصدع بالأمر كما تبينه سورة الحجر

سيرة ذاتية

الاسم : يوسف كمال محمد يوسف

تاريخ الميلاد : ٩ يوليو ١٩٣٢ م .

المؤهلات : بكالوريوس تجارة ، قسم اقتصاد ، عام ١٩٥٥ بامتياز في التخصص

العمل :

- باحث بجامعة أم القري – كلية الشريعة – قسم الاقتصاد مـــن عـــام ١٩٨٠ الي ١٩٨٦.
- أستاذ الاقتصاد الإسلامي غير المتفرغ جامعة الإسكندرية سابقا .
- أستاذ الاقتصاد الإسلامي غير المتفرغ جامعة عين شمس حتي عام ١٩٩٩-٢٠٠٠م.

******

كتب للمؤلف : -

أولاً : الاقتصاد الإسلامي

١- أضواء علي الفكر الاقتصادي الإسلامي المعاصر – دار الأنصار سنه ١٤٠٠ هـــ .

٢- أصول الاقتصاد الإسلامي " بالاشتراك " –دار البيان جدة – ١٤٠٥ هـــ .

٣- الإسلام والمذاهب الاقتصادية المعاصرة –دار الوفاء –١٤٠٦ هـــ .

٤- الزكاة وترشيد التامين المعاصر – دار الوفاء – ١٤٠٦ هـــ .

٥- الإصلاح الاقتصادي في مصر رؤية إسلامية – دار الهداية –١٤١٢ هـــ .

٦- الاقتصاد الإسلامي بين فقه الشيعة وفقه السنة – دار الصحوة –١٤٠٨ هـــ .

٧- فقه اقتصاد السوق – دار النشر للجامعات المصرية –١٤١٢ هـــ .

٨- مصطلحات الفقه المالي المعاصر – معاملات السوق – المعهد العالمي للفكر الإســلامي القاهرة ١٤١٨ هـ .

٩- فقه الاقتصاد الإسلامي " النشاط الخاص " دار القلم -١٤٠٨ هـ .

١٠- فقه الاقتصاد النقدي " النقود – البنوك – البورصات " دار القلم ١٤٢٢ هـ .

١١- فقه الاقتصاد العام " المشروع المالي الإسلامي " دار القلم ١٤٢٤هـ .

١٢- أسس الاقتصاد الإسلامي –دار التوزيع والنشر الإسلامي – ١٤٢١ هـ .

١٣- المصرفية الإسلامية

جزء ١- الأساس الفكري .

جزء ٢-الأزمة والمخرج.

جزء ٣-السياسة النقدية دار النشر للجامعات ١٤١٨هـ .

١٤. Rationalization of Contemporary Insurance, International Association of Islamic Banking "Unpublished"١٩٧٦,

١٥. Principals of Islamic Economic System, Egyptian Universities Publishing co.1996.

ثانياً : الأعمال الفكرية

١- مستقبل الحضارة ، دار المختار ، ١٤٠٦ هـ . ، دار الوفاء ، طبعة ثانية ١٤٠٨هـ.

٢- منهج المعرفة من القرآن ، دار الوفاء ، ١٤٠٦ هـ .

٣- العصريون معتزلة اليوم ، دار الوفاء ، ١٤٠٦ هـ .

ثالثاً: التفسير (من أنوار القران الكريم)

١- النظام الاجتماعي والاقتصادي للأمة (من سورة البقرة)،دار القلم ١٤٢٢ هـ .

٢- الأساس الاخلاقي للأمة (من ســورة- آل عمــران)، دار القلــم ، الطبعــة الثانيــة ١٤٢٢هـ.

٣- الحقوق والواجبات (من سورة النساء)، دار القلم ، الطبعة الأولى ١٤٢١ هـ .

٤- حقوق الأمة وواجباتها (من سو رة المائدة)، دار القلم ، الطبعة الأولى ١٤٢١ هـ .

٥- سنن الحضارات كما تبينها سورة الأنعام، دار القلم ، الطبعة الأولى ١٤٢١ هـ .

٦- مسيرة التاريخ كما تبينه سورة الأعراف، دار القلم ، الطبعة الأولى ١٤٢١ هـ.

٧- العلاقات الدولية (الولاء والبراء) كما تبينه سورتي الأنفال والتوبة، دار القلم ، الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ .

٨- منهج ا لتربية الاجتماعية للأمة المسلمة كما يبينه الثلث الثاني من القرآن العظيم دار القلم ، الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ.

٩- الصبر والثبات كما تبينه السور من يوسف حتى الحجر دار القلم ، ١٤٢٢ هـ .

١٠- الإحسان كما تبينه سور النحل والإسراء والكهف، دار القلم ، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ .

١١- الرحمة كما تبينه السور من مريم إلى الأنبياء، دار القلم ، الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ .

١٢- العفة كما تبينها سور الحج والمؤمنون والنور والفرقان، دار القلم ، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ .

١٣- الإصلاح -الأمانة فى التبليغ- العلم النافع- العمل الصالح في سور الشعراء والنمل والقصص، دار القلم ، الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ .

١٤- منهج التربية النفسية للمسلم كما يبينه الثلث الأخير من القرآن العظيم ، دار القلم ، الطبعة الأولى ١٤٢٣ هـ .

١٥- زاد معية الله كما تبينه السور من الأحزاب إلي ص ، دار القلم ، الطبعة الأولى ١٤٢٣ هـ .

١٦- الدين الخالص. "لا إله إلا الله " كما تبينه السور من الزمر إلى الزخرف ، دار القلم ، الطبعة ا لأولى ١٤٢٣هـ.

١٧- الدين الخالص(محمد رسول الله) من سورة الدخان إلى الحجرات، دار القلم ، الطبعة الأولى ١٤٢٣ هـ .

١٨- مقتضيات الإيمان: "حق اليقين " كما تبينه السور من ق إلى الواقعـــة، دار القلـــم ، الطبعة الأولى ١٤٢٣ هـــ .

١٩- مقتـــضيات الإيمان: "الإنفاق في سبيل الله، كما تبينه السور من الحديد إلى المعارج، دار القلم ، الطبعة الأولى ١٤٢٣ هـــ .

٢٠- اليوم الموعود. (١) عاقبة الطغيان. كما تبينه السور من نوح إلى عبس، دار القلـــم ، الطبعة الأ ولى ١٤٢٣ هـــ .

٢١- اليوم الموعود: (٢) التواصي بالمرحمة كما تبينه السور من التكوير إلى الناس دار القلم، الطبعة الأولى ١٤٢٤ هـ .

www.yusufkamal.com

